مكة المكرمة
مهبط الوحى

* * *

أحمد الشنوانى

مقدمة الكتاب

مقدمة الكتاب

مكة المكرمة..

فى هذه البقعة الطاهرة التى تهفو إليها قلوب ملايين المسلمين.وفى هذه المدينة المباركة التى لم تحظ مدينة بمثل قداستها، وبمثل ما كرمها به الله سبحانه وتعالى.. يحتاج المرء فيض من المشاعر النورانية والأحاسيس السامية، التى تقصر أى كلمات مهما أوتيت من بلاغة عن التعبير عنها.. فهنا.. على هذه الأرض الطيبة الطاهرة، صيغ مستقبل الإنسانية وأرسيت قواعد أنبل وأعظم ثورة إنسانية لهداية البشرية وتوجيه مسارها إلى طريق الحق والعدل والخير..

سلمت يا مكة..

إن تاريخاً جليلاً رائعاً يتراءى للمرء وتتوالى صـــوره على خاطره.. وهو يقف فى رحاب أم القرى، ينشـــق عطر الماضى الحافل بنضال الإنسان من أجل كل ما هو طيب وخير وشريف.

سلمت يا مكة..

فأنت البلد الذى شـــهد أروع ملتقى لأبى الأنبياء إبراهيم وابنه إســماعيل عليهما الســلام وأم إســماعيل هاجر عليها الســــلام فكان بيتك المحرم.. إن هذا اللقاء أصــــبح الأنموذج الأمثل للحجيج القاصــــدين إلى بيتك المحرم منذ أن رفع النبيان الكريمان إبراهيم وإسماعيل، القواعد من هذا البيت ليكون مثابة للناس وأمناً.

سلمت يا مكة..

البلد الأمين الآمن.. موطن القداسة وموئل الإجلال.. اختارك الله سبحانه وتعالى من بين بقاع الأرض لتكونى قبلة المسلمين وملتقى أفئدتهم ومهدى أرواحهم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ {الحج/٢٦}

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ {البقرة/١٢٧}

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ {الحج/٢٧}

ويتصـــــاعد النداء. ويملؤ الأجواء..تتلقاه الأرواح وتحتضــــنه الأنفس.. تتوق إلى نقطة هذا النداء المتصـــــاعد وتهفوا إليه،وتسعى إليه، بل تهرول إليه، بل تسبق كل شىء إليه.

سلمت يا مكة..

ذات البهاء والنضارة يرتحل إليك المسلم المؤمن الموقن روحاً وجسداً، فهنا يطيب المؤمن نفساً، ويهدأ بالاً، وينعم روحاً.. ويهيم بك حباً.

سلمت يا مكة..

ترحل أرواح المسلمين مرات تلو مرات فى صلواتهم ودعواتهم، فى ابتهالاتهم ومناجاتهم، فهم يقبلونك روحاً، وينظرونك وجداً.. ومن على البعد تطلين ـ يا مكة ـ فى حدقات عيونهم.

سلمت يا مكة..

البلد الحرام الذى اختاره الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفى رؤوسهم متجردين من لباس أهل الدنيا..وجعله حرماً أمناً.. جعل قصده مكفراً لما سلفه من الذنوب، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا.

سلمت يا مكة..

"والله إنك لخير أرض الله إلىّ، وأحب أرض الله إلى الله".

صدقت يا سيدى يا رسول الله هى أحب أرض الله إلى الله.. بقعة مباركة، وحرم آمن.. وهكذا جعلتها حكمة الحق سبحانه..

وبعد...

فإن هذا الكتاب الذى بين يديك – عزيزى القارئ – يتناول فترة من أهم فترات تاريخ العرب والإسلام، بل هى أهم فترات هذا التاريخ، إذ تمثل القاعدة التى تقوم عليها دراسة التاريخ الإسلامى، وبدون دراستها دراسة علمية صحيحة لا يمكن الإلمام بأحداث التاريخ الإسلامى وفهم تطوراته فهماً صحيحاً.

إن وصف عصر النبى ﷺ وتصوير البيئة التى نشأ فيها، وقامت فيها النهضة العربية الإسلامية، أمر له من الخطورة العظيمة فى تاريخ العرب والإسلام ما يستحق الاهتمام الكبير، فبيئة ظهر فيه النبى ﷺ، وقام فيها برسالته العظيمة، وتوطدت فيها الديانة الإسلامية، بما فيها من قواعد ونظم كان لها أعظم الأثر فى حياة العالم كله، وبيئة اندفع منها العرب إلى العالم المتمدن، فاستطاعوا أن يقوضوا سلطان أكبر إمبراطوريتين كانتا تتحكمان فى العالم يومئذ، وتسيطران على مقدراته، وبيئة خرج منها عباقرة القواد ونوابغ الساسة والحكام، هذه البيئة جديرة بأن تفرد لها البحوث ويتخصص لدراستها المتخصصون.

ومع الأهمية العظيمة لهذه الفترة،فإنها لم تحظ بالعناية الكافية من المؤرخين وظلت تدرس على هامش الدراسات الإسلامية!!

فالذين كتبوا السيرة النبوية قديماً لم يهتموا إلا بذكر ماله علاقة بالنبى ﷺ نفسه من نسب وأسرة وقبيلة.. وقلما تطرقوا إلى ذكر شئ مما كان عليه عصره وبيئته من حالات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية، يستطيع المرء أن يقف منها على صورة وافية لما كانت عليه الحالة فى عصر النبى ﷺ، وما كانت عليه الأحوال فى مدينة مكة التى ولد فيها وقضى أكثر سنى بعثته، والتى كانت بذاتها مركز النواة من النهضة العربية الإسلامية التى أخذت تباشيرها تظهر فى أواخر العصر الجاهلى ثم توجها ظهور الإسلام.

وقد كتب كثير من المستشرقين عن ذلك العصر فى سياق ما كتبوا عن حياة النبى ﷺ فى مكة

وظهر الإسلام فيها، غير أن للمستشرقين طرق فى البحث والاستنباط قد تجعل الكثيرين منهم يتحكمون تحكماً فى الآراء والنتائج ويقعون فى أوهام وأغلاط خطيرة، فوق أنهم استندوا أصلاً إلى المصادر العربية القديمة وما فيها من المآخذ، ولم تكن لهم القدرة اللغوية على تمحيص ما بها تمحيصاً صحيحاً. كما أن بعضهم قد كتب فى تاريخ الإسلام لغرض معين، فكتب ما كتب بدافع الهوى، وأحياناً بدافع الحقد، فتورطوا فى بحوثهم، وخرجوا بها عن جادة العلم والبحث والأمانة.

لكل ما سبق كان أمراً ضرورياً أن يقوم الباحثين بدراسة علمية لهذه الفترة، وبخاصة تاريخ مكة المكرمة فى العصر الجاهلى وعهد الرسول ﷺ حتى تسد هذه الثغرة فى الدراسات العربية والإسلامية.

وإذا كنا نريد ان ندرس تاريخ مكة فى أواخر العصر الجاهلى وبداية ظهور الإسلام فيها – دراسة موثقة صحيحة فعلينا أن ندرسها فى نص لا سبيل إلى الشك فى صحته على أن يكون مرآة صادقة لهذا العصر، وليس هناك مصدر ثابت لا سبيل إلى الشك فيه غير القرآن الكريم، فضلاً عن أنه أصدق مرآة للعصر الجاهلى ولحياة الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية نفسها، فقد عرض القرآن الكريم للحياة العربية التى تتمثل فى تاريخ مكة من جوانبها: الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا يمكن أن يكون كتاب أوفى من القرآن الكريم وأوضح فى تصوير هذه الفترة من تاريخ مكة المكرمة.

والمصدر الثانى الذى اعتمدنا عليه بعد القرآن الكريم هو الحديث النبوى الشريف الصحيح حيث أن أحاديث النبى ﷺ قد تناولت الحياة التى كانت جارية فى ذلك الوقت، وعرضت لكل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فأقرت ما رأته صالحاً وعدلت ما يستقيم بالتعديل، ونهت عما رأته ضاراً.

وإذا كنا قد أخذنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة مصدرين أساسيين لبحث هذه الفترة من تاريخ مكة المكرمة والتى هى بداية تاريخ ظهور الإسلام – فإننا لمن نهمل المصادر الأخرى من شعر وتاريخ وتراجم وأنساب لكل ما ذكر للحياة فى مجتمع مكة وذلك لتكوين الصورة التى نرسمها لتاريخ مكة صادقة وواضحة بشرط ألا يناقض ما نأخذه منها ما ذكر فى المصدرين الأساسيين.

وكان لزاماً علنيا ونحن نكتب عن تاريخ مكة المكرمة من جميع جوانبه، ألا نغفل أن هذه المدينة المباركة هى التى اختارها الله لتكون بجوار بيته المحرم، فكتبنا عن البيت الحرام وتاريخه والكعبة المشـــرفة وعمارتها عبر العصور وأسمائها وأوصافها وسُدنتها ومعالمها الرئيسية – حجر إسماعيل والحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم – وأيضـــاً عن شـــعيرة الحج وأثرها فى نهضـــة مكة المكرمة وأشـــهر رحلات الحج إلى البيت الحرام.. إلى مكة المكرمة مهبط الوحى.

سلمت يا مكة.. سلمت يا مكة

وبين يديك – عزيزى القارئ - هذا الكتاب "مكة المكرمة مهبط الوحى".. إليك وبين يديك خطت أحرف كلماته فكلها حول كعبتك تطوف، وعند المقام تصـــلى، وفى مســـعاك تصـــعد المروتين ومن زمزم ترتوى، وفى رحابك الطاهرة تدندن حباً وتذرف الدمع شـوقاً.. وتصـــطرع الكلمات فى ســـباقها إليك مكة الخير، فإليك يا مهبط الوحى نهديه ابتهالاً وتضرعاً ورجاء إلى الله فى رحابك المقدسة..

وأحســـب أننى حين التزمت بالقيام بهذا البحث – الذى أقدمه لك عزيزى القارئ – فى هذا الكتاب – قد بذلت ما فى قدرتى من طاقة، وأعطيته ما يتناســـب مع أهمية البلد الأمين من جهد ووقت، وكل أملى أن أكون قد فتحت به باباً لدراسة تاريخ هذه المدينة المباركة

وما أردت إلا الخير وعلى الله قصد السبيل

والله أسأل أن ينفع به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم

والحمد لله حمد الشاكرين

المؤلف

أحمد الشنوانى

مكة المكرمة – القاهرة

شعبان ١٤٢٦هـ – أكتوبر ٢٠٠٥م

المحتوى

دراسة تمهيدية عن حالة العرب قبل الإسلام

دراسة تمهيدية عن حالة العرب قبل الإسلام

إن تـاريخ العرب فى الجـاهليـة يحيط بـه كثير من الغموض والخفـاء فلا نعرف منـه إلا النذر اليســير، والســبب الأصــيل فى ذلك يرجع إلى أنهم كانوا قوماً أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وكل اعتمادهم على الذاكرة فى حفظ أشـعارهم ورواية أخبارهم، ومعرفة أنسـابهم، ولا شـك أن الذاكرة لا تفى بكل ما يجب أن يدون، كما أنها قد تنســى فيغيب عنها الكثير مما يجب أن يعرف ولو أنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة لســجلوا كل شــئ يتصــل بحياتهم، وحينئذ كنا نعلم أشياء وأشياء لا نزال نجهلها.

حقيقة كشـف الباحثون من المنقبين عن آثار فى بلاد اليمن. وفى شـمال شـبه الجزيرة العربية وقرأوا ما عليها من كتابات، ولكن على الرغم من ذلك فلا تزال معالمه غير واضــحة، والحقيقة التاريخية بعيدة كل البعد عن المؤرخ حين يتصدى للكتابة عن هذه الفترة، ذلك لأن ما تم من الكشوف لم يكن كافياً، وإن كان قد وضع أيدينا على تاريخ لدول عربية كنا فى حاجة إلى المزيد من معرفتها، أما الجزء الأكبرمن تاريخ وسـط شـبه الجزيرة وأطرافها فهو لا يزال مطمورا ومسـتورا تحت الرمال، ومن يدرى. لعل هناك معالم لحضــارات ومدنيات تتســامى فى عظمتها إلى حضــارة الدول القديمة ذات التاريخ المشـرق.. ولم لا يكون كذلك؟ ألم يتصـل نسـبهم بالآشـوريين والبابليين والفينيقيين، وهؤلاء جميعاً كانت لهم حضارات لا تزال قائمة شامخة على مدى الدهر.

وإذا كان تاريخ العرب قبل الإسـلام على نحو ما أشـرت، إلا أن هناك مصــادر نسـتطيع من خلالها رسـم صـورة لنواحى حياتهم المختلفة. أهمها:-

١- <u>الكتب المقدســة</u>:- مثل التوراة. ففيها كثير عن تاريخ العرب، خاصــة قصــة سـيدنا "إبراهيم وابنه إسـماعيل، عليهما الســلام، وذكر الملكة "بلقيس" إلا أن قراءتها تحتاج إلى شــئ من الحذر والحيطه. والقرآن الكريم، وهو أصـدق المصــادر وأوثقها. لأن الله تبارك وتعالى حفظه من التغيير والتبديل، قال الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ {الحجر/٩} بخلاف التوارة وشروحها فقد امتدت إليها يد التحريف مما يجعل الاعتماد عليها غير مأمون.

٢- <u>مؤرخو اليونان والرومان</u>:- مثل "هيرودوت" المتوفى فى القرن الخامس قبل الميلاد "واسـترابون" المتوفى فى القرن الأول الميلادى "وبطليموس" الجغرافى المتوفى فى القرن الثـانى الميلادى. تحـدث هؤلاء جميعـاً عن العرب وقبائلها.

٣- <u>النقوش الأثرية</u>: مثل آثار الجنوب، وآثار الشـمال، والآثار خارج شـبه الجزيرة العربية، مثل آثار "بابل" فقد عثر العلماء فيها على نقوش بالخط المسمارى تشير إلى دول حكمت "بابل" قيل إنها عربية.

٤- **<u>المستشرقون:</u>** وهم علماء من أوربا عكفوا على دراسة اللغة العربية وتاريخ الشرق، والرجوع إلى كتبهم يحتاج إلى وقفة هادئة ومناقشة علمية هادفة من أجل الكشف على الحقيقة العلمية، لأن الإنسان قلما يكون بعيداً عن التعصب الجنسى أو الدينى، وشرط الوصول إلى المعرفة هو التخلص من المؤثرات.

٥- **الأدب العربى:** اعتمد مؤرخو العرب فى رواية تاريخ العصور السابقة على الإسلام على نثر وشعر العرب، الذى تناول كثيراً من مظاهر حياتهم، إلا أن العيب فيه أنه لم يكن مكتوباً، وإنما تناقلوه مشافهة كما أضافوا عليه الكثير من المبالغات والخيالات – وبعض الأساطير.

هذه أهم ينابيع التاريخ العربى قبل الإسلام، وهى كما رأيت لا تزال فى حاجة إلى دعم، حتى نستطيع أن نصل إلى حقيقة ذلك التاريخ.

أما مصادر تاريخهم بعد الإسلام فهى والحمد لله كثيره، وقد بلغت من الدقة وتحرى الحقائق ما يجعلنا نفخر بها ونعتمد عليها إلى حد كبير.

وفى ضوء ما تقدم، وفى حدود هذه الإمكانيات نقول:-

إن العرب أمة قديمة ترجع فى أصلها إلى الجنس السامى الذى تفرع عنه الكلدانيون. والآشوريون. والكنعانيون. وسائر الأمم السامية التى سكنت بين النهرين وفلسطين، وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة وقيل سموا عرباً لأنهم لم يزالوا معروفين بين الأمم بالإعراب وهو البيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق – أو سموا عرباً نسبة إلى يعرب بن قحطان جد العرب العاربه. فإنه أول من نطق باللغة العربية الفصحى. وأخذها عنه أهل اليمن.

ويكاد الإجماع ينعقد بين جمهور المؤرخين على أن سكان بلاد العرب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام كبرى وهى:-

١- العرب البائده.

٢- العرب العاربه.

٣- العرب المستعربه.

(١) فالعرب البائده، هم القبائل التى محيت آثارها. ولم يصلنا من أخبارهم إلا النذر اليسير. وقد انفرد "القرآن الكريم" بذكر قبيلة "عاد" التى كانت تسكن بالأحقاف، فى شمال "حضر موت" باليمن، وذكر نبيها "هود" عليه السلام

وأيضاً قوم ثمود وهم قوم صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون بالحجر "وهن المكان المعروف الآن "بمدائن صالح" على الطريق بين المدينة والشام وهى إلى المدينة أقرب، وقد ذكر القرآن الكريم خبرهم مع "صالح" عليه السلام.

هذا بالإضافة إلى ما كشفه البحث والتنقيب عن كتابات عرفت بالخط الثمودى، ولا يزال البحث يكشف لنا عن حضارتهم العلمية والفنية.

(٢) العرب العاربه أو القحطانية أو عرب الجنوب: وقد يطلق عليها اسم العرب اليمنيه، أو السبئيه، نسبة إلى أشهر دولها "سبأ" ولكنها أشهر ما توصف به هو القحطانية، نسبة إلى جدها الأول "قحطان" وكانوا يقيمون فى بلاد اليمن، ولكنهم لما تناسلوا وكثرت ذريتهم على مر السنين تفرقوا فى أنحاء شبه الجزيرة العربية؛ فكانت "سبأ وحمير" باليمن، "وجرهم" فى مكة إلى القرن الثانى الميلادى "وخزاعة" فى مكة منذ القرن الثانى الميلادى إلى القرن الخامس. وكانت "الأوس والخزرج" فى يثرب. وهم الذين صاروا بعد الهجرة النبوية أنصار رسول الله ﷺ

(٣) العرب المستعربه – أو العدنانيه – أو عرب الشمال: ويقال لهم الإسماعيلية لأنهم يرجعون فى نسبهم إلى "إسماعيل" عليه السلام.

ونشأ إسماعيل عليه السلام بين هؤلاء اليمنية (وخاصة قبيلةجرهم) وتزوج منهم وعلى مر الزمن تكاثر أبناؤه وانتشروا بالحجاز ونجد وما وراء ذلك من مشارف الشام والعراق، غير أنه بقيت منهم بمكة قبيلة كان لها فيما بعد شأن عظيم. تلك هى قبيلة قريش.

إمارة قريش بمكة

– بقى أمر مكة بأيدى ملوك من جرهم. وكان لبنى إسماعيل مكانة محترمة لما لأبيهم من بناء الكعبة، ولكن لم يكن لهم من الحكم شئ فلما كان حادث سد مأرب وارتحال القبائل اليمنية من ديارهم كان منها عرّج على مكة وهم بنوا خزاعة الأزديون فحاربوا جرها وأجلوها عن مكة واستبدوا بحكم مكة دون قريش حتى ظهر قصىّ بن كلاب حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى فجمع شتات قريش ووحد كلمتهم فكان لهم بذلك قوة مكنتهم من أن يزاحموا خزاعة ويغلبوها على حكم مكة، ولم يبق بأيديهم غير سدانة البيت الحرام فاشتراها قصىّ بزق خمر من سادنه المعروف بأبى غبشان وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله:

باعت حزاعة بيت الله إذ سكرت   بزق خمر فبئست صفقة الشارى.

وبذلك أصبح قصىّ سيد مكة والمتولى شؤون الكعبة التى كانت تحج إليها العرب من جميع أنحاء الجزيرة فكان له من مظاهر الرياسة:

(١) رياسة دار الندوة التى أنشأها بمكة وكانت تجتمع فيها قريش للفصل فى أمورها العظيمة.

(٢) اللواء فكان لا تعقد راية الحرب إلا بيده.

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة فلا يفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها.

(٤) سقاية الحاج ورفادته.

وكان لقصىّ من الولد، عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وكان عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار وكان أسنّ منه، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فلم ينازغ عبد مناف أخاه فى ذلك، ولما توفى ترك أربعة أولاد، هاشما، وعبد شمس، والمطلب، ونوفلا، فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرتهم،

وافترقت قريش طائفتين، طائفة تنتصر لبنى عبد مناف وطائفة تنتصر لبنى عبد الدار وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الفريقين وهو اقتسام هذه المصالح، فكان لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فى نصيبهم فأصابت القرعة هاشم بن عبد مناف.

وهاشم بن عبد مناف فيما يروى أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء وكانت إلى اليمن ورحلة الصيف وكانت إلى الشام قصد الإتجار، وربما كان ذلك على أثر المعاهدات التى أبرمتها قريش على أيدى بنى عبد مناف مع من بجوارها من الملوك. روى الطبرى فى تاريخه أن بنى عبد مناف أول من أخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم. أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشى الأكبر، فاختلفوا لذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير فاختلفوا بذلك إلى اليمن، وقد امتن الله على قريش بهاتين الرحلتين فى قوله: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

(قريش١/٢/٣//٤)

فما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب ثم من بعده ابنه عبد المطلب فى السقاية والرفادة، وقد رزق عبد المطلب عشرة أبناء كان أحدهم عبد الله الذى ولد له النبى محمد "ﷺ" عام الفيل.

ولقد ظل عرب الشمال (الحجاز) على بداوتهم فترة من الزمان بسبب طبيعة إقليمهم إلا أننا نستطيع أن نقول فى إيمان: إن عنوان الحضارة العربية فيما بعد كتب فى الحجاز تم تردد صداها خارج الجزيرة العربية حتى عمت العالمين.

حالة المجتمع العربى قبل الإسلام من النواحى السياسية والاجتماعية والدينية:-

من الناحية السياسية:-

إن أقدم أقسام بلاد العرب السياسية فى العصر الجاهلى "مملكة اليمن" وكانت عبارة عن مجموعة أقسام سياسية عديدة تسمى "المخاليف" ومخلاف "صنعاء" أهمها وأقواها وأخصبها ورؤساؤه يدعون بالملوك، وقد يقوى من بينهم حاكم فيوسع سلطانه على حساب جيرانه بما يستطيع من قوة.

أما بقية شبه الجزيرة العربية فلم يكن لهم حكومة مشابهة لأى نوع من الحكومات التى نعرفها الآن، ولا حتى الحكومات التى كانت تعاصرهم، فلم يكن لهم سلطان مركزى موحد يستمدون منه السلطة والقوة والقانون، أو حكومة تقبض على زمام الحكم كله، كذلك لم يكن لهم جيش موحد للوقوف فى جبهة واحدة أمام عدو مشترك – أو هيئة قضائية تتولى الفصل بين المتخاصمين، وإنما كانت قبائل كل منها مستقل عن الآخر تمام الاستقلال. وكأن كل قبيلة حكومة مستقلة فى جميع مظاهر حياتها، فلها رئيس يختاره أفراد القبيلة ممن تتوفر فيه شروط الرياسة، التى من أهمها – رجاحة العقل - والجاه – والدهاء – وحسن السياسة، والنفوذ – وكثرة المال – والسن – وغير ذلك من الشروط التى لابد منها للرياسة، وهذا الاختيار كان يتم بطريقة ديمقراطية سليمة، وفى ظل ذلك النظام القبلى كان على رئيس القبيلة أن يتولى تدبير شئونها سياسياً واقتصادياً وحربياً، والأمير البدوى مع سلطته المطلقة قلما يستبد فى أحكامه، وغالباً ما يستشير بطانته وخاصته كما أنه لم يكن يحتجب عن أحد، ولا يحتقر أحد، يجالس الناس ويخالطهم – وهم لا يعرفون ألقاب التعظيم، ولا صفات التملق، فإذا خاطب البدوى الأمير ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس، وإباء الضيم وأنفة العربى. هذا هو شأن العرب الرحل.

أما فى الحضر مثل "مكة" فكانت الرياسة فيها لسادن "الكعبة" من قريش، وصارت السيادة والحكومة فيهم ولعلها كانت تشبه القضاء بحيث يحتكم إليها القرشيون فيما يقع بينهم من خصومات ويرجعون إليها فى مهام الأمور.

وخلاصة القول، أن العرب فى الجاهلية لم تكن لهم دولة موحدة تجمع شملهم فى مختلف البقاع، وتتولى تنظيم شئونهم المختلفة – ولم يكن هناك مجتمع عربى متماسك ومتحد، وإنما كانت توجد – كما قدمنا – بعض الممالك فى اليمن – كما وجدت مملكة الغساسنه على أطراف الشام، ومملكة الحيرة أو اللخميين على مشارف العراق – وفى الحجاز نشأت مدن أهمها وأكبرها "مكة والطائف، والمدينة (يثرب)" ولكل منها حياتها السياسية الخاصة بها، وما عدا ذلك كانت عرب الجاهلية منقسمون إلى قبائل كل قبيلة وحدة سياسية ووحدة اجتماعية.

وإن حرمان العرب من سلطان مركزى موحد يتجه الشعب إليه ويرتبط به، ويستمد منه القوة. كان له كبير الأثر فى حياتها الاجتماعية، ذلك أن الحكومة من أهم عوامل تدعيم المجتمع وتماسكه، ونشر لواء السلم بين أفراده ولكن واقع بلاد العرب كان عبارة عن مناطق نفوذ عديدة. ووحدات سياسية مستقلة ومنفصلة، تأبى أن تخضع لغيرها، لأنها تعتز بقبيلتها، وتبيع حياتها من أجل الذود عن حياتها، فكانت الفرقة، وكان الانقسام. وكانت العصبية القبلية التى قضى عليها الإسلام بعنف لتكون الوحدة والقوة والحياة الحرة الكريمة.

من الناحية الاجتماعية:

وهى تشتمل على حالة المجتمع الذى كان يعيش فيه العرب. وعلى العلاقات المتبادلة بين أفراده.

فأما المجتمع الذى كان يعيش فيه العرب خاصــة البدوى منهم، فهو مجتمع قبلى، كل قبيلة لها سيادتها الكاملة عن غيرها، مما كان له أكبر الأثر فى إضـــعاف كيانه وانحلال عراه وتفكك أوصـــاله، وتأخره عن مســـايرة الأمم الأخرى – كما كان النظام الطبقى سائدا بينهم. طبقة الساده يتمتعون بحق التملك، والتصرف والأمر والنهى فيما دونهم من الطبقة الثانية. وهى طبقة العبيد الذين يمثلون الطبقة العاملة ويتحملون كل الواجبات – وليســت لهم حقوق، بل يباعون ويشترون، وإذا ضاق أسيادهم بهم ذرعاً أذاقوهم العذاب ألواناً، وقد ظلوا كذلك حتى خلصهم الإسلام من بغى سادتهم، وحول المجتمع إلى أسرة كريمة لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وكان أكثر اعتمادهم فى معيشتهم على الإبل يشربون من ألبانها ويأكلون لحومها ويلبسون أوبارها سرابيل تقيهم الحر والبرد، ويصنعون منها الخيام التى يأوون إليها من قيظ الحر وشدة البرد.

والبدو مع خشونة طبائعهم، فيهم رقة إحساس، وقوة إدراك، يترفعون عن الإهانة. راضون بما هم عليه من حياة، وهم مع ذلك كرماء يجودون بما تحت أيديهم، لأن نفوســـهم مطبوعة على حب الكرم، كما هى مفطورة على الشجاعة والشمم.

أما مجتمع الحضر سكان المدن مثل مكة والطائف. ويثرب. وصنعاء. وعدن. وغيرها فكانوا، يعيشون فى خفض من العيش على ما تدره عليهم تجارتهم، وما يصـــل إلى أيديهم من أموال، ثم هم يتفقون مع البدو فى الصـــفات الأخرى – الكرم والشجاعة والإباء وغيرها.

ومن مظاهر حياتهم الاجتماعية الوفاء بالوعد، وكراهية الغدر – وهذا على الرغم من أن العربى من السهل عليه أن يتيه فى صـــحراء الجزيرة، فالمهرب أمامه واســع وليس هناك حكومة أو ســـلطان يرهبه. اللهم إلا ســـلطان الضمير، والوازع النفسى الإنسانى الذى يمنعه من الغدر ويحمله على الوفاء بالعهد. ولو كان فى ذلك قتله أو قتل ولده الوحيد.

وكما كان للعرب فى الجاهلية عادات طيبة عمل الإســلام على تنميتها ودعا إلى التخلق بها، كان لهم كذلك عادات اجتماعية سيئة حاربها الإسلام وقضى عليها مثل، الغضب لأوهى الأسباب – وشرب الخمر ولعب الميسر لما فيهما من الإضرار بالعقل والجسم معاً وغير ذلك من العادات المنكره.

ومن مظاهر حياتهم الاجتماعية – علومهم ومعارفهم:

للعلوم والمعارف أثر كبير فى حياة المجتمع، فإذا انتشر العلم فى أمة ارتفعت وسمت وحلقت فى جو المعالى، أما إذا فشا فيها الجهل كانت أبعد ما تكون عن الرقى، وأقرب إلى الانحطاط، فأساس الرقى العلم، لأنه ينير الطريق، ويربى الملكات للنظر والإختراع.

والتعليم فى بلاد العرب لم يكن منتشراً، بل يكاد يكون معدوماً لإنصراف أكثرهم إلى تربية أنعامهم فى بلاد قليلة المياه، كثيرة الصحارى والجبال، فنشأ العرب على ما تقتضيه حياتهم من أسباب الرزق والرحيل فى طلب المرعى من مكان إلى آخر.

فنحن إذا نظرنا إلى العرب فى العصر الجاهلى نستطيع أن نقول عنهم إنهم قوم أميون، ولكنهم مع هذا أهل ذكاء وتعقل، وأعتقد أنهم لو سكنوا فى وادى الفرات أو النيل لكان لهم ما للعراق ومصر، وقد نبغ العرب فى معرفة الأشياء التى يحتاجون إليها فى بيئتهم الصحراوية، ولهم فى ذلك علوم خاصة بهم.

فالعلوم التى حذقها العرب بحكم نشأتهم وطبيعة بلادهم، بعضها من قبيل الطبيعات والآخر من قبيل الآدبيات، ونحن إذا بحثنا عن مصادر علومهم وجدنا بعضها خاصاً بالعرب والبعض الآخر نشأ خارج شبه الجزيرة العربية ممن جاورهم من البابليين والكنعانيين والفينيقيين وهم إخوان العرب وينحدرون من أصل واحد.

فالعلوم التى ظهرت فى شبه الجزيرة – علم الأنساب، والشعر والخطابة، كما كانت لهم تجارب خاصة بالإبل، عرفوا منها ما يطرأ عليها من أمراض، والعلاج الناجع لها – كما عرفوا علم النجوم والأنواء ومهاب الرياح. والكهانة والقيافة والطب وغيرها، لقد عرف العرب اصطلاحات وأسماء بعض النجوم، ولهم فيها شهرة ودراسة واسعة ليهتدوا بها فى ظلمات البر فكانت دليل أسفارهم فى فيافى بلاد العرب، والأنواء، ويراد بها عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتصل بالمطر والرياح. وكانوا ينسبون المطر إلى تأثير النجوم.

ومن علومهم التجريبية – القيافة. وهى اقتفاء الأثر والاستدلال منه على أصحابها، ولهم مهارة فى تمييز الأقدام عن بعضها حتى فرقوا بين أثر أقدام الشاب والشيخ والمرأة والرجل، بل والبكر والثيب!! وهى لا تزال إلى اليوم موجودة فى بعض القبائل النجدية، والكهانة والعرافة، وهما كلمتان لمعنى واحد والكهانة مختصة بالأمور المستقبلة – والعرافة بالأمور الماضية وعلى أى المعنيين فالمقصود بهما التنبؤ واستطلاع الغيب، يستشيرون "الكاهن" فى حوائجهم وفيما أشكل عليهم من الأمور، ويستفتونه فى مستقبلهم لأنهم يعتقدون أنه يعلم الغيب بواسطة الأرواح، ومثلهم العرافين.

والطب. إما عن طريق الكهانة بالسحر والرقى، أو ذبح الحيوان عند الأصنام، وإما بالعقاقير البسيطة والأشربة وخصوصاً العسل، ولكن أكثر اعتمادهم كان على الكى بالنار، لذلك قالوا: "آخر الطب الكى" كما عرفوا الأمراض التى يتعرض لها سكان الصحراء كبعض أنواع الحميات، ومن أشهر أطبائهم "الحارث بن كلده" بالطائف، و "النضر بن الحارث" - إلى غير ذلك من العلوم التى تنشأ فى مثل هذه البيئة، والتى هى أولى بأن يطلق عليها "مجموعة من المعارف" من أن تكون علوماً بالمعنى الذى نعرفه.

ومن مظاهر علومهم. النهضة الأدبية، وهى تدل على أن العرب كانوا كبار العقول وأهل ذكاء وصفاء وخيال ولغة تعتبر أرقى اللغات فى أساليبها ومعانيها وتراكيبها. وأكثر معارفهم فى هذا من ثمار قرائحهم – وهى تشتمل على حِكم لا تقل عما قاله أعظم الفلاسفة فى العالم.

ولقد تناولوا فى شـــعرهم الفخر. والحماســـة، والمدح. والرثاء. والعتاب والغزل. وغير ذلك مما يتناول حياتهم الخاصـــة والعامة، وكان لكل شـــاعر غالباً غرض وأســـلوب خاص، كما كان له منزلة كبيرة فى قبيلته، كمنزلة الفارس والخطيب، لأنه الحافظ لأخبارها، والمشيد بذكراها، فهو بذلك يعتبر من أكبر وسائل الإعلام عنها
كما تتمثل نهضـــتهم الأدبية فى أمثالها، والمثل فى آداب العرب القيمة، وهو عظات بالغة من ثمار العقل الراجح، يوصف بإيجاز اللفظ وإصابة المعنى، وحسن التشبيه.

حالة العرب الدينية فى العصر الجاهلى:

التدين من الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فالإنسان متدين بطبعه، والدين ضرورة اجتماعية، وشعور بأن لهذا الكون خالقاً أوجده وأوجد كل ما فيه من كائنات، ويخضع الإنسان لهذا الخالق رغبة فيما عنده أو خوفاً من عقابه وعذابه، وسليم الفطرة يستطيع أن يرى فى آيات الكون دلائل على وجود الخالق ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ {آل عمران/١٩٠} والعربى سليم الفطرة صافى الذهن، لذلك كان حرياً به أن يكون موحداً ســـليم العقيدة، لكننا عند دراســـتنا لأحوال العرب الدينية فى الجاهلية نرى أن عدد الموحدين قليلون، بينما نرى السواد الأعظم منهم وثنياً أو صابئاً، أو مجوسياً أو يهودياً أو نصرانياً، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قربهم من الأمم التى كانت تعتنق عدة أديان مختلفة مثل الشـــام ومصـــر، وفارس، والحبشـــة وغيرها، فأخذوا منهم تلك الديانات العديدة التى كانت فى الجزيرة العربية وقضى الإسلام عليها. لذلك كان فى بلاد العرب الدهريون الذين ينكرون وجود الخالق والبعث، ويقولون ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾{الجاثية/٢٤}.

ومنهم من يعترف بالخالق وينكر البعث ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ {الإســـراء/٤٩}،

ومنهم من كان صـــائباً يعبد الكواكب، وقليل منهم من كان مجوسياً يعبد النار، ومن كان نصرانياً، ويهودياً، إلى غير ذلك من العبادات التى كانت تذخر بها شبه الجزيرة، إلا أن أكثرها انتشـــاراً كانت الديانة الوثنية، فكانت هى الغالبة على العرب.

(١) **الوثنية**: وهى عبادة الأصنام، وسبب عبادتها على ما رواه الكلبى فى كتابه الأصنام أن بنى "إسماعيل" لما كثروا "بمكة" ضاقت بهم، فالتمسوا الفسيح فى البلاد وانتشروا فى شبه الجزيرة العربية، فكان لا يظعن ظاعن منهم إلا حمل معه حجراً من حجارة الكعبة تعظيماً له، فحيثما نزل هو ومن معه وضـــعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ونسوا السبب الذى من أجله عظموا هذه الأحجار.

وغالب الرواة ينسـبون إلى "عمرو بن لحى الخزاعى" إدخال عبادة الأصـنام إلى بلاد العرب، ويقولون إنه جاء بصنم من البلقاء بأرض الشام إلى مكة، ونصبه عند الكعبة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، ثم كثرت الأصنام بعد ذلك حتى كان لكل قبيلة صنم.

وكانت الكعبة فى ذلك العصـــر الجاهلى مقر الوثنية، إذ كانت تحيط بها الأصـــنام من كل جانب، وكان أعظمها عندهم "هبل" وهو تمثال من عقيق أحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى، وقد أدركته قريش وهو مكسور اليد فصنعت له يداً من ذهب تعظيماً لشأنه.

أما عقيدتهم فى تلك الأصـــنام فقد كانوا فريقين، فبعضـــهم كان يعبدها على أنها تشـــفع لهم عند الله وتقربهم إليه، ويقولون إذا ما سئلوا عن الخالق الرازق إنه هو الله، وإذا سئلوا عن الأصنام يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾{الزمر/٣}

وبعضـــهم كان يعبدها على أنها هى الآلهة التى تضـــر وتنفع وتعطى وتمنع، وتحيى وتميت، وهؤلاء عامتهم وضعفاء العقول فيهم.

وكان هناك قوم فى اليمن يعبدون الشمس، وهم الذين ذكر الله قصتهم فى القرآن الكريم مع "سليمان" عليه السلام فى قوله تعالى حكاية عن الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾{النمل٢٣/٢٤}.

(٢) **المجوسية والصائبة:-** المجوس هم عبدة النار من أتباع "زاردشت" ومهد المجوسية بلاد "فارس" وانتقلت منها إلى بلاد العرب بحكم الجوار، من "الحيرة" وبلاد "البحرين" وانطبعت بالطابع العربى. وأصـــبح من مظاهرها عبادة الأجرام السـماوية. كالشـمس والقمر والزهرة. وهناك من النقوش ما يشـير إلى أن هذه الكواكب الثلاثة كانت تكوّن أسرة واحدة مقدسة (كأزوريس وإيزيس وحورس) فى الديانة المصرية القديمة،

وربما عبدوا هذه الكواكب لأنها من مظاهر القدرة الإلهية، أو لما رأوه فيها من منافع كالضوء والحرارة والهداية فى السفر ليلاً، وكانت منتشرة فى "بنى تميم"والقبائل الضاربة قرب حدود "فارس" وقليل من العرب من كان يعبد النار وهم عرب البحرين.

(٣) اليهودية:- كان لليهود جاليات كثيرة فى بلاد العرب. يقيم أكثرها فى بلاد اليمن وفى "يثرب" ولكن هل كان هؤلاء اليهود من بنى "إسرائيل" أم عرباً تهودوا؟ الرأى الراجح لدى المؤرخين أنهم من بنى إسرائيل جاؤا إلى بلاد العرب مهاجرين من "فلسطين" فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد عندما قضى الرومان على دولتهم. واضطهدهم فلجأوا إلى بلاد العرب فراراً من الإضطهاد وخطر الرومان، فنزلوا خيبر وتيماء ووادى القرى شمال "يثرب" وبعضهم وصل إلى "يثرب" واستقروا بها وبنوا الحصون، وأنشأوا المزراع، وكانوا ثلاث قبائل. "بنو النضير" و"بنو قينقاع" و "بنو قريظة" وعن طريق هؤلاء تسربت اليهودية إلى بلاد اليمن، فانتشرت فيها، وأصبحت الديانة السائدة، وظلت السيادة لها إلى أن غزا الأحباش اليمن فقضواعليها وأحلوا النصرانية محلها، لكن نهايتها فى الجنوب لا تعنى نهايتها فى الشمال بل ظلوا فى يثرب حتى أجلاهم عنها الرسول ﷺ ثم فى عهد عمر بن الخطاب ﵁ تم إجلاؤهم نهائياً من شبه الجزيرة، وطهر البلاد منهم تطهيرا.

(٤) النصرانية: دخلت بلاد اليمن على يد أحد الرهبان المبشرين بالمسيحية قبل الغزو الحبشى، فانتشرت فى نجران دون بقية اليمن، إلى أن غزاها "يوسف ذونواس" ملك اليمن المتعصب لليهودية. وأصدر أمره بأن من عاد من أهلها إلى اليهودية عفا عنه، ومن تمسك بالنصرانية أحرق "فى الأخدود" وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة فى سورة "البروج" فقال تبارك وتعالى ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ،النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ {البروج١/٢/٣/٤/٥/٦/٧/٨}. وكان اضطهاد النصارى هذا سبباً فى الغزو الحبشى الذى قضى على اليهودية فى اليمن – وحاول القضاء على الوثنية كذلك عند العرب وعمل "أبرهة" الحبشى على نشر المسيجية فبنى كنيسة "بصنعاء" وحاول هدم الكعبة ليرغم العرب على الحج إلى كنيسته فحماها الله تعالى منه، وكذلك انتشرت المسيحية قبل ذلك فى قبائل الغساسنه بحكم جوارها وصلتها بالدولة الرومانية.

وهكذا كانت شبه الجزيرة العربية فيها أديان مختلفة، ولكن الأغلبية الساحقة كانت تدين الوثنية، وقليل منهم الموحدون، فكانت الحاجة داعيه إلى إصلاح شامل، وكان فضل الله عليهم وعلى الإنسانية برسالة "محمدﷺ " .

موقع مكة المكرمة وأسمائها وحرمتها

موقع مكة وجغرافيتها:

تقع مدينة مكة المكرمة على السفوح الدنيا لجبال السروات؛ فهى تمثل نقطة الالتقاء بين تهامة وهذه الجبال، ويعدها المؤرخون تهامية، وتحيط بها الجبال من جميع جهاتها غير أن لها منافذ سهلة تربطها بمدينة جدة على البحر الأحمر.

أما موقعها الفلكى فهو على درجة عرض ٩ . ٢٥ .٢١ شمالاً، وخط طول ٣٦ .٤٩ . ٣٩ شرقاً. وترتفع عن سطح البحر مقدار ٣٠٠ متر.

ولقد كان لهذا الموقع أهمية كبرى إذ أنه يمثل منتصف خط القوافل القديم بين اليمن وبلاد الشام. ولهذا كان لمكة المكرمة شهرة تجارية بين مناطق الاستقرار المحيطة بها مثل فارس والروم شرقاً واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً.

وكانت المنطقة حلقة اتصال بين الحضارات الشمالية والجنوبية ولم تكن فى يوم ما فى عزلة جغرافية كالتى عاشت فيها كثير من مناطق الاستقرار الكبرى فى العالم.

أما موضع مكة المكرمة فقد خطته العناية الإلهية إذ تحدد موضعها استجابة لدعاء أب وغوثاً للهفة أم فكانت زمزم المكان الذى هرعت إليها القبائل لتعيش بجواره.. ذلك الموضع المتمثل فى بطن وادى إبراهيم الذى تحف به الجبال الجرداء من معظم جهاته. ومن ذلك التاريخ لم ينقطع اعمار المدينة المقدسة، وزادت شهرة المكان برفع قواعد البيت الحرام للتوحيد فى عهد إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وأصبحت مكة تستقطب أفواج الحجيج إليها منذ ذلك التاريخ واستوطنتها القبائل المختلفة واتسعت شهرتها لدرجة أنها سميت بأم القرى. وعظم أمر مكة المكرمة بعد أن بشر الرسولﷺ برسالته من بطائحها وأصبحت قبلة المسلمين يفد إليها الناس من كل حدب وصوب.

إن المظهر التضريسى الذى يطغى على ما حوله فى مكة المكرمة هو منظر الكتل الجبلية السوداء الداكنة، ذات التركيب الجرانيتى الذى يهيمن على المنطقة.

وتقع مكة المكرمة على سفوح هذه الكتل الجبلية التى شهدت أحداثاً تاريخية هامة.. ففى جبل حراء نزل الوحى على رسول اللهﷺ، وشهد جبل ثور أحداث الهجرة بين الرسولﷺ وصاحبه أبى بكرؓ .

وبين الجبلين يقع أخشبا مكة وهما أبوقبيس وقيقعان، (جبل هندى) اللذان يحتضنان الحرم الشريف والكعبة المشرفة.

وإلى الشرق من هذه الكتل الجبلية تقع المشاعر المقدسة فى أودية تحيطها الجبال فوادى منى شهد صراع إبراهيم الخليل مع إبليس وفى جنباته تمت بيعة العقبة الأولى والثانية وعلى أرضه يتجمع الحجيج أيام التشريق وبجواره مسجد الخيف ومنطقة رمى الجمار.

يلى منى من الشرق سهل مزدلفة حيث يأوى إليه الحجيج بعد نفرته من عرفات وبه المشعر الحرام.

وبعد مسافة وجيزة من مزدلفة باتجاه الشرق يواجهنا سهل عرفات يتوسطه جبل الرحمة حيث وقف رسول الله ﷺ بأسفله فى حجة الوداع، وبه مسجد نمرة.

وبجانب المظهر الجبلى يبدو من تضاريس مكة المكرمة بطون الأودية، ففى بطن وادى إبراهيم دعا الخليل عليه السلام بدعائه ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ {إبراهيم/٣٧} وسكن الناس فى هذا الوادى وأعمروه ثم تجاوزوه إلى الأودية المجاورة مثل وادى طوى ووادى فخ.

ويمكن القول بأن تطور مدينة مكة المكرمة عبر القرون كان مرتبطاً ارتباطاً وظيفياً بانحدار سفوح الجبال واتجاه الأودية وموقع السهول بها.

فإذا ما أخذنا المناطق المعمورة فى مكة المكرمة نجد أن التضاريس قد حددت شكل المدينة بوضعية خاصة تماثل الامتداد الطبيعى للأودية.. ونظراً لضيق هذه الأودية امتد اعمار المدينة على السفوح، وقد قامت مشاريع الاسكان الخاصة والحكومية بتغيير الكثير من الظواهر التضريسية وتسهيلها وجعلها صالحة للسكن، غير أن هذا لم يؤثر بطبيعة الحال على موضع المدينة الذى تأثر بالعوامل الطبيعية إلى حد كبير. فتسهيل السفوح والانتشار العمرانى عليها لم يفقد العوامل الطبيعية سلطانها فى تحديد مورفولوجية المدينة. إذ أن الناظر لا يحتاج إلى الكثير من العناء لإدراك تأثير العوامل الطبيعية فى تحديد مظهر المدينة وشكلها الذى يتطابق مع شكل الأودية والسفوح القائمة عليها، فشكل مدينة مكة المكرمة ومظهرها ما هو إلا امتدادات أودية إبراهيم، طوى، فخ، وأعالى وادى محسر (العزيزية ومنى).

أسماء البلد الحرام

من أسماء البلد الحرام: "مكة"، لأنها تمك الجبارين أى تذهب نخوتهم، وقيل لأنها تمك الفاجر عنها أى تخرجه.

ومن أسـمائها: "بكة" قال الله تعالى﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ {آل عمران/٩٦}

وسميت بذلك: لأنها تبك أعناق الجبابرة، أى تدقها إذا ألحدوا فيها.

ومن أسـمائها: "أم القرى" قال تعالى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ {الأنعام/٩٢} وسـميت بذلك لأنها أعظم القرى، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، وقيل: لأنها قبلة تؤمها جميع الأمم.

ومن أسمائها: "القرية" قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ {النحل/١١٢}

ومن أسمائها: "البلد الأمين" قال الله تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ {التين/٣}

ومن أسمائها: "البلدة" قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ {النمل/٩١}

ومن أسمائها: "معاد" بفتح الميم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ {القصص/٨٥}.

وهذه الأسـماء مأخوذة من القرآن، وكثرة الأسـماء تدل على شـرف المسـمى؛ لأن البيت الحرام هو بيت الله تعالى حفظه رب العزة وجعله آمناً وجعل من دخله كان آمناً.

حرمة مكة المكرمة

لمكة المكرمة حرمتها، إنها البلد الحرام لم يحل القتال فيه لأحد، ولم يحل للرسول ﷺ إلا ساعة من نهار.

وكما حرم القتال فيه، حرم صيد الطير وقطع الشجر بل حرم تنفير الطير وقطع الشوك، وقطع الحشيش والتقاط اللقطة إلا لمنشد، حتى الطير لا ينفر فى الحرم، وحتى الشوك لا يعضد ولا يلتقط اللقطة فى مكة إلا لمنشد.

والسبب فى ذلك: هو تعظيم الحرم، وقيل: لأن الحمام من نسل الحمامتين اللتين ركزتا فى فم الغار فلذلك احترم حمام الحرم كما ذكره السهيلى نقلاً عن مسند البزار.

كما يحرم قطع شجر الحرم وحشيشه على من كان محرماً أو غير محرم لحديث: "ولا يعضد شجرها".

وتحريم القتل فيها لحديث: "إنها لم تحل لى إلا ساعة من نهار" وفى هذه الأحكام السابقة وغيرها نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى حرم مكة المكرمة، بل إن حرمتها منذ القدم كما جاء فى الحديث النبوى الشريف: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلالها"[1].

وإذا ما تبين لنا حرمة مكة المكرمة، وكيف أن الله تعالى جعلها بلداً آمناً حتى الطير والشوك والنبات والحشيش والشجر دل هذا على تأكيد حرمتها ومنزلتها وإن من يحدث فيها يؤاخذه الله تعالى، ومن أرادها أو أراد المدينة بسوء أخذه الله تعالى فى الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأصحاب الفيل.

---

[1] رواه مسلم.

نشأة مكة

نشأة مكة

فى بداية القرن الســادس الميلادى، كانت مكة مدينة ذات كيان مالى وتجارى مســتقل، ومركزاً دينياً مرموقاً أقيم حول الكعبة التى كانت محط أنظار الكثير من الحجاج الذين كانوا يؤمونها لزيارة البيت الحرام والتقرب للأصنام المنصوبة هناك. وكان أهل مكة قد أجروا الترتيبات المفصلة التى كانت تتضمن سلامة طرق الحج المؤدية إلى مدينتهم، وتكفل حفظ النظام ومراعاة الآداب العامة أثناء تأدية الشعائر الدينية عند الكعبة. ولما كانت العناية بالحج وتصريف المعاملات التجارية هما المهنتان الرئيسيتان عند أهل مكة، فإن حياة البلد كانت تحت طبقة من المنفذين الأكفاء، رجال لم يؤمنوا بالعنف، واعتمدوا على حل كل المشاكل بالطرق السلمية.

وظلت مكة مدينة ذات كيان مالى وسياسى مستقل، لأن شبه الجزيرة العربية لم تقع فى يوماً ما - بصورة فعالة - تحت حكم ســلطة مركزية، فإن تأثير البيئة الجغرافية كان يقف دائماً فى وجه نمو الإشــراف المركزى فى شــبه الجزيرة العربية. وكانت الخصــائص الأســاسـية لتلك البيئة، هى العلاقات المزعزعة بين مجتمع متوطن يســوده الاســتقرار وآخر لايزال بدوياً رحالاً، والتغلغل المتداخل بين هذين المجتمعين. فإن الجماعات التى تم اســتيطانها تتأثر - إلى حد كبير - بما يحدث لجيرانها من البدو الرحل، وقد انحدرت هذه الجماعات المســتوطنة - عادة - من تلك القبائل الرحل التى رأت أن تستوطن يوماً ما وكانت بعد أن تستوطن بصفة تجار أو مزارعين تحاول فرض سيطرتها على جيرانها من القبائل المتبدية - بالقوة أو الاستمالة - محاولة منها اتخاذ بعض الإجراءات لحفظ السلم والأمن، وربما نجحت فى ذلك أحياناً.

ومن المهم أن نذكر أن البدو - وهم يســتقرون ويســتوطنون ويتخذون لهم نمطاً جديداً من الحياة - كانوا يحتفظون بالكثير من عاداتهم القديمة ويتمسكون بها، ولم يفارقهم حنينهم إلى حياتهم الصحراوية الأولى، فتراهم يميلون إلى الخروج إلى الصحراء لممارسة الرياضة والترويج عن أنفسهم وأجسامهم، كما يرسلون أبناءهم إلى البادية ليشبوا فى أحضـانها وبين خيامها صيانة لهم من حياة المدن، وكانت أحاديث الصـحراء وأساطيرها تشغل أمسياتهم فى روايتها والتلذذ بسماعها.

ومكة مَثل طيب لظاهرة التداخل هذه، ولكى نفهم مركز مكة فى القرن السادس وعند ظهور الإسلام، وهو الوقت الذى بلغت فيه مكة ذروة مجدها، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار لا دور القبائل الرحل وبطونها فحســـب، بل ينبغى أن نلم بـالعلاقات الخـارجية للجزيرة العربيـة، فـإن الجزيرة العربيـة كـانت تزود المناطق المجاورة لها بالمنتجات المرغوب فيها من حاصلات الجزيرة نفسها، كما كانت موانيها حلقات اتصال للتجارة الدولية. والحركة التجارية قائمة على قدم وســاق تروح وتغدو بين مناطق البحر المتوسـط والشـرق الهندى وذلك عبر الطرق التجارية التى تتخلل شبه الجزيرة العربية،

والكثير منها يخترق مكة. ومكة نفسها وقعت فى دائرة التنازع الدولى الذى كان قائماً بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية، وقد بذلت محاولات من جانب الأحباش والروم للســيطرة عليها، لكن رجال مكة، الحريصين على موقف الحياد، عارضوا كل تدخل فى شئونهم، وكانوا يتعاملون مع رجال الدولة من الفرس ومن الروم على السواء، كما كانوا يحذقون التعامل مع الأعراب من أهل البادية.

يشير العرف الإسلامى إلى العصر الذى ولد فيه النبى، ويدعوه «الجاهلية». وكلمة «جاهلية» لا تعنى «عكس المعرفة» بل إنها تعنى بالأحرى «مخالفة القانون والتمرد» أو «الجهل بما هو أفضــل». وهى كلمة إســلامية أطلقت على العصر الذى سبق الإسلام مباشرة والذى كانت تسوده العصبية القبلية بما فيها من نزق وطيش وحمق واستجابة لداعى العصبية مهما تكن الأسباب والظروف.

وهى كلمة تعبر عن روح العصر بما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر. وقد استعملت كثيراً فى القرآن الكريم بهذا المعنى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَــلَامًا﴾ {الفرقان/٦٣}. ﴿قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ {البقرة/٦٧}. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ {الأعراف/١٩٩}. وفى الحديث أن النبى قال لأبى ذر الغفارى وقد عيّر رجلاً بســواد أمه "إنك أمرو فيك جاهلية" والكلمة بهذا المعنى تقابل المثل الإسلامى الذى يتلخص فى كلمة "التقوى".

وعلى كل من أراد أن ينظر لمهمة الرسول ﷺ من وجهتها الصحيحة أن يتفهم بوضوح ما كانت عليه حالة مكة فى زمن النبى، إذ بينما كانت رســالته توكيداً وتحديداً لما أمر به من ســبقه من الأنبياء ليبلغوه إلى مختلف الأمم، كانت من ناحية أخرى إحياء لدين إبراهيم، وكان لب رسـالته - فوق كل شــيء - خلق مجتمع يعبد الله ويسـير فى طريق الخير والصــلاح. وكان محمد ﷺ يأمل أن يرى قومه - قبيلة قريش - ينقلبون جماعة تعيد للكعبة طهارتها الأولى وصفاءها الفطرى. لكن ذلك لم يحدث إذ لم يستجب أهل مكة لدعوته.

وإنه لدليل على قوة تضــامن ذوى القربى أن وقف الناس مع أقاربهم الذين غيروا دينهم وأسلموا، على الرغم من عدم موافقتهم على ذلك.

فى منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة فى واد منبسط من أودية جبال السراة، تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق اليمن، ويصله الثانى بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جدة، ويصله الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين. ومكة مدينة قديمة ورد اسمها فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة، فذكرها بطليموس الإسكندرى باسم «ما كورابا Macoraba» ولكنها لابد أن تكون أقدم عهداً من هذا الجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد، فقد أشار المؤرخون الكلاسيكيون إلى وجود مواضع فى القسم الغربى من الجزيرة العربية كانت ذات حرمة وقدسية فى أنظار العرب وكانوا يقصدونها من أماكن بعيدة للتبرك بها، ومع أن هؤلاء الكُتاب لم يذكروا أسماء هذه الأماكن، فإنه لا يستبعد أن تكون مكة فى جملة هذه الأماكن التى قصدوها. وقد ذهب "أوجست ميلر" إلى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى «معبد مشهور بين العرب، هو مكة. ولما لم يعثر حتى الآن على كتابات جاهلية تفصح عن اسم هذه المدينة القديمة ولا عن تاريخها البعيد، فإنه من العسير معرفة تاريخ قيامها وتحديد الزمن الذى أصبح فيه هذا المكان بلداً، وأكثر الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين مضت، وإذا كان بدء سكنى هذا الوادى يرجع إلى أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فإن ذلك يعنى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. والثابت أن واديها اتخذ من قبل أن تبنى موئلاً لراحة رجال القوافل القادمة من الشمال والجنوب، بسبب ما كان به من العيون، فعلي طول الطرق التجارية عبر الصحراء وجدت بضعة أماكن مبعثرة اتخذها التجار المسافرون موئلاً لراحتهم، وبالتدريج أصبحت منازل الراحلة هذه مستودعات للتجارة، وصار بعضها مقاماً للهياكل والمحاريب يتابع التاجر فى حمايتها تجارته، ويلجأ الحاج إليها لالتماس العون منها. ووادى مكة إحدى هذه المحطات التى جعل منها رجال القوافل مضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من اليمن إلى فلسطين أو القادمون من فلسطين إلى اليمن.

وإذا كان من الثابت ـ كما ورد فى القرآن الكريم ـ أن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما البيت الحرام فى واديها، فإنه من الراجح أن إسماعيل هو أول من اتخذها مقاماً وسكناً بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل وسوقاً لتبادل التجارة بين الآتين من الشمال والآتين من الجنوب.

وتجرى رواية الأخباريين إلى أن إبراهيم حمل زوجه هاجر وابنهما إسماعيل نحو الجنوب حتى وصل إلى هذا الوادى الذى كان مضرب خيام القوافل، ثم تركهما فيه وعاد من حيث أتى، بعد أن ترك لهما ما يتبلغان به من التمر والماء، واتخذت هاجر لها عريشاً إلى جوار ربوة حمراء بهذا الوادى ـ لعلها كانت مقدسة يتبرك بها رجال القوافل ـ آوت إليه هى وابنها، فلما نفذ الماء وكادا يهلكان عطشاً ذهبت تبحث عنه، وفى خلال هذا البحث انفجرت عين زمزم، فأقامت عليها وابنها ترد عليهما القوافل فى رحلاتها فينالا من العيش ما يكفيهما. على أن زمزم التى تفجر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام على مقربة منها. وتجرى بعض الروايات بأن قبيلة جرهم اليمنية هى أولى القبائل التى أقامت، وأنها أقامت بعد أن تفجرت زمزم. بينما تجرى رواية أخرى بأنها كانت موجودة قبل ذلك وكان معها حول مكة قوم من العماليق. ثم شب إسماعيل

وتزوج فتاة جرهمية ولدت له أولاده. وفى هذا المكان أقام إبراهيم وابنه إسـماعيل القواعد من البيت الحرام وجعله محجاً للناس. وفى هذا المكان قامت مكة حول البيت ومنه أخذت اسـمها. وقد فسـر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوياً وغير لغوى استنبطوها من مكانة الكعبة وقدسيتها فى نفوس العرب، وهذه التفسـيرات متأخرة بطبيعة الحال، واسـم مكة سـابق على هذه المفهومات. ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من اسـتعمر هذا الوادى فالأرجح أن اسـمها أخذ من لغة الجنوب مسـتنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو "مكرب" كما ذكرها بطليموس كلمة يمنية مكونة من "مك" و"رب" ومك بمعنى بيت فتكون مكرب بمعنى "بيت الرب" أو بيت الإله، ومن هذه الكلمة أخذت مكة أو بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب. ويقول المؤرخ بروكلمان: إنها مأخوذة من كلمة "مقرب" العربية الجنوبية ومعناها الهيكل، وفى التعليق على هذه الكلمة يقول صـاحب الحاشية "لقد سمى القرآن مكة وبكة، وبكة هى الوادى ومكة لغة أخرى، ومنه "بعلبك" بمعنى وادى البعل، وهذا أدل على مركز مكة، لأن مكة فى واد غير ذى زرع. ثم إن "ماكورابا" أو على الأصـح ما كارابا حسـب اللهجة الآرامية الشرقية لا السريانية الغربية يصح أن تعنى الوادى العظيم أو وادى الرب ولعل بطليموس أخذ الاسم من طريق الآراميين".

ويرتاب سـير وليم موير Sir. W. Muir فى قصـة ذهاب إبراهيم وإسـماعيل إلي الحجاز ويرى أنها من صـنع اليهود ابتدعوها قبل الإسـلام بأجيال ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة قرابة توجب على العرب حسـن معاملة اليهود النازلين بينهم وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة، ويستند إلى أنه لا صلة بين أوضـاع العبادة فى بلاد العرب وبين دين إبراهيم، لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية وقد كان إبراهيم حنيفاً مسـلماً. وهو إذ ينفى قصـة ذهاب إبراهيم وإسـماعيل إلى الحجاز يقول بإمكان انتقال جماعة من أبنائهما بعد ذلك من فلسـطين إلى بلاد العرب واتصالهم وإياهم بصلة النسب. ويرد د. محمد حسين هيكل رحمه الله على رأى موير بأن ما يسوقه من دليل لا يكفى لنفى واقعة تاريخية، وأن وثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسـماعيل بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم وإسـماعيل إلى الحجاز وحين اشـتركا فى بناء الكعبة، على أنه لو وجدت وثنية يومئذ لما أيد ذلك، رأى سـير وليم موير، فقد كان قوم إبراهيم وثنيين ولم ينجح فى تحويلهم، فإذا لم ينجح فى تحويل العرب فلا عجب.

ويرى د. هيكل أن المنطق يؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذى خرج من العراق فاراً بأهله إلى فلسطين ومصر، رجل قد ألف الارتحال واجتياز الصحارى، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محل إذن للريبة فى واقعة انعقد الإجماع على جملتها، وإذا جاز انتقال بعض أبناء إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز، فكيف لا يكون جائزاً فى شأن الرجلين بالذات، بل كيف لا يكون ثابتاً ثباتاً جازماً ورواية التاريخ تؤكده، وقد ذكره القرآن الكريم وتحدثت به بعض الكتب السماوية. على أن إبراهيم الذى خرج من العراق فاراً بدينه ضارباً في الأرض إلى فلسطين ومصر، لم يجد استجابة بين كل الأقوام الذين ارتحل إلى أرضهم كان لابد يعلم أمر هذا الطريق التجارى المطروق وأمر المحطات التى تقوم عليه، ولابد أن راودته فكرة التبشير بدينه بين القبائل الضاربة على جنبات هذا الطريق، بعيداً عن مجال الحكومات القائمة وديانات شعوبها ومعابدها الوثنية العريقة، وأنه لابد أن علم بأمر هذه المحطة التجارية المتوسطة والتى تلتقى عندها الطرق وتغشاها القوافل، ولاشك أن الآية القرآنية ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ {الحج/٢٦} تشير فى ثناياها إلى هذا التفكير من إبراهيم، وإلى إلهامه فكرة بناء البيت فى هذا المكان الذى من المحتمل أن يلقى فيه استجابة من المقيمين والغادين الرائحين. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ {الحج٢٦/٢٧/٢٨}

على أن إبراهيم لم يكن ليحمل زوجه وابنه إلي مكان قفر لا زرع فيه إلا لسبب واضح لديه محدد عنده، وهو القيام بأمر العبادة عند هذا البيت الذى ينوى أن يقيمه لله، والتبشير بهذا الدين الذى بعث به، وتشير الآية القرآنية ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {إبراهيم/٣٧} إلى ذلك فى صراحة واضحة، كما تشير إلى ما يرتجيه إبراهيم لهذه المحلة التجارية من نمو وازدهار على مر الأيام نظراً لموقعها المتوسط ولحصانتها بالنسبة للنازل والمقيم. وإبراهيم الرحالة الخبير، لاشك كان عالماً بقيمة المواقع وأهميتها لطول ما تمرس به من الرحلات والأسفار. ولقد كرر إبراهيم زيارته - كما تجرى الروايات - إلي زوجه وولده في المكان للاطمئنان على سلامة تقديره، وليرقب نمو هذه النواة التى وضعها للإقامة فى هذا الوادى الحصين،

فلما اطمأن إلى أنها نبتت وامتدت جذورها، تعاون هو وابنه على بناء البيت الحرام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ {البقرة١٢٧/١٢٨} ولما شهد إبراهيم قيام البلد الذى كان يرجو قيامه حول البيت، واطمأن إلى أن عمله قد آتى ثماره، دعا ربه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ {إبراهيم/٣٥}. وهكذا يمكن أن نتصور قيام مكة فى هذه البقعة على ما يمكن أن نستنتج من آيات القرآن وكما تجرى به الروايات.

*****

استمرت جرهم تلى أمر البيت فترة من الزمن وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم أمر البيت لخؤولتهم وقرابتهم، إلي أن قدمت قبيلة يمنية أخرى هاجرت من الجنوب فى الهجرة التى تفرقت بها قبائل الأزد مهاجرة نحو الشمال بعد اضمحلال حالة اليمن وتهدم سد مأرب، واستقر بطن من بطون الأزد حول مكة وعرف بقبيلة خزاعة. واحتكت خزاعة بجرهم فتقاتلت القبيلتان وانتصرت خزاعة ووليت أمر البيت، وخرجت عن هذا الوادى جرهم كما خرج أبناء إسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفى تهامة

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة، فقد عمل زعيم خزاعة "عمرو بن لحى" على تنشيط الحج إلى الكعبة، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور، والحج إليها قد قل بسبب بنى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون إليها للمتاجرة والحج، وبعد إهمال بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر، فأخذ عمرو بن لحى يقيم موائد للطعام فى موسم الحج وييسر جلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة.

ولما كانت قبائل العرب البعيدة لا تعرف شـــيئاً عن الحنيفية دين إبراهيم، فقد عمل عمرو بن لحى على جلب الأصـنام من الجهات الأخرى وإقامتها حول الكعبة، حتى يرغب القبائل العربية وبخاصــة قبائل الشـمال فى الحج إلى بيت مكة للتقريب لأصـــنامها، وقد طوّع "العمرو بن لحى" أن يدخل على البيت هذه العبادة ذلك المركز الذى أشرنا إليه، ويبدو أن الحنيفية كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء إسماعيل أنفسهم، فقد ذكر اليعقوبى أن "إلياس بن مضـر وقد شـرف وبان فضـله، كان أول من أنكر على بنى إسـماعيل ما غيروا من سـنن آبائهم". حتى وجد عمرو بن لحى استجابة وموافقة لفعله بين القبائل العربية سواء منها البعيدة أو القريبة.

وظلت خزاعة فترة طويلة من الزمن - قدرها بعضــهم بخمسـمائة سـنة - تلى أمر مكة وتقوم على سـدانة البيت، وتُعشـر التجارة المارة بمكة، وإن ظلت بعض مناصـب الحج فى يد بطون كنانة التى تنتسـب إلى إسـماعيل والتى بقيت حول مكة.

وتاريخ مكة الحقيقى يبدأ من أيام "قصـى بن كلاب" بن مرة القرشـى، الذى تولى أمر مكة حوالى منتصـف القرن الخـامس الميلادى. أمـا مـا قبل ذلك فليس لـدينـا مـا نعتمد عليـه فى إثبـاتـه أو نفيـه غير روايـات الأخبـاريين وهم إسـلاميون أو مخضـرمون، والمدة بعيدة بينهم وبين هذه العهود، بخلاف الأمر فى حال قصـى وقبيلة قريش التى استقرت فى مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادى ودينى وأدبى ممتاز، وأصبحت فى عهدها تتمتع بتوجيه عربى عام فى أواخر القرن السـادس وأوائل السـابع حين ظهر الإسلام، وبين قصى وظهور الإسلام مدة لا تزيد على مائة وخمسـين سـنة، وهى مدة كانت حال قريش فيها متصـلة فى مكة، ولا يمكن أن تنسـى فيها الأحداث، وبخاصـة إذا قدرنا ما للذاكرة العربية من قوة، وما لقيمة التمسك بالنسب ولحمة الدم من سلطان يجعل النـاس يحتفظون بـذكر آبـائهم والأحداث التى ارتبطت بهم، وقد يعطون ذلك بعض المبـالغة، ولكنـا على أى حال نستطيع من مختلف الروايات أن نصور الوضع تصويراً نقرب به كثيراً من الحقيقة إن لم نصل إليها.

قصى بن كلاب وعودة قريش إلى مكة:

لبثت خزاعة على ما هى عليه وظل أولاد إسماعيل بعد جلائهم من مكة متفرقين بين اليمن واليمامة والبحرين وأطراف الحجاز، وقيل: إن بعض قبائلهم وصلت إلى العراق والشام، ويختلف المؤرخون فى عدد القبائل التى تفرعت من أولاد إسماعيل، ولكنهم يكادون أن يتفقوا على أن أبرزهم عدنان، وتفرع من أولاد عدنان ربيعة ومضر وإياد وأنمار فكان "قصى" من أولاد "مضر"، وقد عاش قصى بعيداً عن موطن أجداده فى أرض قضاعة لا ينتمى إلا إلى زوج أمه ربيعة بن حرام من قضاعة.

وحدثت بين قصى ورجل من قضاعة شيء فقال له القضاعى: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا، فرجع قصى إلى أمه وفى نفسه مما قال القضاعى شيء فسألها عما قاله فقالت: والله يا بنى أنت خير منه وأكرم. أنت ابن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من أولاد مضر، وقومك أصحاب البيت الحرام وما حوله، فأجمع قصى على الخروج إلى قومه واللحاق بهم، وكره الإقامة فى أرض قضاعة، فخرج مع الحاج حتى جاء مكة وأمر مكة يومئذ إلى حليل بن حبشية الخزاعى، وفى يده مفتاح الكعبة فخطب إليه ابنته، فلما عرف نسبه رغب فيه وزوجه فأقام معها حتى ولدت له، وكان حليل إذا اعتل أعطى المفتاح ابنته لتفتح البيت، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أو بعض أولادها منه، ولما حضرت حليلاً الوفاة دعا قصياً فجعل له ولاية البيت وأسلم له المفتاح، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا منه المفتاح، فمشى قصى إلى قومه من بنى كنانة فأجابوه إلى نصرته، وأرسل إلى أخ له من أمه فى قضاعة فمشى إليه فى جمع من قضاعة يبغون نصرته، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال فأبت خزاعة، فاقتتلوا بمفضى مأزمى منى فسمى ذلك المكان المفجر لما فجر فيه وسفك من الدماء[1]، ثم تداعوا إلى الصلح بعد قتال شديد واحتكموا إلى يعمر بن عوف وهو رجل من كنانة، فحكم لقصى بحجابة الكعبة وولاية مكة دون خزاعة، تنفيذاً لوصية حليل، وألا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة، فسلمت خزاعة لقصى بذلك فولي الأمر، وجمع قومه فأنزلهم مكة يستعذبهم، وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الميلادى تقريباً، وظلت خزاعة فى رباعها لم يحركوا شيئاً، وبذلك كان قصى أول رجل من كنانة أصاب ملكاً، وقد نظم إدارته.

*****

---

[1] المفجر مكان معروف بهذا الاسم اليوم بين منى ومزدلفة، وفيه مبنى الآلة البخارية التى ترفع المياه إلى مرتفعات منى. (ع) المفاجر بمكة ثلاثة: مفجر المزدلفة المتقدم، والمفجر الأوسط بين منى وجبل سدير يصل بين حوض البقر (العزيزية) والمحصب، والفجر الثالث بين نور وسدير جنوب مكة.

ويذهب بعض الأخباريين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصـــى أمرها، ويعللون ذلك بأن جرهم وخزاعة لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله غيره، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم وإنما كانوا يذهبون إلى الحل. فلما تم الأمر لقصـــى جمع قريشـاً واسـتقر بها فى الحرم وأمرها بألا تبرحه ليلاً، وأنه لكى لا يثير شعور القبائل ضده أقام الموائد ومد الطعام على أبواب الطرق الموصلة لمكة فى موسم الحج، فلما تأكد من عدم الاعتراض على فعله، بنى داره بمكة واتخذها مقراً لندوة قريش فعرفت بدار الندوة، يجتمع فيها كبراء مكة تحت إمرته للتشـــاور فى أمور بلدهم، وأمر قومه من قريش فبنوا دورهم بعد أن قســم البلد بينهم، فنزلت قريش كلها بالأبطح وهو وادى مكة، خلا بنى محارب والحارث ابنى فهروبنى تميم بن غالب وهو الأدرم وبنى عامر بن لؤى، فإنهم نزلوا الظواهر. ومنذ ذلك التاريخ أخذت مكة فى طور التحضــر والاسـتقرار والتنظيم فى شـئون الحكم والاقتصاد حتى أصبحت زعيمة الجزيرة العربية فى نهاية القرن السادس. هذا مجمل ما ذكره المؤرخون العرب وأصحاب الروايات عن نشأة مكة وعن قيامها كمدينة على يد قصى بن كلاب القرشى.

وكأنما يريد هؤلاء المؤرخون أن يقولوا إن مكة ظلت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصى فى منتصف القرن الخامس الميلادى.

وليس من الممكن الموافقة على ما يقول به المؤرخون العرب من أن مكة بقيت على بداوتها حتى اجتمع أمرها لقصى بن كلاب، فهذا أمر عسير التصور أن تبقى بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القدسية، فى حالة البادية مع ما يثبته هؤلاء المؤرخون من أن البيت بقى بعد إســماعيل فى يد جرهم أخوال بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله؛ ثم انتقال أمرها بعد ذلك لخزاعة، وهى قبيلة يمنية قدمت من بلاد عرفت الحضارة والاستقرار وشئون الحكم، وهى حين وليت أمر مكة حاولت تنظيم الحج والتوســع فيه وإغراء القبائل العربية بالقدوم إلى مكة، ومع أن مكة ملتقى طرق القوافل إلى اليمين وإلى الحيرة وإلى الشام، وأنها اتصلت بتجارة العالم عن هذه الطريق وعن طريق البحر الأحمر. كما يشــير هؤلاء المؤرخون إلى احترام التبابعة لمكة، فيذكرون مثلاً أن التبّع أســعد أبا كرب الحميرى قدم مكة ووضع الكسوة على البيت الحرام[1]، عسير أن يتصور بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة[2]. لذلك كان من الحق أن نقول إن مكة وقد دعاها إبراهيم بلداً ودعا الله أن يجعله آمناً مطمئناً، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالاً طويلة قبل قصى. ولقد أطلق القرآن الكريم على مكة اسم "أم القرى"[3] ومعنى هذا أنها كانت عاصمة للمنطقة التى كانت فيها.

---

[1] ابن هشام ١/٢٠-٢١.
[2] هيكل: حياة محمد ٩٢-٩٣.
[3] الشورى ٧. القصص ٥٩

ولا ريب أن هذه التسمية كانت جارية مالوفة قبل نزول القرآن. ومن إطلاق أم القرى على مكة يمكن أن يستدل على أن أنها كانت مدينة كبيرة، كما أنها كانت تتمتع بمركز محترم وتوجيه عام من سائر الأنحاء حولها، ولا يمكن أن يتم ذلك فى مدة وجيزة لا تتجاوز المائة عام. على أن الطبرى يشير إلى أن "قصى" حين قاتل خزاعة "أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة، فمنهم من وهب مسكنه ومنهم من باع ومنهم من أسكن، فولى قصى البيت وأمر مكة والحكم بها، وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم فى الشعاب ورؤوس الجبال فقسم منازلهم بينهم[٤]" وهذه الرواية التى ذكرها الطبرى تقطع مع ما ذكرنا بأن مكة كانت قائمة قبل مجئ قصى. ولعل ما دعا هؤلاء المؤرخين إلى هذا القول هو محاولتهم نسبة شرف إنشاء مدينة مكة إلى قصى القرشى الذى هو الجد الخامس للنبى ﷺ ، ولما وقر فى الإذهان من تعظيم قريش والإشادة بفضلها وبخاصة وأن هؤلاء المؤرخين والأخباريين مسلمون نشأوا فى ظل حكم قرشى.

وهذا القول نفسه هو الذى حدا بالمؤرخين الغربيين إلى التشكك فى روايات الأخباريين العرب وإلى التشكك فى وجود قصى نفسه. على أنه ليس من الصواب المغالاة فى هذا التشكك، فإن العهد بقصى ليس بعيداً، وليس من الحق نفى وجود شخصية تاريخية قامت بدور كبير فى حياة مكة. ومهما تكن المبالغة فى تصوير هذا الدور، فإن مائة وخمسين سنة ليست عهداً طويلاً بحيث تدخل حوادثها وأشخاصها فى حيز الأساطير، وبخاصة إذا قدرنا قيمة الذاكرة العربية، ومقدار اهتمام الناس بأنسابهم وأعمال آبائهم فى تلك الأيام، على أن معالم الآثار قد بقيت فترة طويلة فى العصر الإسلامى، فقد بقيت دار الندوة – وهى دار قصى التى جعلها منتدى القبيلة – معروفة باسمها حتى اشتراها معاوية بن أبى سفيان من صاحبها بمائة ألف درهم، وجعلها درا الإمارة بمكة، ثم أمر الخليفة المعتضد بالله العباسى بهدمها وإدخالها فى المسجد الحرام.

ونحن إذا تتبعنا جداول الأنساب وجدنا أن أمهات أجداد قصى من قبائل كانت تعيش فى منطقة مكة أو حولها، فأم كنانة من قيس عيلان، وأم مالك بن النضر من قيس عيلان كذلك، وأم فهر بن مالك – الذى هو قريش – من جرهم، وأبناء فهر أمهم ليلى بنت سعد بن هذيل، وأم لؤى بن غالب بن فهر هى سلمى بنت عمرو الخزاعى، وأم مرة من كنانة، وأم كلاب والد قصى هى بنت سرير بن ثعلبة الكنانى الذى كان أول من نسأ الشهر الحرام، فهذا التزاوج المتصل لا يكون إلا بالمجاورة، والمخالطة، الأمر الذى يقطع بوجود بطون قريش فى منطقة مكة ومخالطتهم للقبائل الضاربة حولها، قبل قصى بأجيال طويلة، على أن قريشا فرع من كنانة وقبائل كنانة مقيمة حول مكة لم تفارقها.

---

[٤] الطبرى ١٦/٢.

أما هذا التقدم الذى نالته مكة على يد قبيلة قريش، وأغرى المؤرخين بهذا الفرض، فإنه اســتمرار لحالة قد بدأت من قبل حكم قريش لمكة، فقد بينا أن مكة لا بد أن تكون قد أخذت بأسباب الاستقرار والتحضر قبل حكم قريش، فى عهد خزاعة على الأقل، وأن قريشــا قد وجدت بداية ســارت عليها، على أن ما أقرته قريش من نوع الحكم والتنظيم فى مكة إنما هو فى جوهره تنظيم قبلى موجود فى تشــكيل القبيلة العربية، ثم تطور تدريجياً بحســب مقتضيات ظروف الاستقرار فى مكة وبحسب اتصالات قريش الواسعة وقيامها على التجارة واحتكاكها بالعالم المتحضر. فافتراض أن قبيلة قريش قبيلة قدمت من الشمال فى عهد النبط افتراض لا يقوم على أى دليل تاريخى، أما عن الدليل اللغوى وهو أن لغة قريش لغة شمالية فإن الشمال هنا يحدد بالنسبة لكل ما يقع شمالى اليمن، ولهجة الحجاز هى فى نظرنا اللهجة الشمالية مهما امتدت شمالا.

*****

وتوفى قصى فانتقل الأمر إلى ابنه عبد الدار ولم ينافسه فى ذلك أخوه عبد مناف، ولكن أبناء عبد مناف أبوا على أبناء عمهم عبد الدار انفرادهم بمصــالح قريش بعد وفاة الأبوين، وكاد أن ينشب القتال لولا أن أسرع الوسطاء بينهم بالصلح، وقد أرضى الصلح الفريقين بتقسيم مصالح قريش بينهم بالقرعة[1].

وبذلك كانت الرياسة فى بنى عبد مناف فوليها هاشم، ثم نافسه أخوه أمية فكانت منافرات طال شأنها وغلب فى نهايتها أمية على أمره، فكانت أول منافرة بين الأمويين والهاشميين.

وانتهت الرياسة فى قريش بعد هاشم إلى ابنه عبد المطلب فتفاقم الخلاف بينه وبين بنى عمومته بنى أميه، ولكن كان حظ عبد المطلب كحظ أبيه هاشم فظفر من الشرف والرياسة والجاه فى قريش بما لم تظفر به بنو عمومته.

ومن أهم أعمال عبد المطلب كشفه عن بئر زمزم وكانت قد خفيت معالمها ومحيت آثارها بتقادم السنين، وقد قيل: إنه رأى فى منامه من دله على مكانها، فصــحت عزيمته على حفر أعماقها، فلم تمكنه قريش من ذلك لقداســة الصــنم الذى يقوم مكانها، فأسرها فى نفســه حتى تقادم العهد على الفكرة واستوى له من صلبه عشرة أولاد، فمضى فى عزمه مستنداً على سواعد أبنائه، وبذلك عادت زمزم إلى سابق عهدها يستقى منها الشاربون، وقد وجد عند كشف زمزم غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً كان ساســان ملك الفرس قد أهداها للحرم فدفن ذلك مع زمزم، فلما وجدها عبد المطلب صنع باب الكعبة منها.

---

[1] عندما اختلف أبناء عبد مناف مع أبناء عبد الدار عقد كل جماعة حلفاً خاصاً بألا يتخاذلوا أمام الفريق الآخر، ومما قيل: إن بنى عبد مناف اجتمعوا على جفنة مملوءة طيباً، فغمسوا أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموه حلف المطيبين، كما سموا بنى عبد الدار الأحلاف. (ارجع سيرة ابن هشام ١٤٣/١).

موقعة الفيل:

وفى عهد عبد المطلب كانت واقعة الفيل. وأصـــحاب الفيل هم طغاة من الأحباش كانوا قد زحفوا على اليمن فاســتعمروا أهلها، ثم ما لبث قائدهم أبرهة أن تطلع إلى مد نفوذه إلى الحجاز كعبة العرب، فشــرع يناوئ مكانتها الدينية بإنشــاء كعبة فخمة أملاً أن تنصــرف إليها أذهان العرب عن مكة، فلما لم تنجح فكرته، وظلت الكعبة على قدسيتها فى نظر العرب، أبى إلا أن يضـع حداً عملياً لنهاية هذا التقديس، فجهز جيشاً عظيماً وسيره إلى مكة لهدم كعبتها فأصــبحت قريش ذات يوم على أصــوات المغيرين يتقدمهم فيل عظيم، ولم يكن للعرب عهد بمثل ذلك، فلم يســع عبد المطلب إلا أن ينادى فى قريش أن يحجزوا إبلهم ويحموها ويتركوا أمر البيت: "فإن للبيت رباً يحمه"، ثم قام إلى باب الكعبة فأخذ بحلقه وهو يبتهل:

يارىبَّ إن المرءَ يمنعُ رحله فامنعْ رحالكْ

إن كنتَ تارِكهَم وقبلتَنا فأمُــرْ ما بدا لــكْ

ولئــن فعلــتَ فإنه أمــرٌ تتــمُّ به فعــالُك

ولقد حمى الله البيت بأبلغ ما تكون به الحماية ودافع عنه بأشد ما يكون الدفاع وأعظمه.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ {الفيل١/٢/٣/٤/٥}

الإنحلال فى مكة:

وظل الأمر لعبد المطلب فى مكة على أثر هذا، إلا أن القبائل النازحة إلى جوار البيت كانت قد تكاثرت وتفاقم تناسلها، فتفرقت بطوناً فى بادية مكة، وشرعت كل بطن تعتز بسيد فيها، فتعددت السلطات وتنوعت أحكامها وتقاليدها، وتعددت العقائد والديانات، وغدا أصحاب الشهوات يتفننون فى شهواتهم محتمين بتقاليدهم القبلية لا يهابون حكماً ولا يخشون سلطاناً.

إهلال النبى ﷺ:

وفى خضم هذه الفوضى وغمرة هذا الإنحلال كانت آمنة بنت وهب تتمخض فى بيت من بيوت عبد المطلب. وفى ليلة زاهرة من ليالى قريش أهل هلال النبى ﷺ

ودرج النبى ﷺ كأفضل ما يدرج الصبيان أدباً حتى يفع فى أطهر ما يفع فيه شاب اختارته العناية الإلهية لا ليقود أمته إلى طريق الخلاص والنور فحسب، بل ليضع يده على مقدرات التاريخ فيصوغها من جديد ويترك أثره فيها قوياً لا تمحوه جبابرة الأرض وأكاسرتها، خالداً لا تعفيه أحداث الحياة أبد الآبدين.

قوة الزعامة وأثرها فى إدارة شئون مكة

قوة الزعامة وأثرها فى إدارة شئون مكة قبل الإسلام

تولى قصـــى حكم مكة طول حياته، وجعل مركز هذا الحكم دار الندوة التى أنشـــأها، وأهتم بعمارة البيت الحرام وجعل وظيفة السـدانة من أهم الوظائف كما نظم سـقاية الحاج إلى الكعبة فى موسـم الحج، وجعلها وظيفة ثابتة عرفت باسم "السقاية" وقد بقيت هذه الوظيفة من أجّل الوظائف فى مكة وذلك لطبيعة البلد وشح المياه بها، ولأن كفالـة الماء فى هذا البلد القفر الحار مما ييســـر مهمة الحج ويجعل الإقبال عليه أمرا ميســـورا، كما فرض على قريش خرجا تدفعه له يصنع به طعاما للحجاج فى موسم الحج، وجعل هذا الفرض أمراً مقررا وجعل له وظيفة ثابتة عرفت باسم "الرفادة" كما كان له الرياسة العامة وله القيادة واللواء.

وقد جمع قصـى هذه الوظائف كلها فى يده، وظل طول حياته محترما مطاعا يرى الناس أمره فيهم كالدين المتبع: ولما مات خلفه بنوه على هذه المناصب وزادوا فيها إرضاء للبطون القرشية حتى وصلت إلى ست عشرة وظيفة. فهل كانت هذه المناصـب كلها أو بعضـها موجودة قبل قصـــى، أم هو الذى اسـتحدثها؟ لا نسـتطيع أن نقول أن "قصـى" هو الذى أنشـأ مكة واسـتحدث لها هذه المناصـب كلها. فالواقع أن القرية المكية انتظمت منذ عهد عمرو بن لحى زعيم خزاعة، وقد دخلت فى طور النظام الاجتماعى بعد أن مرت بطور من الإضـــطراب والحروب والرحلات والغزوات والقتال على السـيادة، وكان أسـاس الحياة فى هذا الوادى يقوم على قبول الهجرة من القبائل القادمة من الجنوب، وقد اســتمر النظام الحكومى قبل قصـــى عدة قرون. وكانت الوظائف الاجتماعية موجودة، ولكنها كانت لا تزال فى حالة أولية، وبقى على "قصـى" أن يكمل التشريع الذى بدأه عمرو بن لحى وبنوه، وينشأ الوظائف الحكومية ويشـيد دار الندوة، ويميز الحمس والدخيل والضـيف واللاجئ، ومنذ كانت خزاعة حاكمة فى مكـة، كـانـت قريش فى بنى كنـانـة متفرقـة. على أن التنظيم الحكومى فى مكـة ســـواء فى عهد خزاعة أو فى عهد قصى إن هو إلا تنظيم قبلى فى جوهره، وإن بدا نظاما جمهوريا من حيث أنه لم يكن الزعيم أو الذى يلقب بالملك، وبـالرغم من أن الحكم كـان شـــوريـا يخضـــع لرأى الجمـاعـة ورقـابتهـا، فـالواقع أنـه مع نمو العلاقـات التجـاريـة والاقتصـادية فإن مجتمع مكة كان مجتمعا قبليا، فهو لا يعدو أن يكون اتحاد عشـائر ارتبط بعضـها ببعض لغرض سدانة الكعبة من جهة، والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى، ولا سلطان على لعشيرة على أخرى بل كانت كل عشـــيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة مفروضـــة عليها لأحد، وكل ما فى الأمر أن اشـــتراكهم جميعاً فى مصـــلحـة واحدة خفف غلواء هذه الحريـة، ولكنـه تخفيف لم يخرج بقريش عن النظـام المعروف فى الجـاهليـة، ووجود مجلس الملأ فيهـا لا ينقض هذه الحقيقـة، فـإن عملـه لم يكن يعدو عمل مجالس القبائل، ولم يكن رأيه ملزما إلا حين توافق عليه العشــائر كلها، ومع ذلك فإن العشـائر كان يمكنها التخلص منه إذا رأت ذلك، فمثلاً بنو زهرة تراجعت ولم تشـــارك فى معركـة بـدر برغم موافقتهـا وخروجهـا، وكـذلـك بنو عـدى لم تخرج إلى القتـال برغم الإجماع عليه. كذلك كان الفرد يستطيع الخروج على هذه القرارات، ولم تكن هناك عقوبة تفرض على الخارجين عليها. وعلى حين كان التضـــامن القبلى قائماً، كانت أحياناً تبرز النزاعات الفردية، فبرغم أن الحياة التجارية فى مكة كانت تزيد من الترابط فى القبيلة، فقد وجد من الأشخاص من يفضل مصلحته الذاتية على مصلحة القبيلة،

وبرغم أن الأمن كان يتوقف على نظام العشيرة نجد أشخاصا يعملون ضد مصلحة العشيرة، فأبولهب عم النبى ﷺخرج على إجماع العشيرة وانضم إلى باقى بطون قريش حين أجمعت على مقاطعة بنى هاشم والعباس بن عبد المطلب برغم تضامنه مع عشيرته فإنه ظل على علاقته الودية مع باقى البطون القرشية حرصاً على تجارته وأمواله. وإلى جانب مجلس الشيوخ "الملأ" كان للعشائر أنديتها التى تجتمع فيها حين تدعو الضرورة لمناقشة الأمور الخاصة بالعشيرة، وكان يمكنها أن تتخذ قراراً يخالف رأى مجلس القبيلة، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب للتشاور والاتفاق على حماية محمد ﷺ ومواجهة قريش.

وبالرغم من أن مجلس الشيوخ "الملأ" كان وسيلة الحكم فى مكة، ينظم شئونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه لم يخضع لقانون مكتوب وإنما كان ينظر فى هذه الشئون حسب قوانين العُرف والعادة، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد، فكل فرد كان متمتعا بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة، وهذا هو نفس النظام الذى كان سائدا فى القبيلة العربية فى كافة أنحاء شبه الجزيرة، فاللفرد حريته وللجماعة حقوقها التى لا تتناقض مع هذه الحرية. وعلى ذلك كانت القرارات الحاسمة فى "الملأ" هى القرارات الجماعية. ويرجع الفضل الأول فى قوة مكة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على تكوين رأى عام، وحل المنافسات الداخلية التى تنشأ بين العشائر على أساس المصلحة العامة، والمحافظة على وحدة القبيلة التى كانت تتطلبها ظروفها كقبيلة تجارية مستقرة فى بلد يعتمد فى حياته على التجارة وما تجلبه لأهله من وسائل الرزق، كما يعتمد على قدسية البيت الحرام الذى يقوم فيه ويجلب إليه الحجاج من كافة أطراف الجزيرة العربية، وما يترتب على ذلك من حصول القبيلة على مركز أدبى ممتاز بين القبائل، ومن تجارة داخلية واسعة تدر على سكان البلد الحرام الثروة. وكان أى تفكك فى داخل المدينة يعرض مركز مكة للإنهيار، ولذلك كان لا بد أن يضع له أهله من الأنظمة والقوانين ما ينظم حياته ويقر الأمن فيه ويحفظ الحقوق، ويضمن حماية من يفد إليه من الأذى؛ لدوام مجئ الحجاج إليه. ولقد نجح ملأ قريش فى المحافظة على تماسك القبيلة، فاستطاعوا حل الخلافات الداخلية حلاً سلمياً، كما استطاعوا أن يرضوا شعور العشائر ويحدوا من تنافسها على السلطة بأن توسعوا فى قاعدة الحكم، فأنشأوا الوظائف وأسندوا لكل عشيرة وظيفة خاصة تمارسها فى نطاق القبيلة، ومع أن بعض هذه الوظائف لم يكن ذا قيمة إلا أنه أرضى شعور العشائر وأشعرها بمشاركتها، وحفظ تماسك القبيلة.

دار الندوة

ودار الندوة هى الدار التى بناها قصى بن كلاب، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الشامية من الكعبة، وكانت فسيحة واسعة وفيها كانت قريش تقضى شئونها العامة، وقد سميت الندوة، لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليه للتشاور. والندوة الجماعة، ودار الندوة دار الجماعة. وأهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش فيها يجتمع ملؤها للتشاور فى أمورها، ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا ابن أربعين سنة،

في حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم. على إنه كانت تقضى فى دار الندوة أمور أخرى غير المشاورة: ففيها كانت قريش تعقد لوائها إذا خرجت للحرب، ومن دار الندوة كانت ترحل قوافلها للتجارة وفى فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت، وإذا بلغ غلام لقريش عذر "أى ختن" فيها، وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها "أى قميصها" ثم درعها إياه ثم انقلبت إلى أهلها فحجبوها، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد تعريف بالبالغين من قريش الذكور والإناث.

السدانة والسقاية والرفادة

أما أهم المناصب الأخرى فى مكة بعد دار الندوة، فكانت السدانة، والسقاية، والرفادة، وكلها مناصب متصلة بالكعبة والحج إليها. والسدانة هى رعاية البيت والقيام على إعداده للزائرين، ولقد كانت هذه الوظيفة هامة جداً نظراً لمركز الكعبة عند العرب، ولأن البيت الحرام هو الذى أعطى مكة قدسيتها ومكانتها وجلب إليها الحجاج من كافة الأنحاء، وعلى الحجاج يقوم جزء كبير من حياة مكة الاقتصادية، فإن قريش تضرب فى مشارق الأرض ومغاربها لتجلب التجارة التى تبيعها للحجاج فى مكة وفى الأسواق التى تقوم حولها فى موسم الحج وتجنى من وراء ذلك ثروة كبيرة. من أجل ذلك اهتمت قريش برعاية البيت الحرام والدعاية له من كافة أنحاء شبه الجزيرة وجلبت إليها أصنام القبائل فأقامتها حول الكعبة. ولما كانت فى نظر العرب هى بيت الله الذى بناه إبراهيم الذى يردون أنسابهم إليه، وهى أول بيت وضع للناس فإن وضع الأصنام به يعتبر تكريما للأصنام ومن ثم يعتبر تكريما للقبائل التى تتقرب إليها وتعبدها وفى ذلك إغراء للعرب على الحج إلى الكعبة حيث يقفون بالبيت ويقربون لأصنامهم فى نفس الوقت. ولم يستحدث قصى هذه الوظيفة وإنما هى وظيفة قديمة ترجع إلى بناء الكعبة نفسها، فإنه من الطبيعى أن يكون لكل معبد سادنه.

ووظيفة السقاية لا تقل أهيمة، وهى مرتبطة بالكعبة والحج إليها، وتأتى أهميتها من أن مكة بلد شحيحة المياه، وأن الحج إليها يلقى عنتاً شديداً إذا لم تيسر له المياه وخصوصاً فى موسم الحج حيث يكثر الوافدون إلى مكة لأداء هذه الفريضة، وقد أصبحت مهمة السقاية بالغة الخطورة خصوصاً بعد أن طمرت بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر، نتيجة لإهمال جرهم لها، أو لأن زعيم جرهم قد طمرها، بعد أن هزم أمام قبيلة خزاعة واضطر الخروج عن مكة، حتى يضايق خزاعة ويجعل مهمة الحج عسيرة. ومن المؤكد أن الزعماء الخزاعيين اهتموا بتوفير المياه لإرواء الحجاج فى موسم الحج، وإن لم يفكروا فى إعادة حفر زمزم التى جهل الناس موضعها، وقد اهتم قصى بهذا الأمر حين ولى مكة اهتماما كبيرا نتيجة لاهتماماته بتنشيط الحج الذى يبدو أنه فتر فى العهد الأخير من حكم خزاعة، وقام بحفر الآبار فى وادى مكة، كما حفرت عشائر قريش آباراً كثيرة بعد قصى، وإن لم يفكر أحد فى إعادة حفر بئر زمزم. حتى كانت أيام عبد المطلب بن هاشم الذى آلت إليه هذه الوظيفة الهامة وأصبح يجد مشقة كبيرة فى توفير المياه للعدد المتزايد من الحجاج نتيجة للاتجاه العام نحو مكة المستقلة، بعدما أصاب الدويلات العربية فى الجنوب والشمال من تدهور سياسى وأدبى، وقد ألهمت الحاجه عبد المطلب التفكير فى حفر بئر زمزم، بئر إسماعيل، التى لابد كانت الأخبار لا تزال تروى عنها؛ والبحث عن مكانها حتى اهتدى إليها وأعاد حفرها، ومن ثم أصبحت عملية إمداد الحجاج بالماء أقل مشقة.

وقد عد المكيون وظيفة السقاية فضيلة عظيمة وشرفا كبيرا واعتبروها ووظيفة السدانة من أعظم الوظائف فى مكة، وكانت قريش تفاخر بهم، وقد تولت هاتين الوظيفتين أعظم العشائر القرشية. وحين فتح النبى ﷺ مكة ألغى كل المناصب بها ولم يبقى إلا هاتين الوظيفتين تقديرا لأهميتهما.

والرفادة هى إطعام الحاج فى أيام الحج، وقد فرض قصـــى على قريش خرجا تخرجه من أموالها وتدفعه إليه فيصنع به طعاما يقدمه للحجاج فى أيام عرفات ومنى، على اعتبار أن الحجاج هم ضيوف الله وأن أحق الضيف بالكرامة هم ضيف الله، وأن على قريش، وهى تسكن فى حمى بيت الله وتقوم عليه؛ أن تقوم بهذا الواجب السامى. وكان هذا العمل من قصـــى ينطوى على حكمة سـياسـية كبيرة، فإن إمداد الحاج بالطعام يدعو إلى الإقبال على القدوم إلى مكة، وخصوصاً إذا قدرنا بعض الشقة وصعوبة حمل المؤن والزاد مع السفر فى الصحراء مسافات طويلة، كما أن البادية كانت فقيرة، وكان إطعام الطعام فضـــيلة من أكبر الفضـــائل التى يتمدح بها العرب وينال صـــاحبها عن طريقها الاحترام العام والمنزلة الرفيعة. كما أن المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب، فإذا أطعمت قريش القبائل القادمة إلى مكة فى موســم الحج فإنها تنال بذلك احتراماً عاماً ومنزلة ســامية فى نظر هذه القبائل، كما تعتبر إنها تعاقدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذه المؤاكلة، وبذلك يصـبح فى إمكان قريش أن تسـير آمنة فى أراضـــى هذه القبائل. ولذلك كانت الرفادة وظيفة ســامية فى مكة، وكانت توكل إلى العشـــائر العريقة من قريش.

هذه الوظائف الثلاثة "السدانة والسقاية والرفادة" لم تكن وظائف قبلية، إنما هى وظائف اسـتلزمها وجود الكعبة بمكة وقيام الحج إليها والرغبة فى تيســيره؛ حتى تجنى مكة من وراء ذلك الفوائد المادية والأدبية التى كانت ضرورية لحياتها كبلد يعتمد على التجارة وعلى الاتصال بالقبائل من حوله.

اللواء والقيادة والوظائف الأخرى

والوظيفتان الرئيســيتان بعد ذلك فى عهد قصـــى هما: اللواء والقيادة، والأولى هى الراية تعقد فيجتمع إليها المحاربون، ويسلمها قصـى لمن يتولى القيادة العامة. والقيادة هى قيادة الجيش عند الحرب وقد يتولاها بنفسه أو ينيب عنه من يتولاها. وهاتان الوظيفتان كانتا موجودتين فى تنظيم القبيلة العربية، فشـــيخ القبيلة هو الذى يعلن الحرب على القبائل الأخرى ويدعو المحاربين إلى الاجتماع، كما إنه يقود القبيلة فى حروبها أو ينيب عنه من يقودها. وكل ما اسـتحدثته قريش فى هذه الناحية إنها وكلت أمر هذه الوظائف إلى عشـــائر معينة تتوارثها، وذلك لإنه لم يصـــبح لقريش بعد موت قصـــى زعيم عام ترجع إليه القبيلة وإنما أصـــبح يحكمها "الملأ" وهم رؤســـاء العشائر الذين اعتبروا أنفسهم متساوين من حيث المبدأ واقتسموا المناصب فيما بينهم.

هذه هى المناصب الرئيسية الستة التى برزت فى عهد قصـى والتى اقتسمها بعد ذلك أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف ابنى قصـــى. ولكن تطلع البطون القرشـية إلى التقدم والمشـــاركة فى شـئون مكة وحرص الملأ على وحدة القبيلة وإرضاء العشائر أدى إلى أن يستحدثوا عشر وظائف أخرى هى: العمارة وهى مراعاة الأدب والوقار فى البيت الحرام فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات.

والحجابة وهى قفل البيت وفتحه للزائرين. والمشـــورة وهى إنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضـــوه على صاحبها. والأشناق وهى جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها. والقبة وهى خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش. والأعنة وهى قيادة الخيل والسفارة وهى الاتصال بالقبائل الأخرى فى المنافرات والمفاوضات. والإيسار وهى الأزلام التى يضرب بها عند هبل كبير الأصنام فى جوف الكعبة. والحكومة وهى الفصل فى المنافرات والخصومات، والأموال المحجرة، وهى الأموال المسماه للألهة[١].

وحين ظهر الإسلام كان الشرف فى قريش قد انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن وهم:

١- العباس من بطن هاشم وإليه كانت السقاية وبقى له ذلك فى الإسلام.

٢- أبو سفيان من بطن أمية وعنده العقاب راية قريش فإذا اجتمعوا على أحد سلمها له وإلا فهو صاحبها، وهذه الوظيفة هى وظيفة القيادة.

٣- الحارث بن عامر من بطن نوفل وكانت إليه الرفادة.

٤- عثمان بن طلحة من بطن عبد الدار وكانت إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال أن الندوة أيضاً كانت فى بنى عبد الدار.

٥- يزيد بن زمعة بن الأسود من بطن أسد وكانت إليه المشورة.

٦- أبو بكر الصديق من بطن تيم وإليه كانت الأشناق فى الجاهلية.

٧- خالد بن الواليد من بطن مخزوم وإليه كانت القبة والأعنة.

٨- عمر بن الخطاب من بطن عدى وإليه كانت السفارة فى الجاهلية.

٩- صفوان بن أمية من بطن جُمح وإليه كانت الأيسار.

١٠- الحارث بن قيس من بطن سهم وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة.

وقد استمرت هذه المناصب حتى فتح مكة حين ألغاها النبى ﷺ جميعاً إلا سدانة البيت والسقاية: وبعض هذه المناصب تفريع لبعض الوظائف السابقة، وبعضها ليست له قيمة كبيرة، على إنها جميعاً من صميم التنظيم القبلى إلا ما كان منها متصلاً بالكعبة والبيت الحرام، ولم تكن المناصب توكل إلى الأفراد وإنما كانت توكل إلى البطون وكل بطن يرشح للوظيفة من تكتمل له صفات الرياسة على ما كان يجرى فى النظام القبلى من أن الفضائل الشخصية هى الأساس فى تولى مناصب الرياسة.

*****

[١] العقد الفريد: ٣١٣/٣ – ٣١٥

يرجع الفضل الأكبر فى تقدم مكة وتفوقها فى عهد قريش إلى قوة زعمائها وقدرتهم على حل المنافسات التى تنشأ بين الأفراد والعشائر للمصلحة العامة. وفى بلد تجارى مثل مكة كانت قوة العشيرة ونفوذها مرتبطاً إلى حد كبير بثروتها العادية. كما كانت أهمية الفرد فى هذه البيئة تتوقف على ثروته وعلى نفوذ عشيرته وقوتها لكن هذا لم يكن أمراً مطلقاً فالثروة والنفوذ العشائرى لم يكن إلا بداية لظهور الفرد، فإن الثروة فى بلد تجارى كانت عرضاً يمكن أن يزول بين عشية وضحاها فى إحدى المضاربات التى كان يزاولها أهل مكة ومن ثم كان الأفراد كما كانت العشائر تتردد ما بين الغنى والفقر.

أما العامل الرئيسى الذى يتوقف عليه تفوق الفرد ونفوذه فهو المواهب الشخصية والمزايا الذاتية، فذكاؤه التجارى والمالى ومهارته فى معاملة العشائر والقبائل الأخرى، وقدرته على أن يحمل الآخرين فى عشيرته وفى خارجها على أن يتقبلوا زعامته، كان المؤهل الحقيقى للزعامة فى مكة.

وأول زعيم فى قريش هو قصى بن كلاب الذى جمع قريشاً وأقامها فى مكة وثبت وظائف مكة فى يدها. ولعمله الجليل الذى قام به كان موضع الإجلال والتقدير طوال حياته وبعد مماته، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها، وكانت داره هى دار الندوة وفيها كان يبرم أمر مكة كله، وكانت قريش تتيمن برأيه وتتبع أمره، وفى يده تجمعت كل مناصب مكة وحكمها، وفى عهده نمت مكة واتسع عمرانها واستقلت بها بطون قريش، كما عمل على تنشيط الحج إليها فاتسعت تجارتها الداخلية مع القبائل العربية الوافدة إليها وبدأت تعظم ثروتها.

وحين أسن قصى عهد بالمناصب كلها إلى ابنه عبد الدار، ولم تتحدث المصادر عن نشاط عبد الدار ولا عن أثره فى مكة، ولابد أنه سار على نهج أبيه، ولكن يبدو أنه لم يكن على جانب كبير من المقدرة لا هو ولا أحد من بنيه، الأمر الذى جعل بنى عمهم عبد مناف ينازعونهم زعامة مكة ويرون أنهم أحق بها منهم لشرفهم وفضلهم. وقد أدى هذا التنازع إلى قيام حلفى المطيبين والأحلاف وكادت الحرب تقع بين بطون قريش ثم اقتسمت المناصب فآل لبنى عبد مناف الرفادة والسقاية، وهما أهم وظيفتين فى مكة لإرتباطهما بالحج ووفود الحجاج إلى مكة من قبائل العرب المختلفة. الأمر الذى كانت مكة تعتمد عليه فى حياتها الاقتصادية وقد وكل أمر هاتين الوظيفتين إلى هاشم بن عبد مناف الذى يبدو أنه كان واسع الثروة جم النشاط، فقد نالت مكة على يده هو وأخوته تقدماً كبيراً وبعد أن كانت تجارته قاصره على التجارة الداخلية مرتبطة بالحرم فتح لها هاشم وأخوته مجال التجارة الخارجية، فقد رحلوا إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحبشة وإلى العراق، وقاموا باتصالات قوية مع حكام هذه المناطق أدت إلى عقد معاهدات تجارية، فقد أخذ من الروم عهداً بالسماح لتجار قريش أن يدخلوا الشام وبلاد الدولة الرومية فى سلام، وكذلك أخذ أخوته المطلب وعبد شمس ونوفل عهوداً مماثلة من الأكاسرة والنجاشى والحميريين. وبذلك بدأت قريش تسيطر شيئاً فشيئاً على التبادل التجارى بين الشمال والجنوب. وقد قام هاشم بتنظيم رحلات القوافل إلى الجنوب شتاءاً وإلى الشمال صيفاً، وقد عرف هذا النظام برحلتى الشتاء والصيف وإلى هاتين الرحلتين وأثرهما يشير القرآن الكريم {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} {قريش ٤/٣/٢/١}

كما وضــع هاشــم نظاماً لتأمين مرور القوافل بين القبائل العربية وذلك بإشــراك زعماء القبائل فى قوافله؛ فيحمل لهم بضـائعهم دون أن يتحملوا فى نقلها شيئاً، وبذلك اتسعت تجارة قريش وعظمت ثروتها وأصبح هاشم بن عبد مناف زعيماً لمكة كلها، وإن لم تجتمع له كل المناصب كما كان الحال عند جده قصى. لكن موته المبكر حرم مكة من جهود هذا الزعيم، المفكر النشـيط، وقام إخوته من بعده على تدعيم تجارة مكة الخارجية، لكنه لم يكن لأحدهم من المكانة ما كان لهاشم، وبدأت تظهر شخصيات أخرى فى البطون القرشية لم تبلغ منزلة أحدهم مكانة الزعامة المطلقة، وترتب على ذلك أن برزت قوة الملأ فى قريش، وهو مجلس القبيلة المكون من زعماء العشـائر وأتيحت الفرصـــة لظهور رجال متعددين كانت تقوم العلاقة بينهم على أســـاس التكافؤ وكانوا يشـــاركون جميعاً فى إدارة شئون مكة.

وكان أبرز هؤلاء الزعماء فى النصــف الثانى من القرن الســادس الميلادى هو عبد المطلب ابن هاشــم. ولم يكن عبد المطلب فى منزلـة أبيه، وإنمـا كـان أحد هؤلاء الرجـال المتنـاظرين الأكفـاء الـذين حفل بهم ملأ مكة فى هذه الفترة، وكان أكبر عمل أظهر شــخصــية عبد المطلب، هو إعادته حفر بئر زمزم التى كانت قد غاضــت مياهها وطمست فى أواخر أيام جُرهم، وقد يسر حفر زمزم مهمة السقاية التى كان يقوم عليها عبد المطلب، كما رفع من مكانته الأدبية لما يحيط بزمزم من تعظيم على أنها بئر إسماعيل المبارك الذى فجره الله له.

فى أيـام عبد المطلب وقع الغزو الحبشـــى على مكـة، وقد حـاول عبد المطلب أن يرد الغزاة عن مكة عن طريق المفاوضــة فلم يفلح، كما لم يفلح فى تعبئة قريش لقتال الأحباش. لأن قوة جيشــهم وما أتوا به من عدة وســلاح وما كان معهم من الفيلة التى لا عهد للعرب بقتالها أفظعتهم فثبطت همتهم وبخاصــة بعد ما علموا بما أصـــاب القبائل التى تصدت لهم من هزيمة.

وتقول الروايات إن عبد المطلب لم يفارق الكعبة حيث تفرقت قريش فى شـــعاب مكة وجبالها خوفاً من الغزاة بل أخذ يستعد لمقاومة الغزو بمن أطاعه من قومه، وهو مع ذلك يدعو ربه ليرد كيد المغير عن بيته الحرام.

ولما تفشى المرض فى جيش أبرهه وارتد عن مكة، علت مكانة عبد المطلب الأدبية والدينية بين قومه حتى كانت قريش تقول "عبد المطلب إبراهيم الثانى"، كما علت منزلة قريش كلها بين القبائل العربية وقال العرب عنهم "أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم" وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} {الفيل ١/٢/٣/٤/٥}.

علاقات مكة الخارجية قبل الإسلام

علاقات مكة الخارجية قبل الإسلام

وبقيام مكة على نقل التجارة بين الشـــمال والجنوب بدأت تطرق المجال الخارجى، وبدأت تتخذ لها علاقات مع الدول المحيطة بالجزيرة العربية والتى أصبحت الوسيط فى نقل التجارة منها وإليها. وقد عمل رجال قريش على ألا يزجوا بأنفســهم فى مجال الصــراع الدولى، بل حرصــوا على الحيدة التامة بين المتنازعين، وقد أعانهم على اتخاذ موقف الحياد رغبة المعســكرين (الفرس والروم) فى وجود مثل هذا الوســيط المحايد من ناحية، وبُعد مكة وصــعوبة الوصــول إليها من ناحية أخرى، ومع ذلك فلم تسـلم مكة من محاولة السـيطرة عليها محاولات حربية وسياسية باءت بالفشل بفعل عوامل خارجة عن قدرة المكيين مرة، وبإصرار رجال مكة على حيادهم واطمئنانهم إلى موقفهم مرة أخرى.

علاقة مكة بالجنوب:

علاقة الحجاز باليمن قديمة جداً ترجع إلى أيام الدولة المعينية ثم الســبئية والحميرية (١٣٥٠ق.م – ٣٢٥م) الذين امتد نفوذهم إلى شمال بلاد الحجاز حيث أسسوا لهم مستعمرات على طول الطريق التجارى فى معان والعلا كما تشــهد بذلك النقوش التى وجدت فى هذه المناطق. وفى أيام هذه الدول لم تكن مكة أكثر من محطة تمر بها القوافل ويجد معبدها الاحترام، وبخاصـــة من ملوك التبابعة حيث تذكر الروايات أن التبع تبان أســعد أبا كرب الحميرى كان أول من كسا البيت الحرام وعظمه وأوصى بتعظيمه وكسوته. وقد كانت القبائل الجنوبية هى أول من سكن مكة، وكان لقبيلة خزاعة التى هى فرع من الأزد دور فى عمارة مكة وتنشيط الحج إلى بيتها الحرام.
وفى عهد قريش اتصــل أحد رجال مكة وهو المطلب بن عبد مناف بأقبال اليمن الحميريين وعقد معهم اتفاقاً على أن تقوم قريش بالمتاجرة فى أرضـــهم، وقد اتصـــلت تجارة قريش باليمن منذ ذلك الوقت – حوالى بداية القرن السادس – وسيطرت قوافلها التجارية تماماً على نقل هذه التجارة. وقد تضاءل شأن تجار اليمن واكتفوا بالتجارة مع قريش وكان قصاراهم أن يبيعوا بضائعهم لتجار مكة إذا قدموا إلى الشمال.
وكما حظيت مكة وبيتها الحرام بنفوذ كبير بين عرب الشـــمال، كذلك أصـــبح لها مكانة عظيمة فى نفوس عرب الجنوب الذين فقدوا اســتقلالهم وتطلعوا بدافع القومية إلى هذا البلد العربى المســتقل، حتى لقد غضــبوا حين جهز أبرهة حاكم اليمن الحبشــى حملة لغزو مكة، وتصــدت له بعض القبائل اليمنية وقاتلته. وقد قامت علاقات صــداقة ومودة بين زعماء مكة ورجالات اليمن.
أما علاقة مكة بالحبشـــة فإنها بدأت منذ خرجت مكة بتجارتها إلى المجال الخارجى، فإنه فى الوقت الذى اتصـــل فيه المطلب بن عبد مناف بأقبال اليمن، إتصـــل أخوه عبد شـــمس بالنجاشـــى، وأبرم معه اتفاقاً مماثلاً، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة لقريش وجهاً ومتجراً. وكانت الحبشة مصدراً هاماً من مصادر التجارة الشرقية،

فقد كانت تنتج البخور واللاذن والأطياب وريش النعام والعاج والجلود والتوابل، كما كانت منطقتها المصـــدر الأول لتجارة الرقيق الأسـود، وكانت قريش إذ تحصـل منها على هذه السـلع الهامة تحمل إليها ما تحتاج إليه من حاصلات الشام ومصنوعاته، ومن حاصلات الجزيرة العربية نفسها.

ولما استولت الحبشة على اليمن، لم تستطع أن تقوم بدور كبير فى التجارة التى أصبح نقلها يتم على أيدى التجار المكيين الذين أصبحوا الوسطاء المسيطرين على قوافل التجارة الخارجية، كما كفل لهم قيام البيت الحرام وإقرار هدنة الأشهر الحرم وقيام الأسواق فى منطقة مكة، السيطرة على تجارة شبه الجزيرة العربية الداخلية وقد فكر حاكم اليمن الحبشى أبرهة أن ينافس مكة فى هذه المكانة لعله ينتزع منها التجارة الداخلية فأقام كنيسة فى صنعاء حرص على أن تكون غاية فى الفخامة والروعة ليجلب إليها العرب للحج والمتاجرة، ولكن عمله هذا لم يأت بنتيجة، وذلك لأن الكتلة العظمى للقبائل العربية كانت وثنية، وقد كانت مكة مأوى أصنام العرب، ثم إن البيت الحرام كان محل تعظيم العرب جميعاً لأنه البيت الذى بناه إبراهيم وإسماعيل اللذان يرد العرب أنسابهم إليهما، فكان اتجاههم إلى مكة يرضى عاطفتهم الدينية والقومية على السواء، وقد دعا الفشل واحتقار العرب، للكنيسة التى أقامها أبرهة إلى قيامه بحملة ضد مكة لتدمير بيتها الحرام فتسقط بذلك مكانتها الدينية ومن ثم تذهب مكانتها بين العرب من ناحية، وليسيطر على هذه المحطة التجارية من ناحية أخرى ليتم اتصال الحبشة عبر الطريق البرى بحليفتها ببزنطة التى كانت تسيطر على بلاد الشام، وربما كانت من وراء هذا الغزو الحبشى ليصبح هذا الطريق الهام فى يدها ويد حلقائها، وقد فشلت حملة أبرهة بظروف بعيدة عن عمل المكيين ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

{الفيل١/٢/٣/٤/٥}

فقد تفشـــى المرض فى جيش أبرهة وهو على أبواب مكة بعد أن عجزت القبائل عن التصـــدى لهذا الجيش، كما عجزت مكة عن تهيئة قوة لحربه والوقوف فى وجهه، وقد زاد هذا الحادث من مكانة مكة الأدبية وأكد زعامتها السياسية والروحية.

وعلى الرغم من هذا العمل العدوانى من جانب الحبشـــة فإن العلاقات ظلت قائمة بين البلدين لحاجة كل منهما إلى الآخر، ولأن الحبشـــة لم تفكر بعد ذلك فى تكرار هذا العمل العدوانى وبخاصـــة بعد أن تغيرت الظروف بطردها من اليمن، ولأن قريشـــاً إطمأنت لمركزها بعد تراجع الأحباش عنها وبعد خروجهم من الجزيرة العربية كلها بعد هزيمتهم أمام الفرس، ولم يصـــبح أما الحبشـــة إلا هذا الوســيط العربى الذى يقوم على التجارة، فإنه لم يكن من المستطاع أن تخلق تجارة مع الفرس أعدائها وأعداء حلقائها الروم.

وفى أيام البعثة النبوية كانت علاقة مكة مع الحبشة علاقة وطيدة، وكان تجار قريش على صلة دائمة وعلاقات طيبة مع هذه البلاد وعلى معرفة بأحوالها، الأمر الذى جعل النبى ﷺ يفكر أول ما يفكر فى الحبشة حين اضطر إلى أن يشير على أصحابه بالهجرة، فهاجروا إليها ووجدوا فيها ملجأ وحماية، وفى حُسن استقبال هؤلاء المهاجرين ورعايتهم، وفى إرسال قريش سفارة قابلت النجاشى وفاوضته فى رد هؤلاء المهاجرين. ما يدل على أن العلاقة كانت وطيدة بين البلدين. وقد ظلت العلاقات الطيبة قائمة بينهما بعد ذلك مدة طويلة.

ولا بد أن صلة مكة التجارية بالجنوب قد ازدادت بعد قفل طريقها الشمالى إلى الشام بعد هجرة النبى ﷺ إلى يثرب ودخوله فى صراع مع قريش، فإن بلداً مثل مكة لا يقوى على عدم المتاجرة وإلا أكل رؤوس أمواله وهدد بالخراب[1].

علاقة مكة بالشمال:

علاقة مكة بالشمال قديمة ترجع إلى أيام النبطيين الذين كانوا يقومون على التجارة فى شمال بلاد العرب، والذين امتد سلطانهم إلى شمال الحجاز، وقد عمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب كان يعبدها النبطيون يعد الرواة منها: هُبل، كما استقدموا إلى منطقتها آلهة أخرى منها اللاة ومناة والعزى، ولا شك أن قصة عمرو بن لحى الذى اتفقت الروايات على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى وسيلة من وسائلهم لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام.

ولما قدم قصى إلى مكة وجمع قريشا ونازع بها خزاعة للاستيلاء على مكة استعان بقضاعة وهى إحدى القبائل التى كانت تقيم فى بادية الشام وتخضع للغساسنة الذين كانوا تحت النفوذ البيزنطى.

وحين ورثت بيزنطة سلطان الرومان فى المشرق ورث معه البيزنطيون رغبة الرومان فى الاستيلاء على طريق التجارة عبر الحجاز، إذ أن الطريق عبر العراق كان فى يد خصومهم الفرس وفى الوقت الذى حصلت فيه مكة على عهود من الحميريين والأحباش على غشيان بلادهم للمتاجرة حصل أحد زعماء مكة هاشم بن عبد مناف على عهد من الغساسنة والروم على المتاجرة فى أرض الدولة البيزنطية، لكن البيزنطيين عملوا من ناحية أخرى على أن يضعوا أيديهم على الرأس الجنوبى لهذا الطريق والاتصال مباشرة بمنابع التجارة الشرقية، ولما لم يكن فى الإمكان تسيير جيوشهم إليه فقد اتخذوا الحبشة حليفة لهم لتقوم بهذا الدور واصطنعوا الدين وسيلة لذلك، وحين استطاعت الحبشة الاستيلاء على اليمن عمل الحليفان على الاتصال عبر هذا الطريق، وبذلا محاولات للسيطرة عليه وإزالة ذلك الوسيط التجارى وهو مكة، ولا شك أن حملة أبرهة كانت إحدى هذه المحاولات العسكرية كما بذل الروم محاولة سياسية أخرى لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم،

---

[1] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف.

فارتضـــى قيصـــر لملك مكة رجلا من ســاداتها هو عثمان بن الحويرث بن أســد بن عبد العزى القرشـــى، وكان عثمان ممن تمردوا على الوثنية من حكماء مكة وبحثوا عن ديانة أخرى أفضـل منها، وقد قدم عثمان على قيصـر فتنصر وحسنت منزلته عنده. وملّـــك قيصر عثمان على مكة ومنحه براءة بذلك وكتب له كتبا يبلغها قومه، فعاد بها وجمع قومه إليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصـر، وينذرهم بسوء العاقبة فى الشـام إذا هم عصوه، وأهون ما هنالك أن يغلق قيصـــر أبواب الشـــام فى وجوههم، وهم قد نظموا قوافلهم على الذهاب إليها والمتاجرة فيها فى صــيف كل عام. وقد يبدو الأمر غريباً أن يمُلك قيصـــر رجلاً على مكة وليس البيزنطيين نفوذ على هذه الجهات، فإن نفوذهم الفعلى لم يتجاوز فى وقت من الأوقات أعالى الحجاز، ولكن ذلك لا يمنع من حصـــول عثمان أو غير عثمان على براءات وأوراق إعتراف من الروم بملك سـيد على قبيلة أو أرض ليس للروم عليها سـلطان، فقد كان حصـــول المشـــايخ والأمراء على أمثال هذه الأوراق وبراءات الاعتراف نوعاً من أنواع الإكرام والتقدير الأدبى يكســـب حاملها قوة معنوية، ثم هى تجعله فى جملة أصـــدقاء الروم وحلفائهم والحائزين على تقديرهم، وقد كان الروم يشـجعون هذا النوع من التودد السـياسـى لكسـب العرب وجرهم إلى جانبهم إذ به يتمكنون من بسـط نفوذهم على القبائل. وهذه المحاولة السياسية غرضـها كما هو ظاهر كغرض المحاولة العسـكرية التى قامت بها الحبشـة. ولم يجد عثمان من يوافقه على خطته من أهل مكة، ورأى زعماؤها أنه ليس من مصـلحة بلدهم أن يرتبط إرتباطا خاصـا بأى من المعسكرين المتعاديين فى هذه الأوقات التى وصل فيها الصراع بين الدولتين إلى مرحلة حادة مما يبرز أهميـة الحيـاد، وقد كـان أهـل مكـة يرون الغلـب فى هـذه المرحلـة معقودا لفـارس على الروم ويعتقدون أن النتيجة النهائية ســتكون فى مصـــلحتها﴿ الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ {الروم/٢}. وقد شـــجعهم على معارضـــة هذا الاتجاه الرومى إطمئنـانهم إلى بُعد بلـدهم عن متنـاول الروم، وقوة مركزهم بإزاء حاجة البيزنطيين للبضـــائع التى كانوا يحملونها. ولم يترتب على رفض العروض البيزنطية أى نتائج خطيرة بالنســـبة لمكة. على أن العلاقات التجارية اسـتمرت بعد ذلك فى حالة طيبة، بل إن تجارة مكة ازدادت نشـاطا واتسـاعا بعد ذلك إلى أن كانت الهجرة النبوية إلى يثرب حيث هددت تجارة قريش وأصـبحت شـبه متوقفة مدة أربع سـنوات نتيجة للصـراع الذى قام بين مكة والمدينة منذ معركة بدر سنة ٢هـ حتى صلح الحديبية سنة ٦هـ.

علاقة مكة بالفرس والحيرة:

فى نفس الوقت الذى حصـــلت فيه مكة على عهود من الروم والحبشـــة واليمن للمتاجرة فى بلادها، حصـــل أحد رجال مكة وهو نوفل بن عبد مناف، على عهد مماثل من كسـرى للمتاجرة فى بلاد الدولة الفارسـية، وقد اتصـلت تجارة مكة بالعراق ولكنها لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها بالنسبة للجنوب أو للشمال، وذلك لأن الفرس كانوا يتصـلون إتصـالاً مباشـرا بطريق التجارة الشـرقية المارة ببلادهم وبخاصـة تجارة الحرير وكانوا يحصـلون عليها ضـرائب باهظة، ولم يسـمحوا بوصـولها إلى يد الروم إلا بأثمان غالية جدا، وكان إحتكار الفرس للتجارة الشـرقية ومغالاتهم فى قيمة الضرائب ورفع الأسعار من الأسباب التى روجت تجارة مكة وقوت مركزها لدى البيزنطيين.

كما أن تجارة الفرس مع الجزيرة العربية كانت بيد الحيرة التى كانت تتسلمها ثم تجيزها إلى أسواق العرب نظير جعل تدفعه لرؤساء القبائل لحماية هذه التجارة. كما أن ملوك اللخميين كانوا يرسلون متاجرهم إلى أسواق مكة كل عام فى حماية بعض رؤساء القبائل العربية. الأمر الذى جعل تجارة قريش قليلة مع هذه الجهات،

ومع ذلك فقد كانت قوافل قريش تتصل بالحيرة ويقال إن قريشا تعلمت الكتابة من الحيرة، وقد ازداد نشاط التجارة القرشية نحو هذه البلاد بعد أن تضعضع ملوك الحيرة وكثرت اعتداءات القبائل على تجارة الفرس المارة عن طريقهم وعلى تجارة المناذرة أنفسهم، ثم ما تلى ذلك من سقوط سلطان الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر وهزيمة الفرس أمام العرب فى معركة ذى قار. وقد حاولت قريش أن تحول نشاطها التجارى ناحية العراق بعد أن توقفت تجارتها نحو الشمال بعد موقعة بدر سنة ٢هـ، فأرسلت قافلة بلغ ثمن ما بها من بضاعة مائة ألف، ولكن المسلمين تصدوا لها واستولوا على القافلة، فلم تستطع قريش أن تفلت من الحصار الذى ضربه عليها المسلمون من الشمال والشرق.

الحالة الاجتماعية فى مكة قبل الإسلام

الحالة الاجتماعية في مكة قبل الإسلام

التشكيل الاجتماعي لمجتمع مكة

كان التشــكيل الاجتماعي في مكة هر التشــكيل القبلي شــأنها في ذلك شــأن باقي أجزاء الجزيرة العربية، وكانت القبيلة الأســاسـية بها منذ منتصـف القرن الخامس الميلادي هي قبيلة قريش التي جمعها قصــي بن كلاب وأنزلها مكة بعة إجلائه خزاعة عنها، وككل تشــكيل قبلي، كان ســكان مكة يتكونون من حيث التشــكيل الاجتماعي من طبقات ثلاث:

١ ـ طبقة الصرحاء:

وهم أبناء القبيلة الأصليون، أي كل من ينتمي إلي قريش، وهو فهر بن مالك، فإن البطون القرشية التي نزلت مكة كلها تنتمي إليه، ومن مجموعها تكونت القبيلة التي عُرفت بهذا الاســم (قريش). وقد جعل القرشــيون من أنفســهم أصل المجتمع المكي، وكل من عداهم من العرب الأحرار انضم إليهم عن طريق التبعية بالحلف أو بالحوار، فهم أصــل المجتمع في مكة، ومن عداهم من باقي الســكان أما موالي لهم أو عبيد، وكان أبناء قريش يتمتعون بكل ما نظمه قانون العرف القبلي من حقوق، كما كان عليهم كل ما فرضــه من واجبات علي أســاس من التضــامن العام بين الفرد والجماعة في ظل رابطة الدم المشترك. وقد تميزت قبيلة قريش إلي قسمين رئيسيين حسب مساكنها في مكة: فالقســم الذي ســكن الوادي بجوار البيت الحرام عرف بقريش البطاح والقســم الذي ســكن علي أطراف مكة عرف بقريش الظواهر، وقد كانت قريش البطاح أكثر حضــــارة من قريش الظواهر التي عاشــــت شـــبه متبدية، ولذلك استأثرت قريش البطاح بشئون الحكم والرياسة، ووزعت المناصب الدينية والإدارية بين بطونها، ومن ثم فقد كانت صــاحبة الكلمة العليا في مكة وكانت رأس المجتمع المكي. وأنه وإن كان أبناء قريش علي درجة واحدة من حيث الحقوق والواجبات القبلية العامة، إلا أن الاســـتقرار والثراء الذي أحرزته قريش البطاح، والقيام علي شئون الحكم في مكة، قد ميزها علي غيرها من باقي البطون القرشية، فنالت منزلة اجتماعية أرفع.

وقد حظيت قريش بنوع من الاستقرار والأمن لم يتوفر لغيرها من القبائل الأخري، فقد ضـمن لها وجودها بجوار البيت الحرام حرمة عامة في نظر القبائل العربية فســـلمت من الغارات القبلية عليها، كما أنه لم تحدث بين بطون قريش اشــتباكات تؤدي إلي وقوع الدماء بينها، بل حرصــت القبيلة دائماً علي حل منازعاتها العشــائرية ســلمياً، ولكي تقضـي علي المنافسـات العشـائرية توسعت في قاعدة الحكم، وارتضت نوعاً من الحكومة نستطيع أن نسميه حكومة المتناظرين، وهي حكومة الملأ المكون من زعماء العشـائر، وعلي ذلك سلمت قريش من التفكك الداخلي، فلم يحدث أن خرج عليها أو من دائرتها بطن أو عشيرة من عشائرها إلي دائرة قبيلة أخري كما كان يحدث كثيراً بين القبائل العربية،

ولذلك أحس أهل مكة بمرارة شديدة حين خرج منها بعض أفرادها فهاجروا إلي أماكن أخري بعد ظهور الإسلام، وحاولت القبيلة جاهدة منعهم أو ردهم، واتهم القرشيون النبي ﷺ بأنه فرق بين الناس. وكانت وحدة القبيلة القرشية مظهراً رائعاً في نظر القبائل العربية التي جعلت من قريش موضوع إجلالها وقدرتها. وأصبح كثير من رجالها في مكان الحكام بين المتنازعين من قبائل العرب.

٢ ـ طبقة الموالي:

كانت مكة لحرمتها ووحدة أهلها واستقرار أمورها ملجأ لكثيرين من السائدين المحتمين بحرمها، كما كان في حياتها التجارية مجال لطلاب الكسب ممن وجدوا في أسواقها وقوافلها فرصة لاستثمار أموالهم في قوافل قريش والاتصال ببيوتها التجارية أو العمل في دوائر أعمالها. ولذلك كثر الموالي في قريش عن طريق الجوار، أو من الحلفاء من كافة قبائل الجزيرة العربية ممن أقاموا في مكة إقامة دائمة وشاركوا في حياتها العامة بمشاركة فعالة. وقد أتاحت مكة لعدد منهم أن يقتني الثروات الكبيرة. وهيأت لهم الحياة الآمنة المطمئنة. وقد تمتع بعض الموالي بمركز كبير في المجتمع المكي.

وقد أفسحت قريش صدرها لهؤلاء الموالي وأحلتهم هذه المنزلة الرفيعة تبعاً لسياسة قريش العامة التي قامت علي تنشيط التجارة، وإشراك القبائل العربية فيها والحرص علي حسن الصلة معها، ورغبة في أن تبرز حرمة البلد الحرام وأنه ملجأ العرب ومهوي نفوسهم، هذا إلي الرغبة في الانتفاع بجهود هؤلاء الموالي وخبراتهم.

فطبقة الموالي في مكة كانت أرفع شأناً وأكثر فاعلية في المجتمع المكي عن مثيلتها بين القبائل الأخري.

٣ ـ طبقة الأرقاء:

كانت هذه الطبقة كبيرة العدد بمكة، نظراً لأعمال أهل مكة التجارية الواسعة وانشغالهم بها واحتياجهم إلي من يقوم علي خدمتهم والاشتغال لصالحهم سواء في التجارة أو في الرعي أو في الزراعة ـ حيث كانت لهم بساتين ومزروعات في الطائف ـ أو في الصناعة التي لابد موجودة في مكة لسد حاجة هذا المجتمع الذي أخذ بأسباب التحضر. ولما كان تجار مكة قد نالوا حظاً وافراً من الثروة وعاش بعضهم عيشة راقية بالنسبة لغيرهم من المجتمعات القبلية الأخري في الجزيرة العربية، فقد جلبوا كثيراً من الرقيق للقيام علي خدمتهم ولإرضاء نوازع شهواتهم، وقد أغرم المجتمع المكي بالشراب والسمر والمنادمة، ومثل هذا المجتمع يحتاج إلي أعداد من الغلمان والجواري السود والبيض علي السواء للخدمة والتسلية وإرضاء الشهوات. وقد بلغ عدد الرقيق في مكة حداً كبيراً، والرقيق في تلك الأزمنة كان بضاعة ضرورية لابد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحاً عظيمة، فهم آلات ذلك العصر ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول علي الثروة، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة والأثرياء في أيام السلم وفي الحرب.

ومكة وهي بلد الأثرياء والتجار في إقليم الحجاز: لابد لها من استيراد هذه الآلات البشرية للاستفادة منها في تمشية الأعمال وتوسيع التجارة وزيادة رؤوس الأموال.

وقامت بخدمة قريش طائفة أخري من الرقيق هي أدق عملاً وأحسن خدمة وأرقي في الإنتاج، من الشمال في بلاد الشام والعراق، هي الأسري البيض الذين كانوا يقعون في أيدي الفرس والروم أو القبائل المغيرة علي الحدود، فيباعون في أسواق النخاسة ومنها ينقلون في أنحاء الجزيرة العربية للقيام بمختلف الأعمال، يضاف إلي هؤلاء الرقيق المستورد من أسواق أوروبا لبيعه في أسواق الشرق: وكان هذا الرقيق أغلى ثمناً من الرقيق الأسود نظراً لأنه كان أكثر ثقافة. وكان يحسن من الأعمال ما لا يحسنه العبيد السود. ومن جملة ما وكل إلي هذا الرقيق الأبيض من أعمال، إدارة المبيعات، والقيام بالحرف التي تحتاج إلي خبرة ومهارة وفن، وهي من اختصاص أهل المدن المستقرين مثل أعمال البناء والتجارة الدقيقة.

وكما كان في مكة كثير من الرجال الأرقاء سود وبيض، كذلك كان بها عدد كبير من الإماء منهن السوداوات اللائي كن يقمن علي الخدمة في البيوت ومنهن البيضاوات من الروم والفرس وغيرهن كن يقمن علي الخدمة والمنادبة وإرضاء نوازع النفس. وكانت عادة تسري الإماء فاشية ولم يكن عدد الإماء اللائي يتسراهن الرجل محدوداً، ينكحهن بدون عقد ولا مهر، وله أن يهب أو يبيع من ينكحها منهن دون طلاق إذا لم تكن قد ولدت له. وكان الإماء مادة البغاء، فكن أكثر تعرضاً له. وكان أمراً مستساغاً بالنسبة لهن، وحين وضع الإسلام عقوبة الزنا جعل علي الأمة نصف عقوبة الحرة، إذ أن إرتكاس الإماء في الفاحشة أكثر توقعاً منهن، وتعرضهن للبغاء أكثر احتمالاً، وعار ذلك أقل شدة. وقد كان الشباب والفساق وطلاب الشهوة يتعرضون للإماء في الطرقات، ولذلك فرض الإسلام علي الحرائر أن يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدني أن يعرفن فلا يؤذين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ {الأحزاب/٥٩}

وقد ترك هؤلاء الرقيق في نفوس أهل مكة، وفي نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق، أثراً ليس إلا إنكاره من سبيل، وأن المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التي كانت معروفة عند العرب قبل ظهور الإسلام، ولاسيما ما يتعلق منها بالصناعات والأعمال التي يأنف العربي من الاشتغال بها، إنما دخلت لغتهم وشاعت بينهم عن طريق هؤلاء.

الجاليات الأجنبية:

في كتب التاريخ والسير والتراجم أسماء عدد غير قليل من الأجانب الذين كانوا في مكة في فترة البعثة النبوية منهم من كان مملوكاً ومنهم من كان تاجراً، فإنه لمركز مكة ونشاطها التجاري وصلاتها الواسعة بالشمال والجنوب توافد عليها كثير من التجار من الخارج من بلاد الشام ومن الروم و الفرس وغيرهم، ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم، وقد دخل بعضهم في الإسلام. كما كان منهم أصحاب صناعات وحرف كانوا يعملون لحساب أهل مكة أحياناً ولحسابهم أحياناً أخري، ومنهم من كان ذا معرفة متميزاً في ثقافته الدينية، ولا يستبعد أن يكون بينهم جماعة من المبشرين.

وتشير الآيات القرآنية الكثيرة إلي وجود عدد من الأجانب في مكة وإلي ديانة هؤلاء الأجانب علي أنهم من أهل الكتاب، وأهل الكتاب هم النصاري و اليهود.

النصاري:

وأكثر هؤلاء الأجانب كانوا من النصاري كما يستلهم من الآيات القرآنية، فإن إيراد قصة ولادة يحيي وعيسي وإنكار ألوهية عيسي بما يوحي بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصاري، ثم إن خبر إنكار الروم والبشري بفوزهم مما يدل علي أن الكتابين في مكة كانوا نصاري ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {الروم٢/٣/٤/٥/٦} فضلاً عن أنه يدل علي الصلات القوية بين المكيين والأحداث العالمية الجارية في ذلك الوقت ، ولقد كانت صلات مكة قوية بالشمال حيث كانت النصرانية هي ديانة أهل الشام، كما كانت منتشرة بين القبائل التي تعيش علي تخوم الشام وعلي الطرف الشمالي للعراق، كما كانت منتشرة في الحبشة واليمن وبخاصة في نجران التي قدم منها وفد لمباحثة النبي ﷺ، ومن هذه الجهات قدم عدد كبير إلي مكة إما بتشجيع بعض القرشيين ليكون عندهم من يقوم بما هم في حاجة إليه من الصناعات، وإما بسبب اضطهاد وقع عليهم، فلقوا من زعماء مكة ترحيباً وتشجيعاً، فقد كانت بلاد الشام مسرحاً لكثير من الثورات والاشتباكات والاضطهادات الدينية، ومن المحتمل أن يكون بينهم جماعة من المبشرين، فقد كان المبشرون يطوفون أنحاء الجزيرة العربية للدعوة إلي النصرانية وقد شجعت حكومة الروم هذا التبشير لمآرب سياسية بعيدة الأهداف، فقد كانت تبغي من وراء ذلك كسب العرب إلي صفها ومحاربة أعدائها الفرس بسلاح الدين.

وتلهم الآيات القرآنية أن النبي ﷺ قد اتصل بهؤلاء النصاري ودعاهم إلي التصديق برسالته ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ {الأعراف/١٥٧}، ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {يونس/٩٤}، ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ {الحج/٥٤} ، وأن منهم من كان ذا سعة في المال يمكنه أن ينفق في عمل الخير ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ {القصص٥٢/٥٣/٥٤}، وأن منهم من كان قوي الشخصية والنفس بحيث لا يبالي بلوم المشركين ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ، وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ {الإسراء١٠٧/١٠٨/١٠٩}، وعلي ذلك فهم ليسوا بأرقاء، وأن منهم من كان متميزاً في ثقافته الدينية، بحيث كان أهلاً للرجوع إليه واستشهاده في أمر الرسالة المحمدية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ {النحل/٤٣} ، وهذا الفريق لم يكن نكرة في أوساط مكة بل كان موضع ثقة ومرجع استفتاء في أمور الدين والدنيا، وأن منهم من كان مجادلاً حجاجاً بل متطرفاً في جداله. ولكنهم بوجه عام كانوا رقيقي العاطفة دمثي الأخلاق جريئين في إظهار الحق لا يبالون أهل مكة وزعماءها الأقوياء.

وليس في الإمكان تحديد الزمن الذي نزح فيه هؤلاء إلي مكة واســتقروا فيها ولكن آية النحل ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ {النحل/١٠٣} تلهم أن بعض هؤلاء كانوا حديثي عهد بمكة ومن المحتمل أنهم جاءوا اقبيل البعثة فكانوا لا يزالون يتكلمون لغة عربية ســقيمة، أو لا تزال لغتهم الأجنبية مستعملة عندهم. وقد كان أثر النصرانية في مكة أكثر من أثر اليهودية فإن بعض رجال مكة الذي تبرموا بالوثنية وخرجوا عليها تنصروا أمثال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث.

اليهود:

وفي السور المكية كذلك آيات كثيرة تتحدث عن موسي وفرعون وأحداث بني إسرائيل، مما يدل علي أن رسالة موسي كانت موضع جدل كبير بين مشركى مكة والنبي ﷺ، وفي الحفاوة البالغة بهذا ما يدل علي وجود صلات قوية بين اليهود وبين المكيين، وكذلك تدل الآيات علي وجود إســرائيليين في مكة وآية الأحقاف ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ {الأحقاف/١٠} والشعراء ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ {الشعراء/١٩٧} ، تقطعان بذلك إذ أن الأولي تحتوي شهادة واقعية من أحد بني إســرائيل بصــحة ما يوحي إلي النبي وإيمانه به، كما تقطع الثانية بأن علماء بني إســرائيل يقرون بأن ما جاء به مماثل لما يعلمون.

وقد ذكرت كتب الســير والتراجم صــلة بعض اليهود بالمكيين ومحالفتهم لهم وإقامتهم بمكة للاتجار. إلا أنه من الراجع أنه لم تكن في مكة جالية يهودية كبيرة حيث لم يذكر القرآن المكي احتكاكاً ولجاجا بينهم وبين النبي ﷺ كما حدث في يثرب، ومن المحتمل أن المستقرين منهم بمكة كانوا أفراداً قلائل[1].

---

[1] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف.

الحالة الاقتصادية فى مكة قبل الإسلام

الحالة الاقتصادية فى مكة قبل الإسلام

فى بداية القرن السادس الميلادى تبدو مكة ممسكة بزمام التجارة فى بلاد العرب، تنعقد فيها وحولها أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية فى موسم الحج من كل عام، وقوافلها التجارية تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية، تحمل التجارة بين الشرق والغرب متجهة إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام وإلى العراق. وقد اتاح لها هذه الفرصة موقعها الممتاز فى وسط طريق التجارة البرى المار بالحجاز وهو الطريق الوحيد الذى بقى آمنا فى ذلك الوقت. وقيام البيت الحرام الذى انعقد إجماع العرب على تعظيمه والحج إليه، كما أنها بعدت عن منطقة التصارع الدولى لبعد موقعها فنجت مما أصاب غيرها من أطراف الجزيرة العربية من الوقوع فى مجال العراك القائم بين الشرق والغرب (الفرس والروم) فى ذلك الوقت، ولبعد موقعها وصعوبة وصول الجيوش إليها احتفظت باستقلالها، كما احتفظت بطابعها العربى الأَصيل، والحملة العسكرية الوحيدة التى وجهت إليها هى حملة الأحباش سنة ٥٧٠م، وقد باءت بالفشل، فعزز فشلها مركز مكة عند العرب جميعاً، وأصبحت تتمتع فى المجال العربى بتوجيه عام بعد ما أصاب الممالك القائمة فى أطراف الجزيرة من انهيار، ووقوعها جميعاً تحت سلطان الدول الكبرى. وقد أتاح لها هذا كما أتاح لها موقفها الحيادى أن تمثل دور الوسيط المحايد فى نقل التجارة التى كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين، وبذلك تمتعت بظروف اقتصادية طيبة من مزاولتها للتجارة بشقيها، الداخلية والخارجية، وقد أجرى رجال مكة الترتيبات المفصلة التى تكفل لهم الانتفاع بهذا الظرف على أكمل وجه، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير، وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة عوضتهم عن فقر البيئة التى تحيط بمكة، وجعلتهم يحتلون مركز الزعامة فى الجزيرة العربية كلها فى بداية القرن السابع الميلادى.

وقد مرت مكة قبل استقرار أمرها فى يد قبيلة قريش بطور من الاضطراب والحروب والرحلات والغزوات القبلية والقتال على السيادة، حتى استقر أمر مكة فى آخر الأمر فى يد قبيلة قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى، وعلى يدها نالت كل هذا التوفيق الذى وصلت إليه.

وتتحث المصادر عن أن قبيلة خزاعة التى سبقت قريش على حكم مكة، والتى كانت ولا تزال موجودة حول مكة عند ظهور الإسلام، كانت قد قامت بنشاط كبير للدعاية إلى بيت مكة وجلبت إليه أصنام القبائل العربية لتحبب إليهم الحج إليه، واهتمت بتيسير الماء والطعام للوافدين، ومعنى هذا أنها اهتمت بخلق مورد اقتصادى لمكة عن طريق قدوم الحجاج إلى البيت. ولا ندرى أكانت خزاعة تقيم أسواقا لنوع من التبادل التجارى بين الوافدين، أما كانت تكتفى بالهدايا والنذور، وما تحصله من ضرائب على القوافل المارة بها إلى جانب القيام على الرعى وتربية الإبل فى البادية، وإن كان البيع والشراء أمراً ضرورياً فى مثل هذه الحال، ولا نستطيع أن نحدد متى نشأت الأسواق التجارية حول مكة وإن كانت من المؤكد أنها نشأت بالتدريج فى المنطقة الواقعة بين مكة والطائف نتيجة لنمو المدينتين ونمو الحج إلى بيت مكة، والراجح أن ذلك حدث بالتدريج منذ بداية القرن الخامس الميلادى.

ويظهر ذكر عكاظ ومجنة وذى المجاز كأسواق تجارية وأدبية بصورة واضحة فى القرن السادس حين بدأ نفوذ الجنوب ينحســـر عن هذه المنطقة من الجزيرة العربية، بعد اضـــطراب الأحوال فى اليمن وتعرضـــها للغزو الأجنبى، وظهور قبائل الشـمال كعنصـر فعال مناهض لنفوذ الجنوب، حتى انتقلت زعامة الشـمال إلى الشـماليين وأصـبح أهل الجنوب تبعاً لهم كلما وفدوا على الشـمال. وقد وافق ظهور هذه النهضــة الشـمالية قيام قبيلة قريش وسيطرتها على شئون مكة واهتمامها بالبيت الحرام وتنشيط الحج إليه، وكان هذه عاملاً فعالاً فى نهوض المدينة المكية ونهوض هذه المنطقة كلها تبعاً لذلك[١].

تجارة قريش واقتصادياتها:

تاجرت قريش فى كل ما نتتجه شبه الجزيرة العربية من عروض، كما كانت تتاجر كذلك فى المجلوبات الخارجية من حاصلات الشرق والغرب.

فقد انتفعت مكة بموقعها الجغرافى فى منتصـــف طريق التجارة، وبوجود البيت الحرام بها. ولما كانت بلداً غير ذى زرع فقد اعتمدت على التجارة وما يجلب لها من الخارج، وقد كانت مكة قبل القرن الســـادس تقتصـــر على التجارة الداخلية حيث كان النشاط التجارى الخارجى فى يد اليمن. وكان أهل مكة يتاجرون فى حاصلات الجزيرة العربية، أو ما يصـــل إلى أيديهم من عروض التجارة الخارجية على يد تجار اليمن، ولم تكن مكة تجنى من وراء ذلك أرباحاً كبيرة تمكن أهلها من إحراز ثروة كبيرة، إنما كانت تســـمح لهم بالإعاشـــة. ولكن فى بداية القرن الســـادس كانت حالة اليمن قد تدهورت نتيجة للصـــراع الداخلى بســـبب الخلاف الدينى نتيجة لانتشـــار اليهودية والمسيحية فيها والتنافس بين الديانتين، ونتيجة لوقوعها فى منطقة التصـارع الدولى بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، وقد استخدمت الأخيرة الحبشـة حليفتها لإقرار النفوذ الرومى على جنوب بلاد العرب عن طريق غزو اليمن، وتكررت غزوات الحبشـة على اليمن حتى سقطت فى يدها فى النصـف الأول من القرن الســادس، وقد استمر حكم الحبشـة لليمن حتى أخرجهم منها الفرس فى حوالى سـنة ٥٧٦م ولم تتحرر اليمن من الاحتلال الأجنبى إلا بعد ظهور الإسلام وانضمامها إلى الدولة العربية الإسلامية.

وقد أدت كل هذه الظروف إلى أن تفقد اليمن مركزها التجارى. وقد صـحب ذلك ظهور نهضـة القبائل المصـرية فى الشمال، والتى ما لبثت أن تحررت من نفوذ الجنوب وبدأت تقوم بدور إيجابى فى الجزيرة العربية. ولما كانت مكة فى ذلك الوقت قد حظيت بنوع من الاستقرار والتنظيم على يد قبيلة قريش التى نظمت الحج ونشطت القدوم إلى هذه البقعة المتوســـطة وأقرت حرمتها وحرمة الأشـــهر الحرم للقدوم إليها والتجمع فى أســـواقها، فقد أخذت قريش تحتل المكانة التجارية التى كانت تحتلها اليمن وقد ســـاعدها على أن تنال هذا المركز النزاع الذى احتدم أواره بين الفرس والبيزنطيين فى الشمال، وانشغال كل من هاتين الدولتين الكبيرتين بهذا النزاع الدموى، وكذلك ما لحق الممالك العربية على أطراف العراق والشـــام من تدهور نتيجة لاشـــتراك المناذرة ملوك الحيرة فى هذا الصراع إلى جانب الفرس واشتراك الغساسنة إلى جانب الروم،

---

[١] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف.

ثم تغير سـياسـة الدولتين الكبيرتين تجاه المملكتين العربيتين الأمر الذى أدى: أولا إلى قفل طريق التجارة المار بالعراق فمدن الشـام، وثانياً إضـمحلال نفوذ هاتين المملكتين على القبائل البدوية حتى لم تعد الحيرة قادرة على حماية التجارة الفارسية فى بلاد العرب إلا عن طريق إتاوات تدفعها لهذه القبائل لتمرير هذه التجارات وحمايتها، وحتى مع دفع هذه الإتاوات فإن القبائل كانت كثيراً ما تعتدى على التجارة، وقد تجرأت فدخلت فى حرب ضـد الدولة الفارسية وهزمت جيوشـها وجيوش الحيرة معها فى موقعة ذى قار وهى الموقعة المشـهورة عند العرب. كذلك اضـطربت الأحوال بين الروم والغسـاسـنة حتى لقد أخذت هذه المملكة تهاجم أطراف الدولة البيزنطية مع القبائل البدوية، بعد أن كانت تحمى حدودها.

وقد استفادت مكة من هذه الظروف كلها لتحتل مركز الوسيط المحايد، لنقل التجارة بين الشمال والجنوب، ولبعد موقعها عن نفوذ الدولتين ولحاجة الدول إلى هذه التجارة العالمية وبخاصـة الروم، فقد قبلت أن يقوم رجال مكة بهذا الدور، فخرجت مكة عن عزلتها إلى المجال الخارجى، وأخذ رجالها عهوداً من الدول للمتاجرة فى أراضيها فى نهاية القرن الخامس الميلادى لتسـمح لتجار قريش أن يدخلوا بلادها فى سـلام. وقد قام بهذا الدور أبناء عبد مناف هاشم وإخوته الذين كانوا أصحاب النفوذ الأقوى فى قبيلة قريش.

وقد كان هاشم رجلا حكيماً نشيطاً استطاع أن يقوم على ترتيب القوافل التجارية فجعل لها رحلتين فى السنة رحلة فى أشهر الصيف إلى الشمال ورحلة فى أشهر الشتاء إلى الجنوب، وقد ذكر القرآن خبر هاتين الرحلتين فى معرض تعداد فضل الله على قريش ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ {قريش١/٢/٣/٤}

وقد عمل على تأمين طرق القوافل بما عقده من محالفات مع رؤساء القبائل الضاربة على جنبات طرق التجارة، فكان يحمل لهم تجاراتهم دون أجر وبذلك ربط هاشم مصالح القبائل الاقتصادية بمصلحة مكة وكوَن بذلك شبكة تجارية تربط مكة بما حولها، وبذلك أخذت قريش تسـيطر شـيئاً فشـيئاً على التبادل التجارى بين الشـمال والجنوب، وعظمت قوافلها حتى لتبلغ القافلة الواحدة خمسـمائة وألفى بعير تحمل عروض التجارة المختلفة. وقد بلغ قيمة ما تحمله قافلة عدد جمالها خمسـمائة وألف بعير حوالى خمسـين ألف دينار، وهو مبلغ كبير إذا قسـناه بقيمة العملة فى تلك الأيام. وكانت القوافل تحمل حاصلات الجنوب فتحمل من حاصلات الهند المنتجات التى ترد إلى موانى الجنوب وأهمها الذهب والقصـدير والحجارة الكريمة والعاج وخشـب الصـندل والتوابل والأفاوية كالبهار والفلفل ونحوها، والمنسـوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والميعة والزعفران والآنية من الفضـة والصـفر والحديد. كما تحمل من حاصـلات أفريقيا الشـرقية العطور والأطياب وخشـب الأبنوس وريش النعام والجلود والذهب والعاج والرقيق. كما تحمل من حاصـلات اليمن البخور واللبان والمر واللادن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيبة. ومن حاصـلات جزيرة سقوط العود والند ومن البحرين اللؤلؤ.

وتحمل من الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا هذا بالإضافة إلى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من الزيت والبلح والقرظ والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن.
كان تجار مكة يحملون هذه البضائع إلى الشمال والجنوب فى رحلات الصيف والشتاء. وكانت البضائع تفرغ فى مكة ثم تخرج منها فى القوافل إلى الجهات الأخرى. وقد اعتمد الروم على تجارة مكة إلى حد كبير وخصوصاً بعد أن احتدم الصراع بينهم وبين الفرس وأصبح الفرس يسيطرون على التجارة الواردة عن طريق الشمال المار بخليج العرب ثم العراق ويمنعونها من الوصول إلى أيدى أعدائهم أو يبيعونها لهم بأثمان باهظة، فكانت بيزنطة تعتمد على تجارة الشرق وخاصة الحرير. وكانت القوافل التى تقصد الشام تتسوق من أسواق عينتها لها الحكومة البيزنطية لتحصل منها على الضرائب ولتراقب الوافدين الأجانب إلى بلادها، فكانت تنزل أيلة "العقبة" منها إلى غزة حيث تتصل بتجار البحر المتوسط، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بصرى وإلى بيت المقدس.[1]
كما كان لمكة صلات قوية بالحبشة عن طريق البحر الأحمر، ولابد أن أهل مكة كانوا يستعملون البحر فى نقل متاجرهم إلى الحبشة عن طريق ميناء الشعيبة – وكانت الشعيبة ميناء مكة، إليها ترد السفن قبل جدة ثم أخذت جدة موضعها فى أيام الخليفة عثمان بن عفان – أو بعض موانى اليمن القريبة، ويظهر من روايات الأخباريين أن أهل مكة كانوا يستعملون هذا المرفأ والمرافئ القريبة منهم للاتصال بالحبشة والموانى الإفريقية المقابلة لهم فلا يدفعون ضرائب المرور من أرضين تقع فى اليمن وهى منافسة لهم، ولا يحتاجون إلى وضع حماية قوية على القوافل لمرورها بين قبائل عديدة إذا استعملوا موانى اليمن، فتكلفهم أسعاراً مرتفعة. ثم إن اليمن بعد زوال الأحباش عنها كانت فى حكم حاكم فارسى ولابد أن تتأثر تجارة اليمن بالحبشة بهذا التغير فى الحكم، ولابد أن يؤثر ذلك فى الموانى اليمنية وهى أبواب التجارة مع أفريقيا.
أما أهل مكة فكانوا تجاراً محايدين علاقتهم حسنة مع الروم ومع الفرس، وكان فى مصلحتهم الوقوف على الحياد، ولهذا كان من مصلحتهم الاستفادة من الموانى القريبة منهم فى التجارة مع الحبشة، ولا يستبعد استخدام أهل اليمن هذه الموانى كذلك لحيادها ولبعدها عن النزاع السياسى الذى كان بين الفرس وبين الحبشة وحلفائهم الروم. ولذلك لا تحدثنا الروايات كثيراً عن قوافل الجنوب، بينما كانت قوافل قريش متصلة دائماً نحو الشمال، كما تحدثنا عن رحلات بحرية إلى الحبشة التى كانت لقريش متجراً ووجهاً. ولعل من مؤيدات اتساع هذا الأفق التجارى البحرى الهجرة التى قام بها المسلمون إلى الحبشة، وليس من المعقول أن يهاجر المكيون إلى بلد لم يكونوا يعرفونه، وهذه المعرفة تدل على أن هذه البلاد من البلاد التى اتصل بها المكيون فى أسفارهم التجارية.
والآيات القرآنية التى تشير إلى البحر وعواصفه وما يجرى فوقه وما يستخرج من جوفه[2]. والتى تمتاز بوضوحها وجلائها الرائع ليست إلا صدى للنشاط التجارى والاتصالات البحرية بين الحجاز والحبشة وغيرها. ومع ما فى هذه الآيات من تعدد لنعم الله، إلا أنها بما تحمل من طابع الخطاب القريب تدل على أن الكلام موجه إلى المخاطبين القريبين وهم أهل الحجاز وأهل مكة بنوع خاص،

---

[1] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف.

[2] الأنعام: ٩٧، التوبة ٩٦، يونس: ٢٢.، النحل ١٤، الإسراء ٦٦، النور: ٤٠، فاطر ١٢، الشورى ٣١-٣٢، الرحمن: ١٩-٢٤.

وتدل على ما كان لهؤلاء من صـــلة بالأعمال البحرية المتنوعة وما كان يقوم فى ثغور الحجاز وســواحله من حركة وملاحة، وصـيد وغوص، وما كان لأهل الحجاز وبخاصــة مدنه وتجاره من منافع عظيمة، وكثرة الآيات وتكرار التعداد وتنوع الأساليب وهذه الحفاوة القرآنية فى الإشارة إلى البحار وما فيها وما يجرى فوقها وما يعود منها من المنافع العظيمة، يمكن أن تدل على أن حركة الملاحة والصـيد والغوص لم تكن ضـعيفة وأنها كانت مما يعول عليه أهل الحجاز فى معاشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية تعويلا غير يسير، وأنهم كانوا يعرفون البحر وركوبه ويستخدمونه فى أغراضهم المختلفة.

ولم تكن قريش حين سيطرت على التجارة تملك سفنا فى البحر الأحمر، ولكنها من غير شك كانت تنقل تجارتها من الحبشة إليها عبر هذا البحر، ولابد أن أهل مكة كانوا يستخدمون سفنا تعمل لحسابهم.

أما صـــلات قريش بالفرس فلم تكن على قدر كبير، لأن التجارة مع فارس كانت فى يد عرب الحيرة الذين كانوا يدبرون أمر وصول هذه التجارة إلى أسواق العرب وكانوا يحملون لهم من هذه الأسواق ما هم فى حاجة إليه من حاصـــلات الجزيرة العربية. ومع ذلك فقد كانت تجارة قريش تدخل بلاد فارس عن طريق قوافل تخرج من مكة إليها عبر الطريق الصحراوى المار بشرقى يثرب إلى العراق.

وكانت التجارة التى تحمل من الجنوب أو من الشمال أو من المشرق تفرغ فى مكة، حيث تستهلك البيئة المحلية منها ما تحتاج إليه، ثم يحمل الباقى إلى الأماكن المحتاجة إليه، فتحمل حاصـــلات الجنوب إلى الشـــمال كما تحمل حاصلات الشمال إلى الجنوب، فوق ما يحمل معها من حاصلات البادية العربية، ما تجمعه قريش من تجارة أهل البادية والمدن الحجازية مما يحمل إلى مكة أو إلى الأسواق القريبة منها فى عكاظ ومجنه وذى المجاز فى موسم الحج. وقد كانت صـلات مكة التجارية كبيرة بالطائف التى كانت تنتج مقادير كبيرة من الزبيب والنبيذ الذى كانت تستهلك مكة منه كثيراً، ومن الجلود المدبوغة. وكان المكيون يشـركون أهل الطائف أحياناً فى قوافلهم التجارية. كما كانت صلات مكة التجارية كبيرة بيثرب حيث يمتاز أهل مكة من ثمرها ويشترون كثيراً مما تنتجه من الحلى والسلاح الذى كان اليهود يقومون على صناعتها.

وكانت فى مكة سوق دائمة للتبادل التجارى وبخاصـة مع القبائل القريبة منها حيث تشترى مكة حيوانات الجزيرة ومنتجاتها من جمال وخيل وحمير وســمن وقرظ وجلود، وتبيعه لمن يحتاج إليه من الأعراب كما تبيعهم ما يحتاجون إليه من المجلوبات الخارجية، وكانت تجارة الملابس والأطعمة والشـراب رائجة فى مكة وبخاصــة فى موسم الحج. وصـارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية وبخاصــة من أهل الشـام والروم والفرس، سـاكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم، وقد اتخذوا فيها مستودعات لخزن بضـائعهم وتصـريفها، وكان تجار الشـام خاصـة يجلبون القمح والزيوت والخمر الجيدة إلى تجار مكة وقد ورد فى كتب السير والرجال أسماء بعض هؤلاء ممن كانوا من بلاد الشام فى الأصل ثم سكنوا مكة ودخلوا فى الإسلام من أمثال تميم الدارى، وكسيان

وقد ذكر المستشرق "أوليرى" أن مكة أصبحت مركز للصيرفة يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك، وكذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر، وقد كان يساعد قريشا على تأمين تجارتها ما كانت تتمتع به من حرمة عند العرب وما كان لها من ارتباطات مع القبائل الضاربة على طول طرق التجارة.

ولم تكن قوافل مكة تجارة أفراد وإنما كانت تجارة مدينة، وكانت قريش كلها تشارك فيها، وكان كبار التجار يقومون على هذه القوافل التى تضم أموالا لأفراد متعددين منهم من يسافر على تجارته ومنهم من يستأجر آخرين ومنهم من يقرض ماله للمتاجرة على النصف، وأحياناً كانت القافلة تحمل أموالا لأهل مكة جميعاً. ولم تكن التجارة خاصة بالرجال دون النساء، فكان منهن ثريات اشتغلن بالأعمال التجارية مثل خديجة بنت خويلد التى كانت تتجر بمكة وكانت تستأجر الرجال للسفر بتجارتها إلى الشام، ومثل الحنظلية أم أبى جهل التى كانت تتاجر فى العطور تجلب لها من اليمن. وتشير الآية القرآنية إلى ذلك ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ {النساء/٣٢} وكانت المرأة لا تنكح إلا ولها مال. وعلى ذلك فتجارة مكة الخارجية ليست تجارة أفراد وإنما هى تجارة جماعية.

وقد أدى نشاط بعض أسر مكة فى التجارة إلى حصولها على ثروات طائلة وقد أسهم رجل واحد من أهل مكة هو أبو أحيحة بن سعد بن العاص بن أمية بثلاثين ألف دينار فى القافلة الى كان يقودها أبو سفيان وكانت السبب فى موقعة بدر سنة ٢ هـ، ومبلغ مثل هذا ليس بالشئ القليل بالنسبة للوضع المالى فى تلك الأيام. كذلك كان عبد الله بن جدعان التيمى والوليد بن المغيرة المخزومى من أثرياء مكة، وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم وهو عبد الله ابن أبى ربيعة يلقب بعدل قريش وقد كان تاجراً موسرا وكان متجره إلى اليمن.

الربا والمضاربات

كان الربا مظهراً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية، وكان أهل مكة، كما كان أهل الحجاز واليهود يعولون عليه كثيراً فى تنمية ثرواتهم، وكان الربا أحياناً يبلغ أضعاف القرض نفسه فتؤكل بذلك أموال المدين وتذهب حقوق الأفراد. وفى القرآن آيات كثيرة يستلهم منها أن الربا كان راسخاً رسوخاً شديداً، وأنه كان جزءاً من الحياة الاقتصادية وبخاصة عند التجار وأهل المدن، وإذا كانت معظم الآيات التى نزلت بشأن الربا نزلت بعد هجرة النبى إلى يثرب وقيام الدولة الإسلامية بها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ {آل عمران/١٣٠} ، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {النساء١٦٠/١٦١}

إلا أن بعضـــها نزل بمكة أو بعد فتحها ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ {الروم/٣٩} مما يدل على أنها كانت موجهة إلى المكيين، وأن الربا كان أمراً شائعاً ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {البقرة/٢٧٥} عاماً. وقد أعلن النبى ﷺ فى حجة الوداع سنة ١٠هـــ إسقاط ربا عمه العباس وكان من أغنياء مكة وتجارها، وتحمل آيتان من سورة البقرة﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ {البقرة٢٧٨/٢٧٩} إنذاراً شديداً لمن يزاولون الربا، مما يدل على رسوخ قدم الربا، وعلى أنه كان يشغل حيزاً كبيراً من حياة المدن الحجازية الاقتصادية، وأنه لم يكن من السهل القضاء عليه مما استلزم قوة الإنذار وإعلان الحرب من الله ورسوله.

وإلى جانب الربا كانت المضاربات وبيع البضائع المتوهمة أو البضائع التى لم تصل مكة بعد، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام وباعوا المحاصيل قبل حلولها يوم الحصاد بوقت طويل، فأفلست بيوتات واغتنت أخرى بين عشية وضحاها. ونحا صغار التجار نحو كبارهم فى المضاربات فيما بينهم ولطالما عملوا على غش البدو والسذج فاحتقر البدوى الحضرى لهذه الصفة، وقد قال أهل البادية أن قريشاً تصغير "قرش" وهو سمك القرش المفترس يعبرون بذلك عن افتراسها لغيرها، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا مجبرين على أن يتعاملوا مع القرشيين لبيع إبلهم وأغنامهم وأصوافهم وحاصلاتهم من البادية.

النقد

كان النقد المتداول هو الدينار والدرهم. والدينار عملة ذهبية، والدرهم عملة فضية، وكان التعامل بهما دارجا فى الشام والعراق ومصر. وقد عرفهما أهل الحجاز وتعاملوا بهما وكان أهل مكة يملكون ثروة كبيرة من هذه العملة. ولم يكن هذان النقدان حجازيين، ولم يضربا فى الحجاز اقتباسا من الفرس والروم، فإنه لم يكن فى الحجاز دولة لها سكة خاصة، وإنما كان المتعامل به هو الدينار والدرهم الأجنبيين. ولعل فى هذا دلالة على صلة الحجازيين بعامة ومكة بخاصة بجيرانهم من الروم والفرس صلة تجارية كبيرة.

وبلاد العرب كانت تنتج معدن الذهب والفضـــة وكانت غنية بهما فى العصـــور القديمة. وقد كان يجرى التعامل بهما وزنا كما ذكر مراراً فى القرآن فى معرض استعمالها حليا وأوانى فى الدنيا والآخرة، مما يدل على أن هذين المعدنين كان ينظر إليهما على أنهما مقياس الثروة، كما كانا من الملك المحبب المحروص عليه عندهم، شـــأن البيئات المتحضرة المجاورة.

الأعداد والحسابات

فى القرآن الكريم ذكر للأعداد ومضـــاعفاتها من آحاد وعشـــرات ومئات وألوف ومئات الألوف، كما ورد ذكر كسـور الأعداد من نصـف وثلث وربع وخمس وسـدس وثمن وعشـر[1]، الأمر الذى يدل على أن العرب بعامة وأهل المدن بنوع خاص كانوا على علم بالأعمال الحسـابية من ضـرب وقسـمة وجمع وطرح وكسـور، كما يدل على سعة الأفق وقوة الصلات وكثرة التعامل.

المكاييل والموازين والمقاييس:

والكيل والميزان والمقياس معروفة عند العرب، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم ولكنها ذكرت دون تعيين إلا القنطار والذراع على غموض فى مقدارها[2]. وقد جاء ذكر الكيل والميزان والقسـطاط فى مناسـبات أكثرها جاء فى معرض الأمـانـة والحث على الاســتقامة فى الكيل والوزن، مما يدل على أنه كانت توجد مكاييل وموازيين، وأن هذه المكاييل والموازيين كان بعضـها مضـبوطاً وبعضـها غير مضبوط، والآيات القرآنية تحث على استعمال المضبوط منها[3]، مما يدل على أن حيل الغش فيها كانت فاشية وأن التجار كانوا يستغلون جهل المتعاملين معهم وبخاصة أهل البادية، فيأخذون منهم وزناً وكيلا وافياً ويبيعون لهم بمكاييل وموازين غير وافية.

النشاط الزراعى والرعوى:

إذا كانت منطقة مكة مجدبة غير صـالحة للزراعة، فإن المناطق المجاورة لها وبخاصـة منطقة الطائف والوديان الموجودة بين مكة وجدة كانت تنبت مختلف النباتات، ويلهم ما فى القرآن من آيات كثيرة تحتوى أوصافا للأعمال الزراعيـة ونتـاجها من زروع وكروم ونخيـل وزيتون ورمـان وفـاكهـة، والزرع ذى الحب المتراكب كـالقمح والشـعير، أن هذه الزراعات كانت قائمة وأن أهل هذه المناطق من الحجاز كانوا متقدمين شـوطا غير قصـير فى الأعمال الزراعية.

---

[1] البقرة ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٥٩، ٢٦١. آل عمران ١٢٤، ١٢٥. النساء ١٢,١١,٣، الأنفال ١١، ٤١، ٦٥. الكهف ٢٢. الصافات ١٤٧. المعارج ٤.

[2] آل عمران ١٤، ٧٥.

[3] الأنعام ١٥٢. الإسراء ٣٥. المطففون ١-٣.

وأن هذه المناطق الزراعية كانت تمون مكة والقرى الأخرى التى لا تستطيع أن توفر حاجاتها الغذائية بنفسها بسبب جدب التربة وشح المياه، وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يملكون مزارع وحدائق وآبارا بالطائف.
كما أن أهل مكة قد مارسوا تربية الماشية من إبل وغنم وأبقار، وأنهم كانوا يرعونها فى الوديان والشعاب المجاورة لمنطقة مكة، والتى كانت تنبت الكلأ والشجيرات الرعوية التى تزدهر فى مواسم معينة من السنة. وقد ورد فى كتب السيرة أن النبى ﷺ كان يرعى الغنم فى أجياد وأن عمر بن الخطاب كان يرعى إبل أبيه بجوار مكة. ومدينة تجارية مثل مكة كانت تقوم على تجارة القوافل لابد أن تكون قد اهتمت بتربية الإبل، ولا يمكن أن تكون اعتمدت كلية على ما تستأجره من إبل الأعراب، بل إن أهلها كانوا يملكون منها ما يعتمدون عليه فى نقل متاجرهم يربونه أو يشترونه من الأعراب، كما كانوا يملكون عددا من الخيل لاستعمالها فى ركوبهم وحروبهم، وربما كانوا يبيعون بعضها مبادلة على الإبل التى كانت حاجاتهم إليه أشد ونفعها لهم أكبر. كما كانوا يملكون عددا من الحمير والبغال. وكان لهذه الحيوانات كلها سوق نشيطة فى مكة.

الصيد:

كان الصيد من مشاغل العرب ومعايشهم، بل كان من ضروريات حياتهم المعيشية، وقد ورد فى القرآن الكريم آيات خاصة بالصيد سواء منه صيد البر أو صيد البحر﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿ المائدة١/٢/٣/٤ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾المائدة/٩٤﴿ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾﴿المائدة/٩٦﴾، ويستفاد من هذه الآيات أن العرب فى فترة البعثة المحمدية كانوا قد بلغوا شوطاً بعيداً فى فنون الصيد، فكانوا يستعينون عليه بالطيور الجارحة والحيوانات المعلمة كالبزاة والعقبان والصقور والكلاب، وكانوا يعلمون هذه الطيور والحيوانات لتقوم بمهمتها على الوجه الأكمل. وقد تخرج المسلمون من أكل الصيد الذى استعين عليه بالجوراح المعلمة فأحل الله لهم ذلك على شريطة ذكر اسم الله عند الرمى أو عند إرسال الجارج. كما أن العرب كانوا يستخدمون الرماح فى الصيد كما كانوا يستخدمون النبل أو الشراك.

وكان العرب قبل الإسلام يحرمون الصيد برياً وبحرياً فى الأشهر الحُرم تبعاً لما كانوا عليه من عادة تحريم سفك الدماء فى هذه الأشهر، فرفع القرآن عنهم هذا الحرج بالنسبة لصيد البحر وذلك لشدة الضرورة والحاجة المعيشية الماسة وخاصة للمسافر بحذاء البحر، وهذا يفيد أن صيد البحر كان مرتزقاً وضرورة معيشية أوسع نطاقاً من صيد البر

النشاط الصناعى:

ورد فى القرآن الكريم آيات كثيرة مكية ومدنية احتوت مسميات كثيرة ومتنوعة لمصنوعات هى من وسائل حياة أهل المدن، فقد ذكرت الآيات البيوت والغرف والحجرات والأبواب والسقوف والقواعد والمعارج ﴿ وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ ﴿الطور١/٢/٣/٤/٥﴾ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿الحجرات/٤﴾ ، ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿الزمر/٢٠﴾ ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ﴿النحل/٢٩﴾ ' والخيام التى تصنع من جلود الأنعام، كما ذكرت الأثاث الذى يصنع من الصوف والأوبار والأشعار، ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ ﴿النحل/٨٠﴾ ، والأسرة والأرائك والنمارق والزرابى والفرش وبطائنها ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ ﴿الغاشية١٢/١٣/١٤/١٥/١٦﴾ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ﴿الرحمن/٥٤﴾ ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿الكهف/٣١﴾ . والأوانى المتنوعة من قدور وجفاف وصحاف وأكواب وأباريق وكؤوس ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ﴿الإنسان/١٦﴾ ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ﴿الواقعة١٥/١٦/١٧/١٨﴾ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿الزخرف/٧١﴾، ومصابيح ومشاك وزجاج ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿النور/٣٥﴾ والحلى والزينة بأنواعها ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿النور/٣١﴾ ، ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿النور/٦٠﴾ ، والثياب من الحرير وغير الحرير﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿الحج/٢٣﴾ ﴾ ،

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ﴿ الكهف/٣١ ﴾ ، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿ سبأ/١٣ ﴾ ، والجلابيب والخمر والسرابيل والقمصان والنعال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿ الأحزاب/٥٩ ﴾ ، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ طه/١٢ ﴾ ، ﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿ يوسف/١٨ ﴾

والسلاح من رماح وسكاكين ودروع ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿ النحل/٨١ ﴾ ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿ المائدة/٩٧ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿ يوسف/٣١ ﴾ ، والسلاسل والأغلال ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ ﴿ الحاقة/٣٢ ﴾ ، ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿ غافر/٧١ ﴾ ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿ سبأ/١٣ ﴾ وأدوات الكتابة من قرطاس وقلم ومداد ورقوق ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿ لقمان/٢٧ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿ الأنعام/٧ ﴾ ، والشراب الذى يصنع من ثمرات النخيل والأعناب ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿ النحل/٦٧ ﴾ والمعادن من حديد ونحاس وذهب وفضة. والصلصال والفخار﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، ﴿ الحديد/٢٥ ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ، ﴿ الرحمن١٤ ﴾ ، ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿ الكهف/٣١ ﴾

وورود هذه الأعيان ومسمياتها وأوصافها ووجوه استعمالها فى القرآن يدل على أن أهل مكة وأهل الحجاز ومدنه كانوا يستعملونها ويملكونها قبل نزول القرآن حتى ولو جاء ذكرها فى معرض الأخبار والتمثيل ووصف نعيم الجنة، لأن القرآن لا يمكن أن يخاطب الناس بما لا يفهمونه ولا يعرفونه. ويضاف على هذه الأشياء المكاييل والموازين التى كانت موجودة ومستعملة فى البيع والشراء.

وواضح أن وجود هذه الأدوات والحاجيات يتطلب وجود طبقة من العمال والصناع فى أعمال البناء ونحت الحجارة، وفى الحدادة والنجارة والتنجيد والصياغة والحياكة والنحاسة والسروجية وغير ذلك مما تتطلبه حياة المدن مهما كانت درجتها من الحضارة. وقد ورد ذكر لأناس كانوا فى مكة يقومون بهذه الأعمال، منهم من يقوم بالحدادة أو الصياغة ومنهم من كان يقوم بالتجارة أو النسيج أو الخياطة أو الحجامة.

ومهما تكن أسفار الحجازيين البرية أو البحرية، ومهما يكن ما يجلبونه من الخارج، فليس من المعقول أن يجلبوا كل ما يحتاجون إليه من هذه الأدوات والحاجيات مصنوعاً جاهزاً، بل لابد أن يصنع بعضها إن لم يكن معظمها محليا، إذ لم يمكن أن يكونوا أو يظلوا عيالا على الخارج فى هذه المواد الكثيرة التى يستعمل كثير منها استعمالاً عاماً ويومياً، ولا سيما وأن المواصلات بينهم وبين البلاد التى تقدمت عليهم فى الحضارة، والتى يمكن أن يجلبوا منها احتياجاتهم، غير سهلة ولا قريبة. كما أنه يوجد من الأشياء ما لا يمكن جلبه من الخارج كأعمال البناء والنحت والنجارة وإذن فلا بد من وجود طبقة من الصناع والعمال فى المدن الحجازية يقومون بكثير من هذه الأعمال الصناعية. وأن أهل هذه المدن، وإن اعتادوا أن يجلبوا شيئاً مما يستعملونه من الخارج فإن هذا الشئ كان قاصراً على ما لا تستطيع البيئة المحلية إنتاجه أو لا تستطيع إجادته، وخصوصاً حاجيات الترف الكمالية الدقيقة الصنع من أدوات الزينة والزخارف والحرير والأوانى الدقيقة وبعض أنواع الأسلحة والنسيج.

ولقد كان فى مكة وفى سائر المدن الحجازية جاليات أجنبية يهودية ونصرانية، سورية ومصرية وحبشية ورومية وعراقية، ومن الراجح أن هؤلاء الأجانب كانوا يقومون بكثير من هذه الأعمال الصناعية، وأنهم كانوا نواة ومعلمين لطبقات من الصناع المحليين، وأن منهم من كان يعمل لحسابه الخاص كما كان الحال فى يهود يثرب، ومنهم من كان يعمل لحساب سادته. وقد أشار أصحاب السير إلى عامل رومى استُخدم فى بناء الكعبة عند تجديدها كما أن النبى ﷺ قد وجد فى الكعبة صوراً ورسوماً للملائكة والأنبياء، لابد أنها كانت من صنع أمثال هذا العامل الرومى ممن عمل معه من بنى جنسه من النصارى، كما وجد بها تمثالاً لحمامة من الخشب، الأمر الذى يدل على وجود صُناع يتقنون هذه الأعمال فى مكة، وأنهم لم يكونوا من العرب ولكنهم كانوا من الرقيق أو من الموالى الأجانب. كما كان بعض النساء يشتغلن بالأعمال الصناعية وبخاصة صناعة الغزل والنسيج[١].

---

[١] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف.

النواحى الأدبية والدينية فى مكة قبل الإسلام

النواحى الأدبية والدينية فى مكة قبل الإسلام

مارست قريش في جاهليتها ألوانا من الأدب العالى، فقد كانت من أبلغ العرب وأفصحها، وكان حظها فى الخطابة والوصايا والأمثال لا يستهان به، وقد حفظت لنا أمهات الكتب الأدبية القديمة من أمثال: الأمالي، وطبقات ابن سعد، والعقد الفريد، والأغانى، وأمثال العرب، ومجمع الأمثال، وغيرها طائفة كبيرة من نفيس الأدب الذى عاش فى عهد قريش.

واشتهرت قريش بشعرائها المبرزين فى العهد الجاهلى، ومن أظهرهم: أبو طالب، وأبو سفيان، وعبدالله بن حذافة، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى، وعبدالله بن الزبعرى، والزبير بن عبدالمطلب، كما اشتهر حول مكة من شعراء هذيل جنادة، وجندب، وعروة، والمتنخِّل، وأبو ذؤيب، وأبو خراش، وأسامة بن الحارث، والعجلان بن خلية، كما اشتهر فى بادية مكة ومدنها القريبة ما يطول سرده ولا يصعب متابعته لمن شاء فى مظانّه من كتب الأدب المعروفة.

واتسعت أسواق مكة التجارية للتنافس بين مفكريها من الشعراء وأصحاب البيان، فكانت ملتقى الخطباء من سائر بلاد العرب، وكانت مجالاً ثقافياً لم يسبق له نظير بين دول اليمن فى الجنوب وحكام الحيرة وغسان فى الشمال.

ومن أشهر أسواق العرب فى منطقة مكة: سوق عكاظ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد موقعه، وذكره صاحب «معجم البلدان» وهو أنه فى واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وكانت هناك صخور يطوفون بها وهو وصف ينطبق من أكثر وجوهه على محطة السيل الكبير، وبه صخور لا تزال قائمة إلى اليوم، وهو واد يتسع كثيراً لقوافل العرب، ثم سوق مِجنّة وهو موضع قرب مكة، وذو المجاز وهو على نحو ميلين من عرفات.

وكانت قوافل العرب تتجمع فى عكاظ إلى العشر الأخير من ذى القعدة، ثم يفيضون تباعاً إلى ذى المجنة، ولا يبدأ سوق ذى المجاز إلا فى يوم التروية الثامن من ذى الحجة، ويضيف بعضهم إلى هذه سوق مكة ومنى ودومة الجندل، ولكنها أسواق لا تبلغ مبلغ عكاظ فى محافله الأدبية ومجالاته التى كانت تصطفق بمفاخرهم ومنافراتهم ومناقشاتهم.

الناحية الدينية: وشاعت فى عهد قصى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة فى طقوس انتقلت إليهم من خزاعة أو جُرهم، وقد ذكروا أن عمرو بن لحى فى عهد خزاعة أمر بعبادة صنمين كانا منصوبين على الصفا والمروة، فلما كان عهد قصى حوّلهما من موضعهما فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر فى موضع زمزم، فكان أهل الجاهلية من قومه ينحرون

عندهما ويتمسحون بهما، واشتد شيوع عبادة الأصنام بمرور الأيام حتى كان الأصنام يطاف بها فى مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، وما من رجل من قريش إلا وفى بيته صنم، إذا دخل يمسحه وإذا خرج يمسحه تبركاً، عدا أصنام الكعبة التي ظلت قائمة فى مواضعها من التبجيل إلى عام الفتح، ومن أشهر أصنامهم: «هُبَل» وكان منصوباً فى جوف الكعبة، و«العُزّى» وهى بوادى نخلة الشامية [1]، و«اللات» وهى فى الطائف، و«مناة» وهى فى قديد على ساحل البحر الأحمر شمالى مكة، ونقل عن قريش أنها كانت تقول فى طوافها: «واللات والعزة، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى». وكان لهذيل صنم يسمونه «سواعاً» تعكف على عبادته.

وكانوا ينحرون عند صنم لهم يقال له «الغبغب»، وكانت لهم أقداح فى الكعبة إذا اختصموا فى شىء أو اعتزموا أمراً استقسموا بها، فإذا خرج القدح مكتوباً بأمر أو نهى عملوا به كما يفعل أصحاب «الخيرة ـ أو القرعة».

وقسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين: حلة وحمس، والحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون، وربما دلت اللفظة على معنى التحمس كما يبدو من اشتقاقها، والحمس قبائل من أشهرها كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وغيرهم، وكانت قريش من أبلغ من تشدد فى ديانة الحمس، وقد بلغ من تشددهم أنهم كانوا إذا وقف الحاج من العرب فى عرفات يأبون أن يخرجوا إليها من حرمهم فيكتفون بالوقوف عند نمرة تقديساً لحرمهم، ويقولون: نحن الحمس أهل الحرم فلا ينبغى لنا أن نخرج إلى عرفات فنعظم بذلك غير الحرم.

وكانوا يفرضون على مخالفيهم من أهل الحلة ألا يطوفوا إلا إذا لبسوا ثوباً أحمسياً يشترونه منهم أو يستأجرونه أو يستعيرونه، فإذا لم يجدوا تعين عليهم أن يطوفوا عرايا نهاراً للرجال وليلاً للنساء بعد أن يتركوا ثيابهم خارج المسجد فلا يمسها أحد حتى يعودوا إليها. وكان بعض فتيان مكة يتربص للنساء العرايا، فإذا أعجبته إحداهن دخل معها فى الطواف عرياناً، وقد يؤول أمرهما إلى الزواج، وقد حرم الإسلام هذه العادة، وكانوا يفرضون على أهل الحل ألا يأكلوا من طعام جاؤوا به من الحل ماداموا فى مكة، وبذلك كانوا يفرضون الأكل فى مكة عليهم من بيوت الضيافة أو يشترونه من أسواق مكة.

وكانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينها وخرجوا بها سافرة إلى المطاف، ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا إلى بيت من تزوجها، وهم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين، ولعلهم اختاروا ليأمنوا فى جوار البيت نظرات الفاسقين. وكان الطائف يبدأ بأساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يجعل الكعبة على يمينه فيطوف بها، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن ثم استلم نائلة.

---

(١) نخلة الشامية تمتد من وادى فاطمة إلى المضيق، وتتصل بها نخلة اليمانية وهى فى طريق الطائف من واد اليمانية والعزى: معلوم مكانها اليوم فى شعب يقال له سقام يصب فى نخلة الشامية فى الجنوب.

وكـانوا يختتون أولادهم ويكفنون موتـاهم ويغتســـلون من الجنـابة، وقد تباعدوا فى المناكح من البنت وبنت البنت وبنت الأخت، كما يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً.

وكانوا يبالغون فى الغيرة على نسائهم حتى اشتط بعضـهم فكره البنات ومنهم من وأدهنَّ مبالغة فى الحرص على العرض، وقال قائلهم فى ذلك، «دفن البنات من المكرمات»، وأنكر ذلك كثير من عقلائهم.

النواحى العمرانية فى مكة قبل الإسلام

النواحى العمرانية فى مكة قبل الإسلام

كان العمران فى مكة أيام جُرهم لم يزد عن مضارب من الشعر كانت تتلاصق أو تتباعد فى حواشى الوادى وبين لبات جباله، وما أطل عهد حكومة قريش حتى كانت المضــارب من الشــعر قد حلت محلها البيوت مرصــوصــة بالحجر أو مبنية بالطين والحجر فيما يحاذى المســجد، أو بالطين النيئ وحده على حوافى الأباطح فى أعلى مكة أو على شواطئ المسيل فى أسفلها.

بناء منازل القبائل فى مكة

وكان سعيد بن عمرو السهمى أول من بنى بيتاً بمكة وقد قيل فيه:

وأول من بوا بمكة بيته　　　　وسور فيها مسكناً بأثافى

وكانوا يبنونها بحيث لا تســتوى على ســقوف مربعة كما نفعل اليوم. وأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير، واستهولت قريش عاقبة التربع فى هندسة البيت، فقالت: «ربع حميد بيتاً ــ إما حياة وإما موتاً» وأول من بوّب فى مكة حاطب ابن أبى بلتعة وكانوا يجعلون بين يديها العرصـــات ينزل الحجاج فيها والمعتمرون، ولما شـــرعوا يصـنعون لبعض الدور أبواباً كانوا يقصـرون ذلك على بعض غرفها ويتركون مداخلها شـارعة على عرصـاتها دون أبواب، وقد قيل إن هند بنت سهيل عندما استأذنت عمر بن الخطاب فى أن تجعل على دارها بابين أبى وقال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين، قالت: والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغلقها عليهم من اللصوص، فأذن لها فبوبتها.

والعمران فى مكة فى عهد قريش قد نشط نشاطاً طيباً، بعد أن تُركت المضارب تتباعد على حوافى وادى إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها، ثم تعرج فى ناحية منها إلى مداخل الشامية نحو قعيقعان، ونجدها وقد اتصلت وتكاثفت واتخذت كل قبيلة منزلها من الوادى وشــعابه، ولم يزحف عمرانهم إلى مرتفعات الجبال وأكتافها كما يفعل اليوم، بل ظل مستوياً باستواء سطح الوادى.

فقد ذكروا أن قصــياً خط للكعبة ســاحة توازى صــحن المســجد (المطاف) وأباح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع، وكانوا لا يبيحون لأنفســهم قبل قصــى السكنى أو المبيت بجوار الكعبة، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم مســالك يفضـون منها إلى سـاحة الكعبة، وأهم هذه الطرق طريق شـيبة وهو فى مكان باب بنى شــيبة ولم يبوّب ســاحة الكعبة أو يســورها، كما أمر بألا يرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشــرفة عليها، وكانوا يتخذون مجالسهم العامة فى أفيائها، كما بنى دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة.

وفى استطاعتنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لخريطة مكة نبين فيها باختصار مواقع البطون فى مكة وقتئذ وسير العمران بين شعابها، اعتماداً على ما ذكره الأزرقى فى تخطيطه مواقع القبائل فى كتابه أخبار مكة:

"ولتوضيح ذلك فى الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بنى شيبة نقطة ابتداء لتخطيطاتهم، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية فى أم القرى، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة فى الشرق إلى «حصوة» باب على، وفى الشمال قليلاً إلى «حصوة» باب السلام تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين وتتخللها متاجر للعطارين، فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبى واجهنا بيت العباس ودار جبير ابن مطعم ودور لبنى عامر بن لؤى، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق، وهو إلى جانب زقاق الحجر حيث تقوم دار لابن علقمة ودور أخرى لآل عدى من ثقيف، فإذ نفذنا من ذلك إلي الشارع العام فى القشاشية متوجهين إلى أعلى مكة استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة، ثم سوق الرطب، ثم رباع كانت لبعض بنى عامر، وعند سوق الليل تصافحنا الدار التى كانوا يسمونها (دار مال الله) وكانوا ينفقون فيها على المرضى ويطعمونهم. وبالقرب من الدار يلتوى شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شعب على، وفيه دور عبدالمطلب بن هاشم ودور أخرى لأبى طالب وأخرى للعباس بن عبدالمطلب، وإذا عدنا إلي استقامتنا فى شارعنا العام تصافحنا دار العاص فى فوهة شعب بنى عامر، ثم يلتوى شعب بنى عامر فى دروب متعددة تقوم عليها دور لبنى بكر وأخرى لبنى عبدالمطلب بن عبد مناف، وتستقيم مرة أخرى فى شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبدالله، وكانوا يعارضون به مجرى السيل ويسمونه الردم الأدنى، ونمضى قليلاً إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا فى شعب أبى دب، ثم مكان المقابر وهى بعد حدود شعب عامر، ثم بعض بساتين ننتهى منها إلى شعبة الجن، ثم ثنية الحجون، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفى وهو ما يسمى اليوم المعايدة، وفيه دور لبنى كنانة وآل عتبة بن أبي معيط ودور لربيعة من بنى عبد شمس.

وإذا بدأنا خطأ آخر من باب بنى شيبة متوجهين إلى الشمال الشرقى فى المسعى صادفتنا دور لبنى عدى قائمة بين باب بنى شيبة ورواق باب السلام، وفى المسعى يتوجه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخزامية كان فيه مكان للبانين، وفيه سقيفة ودار الحكم بن حزام ودور يتخللها عرصات لبنى سهم، ويمضى بنا الدرب إلى بيت خديجة حتى يخرج إلى مكان المدَّعى.

وإلى يسارنا ونحن فى المسعى طريق الساعين إلى المروة، وفى المروة دور لآل عتبة بن فرقد ودار كبيرة لآل ياسر فى واجهتها الحجامون والحلاقون، وإذا مضينا فى المسعى مصعدين فى طريق المدَّعى انتهينا إلى رحبة واسعة كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل والحبوب لتباع فيها وهى ما تسمى اليوم المحناطة، وفيها دور لبنى عبد شمس ودار أبى سفيان وهي مكان «القبان» اليوم،

و قد أشار النبى ﷺ إليها عندما قال يوم الفتح: «من دخل دار أبى سفيان كان آمناً»، ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قرب من المدعى، ثم دور لأولاد الحارث، ثم طريق إلى يسارنا يمضى إلى جبل الديلم وهو يشرف على القرارة، ثم نمضى فى استقامتنا إلى طريق المعلاة لنمر على دور لبنى غزوان وأخرى لأولاد الحارث ابن عبدالمطلب.

ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بنى شيبة متوجهين غرباً إلى دار الندوة لنجد البيوت تتكاتف قبل الرواق إلى جانبها دار لشيبة بن عثمان، ودار لخزانة الكعبة، ودار لصاحب البريد، ودار لبيت المال، ودار للخطاب بن نفيل، ثم نصعد شمالاً إلى جهة الرواق الذى فيه باب الزيارة إلى باب الدريبة فتصادفنا دور لبنى خزاعة بينها زقاق الحذّائين نسلك منه إلى سويقة، ثم ننعطف منه إلى المروة، ومن جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضى بنا الشعب إلى قعيقعان فى مداخل ما نسميه الشامية اليوم، فإذا توجهنا إلى يمينك توّجه بك درب إلى ناحية الديلم بالقرب من القرارة اليوم، ثم تصعد إذا شئت على تلال فى مكان الفلق كانوا يصعدونها لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة اليوم، ولم يفلق هذا الطريق إلا الزبير بن العوام فى عصره.

وإذا أردنا أن ننتقل من شق مكة الأعلى إلى شقها الأسفل تعيَّن علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما بعد صحن المسجد أمام باب أجياد، متوجهين إلي الشرق ثم إلى الجنوب الشرقى.

كانت منازل بنى عائذ تبتدئ من صحن المسجد فيما يوازى ركن الكعبة اليمانى ممتدة غرباً إلى ما يحاذى بئر زمزم، ثم تصعد فى الشرق نحو باب على، وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى على يسار القادم من الصفا يريد المروة، أى فيما يحاذى باب علي اليوم تقريباً.

وكانت منازل عدى بن كعب تبتدئ من صحن المسجد متوجهة إلى الصفا من ناحية وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكة.

وفى الطريق الذى يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبنى عائذ وسوق للبزازين (القماشين)، وبالقرب من ذلك كان البيت الذى اتخذه النبى ﷺ لتجارته قبل البعثة مع شريكه السايب بن السايب.

فإذا انتهيت إلى باب أجياد ووقفت حيث تكون القبلة فى ظهرك ومداخل أجياد فى وجهك امتد أمامك شعبان، أحدهما عن يمينك إلى ما يسمى اليوم بئر بليلة وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثانى على يسارك إلى ما يسمى اليوم السد وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعنى بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاذ الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب.

فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل اســـتقامتها. كان بنو تميم ينزلون حوالى باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المســـجد يومها وهو حدود صــــحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون فى فوهة أجياد الكبير مكان الرواق الجديد اليوم، وكان جماعة من الأزد ينزلون خلف ذلك مما يتصــــل بمكان الصـــــحة العامة، وخلفها كان منزل أبى جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً، وفى أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدى بن عبد شمس، وفى أجياد مكان للحوَّاتين ودار لعبدالله بن جدعان التى كان فيها حلف الفضول، والتى تعاقدت فيها القبائل متفقة بألا يقر فى مكة ظالم، وفيها دور لآل ســـلمة بن هشــــام، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم، وكان يَرِدُها السكان فى فوهة الشعب بأجيادين، وأكاد أعتقد أنها البئر الموجودة اليوم قبيل عمارة المستشفى، لأنها تجمع بين طرفى أجيادين.

وإذا تركت أجيادين ماضياً في الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، ورأيت الدروب تمضى على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف، ومن أشهرها درب الحناطين، وأعتقد أنه كان ســـوقاً للحنطة، فالحائط هو في اللغة كثير الحنطة، وموقع هذا الدرب صــــالح لبيع منتجات الجنوب من الحنطة فى مكة، وفى هذه الجهة كانت تنزل بطون من آل صــــيفى، وفيا دور لآل عبدالدار وأخرى لجماعة من بنى مخزوم، وإذا مضيت متجهاً فى السوق الصغير كنت بجوار دور لبنى أسد بن عبد العزى.

وأحسبنى لا أطمع فى أن أعرف القبائل النازلة فى الشبيكة أو حارة الباب أو جرول، لأنها كانت قليلة السكان إلا فى جهات قليلة من جرول الخضراء وهى الجزء الأدنى المتصل بأطراف المسفلة من ناحيته الخلفية، وإذا كانت الشــبيكة قد ســكنت فى عهدنا الى ندرســـه بجماعة لم أتبين أســماءهم فى بطون المطولات من كتب التاريخ، فلا أعتقد أنها حظيت بشىء من التكاثف الذى حظيت به المنازل الأخرى.

وقد نعثر على بعض المنازل فى سفح ذى أعاصــير، ولعلنا نســتنتج من قرائن الأحوال أن ذا أعاصــير هو جبل عمر، ولكننا لا نســـتطيع أن نعتقد أن هذا الجزء حفل بالمنازل إلا فى أعوام متأخرة عن هذا العهد، لأن النزلة سميت باسم عمر ابن الخطاب، ولو كانت لبطن أو قبيلة لأطلق عليها فى الغالب اسم نازلها قبل عمر بن الخطاب.

كما أننا لم نعثر إلى جانب ذلك على شــــىء يســـير فى العمران فى الثنية التى نهبط من خلفها إلى جرول الخلفية، وكانوا يســـمونها الحزنة وهى ضــــد الســــهلة التى تســـمى اليوم الحفائر، ولم تكن الحفائر قد فلقت يومها لتخترم الطريق من الشبيكة إلى جرول الخليفة، لأن الذى حفرها وسهلها للمشاة هو خالد البرمكى فى عهد بنى العباس، ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد فى جرول الخلفية، أو جرول الخضراء كما يسمونها.

وإذا تركنا كل هذا ومضينا فى طريقنا فى ظل أعاصير ــــ أى جبل عمر ــــ نحو الهجلة صادفتنا الحتمة، وهى صخرات لابد أنها كانت سوداوات، لأن الحتمة فى اللغة هى السواد، وعند هذه الصخرات كانت دار الأزلام ومنها يبدأ منبطح السيل أسفل مكة.

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة الجاهلية، ولا يفوتنا فى أذيال هذا البحث أن نشير إلى الضواحى التى كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها فى الأصائل من شهور القيظ، وهى عادة نرى أثرها إلي اليوم فى المتنزهين من أبناء مكة فى أطراف الضواحى، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو (١٥٠٠ سنة) تقريباً.

ومن أشهر المنتزهات فى مكة الجاهلية: الليط. والليط فى رأى بعض المؤرخين هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجل منتزهنا اليوم، ويقول الأستاذ رشدى الصالح ملحس فى حاشيته على تاريخ الأزرقى: إنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكرى أى فيما يلى جرول الخلفية، ولست بالذى يستبعد صحة القولين، فإن الوادى بعد بركة ماجل يتصل بالجادة التى تنتهى خلف القشلاق، فلم لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟

وكانت فى الليط أقحوانة[١] يجلس أهل مكة حولها فى العشى يلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة، وفى هذا يقول الحارث بن خالد:

من ذا يسائل عنا أين منزلنا	فالأقحوانة منا منزل فَمنُ
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره	طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

ومن متنزهاتهم شعب خم وهو يتصل بالمسفلة، وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول.

وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع، وكانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة، ثم تمضى إلى المحصب فى الطريق المؤدى إلى منى.

وكان لهم فى المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل كل يوم، وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادى الممتدة إلى منى.

وكانت لهم بساتين فى وادى فخ ونسميه الشهداء اليوم، وأخرى بوادى طوى فى امتداده من الحجون إلى ريع الكحل، وبساتين غير هذه فى ضواحى مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة، وكانت المنازل فى المناطق التى ذكرناها لا تتكاثف على قاعدة المدن الحاضرة، بل تتفرق وتفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب فى بناء قراهم ومدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلائها لتنافسهم فى مجاورة الكعبة».

---

[١] الأقحوانة تسمى اليوم دار الشمس

ظهور النبى ﷺ فى مكة
والمفاهيم الجديدة للدعوة الإسلامية

ظهور النبى ﷺ فى مكة والمفاهيم الجديدة للدعوة الإسلامية

فى بداية القرن السابع الميلادى كانت بلاد العرب مستعدة لتلقى أكبر انقلاب فى تاريخها، بل إنه حين حدث كان أعظم انقلاب فى التاريخ الإنسانى العام، بما ترتب عليه من تغيير شامل فى النواحى الدينية والاجتماعية والسياسية على السواء، وقد كانت الظروف مواتية لهذا الانقلاب تمام المواتاة. فمنذ منتصف القرن السادس كان قد أخذ يمحى ما بين أقوام العرب من خصام وما بين قبائلهم من تنافس، تجاه الخطر الذى كان يتهددهم فى الداخل والخارج: فأما فى الداخل فإن الصراع القبلى كان ينهك قوى القبائل ويقضى على أمنها، الأمر الذى حمل الزعماء وأصحاب النفوذ فيهم على العمل للحد من هذا التنازع، فكانت سُنة الأشهر الحرم لتقليل فرص القتال وما استتبع ذلك من تجمعات فى الأسواق العامة وفى موسم الحج، مما أدى إلى حل كثير من المشاكل، وإلى تقريب النفوس وقيام التحالفات بين القبائل. وأما فى الخارج، فإن العرب كانوا يشعرون بضرورة الاتحاد، لما رأوا من تهديد الروم فى الشمال، وتهديد الفرس فى الشرق وتهديد الأحباش فى الجنوب، وكان من نتيجة السنوات الأخيرة، من زوال ملك الحيرة واضطراب أحوال الغساسنة وضياع استقلال اليمن، أن أخذت المبادئ القومية تنمو فى نفوس العرب إلى حد كبير، وكان على زعمائهم أن ينظموا عناصر المقاومة تجاه هذا الضغط المضاعف. وقد نلمس هذه المقاومة فى وقوف القبائل العربية المختلفة فى وجه الحملة الحبشية على مكة، وقد يكون هذا عملاً تلقائياً، ولكنه يدل على الشعور بالارتباط العام والإحساس بالمصير المشترك. وحين استطاع الحجاز أن يحبط الحملة الحبشية، كان أكبر قدوة، فاستردت مكة زعامتها التى أريد نزعها منها، وعلت منزلة قريش الأدبية علواً كبيراً واتجهت إليها الأنظار، وعملت هى من جانبها على تدعيم هذا المركز وعلى ربط جميع القبائل حوله، ولم يكن ذهاب عبد المطلب بن هاشم على رأس وفد قريش إلى صنعاء بعد ذلك لتهنئة سيف بن ذى يزن بعودته إلى الحكم بعد هزيمة الأحباش فى اليمن، إلا توثيقاً لهذا الرباط، كما كان ذهاب وفود القبائل العربية للتهنئة كذلك تعبيراً عن هذا التدانى والترابط بين أبناء الوطن الواحد.

وفى الوقت الذى أخذ اللسان العربى يتسم بسمة الاستقرار على لهجة واحدة يتغلب بها على ما كان فى مختلف أجزاء الجزيرة العربية من اللهجات الخاصة، كان الميل الروحى العربى يتجه نحو غاية واحدة، فقد كانت المعتقدات الدينية تتداعى في كل ناحية، فيبدو التبرم واضحاً بعبادة الأصنام، ويثار على العادات القبيحة المستهجنة، من أمثال الزواج بزوجات الآباء الذى أصبح يطلق عليه «زواج المقت»، ويحمل على عادة الوأد الكريهة. وحين تبدو الوحدة الدينية مفقودة، ينطلق ذوو المواهب من المصلحين من أمثال ورقة بن نوفل، وعثمان ابن الحويرث، وزيد بن عمرو وعبدالله بن جحش، وأمية ابن أبى الصلت وغيرهم، يدعون بنى قومهم إلى الدين الصحيح بنبذ عبادة الأصنام والبحث عن دين إبراهيم. ولكنهم حين يدركون العجز فى أنفسهم عن تحقيق ما أرادوا يعلنون قومهم بأنه سيظهر نبى - قد أظل زمانه - من بين العرب يهدى الناس إلى الصراط المستقيم.

وبينما كانت النفوس تميل إلى الوحدة فى داخل الجزيرة العربية ميلاً عاماً. كانت الظروف الخارجية تسير فى صالح العرب، فإن الصراع القاسى بين الدولتين الكبيرتين - الفرس والروم - على حدودهم أنهك الطرفين على السواء، وشغل أنظارهما عما يجرى فى داخل الجزيرة العربية، فأعطى للوحدة العربية فرصة طيبة لكى تتم بعيداً عن كل تدخل خارجى. ولم يكن ينقص هذه الوحدة لكى تتم إلا وجود الزعامة القوية التى تستطيع أن تجمع عناصرها فتضيف إلى وحدة الجنس ووحدة اللغة، والاتحاد فى الشعور، وحدة الدين لتنطلق النفوس إلى تحقيق غاية واحدة.

فى هذه البيئة العربية الخالصة، وفى هذه الظروف المواتية، ومن بين تلك القبيلة التى تعظمها العرب، ظهر ذلك المصلح الذى كانت تتطلع إليه النفوس. ففى مكة ومن قريش ظهر محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم نبياً يدعو إلى رسالة جديدة جوهرها الإقرار بالألوهية لإله واحد هو الله الخالق المبدع الذى تنزه عن المشاركة والمصاحبة وتفرد بالربوبية ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ {الإخلاص١/٢/٣/٤}

،ونبذ ما عدا ذلك من أصنام وأوثان كل ما يلقى ظلاً من المشاركة مع الله. وأن الناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة، لا فضل بينهم إلا بما يقدم أحدهم من عمل صالح يرضى الله ويعود على الإنسانية بالخير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ {الحجرات/١٣} ، فالناس جميعاً سواء أمام الله مهما اختلفت أجناسهم أو لغاتهم أو مراكزهم الاجتماعية، ويجب لذلك أن يتساووا فى الحقوق والواجبات بصفتهم أخوة فى الإنسانية، وبصفتهم جميعاً عباد لرب واحد، وأن النبى جاء ليقر العدالة ويتمم مكارم الأخلاق.

ومحمد ﷺ إذ بعث نبياً كانت له صفاته الشخصية التى هيأته للاضطلاع بدور الزعيم النبى. وإذا قرأنا كتب السيرة القديمة، وجدنا هذه المصادر تقدم لهذا الدور بنوع من التفسير لعبقرية النبى، فهم يوردون أخباراً تدل على اكتسابه نوعاً من الخبرة التى يكتسبها كل إنسان من تجاربه، ثم يوردون أخباراً تدل على أن النبى نال من العناية الإلهية والفضل الربانى والعلم اللدنى الذى يلقيه الله فى نفس العبد بدون واسطة، وأن هذه النفحات الإلهية أتمت للنبىﷺ شخصيته وأكملت تجاربه.

يذكر المؤرخون أن النبى ﷺ شارك فى الحياة العامة فى مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير فى حياته، فقد شارك فى الحياة السياسية فى المدينة المكية، فقد اشترك فى حلف الفضول، وكان هدف هذا الحلف هدفاً سامياً لم تألفه القبائل المعتزة بعصبيتها، هذا الهدف هو نصرة المظلوم بصرف النظر عن قرابته وقبيلته. ومن قبل كان قد اشترك إلى جانب أعمامه من هاشم وقريش فى حرب الفجار، وهى حرب وقعت فى الأشهر الحرم فسميت بالفجار، فاكتسب إلى جانب خبرته السياسية خبرة حربية، ثم إنه اشترك فى تنظيم القوافل التى كانت تسيرها قريش إلى الشام، فسافر مع عمه وهو صبى، وسافر فى تجارة للسيدة خديجة وهو شاب، كما مارس التجارة فى مالها بعد أن تزوجها، فاكتسب خبرة بالمعاملات التجارية ومعرفة بطبيعة الإنسان يقدر بها على تقدير قيمة الرجل الأدبية من فوره. كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس، ثم إنه كان قد اشتغل بالرعى حين كان صبياً، فأكسبه ذلك صفة خلقية هى التواضع وتمجيد العمل أياً كان نوعه. ثم إنه اشتهر بصفة خلقية هى الأمانة حتى سمى بين الناس قبل البعث بالأمين، فكانت له إلى جانب تجاربه، أخلاقه المرتضاة التى كانت تحببه إلى الناس قبل أن يعارض آرائهم. وثمة صفة أخرى اشتهر بها هى صفة القدرة على الحكم وسرعة البديهة فى حسم الأمور، يشهد بذلك حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء، فأظهر من سرعة الخاطر وقوة البديهة ما حسم الموقف وأرضى المتنازعين، كما كشف هذا الموقف عن قيمة محمد فى الحياة الاجتماعية فى مكة بحيث ارتضاه رجال الملأ حكماً ورضوا بحكمه. ثم إنه كان إلي هذا كله يتيماً فقيراً ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن نستنتج من ميله إلى التحنث - وهو التفكير والتأمل والتعبد - معتزلاً بكهف بالجبل شهراً من كل عام. فالنبى رجل اكتسب صفات على نحو ما يكتسبه الناس، وتلقى من الله توفيقات وإلهامات. فالنبى بشر ارتفع بنفسه على نحو ما يرتفع كبار الفلاسفة بأنفسهم عن مستوى تفكير عامة الناس، إلا أن النبى يرتفع بقعقله وقلبه فى آن واحد، على حين يرتفع الفيلسوف بعقله فقط.

ثم إن النبى ﷺ وجد بعد زواجه من السيدة خديجة بنت خويلد - وهى إحدى النساء الغنيات الشريفات فى مكة - نوعاً من الراحة النفسية التى يجدها المرء إذا وفق إلى شريكة توافق ميوله. وقد كان هذا الزواج من العوامل التى جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة ومن بعض عناء السعى، فخديجة الغنية بمالها، والتى كانت امرأة قد فارقت عهد الشباب الأول، وكانت لها تجربة إدارة أموالها، كانت أقدر على حياة زوجية هادئة رصينة، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية، ولحياته الداخلية القوية التى تشغل عزلته كلما أمعن فى العزلة - والعزلة التى لا يطيقها إلا الذين حفلت نفوسهم بالأفكار الذاتية. ثم ناحية أخرى تتصل بهذا، يشهد بها بعض الرواة نقلاً عن زوجته السيدة عائشة، وهى أن أول ما بُدئ به النبى أنه كان يرى الرؤية واضحة كبَلَح الصبح. ومعنى هذا أن حياته الداخلية كانت امتداداً لحياته الخارجية، فهو فى يقظته وفى نومه يجد نفسه مشغولاً بأمر واحد هو أمر الدين الذى يتهيأ لقبوله وتلقيه والإنذار به والدعوة إليه.

المفاهيم الجديدة فى الدعوة الإسلامية:

بدأت الدعوة إلى الإسلام ذات صفة دينية فى الدور المكى من حياة الرسول ﷺ، أما الصفة السياسية فلم تظهر إلا فى الدور المدنى. وهذا أمر طبيعى، إذ أنه لابد من أن يُبدأ بتقرير العقيدة ثم بث المثل العليا فى النفوس، حتى إذا ما تهيأت لذلك أمكن تنظيم المجتمع على هذا الأساس.

وقدمت هذه الدعوة للعرب مفاهيم جديدة لم يكونوا يعرفونها أو لم يكونوا يؤمنون بها. وأول هذه المفاهيم هو المفهوم الجديد للوحدانية. وهذه الوحدانية للإنسان بالنظر العقلى فى إثبات وجود الله ووحدانيته، ففى نظام الخلق، وترابط الوجود، وقوانين الطبيعة، وما يقوم على الأرض من إنسان وحيوان ونبات، وفى ذات الإنسان نفسه، فى خلقه وفى عقله ووجدانه، ما يؤدى بالعاقل المتبصر المتفكر إلى إقرار وجود الله وإقرار وحدانيته. والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تدعو العقل إلى النظر والتدبر ليصل إلى هذه النتيجة. ومفهوم الوحدانية كما جاء بها الإسلام مفهوم جديد، لا علي العرب وحدهم، ولكن على الناس جميعاً. حقيقة إن الأديان السماوية كلها قد دعت إلى الوحدانية، ولا يمكن أن تكون قد جاءت بغير ذلك، إلا أن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت وشابتها كثير من الشوائب غيرت من صفائها ووضوحها، بما أدخل على ديانات الرسل ودعواتهم من شوائب الوثنية التى كانت تقوم إلى جوارها، والتى كثيراً ما كانت القوة المادية والسياسية إلى جانبها.

ولذلك يمكن القول بأن الوحدانية كما جاء بها الإسلام كانت جديدة كل الجدة على العرب، وهى بمفهومها الإسلامى جديدة كذلك على العالم، ولأول مرة فى حياة البشرية تقوم هذه الفكرة وتستقر وتصبح عقيدة عامة ثابتة.

والمفهوم الثانى هو الخاص بفكرة الحساب وما يتصل بالحساب من معان. فالله يعلم الجهر وما يخفى، والإنسان رهين بما كسب ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾{المدثر/٣٨}. فإذا جاءت القيامة حوسب المرء على عمله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ {الزلزلة٦/٧/٨}.

ولكن مفهوم البعث والحساب لم يكن معروفاً بالصورة التى أقرها الإسلام، فكل ما عرف من قبل أنه يوجد بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يلقى فيها المرء خيراً أو شراً، وقد لا يجديه العمل الصالح بغير شفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء ورضاء الكهنوت. ولكن الإسلام قرر أن الحياة أطوار، من لدن أن يكون الإنسان ماء دافقاً يخرج من بين الصلب والترائب، إلى أن يكون جنيناً، ثم وليداً، ثم يجرى فى طور الحياة الظاهرة إلى أن يموت، فحياته حياة الروح ثم يبعث يوم القيامة وقد اكتملت فيه أطوار الحياة فيبعث بجسمه وروحه كما كان خلقه، ثم ينال جزاءه حسب عمله.

وعمله مسجل عليه فى ظاهره وفى باطنه، فالإنسان محاسب على الأعمال وما وراء الأعمال من نية وقصد.

وعلى غير هذا المفهوم كانت الديانة اليهودية، فإنها لا تميل إلى تصور العالم الآخر، بل كان الجزاء ثواباً وعقاباً فى هذا العالم، وفيما كانوا يخافونه مما قد يسلطه الله عليهم من أنواع الخوف والجوع وما إلى ذلك من عذاب.

والمفهوم الثالث هو ما يختص بفكره الكتاب المُنزل، فالذى يوحى إلى النبى ﷺ كتاب مُنزل من عند الله وليس من قول البشر ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ {البروج٢١/٢٢} يتكفل الله بإبقائه وصيانته وعدم نسيانه، وهو من كلام الله بحروفه ومعناه. لا يزيد النبى فيه شيئاً ولا ينقص، فهو كلام مقدس بنطقه ومعناه.

وقد وجدت الكتب السماوية من قبل القرآن، ولكن استقرار أن الكلام بنصه ولفظه من عند الله لم يكن موجوداً فى غير القرآن، فالتوراة كتبت من بعد موسى وتضمنت فصولاً كتبت بعد وفاته، كما حوت تاريخاً ونبوءات من قبل موسى ومن بعده، وكذلك تعدد ترجمتها والإضافات إليها. والإنجيل كتبه تلاميذ المسيح بعده، وفيه كثير من كلامهم قصوا فيه حياة المسيح وضمنوه جملاً من كلام المسيح نفسه، فليس الإنجيل كله كلاماً منزلاً بنصه وحروفه من عند الله وحتى كلام المسيح نفسه لا يمكن أن يقال إنه بنصه وحروفه ولكنه بمعناه، ولا يخرج الأمر فى الإنجيل عن طريق الحديث عند المسلمين، ولذلك تعددت كتابة الإنجيل، بل وتعددت الأناجيل لدرجة كبيرة. ولم يجد المسيحيون ولا اليهود حرجاً من ذلك لأن فكرة الكلام المنسوب بلفظه ومعناه إلى الله لم تكن موجودة من قبل القرآن، وعلى مثل ذلك كانت الحال فى الكتب الدينية الأخرى.

أما الذى نزل على محمد ﷺ فقد تقيد محمد نفسه فيه بحيث أنه ليس فى إمكانه أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص حرفاً، وليس فى إمكانه أن يأخذ فيه بالمعنى دون اللفظ، فالله يوحى قوله إلى جبريل وجبريل يلقيه على محمد، ومحمد يتلوه على الناس كلاماً مقدساً كما سمعه.

وعلى هذا الأساس حفظ القرآن الكريم، وعلى هذا الأساس جمع فى مصحف واحد هو المتداول فى أيدى المسلمين حتى الآن لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف، ولم يدخل أى نوع من التفسير فى ترتيب آياته وسوره، واستقرت قدسيته على ذلك منذ تلاه محمد ﷺ عن ربه حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة.

وعلى هذا الأساس تقرر أن مفهوم الكتاب المنزل مفهوم جديد على العالم وهو بصورة أوضح على العرب فنحن نعرف أن وثنية العرب لم يكن لها كتاب، وهم لم يتقبلوا فكرة الوحى والكتاب المُنزل فى سهولة، فقالوا: «أضغاث أحلام - بل افتراه - بل هو شاعر» وقالوا «افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» وقالوا «أساطير الأولين اكتتبها».

ثم إن النبى ﷺ إلى جانب هذه المفاهيم الجديدة التى جاء بها كان معلماً للأخلاق يريد أن يثنى الناس عن عادتهم المرذولة القديمة ويريد أن يهديهم إلى أخلاق كريمة سميت فيما بعد الأخلاق الإسلامية. وفى القرآن آيات كثيرة تدل على هذا الدور الأخلاقى الذى قام به النبى ﷺ.

هذه هى المسائل الرئيسية التى دعا إليها النبى ﷺ الناس، فكانت غريبة عليهم حتى قالوا عبر القرآن ﴿فَقَالَ الْمَلأُ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

{المؤمنون/٢٤} «ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة» وهذا يؤكد لنا أن هذه الأفكار كانت جديدة غير معروفة فى المجتمع

العربى وغير معروفة كذلك في الأديان الأخرى ومن غير شك كان العرب يخالطون أصحاب الديانات الأخرى بل منهم من دخل فيها، فمنهم من تهود ومنهم من تنصر. وكان أهل مكة يخالطون أهل هذه الديانات فى رحلاتهم التجارية نحو الشمال والجنوب ويتعاملون معهم، ومن غير شك عرف المكيون شيئاً عن مبادئ هذه الديانات، بل منهم من قرأ الكتب وعلم علم أهل الكتاب، فلو كانت هذه الأفكار الإسلامية موجودة عند أهل الكتاب لما قال هؤلاء المكيون مقالتهم التى سجلها القرآن، ولو كانت مقالتهم تخالف الواقع، رد القرآن بتكذيبهم وبتأكيد وجود هذه الأفكار، الأمر الذى يقطع بما يتجه إليه.

على أن هذه المثل العليا فى الإيمان وفى الأخلاق هى أفكار إنسانية لاتزال الإنسانية تنشدها وتعيش عليها منذ بدء الخليقة، ونعنى بها الدعوة إلى الفضيلة والنزوع إلى الكمال الإنسانى، ولم تفقد جدتها بعد، ولا يتهم صاحبها بأنه اقتبسها أو قلد بها غيره فهى تراث للإنسانية قديم جداً، والقول بهذا الاتهام وقوع فى خطأ قديم ابتدأ به الوثنيون حيث قالوا «أساطير الأولين اكتتبها».

النواحى العامة بمكة المكرمة فى عهد النبى ﷺ

من الناحية الدينية: بدأت الحياة فى مكة بعد الفتح تأخذ شكلاً جديداً غير الشكل الذى كانت تعرفه قبله، فبعد أن كانت مثلها العليا تفانياً للقبيلة، وتفاخراً بالآباء، وأخذاً بالثأر، وكرماً يؤدى إلى التلف، وامتيازاً لأصحاب الصدارة، وقدرة على الثراء بالحق والباطل، أصبحت وقد هذّبها القرآن الكريم تدين بالإخاء لله، وتعقد بسيادة الدين، وأنه لا فضل لعربى على عجمى، وأصبحت الصدارة فى رأيها لأصحاب التقوى. وأثر هذا فى عقليتها العامة فارتسمت لها أخلاق جديدة مستوحاة من القرآن الكريم، وتفتحت أمامها آفاق لا عهد لها بها من سيرة الرسول ﷺ ، فاندمجت فيما رأت، ونسيت نخوتها الجاهلية وعصبيتها للقبيلة، واستتبع ذلك أن ضاقت بها دائرة الشعر، فلم تجد لها فيه مجالاً إلا ما استمد روحه من الدين، واصطبغ بلون من أخلاق القرآن الكريم.

من الناحية الاجتماعية: واستتبع ذلك دعوة اجتماعية شملت جل تقاليدها وعاداتها، فنقضت كل ما ورثت، وبنت على أنقاضه شيئاً جديداً حدَّده القرآن الكريم وفصلت تعاليمه السُنة.

أُلغى فى هذه الدعوة الاجتماعية وأد البنات الذى شاع بين قبائل قريش وكثير من العرب، وحُرِّم نكاح المقت الذى كان يبيح وراثة نكاح المرأة لأبناء زوجا أو أقاربه، كما حُرِّم نكاح الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وأُلغى تعدد الزوجات إلى أكثر من أربع، وحتى هذا التعدد المحدود فرض القرآن عليه شروطاً تقلل شيوعه أو تمحوه.

ومُنحت المرأة كثيراً من حريتها التى كان العربى ينكرها عليها بعد أن حددت لتلك الحرية حدوداً لا يباح تعديها.

ونظمت فى هذه الدعوة الاجتماعية شئون الزواج والطلاق، كما فصلت شئون الرضاع، وحوربت العبودية بمعناها الواسع، وحل محلها تنظيم دقيق خفف العبء على الرقيق، وأعطاه حقوقاً كانت قريش وكانت العرب لا تقرُّها، وفتح أمامه من أسباب العتق والفكاك لا نهاية لحصرها.

وجاءت الدعوة الاجتماعية على تحريم الربا، وقد كان أداة لاستغلال الضعفاء فى جميع البيئات العربية وفى مكة بالخصوص، كما حُرِّم الخمر والميسر، وألغيت جميع نظم البيوع والأقضية والميراث التى كانت تسودها روح الطغيان، وشرعت على أنقاضها نظم جديدة راعت العدل وفرضت المساواة فى حدودها الشرعية.

والناحية العلمية: كانت مكة بحكم وضعها التجارى في عهد قريش مضطرة لضبط أعمالها التجارية، فكان فيها بعض الكتابين الذى يستطيعون أن يسجلوا أعمال التجارة التى تمتد شرقاً وغرباً، بل نجد فى التاريخ ما يدلنا على أن بعض نساء هذا العهد كن يكتبن، فإن السيدة حفصة بنت عمر زوج النبى ﷺ كانت تعرف الكتابة.

وعندما بدأ الوحى ينزل على النبى ﷺ فى مكة كان النبى يحرص على أن يدونِّه بعض الكتابين ما أمكنهم ذلك، إلى جانب الاعتماد على الحافظة القوية التى يمتاز بها بعض صحابته رضوان الله عليهم.

لم تكن كتابة قوية ولا سريعة، ولكنها مع هذا كانت كتابة صالحة للتدوين على أى مادة ميسورة من خشب أو عظم أو خزف أو جلد أو حجارة، بل ربما كتبوا فى بعض الأحيان على ورق، بدليل أننا نقرأ فى خبر إسلام عمر - رضى الله عنه - أن أخته وزوجها كانا يقرأن شيئاً من القرآن فى صحيفة معهما حين دخل عليهما.

إذن كانت مكة لعهد النبى ﷺ تعالج الكتابة فى درجة تصلح للتدوين وإن كان التدوين غير منقوط الحروف، لأن الحروف لم تنقط إلا فى عهد الحجاج، وقد عنى النبى بهذه الظاهرة وشجعها واصطحب بعض رجالها إلى المدينة ليواصلوا التدوين، واشتدت عنايته بذلك فى المدينة، ففرض على من يعرف الكتابة من المكيين أسرى بدر أن يفتدى الرجل منهم نفسه بتعليم الكتابة لعشرة من المسلمين.

واستفادت مكة بعد الفتح من ثقافة القرآن ما هيأها للفهم الجديد، فإن كتب السيرة والمغازى ومدونى كتب الطبقات يحدثوننا فى أخبار على وابن مسعود و ابن عباس وأبى ذر الغفارى وابن عمر وأبى الدرداء أنهم كانوا يترددون إلى مكة بعد الفتح، فتبين من هذا أن مكة كانت تستفيد من علومهم وتتوسع معارفها الجديدة بحكم هذه الاتصالات المستمرة، خصوصاً ونحن نعلم أن أصحاب هذه الأسماء كانوا يحتلون الدرجة العلمية الأولى بين صحابة رسول الله، وقد كانوا يقولون عن بعض هذا النفر: إنه لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم بعلمه، وإذا أضفنا إلى هذا أن المكيين أنفسهم ظلوا قبيل وفاة النبى ﷺ يترددون عليه فى المدينة، وأنهم كانوا ينزلون على من فيها من جلة المهاجرين فيجدون لديهم ما يروى غلتهم من العلم استطعنا أن نعرف إلى حد بعيد نوعاً من أنواع الاستفادة العلمية التى كانت تعتمدها مكة فى عهدها هذا.

التحولات الكبرى فى مكة المكرمة
بعد بعثة النبى ﷺ

التحولات الكبرى فى مكة المكرمة بعد بعثة النبى ﷺ

كانت حياة النبى ﷺ نقطة تحول فى تاريخ مكة، بل كانت فاصلاً بدأت به عهدها الجديد كقبلة يتوجه إليها الملايين من المسلمين فى كل يوم خمس مرات، ومحجة يهرع إليها مئات الألوف فى كل عام من شتى أصقاع الأرض.

بُعث النبى ﷺ في وسط كانت العقلية السائدة فيه رغم نضجها الذى ذكرنا لا تحجُر على متع الحياة ولا تفرض سلطاناً على مستبيح فى لذة، وكانت القيم الأخلاقية تزن الحياة بمعايير خاصة.

بُعث النبى ﷺ فى وسط يعتنق هذه المبادئ ويدين بها كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد، فلم يكن على النبى ﷺ أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من منسك ضال فقط، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله، والتى لا تستسيغ الوحدة تضيع فيها معالم القبيلة.

بُعث النبى من بنى هاشم، فأى دعوة هذه التى ينقاد إليها بنو أمية، وبنو سهم، وبنو عدى، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو أسد، وسائر البطون من قريش والقبائل من كنانة؟! إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ وأمجادها فى عرفهم، وإنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبنى هاشم دونهم، فما بالهم لا يقاومون؟ وما بال هذه القيم الأخلاقية الفاسدة لا تعارض فيما يضاد عرفها ما بالها لا تتكبر على الدعوة وتكابر فى الحق، ضناً بكيان الفخذ أو البطن أو القبيلة ومجافاة لهذا الإعداد الذى سيصهرهم غداً فى بوتقة تنسيهم تراث آبائهم وتضيع معالمهم؟

بهذا العنت قوبل النبى ﷺ فى فجر دعوته، وعن هذه البواعث حورب بكل الصور والأشكال.

واحتمل النبى ﷺ ما لا يحتمله إلا صاحب عقيدة راسخة، ثم وجد أول ما وجد فى مكة من استجاب لدعوته من الأفذاذ الذين تسمو عقولهم على ما ورثوا من أوضاع، وترتفع بهم نفوسهم عن المكابرة إذا أبلج الحق، والأفذاذ من هذا النوع ندرة لا يظفر التاريخ بهم إلا فيما قل، فلا عجب إذا رأيناهم حوله - أول ما نراهم - أقلية لا يعدون أصابع اليد.

ويسفر الدين الجديد عن تعاليم جديدة، فإذا فى هذا الدين دعوة إلى التكتُّل ونسيان القبيلة والكفر بالأصنام، وإذا فى الدين حد للإباحة المطلقة، وإذا فيه كبح للذائذ والشهوات، وإذا فيه تحليل وتحريم، فأية أخلاق منحلَّة تقوى على التوحيد والتكتل؟ وأى خطوة لا يستطيع أن يخطوها إلا وجدان عامر بغير الأهواء التى كان يعمر بها وإنه قبل ذلك يدعو إلى إلغاء الأصنام وقد عاشوا فى مكة على سنتها، وقامت متاجرهم على الانتفاع من مواسمها.

لابد إذن لهذا التعصب من أن يستعر أواره، ولابد للمقاومة من أن تنشط للدفاع. لابد أن يجتمع إلى عامل المحافظة على كيان القبيلة عوامل أخرى مبعثها الحرص على مصدر أرزاقهم وقداسة التقاليد الموروثة والذود عن حظوظهم فى الدعارة الشائعة والإباحية المطلقة.

هذه العوامل تضافرت على شخص واحد لا يملك إلا يقينه، وإلا صبره، وإلا بضعة نفر مستضعفين تطاردهم قريش وتعذب بعضهم بالجلد والحجارة المحماة، وتتحالف بطونهم فتجمع على عهد يقاطعون بموجب نصوصه جميع بنى هاشم، فلا يبايعونهم ولا يعاملونهم حتى ينبذوا محمداً ﷺ.

هجرة النبى ﷺ:

وعندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أبى عنادهم إلا أن يحاولوا القضاء على دعوته قبل أن تضرب فى الأرض فتأوى إلى ركن شـــديد يغزو منه عقيدتهم، ويبعث بكيانهم القبلى، ويحد من إباحيتهم، ولكنها عناية الله أبت إلا أن ينفذ أمر الله فيما قضى، وأن تحرم مكة إلى حد ما من شرف مؤازرته ونصرة دعوته.

قتال قريش:

وأذن الرسول ﷺ فى المدينة بقتال قريش، فأرسل عمه حمزة فى سرية تعترض عيراً لقريش قادمة من الشام، وأرسل أخرى بعدها لمثل الغرض، وفى السنة الثانية من الهجرة، أرسل عبدالله بن جحش فى سرية ثالثة فأصاب العير وغنم ما فيها، وخرج ﷺ بعد ذلك فى ثلاثمائة رجل ليعترض قافلة جديدة، فعلمت بذلك قريش فخرجت فى نحول ألف رجل، فتقابل الفريقان على ماء ببدر وهو من المدينة على طريق ينبع، فكانت غزوة بدر الكبرى وكان النصر فيها للمسلمين.

وفى الســنة الثالثة أرادت قريش أن تثأر لنفســها فمشــت فى رجالها إلى المدينة، واســتيقظت المدينة فكان القتال بجوار جبل أحد فى ضواحى المدينة، وكاد ينتصر المسلمون لولا أن شغل الرماة بالغنائم، وتلك هى غزوة أحد.

وكانت غزوات فى السنة الرابعة والخامسة لم تبرز فيها قريش، ثم كانت السنة السادسة وفيها خرج النبى ﷺ من المدينة معتمراً لا محارباً، فلما انتهى إلى الحديبية وهى على نحو ٢٠ كيلو متراً من مكة أوفدت إليه قريش من يحدثه وأوفد إليها عثمان بن عفان فى ذلك، ثم عادوا فأوفدوا إليه ســـهيلاً يقترح أن يرجع عامه هذا، لئلا يتحدث العرب بأنهم أخذوا ضغطة وله أن يدخلها فى العام القادم فرضــى النبى ﷺ فكان الصلح وكانت الهدنة واستأنف النبى رحلته راجعاً إلى المدينة.

وقد جاء فى شـــروط الهدنة أن يكف الفريقان عن الحرب مدة عشـــر ســـنين، وأن تخرج قريش عن مكة عامها المقبل، ليدخلها النبى معتمراً، وأن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه.

وفى الســنة الســابعة عاد النبى ﷺ فى ألفى معتمر إلى مكة وأدى نسكه دون أن يعوقه شــىء، وقد تفتحت لهيبته بعض النفوس فأسلم اثنان من كبار قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

فتح مكة:

وكانت خزاعة قد دخلت فى حلف رسول الله، كما كان بنو بكر بن كنانة قد دخلوا فى حلف قريش، فاقتتل القبيلان فى عرفة فأمدت قريش حلفاءها من بنى بكر بالسلاح وظللوهم وسقوهم الماء، فكان هذا الإمداد نكثاً للعهدة، وكان نقضاً للاتفاق بدأت به قريش.

وأحس عظيم مكة أبو ســـفيان أنه أمام حدث جديد جاء نتيجة لنكث العهد، ثم حملت إليه عيونه أن المدينة تجهز أمرها لحركة عظيمة، فخف إلى المدينة وهو يأمل أن يتلافى ما فات، ولكن القضاء كان قد جرى بما سيكون.

وأمر النبى ﷺ بالسير إلى مكة فأذن فى الناس بالغزو وسار فى جيوشه وهو يقول: «اللهم اضرب على آذانهم فلا يسمعوا حتى نبغتهم نبغتهم» وأخذ فى السير حتى انتهى إلى مر الظهران فخرج أبو سفيان فيمن خرج من مكة يتجسس أخبارهم حتى وقع فى أسرهم، وسيق إلى رسول الله فقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟! فقال: لو كان مع الله غيره لأغنى عنى شيئاً. فقال: ويحك، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ فقال: بأبى أنت وأمى، أما هذه ففى النفس منها شىء. قال العباس: ويلك، تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فتشهد، قال العباس: يا رسول الله، اجعل له شيئاً يكون به فى قومه. فقال رسول الله: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وأمر النبى ﷺ بحبسه عند خطم الجبل حتى يمر به الجنود، ثم أطلقه فأتى مكة مسرعاً وصاح فى المسجد: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم بما لا قِبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل دارى فهو آمن، فقالوا: ويحك، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

وأوصى النبى ﷺ قواده بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفراً سماهم لهم وأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، كما أوصاهم ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبراً ولا يقتلوا أسيراً.

وتقدم جيش خالد فوجد الأحابيش[1] فاستل وفرقته سيوفهم حتى هزموهم، وتقدم الزبير فتفرقت قريش تعتصم برؤوس الجبال، وجاء أبو سفيان إلى النبى صائحاً: يا رسول الله، أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله: من دخل دار أبى سفان كان آمناً، ومن دخل دار حكيم كان آمناً، ومن أغلق بابه كان آمناً، ومن ألقى السلاح كان آمناً.

وأغلق الناس أبوابهم وألقوا سلاحهم، وغص المسجد وغصت دار أبى سفيان بطالبى الأمان، ومضى موكب رسول الله إلى المسجد، فاستلم النبى الحجر، ثم طاف بالكعبة ونادى فى قريش: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ألا إن مكة حرام ما بين أخشبيها، لم يحل لأحد من قبلى ولا يحل لأحد من بعدى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: "يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وعمد النبى ﷺ إلى صنم بجانب الكعبة فجعل يطعن فى عينه ويقول: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ {الإسراء/٨١} وتسابق المسلمون إلى الأصنام فجاؤوا بها الأرض كسراً وتحطيماً، ودفع النبى ﷺ فى هذا اليوم مفتاح الكعبة إلى سدنتها قبل الفتح وقال: خذوها، يا بنى عبد الدار، خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. وهى باقية فى أعقابهم إلى اليوم.

---

[1] قال ابن هشام عن ابن اسحاق أن الأحابيش جماعة من بنى الحارث وبنى خزيمة وبنى المصطلق تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش، أى: سواد الناس، وسواد الناس هو الجمع الكثير. وقال العصامى (سمط النجوم العوالى): إنما سموا الأحابيش لعقدهم الحلف مع قريش عند جبل بأسفل مكة يقال له: حبشى، وقال بعض المؤرخين أن الأحابيش زنوج استوطنوا بعض الجبال فى مكة وحالفوا قريشا.

أول أمير فى مكة:

ولبث النبى ﷺ فى مكة أســابيع، ثم بلغه أن هوازن وثقيف يجمعان جموعهما لغزوه فى مكة، فخرج النبى ﷺ فى جيش من أصـحابه وانضـم إليه من مكة ألفان آخذاً طريقه إلى الطائف بعد أن اسـتعمل على مكة عتاب بن أسـيد وأوصاه بهم: «أتدرى على من ولَّيْتك يا عتاب؟ على جيران بيت الله، فاستوص بهم خيراً».

وعتاب أموى من قريش أســلم يوم الفتح. كان معروفاً بالورع، حلف مرة فقال: ما أصـــبت فى الذى بعثنى فيه رسول الله إلا ثوبين.

وظل النبى ﷺ فى الطائف يحاصـر أهلها سـبع عشـرة ليلة ثم تركهم بعد أن دعا الله أن يأتى بهم، وقد أتى الله بهم بعد ذلك فجاؤوه مستسلمين.

وأتى النبى ﷺ الجعرانة[1] فى منصرفه من الطائف فاعتمر ثم مضى إلى مكة فأدى نسكه فيها، ثم استأنف رحلته إلى المدينة بعد أن أيد إمارة عتاب بن أســيد وفرض له كل يوم درهماً، وكان عتاب لهذا أول أمير ولى مكة بعد الإسلام.

أول أمير للحج:

وفى السنة التاسعة وفد إلى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت إمارة أبى بكر، فكان أول أمير للحج فى الإسلام، وانتهى أبو بكر إلى مكة وفيها المشركون يؤدون مناسكهم على ما ورثوا من تقاليد آبائهم، والمسلمون على ما أبان لهم أبو بكر، وإنهم لكذلك إذ وافاهم على بن أبى طالب مندوباً من المدينة ليعلن فى الناس يوم النحر من منى نزول الوحى بســورة (براءة) وفيما تضــمنته: ألا يحج بعد عامهم هذا مشــرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وألا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحداً كان له عند رسول الله عهد وعهده إلى مدته، وأن الله أمر بجهاد الشـرك ممن نقض من أهل العهد الخاص، ومن كان له عهد له فأجله أربعة أشـهر يرجع فيها كل قوم إلى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها.

وفى هذا الإعلان تضــمين عام شــامل لكل ما نزلت به ســورة (براءة) وفيه تحديد لأمور شــتى كانت متروكة لانتظار التجديد.

---

[1] تبعد الجعرانة عن مكة نحو ٣٠ كيلو مترا.

من معالم مكة المكرمة
(الأماكن والمساجد المأثورة)

من معالم مكة المكرمة

فى مكة المكرمة العديد من الآثار الإسـلامية الخالدة، التى مازالت تحكى قصـة تاريخ الأرض الطيبة التى كانت مسرحاً لأروع البطولات، التى تروى ذراتها تاريخاً طويلاً، يصور البطولة، وألوان الكفاح، ومصارع الشهداء فى سبيل الله، والآثار منها ما كان من مصادر التاريخ القديم، ومنها ما تحدث مشاهدته عظة وعبرة تثير فى النفس عاطفة ذكرى حدث جلل، أو الأسوة الحسنة، بصاحب الأثرﷺ

الأماكن المأثورة فى مكة

مكان مولد الرسـول يا له من منزل شـرفه الله بأن كان حاضـن وحاضـر الولادة السـعيدة التى جعلها الله رحمة للعالمين- مولد الرسول ﷺ بشعب بنى عامر شرقى مكة وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف المتر وينزل إليه بواسـطة درج من الحجر يوصـل إلى باب يفتح إلى الشـمال يدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشـر متراً في عرض سـتة أمتار وفى جداره الأيمن (الغربى) باب يدخل منه إلى قبة فى وسـطها (يميل إلى الحائط الغربى) مقصـورة من الخشـب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد الرسـول ﷺ، وهذه القبة والفناء الذى خارجها يكونان الدار التى ولد فيها الرسـول ﷺ (رحلة البتانونى ﷺ ٥٢ طبعة ثانية)، وجاء فى تاريخ مكة لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقى المتوفى في العقد الثاني من المائة الثالثة فى ص ٤٢٢ طبع ألمانيا: أن البيت الذى و لد فيه الرسول ﷺ هو فى دار محمد بن يوسف الثقفى أخ الحجاج، وكان عقيل بن أبى طالب أخذ من الرسـول ﷺ داره لما هاجر، وفيها يقول الرسـول ﷺ فى عام حجة الوداع لما قيل له: أين تنزل يا رسـول الله ﷺ «وهل ترك لنا عقيل من ظل»؟ ولم تزل الدار بيد عقيل وولده حتى باعها ولده من محمد بن يوسـف الثقفى فأدخلها فى داره التى يقال لها البيضاء وتعرف اليوم بدار ابن يوسف، وبقيت الدار كذلك حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون سنة ١٧١ هـ. فجعلت دار الرسول مسجداً يصلى فيه وفصلته من دار ابن يوسف وأشـرعته فى الزقاق الذى فى أصـل تلك الدار ويقال له: زقاق المولد قال أبو الوليد: إنه سـمع جده ويوسـف بن محمد يثبتان أنه المولد وأنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة، ولكن جاء فى المواهب اللدنية أنه اختلف فى مكان ولادته ﷺ فقيل: ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفى، ويقال: بالشعب - شعب بنى هاشم - ويقال: بالردم، ويقال: بعسفان. هذا وقد جاء برحلة الغباشى بعد أن ذكر خلاف أهل السير فى مولده ﷺ ما يأتى: والعجب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع وقالوا له: موضع ولادته ﷺ ، ويبعد عندى كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففى أى شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشـعب ففى أى الدور، وعلى القول بتعيين الدار، فيبعد كل البعد تعين الموضـع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصـار وانقطاع الآثار والولادة وقعت فى زمن الجاهلية وليس هناك من يعتنى بحفظ الأمكنة

ولا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجئ الإسلام قد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتقييد الأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرف اعتناءهم رضوان الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام من مساجده عليه السلام ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة، فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد علىّ ومولد عمر ومولد فاطمة رضى الله عن جميهم، فهذه الأماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان وهذا مولد فلان، وفى ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده ﷺ لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده ﷺ فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وإن كانوا أهل جاهلية، وأما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد العادة تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته. كلامه (يلاحظ أن العياشى كتب رحلته فى حجتيه سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٤هـ). وقد جاء في كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للتقى الفاسى الذى كتبه فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة وصف مولد الرسول وقال بعد الوصف: وقد خفى علينا كثير من عمارته والذى علمته من ذلك أن الناصر العباسى عَمره فى سنة ٥٧٦ هـ. من قبل الأمير شيخون أحد كبار الدولة بمصر، وفى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر بإشارة مدير دولته يلبغا الخاسكى سنة ٧٦٦ هـ. وفى آخر سنة ٨٠١ هـ. وفى أول التى بعدها من المال الذى أنفذه الملك الظاهر برقوق صاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغيره بمكة، وكانت عمارة هذا المولد بعد موته. وقد جدّد القبة التى على موضع الولادة السلطان سليمان خان سنة ٩٣٥ هـ. وفى سنة ٩٦٣ هـ. أهدى هو أيضاً ثلاثة قناديل ذهباً منها اثنان للكعبة والثالث يعلق بالمولد، وقد علقت بيد الشريف أبى نمّى. وفى سنة ١٠٠٩ هـ. أمر السلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان بعمارة مولد الرسول ﷺ، وبنى فى أعلاه قبة عظيمة ومنارة، ووقف عليه وقفاً بالديار الرومية ورتب له مؤذناً وخادماً إماماً، وجُعل لكل شىء معين يحمل إليه كل عام، ثم جعلت له السلطنة العثمانية مدرّساً يدرس فيه ويتقاضى مرتباً فى نظير ذلك.

دار خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة رضى الله عنهما - هذه الدار بزقاق الحجر بمكة ويقال له أيضاً: زقاق العطارين على ما ذكره الأزرقى وتعرف بمولد فاطمة رضى الله عنها لكونها ولدت فيها هى وإخوتها أولاد خديجة من النبى ﷺ. وذكر الأزرقى: أن النبى ﷺ بنى بخديجة فيها وأنها توفيت فيها، ولم يزل النبى ﷺ ساكنا بها حتى هاجر إلي المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب ثم اشتراها منه معاوية وهو خليفة فجعلها مسجداً يصلى فيه، وهذه الدار على ما جاء برحلة البتانونى قد ارتفع عنها الطريق فينزل إليها بجملة درجات توصل إلى طرقة على يسارها درجة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سنتياً ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً فى أربعة عرضاً،

وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الكريم وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه إلى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين، وفيها ثلاثة أبواب الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً فى أقل منها عرضاً، وهذا المكان كان معداً لعبادته ﷺ، وفيه كان ينزل الوحى عليه، وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقال: إنه كان محل وضوئه ﷺ، والباب الذى فى قبالة الداخل إلى الطرقة يفتح على مكان أوسع يبلغ طوله نحو ستة أمار فى عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه النبى ﷺ مع زوجته خديجة رضى الله عنها، أما الباب الذى على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار فى طول نحو سبعة أمتار ونصف، وفى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها وفى جدار هذا الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون: إنها من رحى السيدة فاطمة التى كانت تستعملها فى حياتها، وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والدرجة المرتفعة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً، وعرضه سبعة أمتار، وهو المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها. هذا وصف الدار على ما جاء برحلة البتانونى ثم قال البتانونى بعد ذلك هذه الدار التى كانت مقراً له ﷺ ومحل إقامته فى مكة ومبعثه إلى الخلق كافة إذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها إلا «البساطة» بنفسها، دار تحتوى على أربع غرف، ثلاث داخلية منها: واحدة لبناته، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس، بالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع!.

وقد هدم هذا المنزل وبُنى فى مكانه مقراً لمكتبة مكة وهى تابعة لوزارة الحج والأوقاف وهى باقية إلى يومنا هذا.

دار الأرقم ابن أبى الأرقم المخزومى

وكان موقعها جانب جبل الصفا الأيمن، ثم أزيلت حين فُتح الشارع الجديد بجانبها ومكانها المعروف يقع فوق أنفاق الصفا المؤدية إلى جنوب العزيزية.

وكانت أول مكان لاجتماع النبى ﷺ بأصحابه الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا يتدارسون القرآن ويتعلمون الدين على يدى الرسول ﷺ بعيداً عن أذى المشركين ومضايقاتهم. وظل المسلمون يتعبدون فيها ولا يستطيعون إشهار عبادتهم حتى هدى الله حمزة بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب «الفاروق» للإسلام فخرج المسلمون من هذه الدار إلى ساحة الكعبة المشرفة صفاً واحداً فى واضح النهار وكان على يمين الصف حمزة ممتشفاً حسامه وعلي يساره عمر بن الخطاب ممتشفاً حسامه وكان يتقدمهم الرسول ﷺ فصلوا جميعاً وطافوا بالبيت، ولم يستطع أحد من المشركين أن يتعرض لهم بسوء وكان ذلك أول يوم يخزى الله المشركين فيه علانية بين أهلهم وذويهم.

وكانت دار الأرقم قبل توسعة المسجد الحرام فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا وبابها يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة وعلى يسارها «إيوان» مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفى وسط الحائط التى على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير، وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان أحدهما فوق الآخر مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز: بسم الله الرحمن الرحيم (فى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الإسلام، أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين ومكتوب فى الثانى بسم الله الرحمن الرحيم: (هذا مختبأ رسول الله المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن على ابن أبى منصور الأصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول إلى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة) [1]. وقد جاء فى شفاء الغرام للفاسى: أن طول المسجد (الحجرة التى على اليمين) الذى فى هذه الدار ثمانية أذرعة إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث وأنه مكتوب فيه (فى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ): هذا مختبأ رسول الله ﷺ دار الخيزران وفيه مبتدأ الإسلام أمر بتجديده الفقيرة إلى الله مولاة أمير الملك مفلح سنة ست وذهب بقية التاريخ) وقال بعد ذلك: وعمره أيضاً الوزير الجواد، وعمرته مجاورة يقال لها: مرة العصمة، وعُمر أيضاً فى سنة ٨٢١ هـ. والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته. والمتولى لصرف النفقة فيه علاء الدين على بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد.

دار العباس بن عبدالمطلب «رضوان الله عليه»:

وهى بالمسعى عند الباب المسمى «باب العباس» أحد أبواب المسجد الحرام إلى المسعى وفى جدارها أحد الميلين الأخضرين وهما اللذان تسن الهرولة بينهما للرجال وقد صارت هذه الدار يوماً رباطاً للفقراء وكان يسمى فى الزمان القديم برباط العباس، وفيه كان العلم الأخضر وقد أفاد الفاسى أنه كان مطهرة ثم جعل رباطاً والذى عمله مطهرة الملك المنصور لاجين المنصورى، والذى عمله رباطاً ابن أستاذه الملك الناصر ومحمد بن قلاوون الألفى.

---

[1] رحلة البتانونى ص ٥٥

دار أبى سفيان رضى الله عنه:

من الدور الشهيرة بمكة المكرمة دار أبى سفيان بن حرب - وهى واقعة على يمين الصاعد من المسجد الحرام فى أول المدعى، محاذية للمروة.

وهى الدار التى قال فيها رسـول الله ﷺ عند فتح مكة «من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسـجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سـفيان فهو آمن». وكان ذلك صـباح يوم الجمعة لعشـرين خلت من رمضـان من السـنة الثامنة للهجرة.

وهذه الدار وما حولها لم يغفلها المؤرخون حتى إن المؤرخ الأزرقى أورد فى شـأنها بتاريخه ما فحواه أنه كان يباع فى الرحبة التى بين دار أبى سـفيان ودار حنظلة بن أبى سـفيان الحنطة والحبوب والسـمن والعسـل وكلها أشياء كانت تحملها العير إذا قدمت إلى مكة المكرمة من السراة والطائف وغيرهما.

جبل ثور

اسم جبل بمكة فيه الغار الذى اختفى فيه النبى ﷺ وقال أبو طالب عم النبى:

أعوذ برب النـاس　　من كل طاعـنٍ

علينـا بشّـر، أو　　مخلِّـق باطـل

ومـن كاشيـحٍ　　يسعى لنا بمعيبةٍ

ومن مفتر فى الدين　　مـا لـم يحـاول

وثورٍ ومن أرسـى　　ثبيـراً مكـانـه

وعيـر وراق فـى　　حـراء ونـازل

وقال الجوهرى: ثور جبل بمكة فيه الغار المذكور فى القرآن يقال له أطحل، وقال الزمخشـرى: ثور أطحل من جبال مكة بالمَفْجَر من خلف مكة على طريق اليمن.

بئر طوى:

وهى معروفة فى مكة المكرمة، وموضـعها الآن بجرول، أمام مسـتشـفى الولادة والأطفال، وجاء فى الحديث الشـريف "أن النبى ﷺ نزل عندها، واغتسـل فيها"، عن ابن عمر "ان النبى ﷺ كان ينزل بذى طوى، فيبيت به حتى يصلى الصبح، حين يقدم مكة"

قلعة أجياد:

بلغ من عناية "مسرور بن مساعد" الذى كان أميرا لمكة عام ١١٩٦هـ بشئون الأمن أن بنى سنة ١١٩٦هـ فى أعلى جبل أجياد قلعة أجياد الموجودة إلى الآن، وأنفق أموالا كثيرة فى عمارتها القوية، لتبقى له حصنا من العاديات، وكانت تطل على داره فى سفح الجبل، وهى تقع فى الجهة الجنوبية.

قلعة جبل هندى:

بناها الشريف غالب فى ٢٧ رجب ١٢٢١هـ وتقع فى الجهة الشمالية، وجبل هندى جزء من جبل قعيقعان وهو يقع فى الجزء الشمالى من مكة، وأتم بناؤها فى ١٠ رمضان ١٢٢١هـ وحصنها بالرجال والذخائر.

مقبرة الحجون:

إن مقبرة المعلا فى مكة المكرمة حوت من رفات الأجسام الطاهرة من المؤمنين ما لم تحوه من حيث الفضل باستثناء مقبرة البقيع، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "نعم المقبرة هذه مقبرة أهل مكة".

والحجون جبل على يسار الداخل إلى مكة ويمين الخارج منها إلى منى.

غار حراء

اللغة - بيت منحوت فى الجبل، فإذا اتسع كان كهفاً كما فى لسان العرب لابن منظور.

اصطلاحاً: هو البيت الذى كان النبى ﷺ يتحنث فيه الليالى ذوات العدد من رمضان فى الجبل، قبل هبوط الوحى عليه، والذى نزلت فيه الآيات الأولى من القرآن الكريم، وكان يسمى حراء فى الجاهلية ثم سمى جبل النور فى الإسلام.

والسبب فى تغيير التسمية هو أن جبريل عليه السلام نزل فيه على محمد ﷺ، مخبراً إياه أن الله تعالى قد اختاره خاتماً للمرسلين ونبياً للإنس والجن أجمعين، فانبثاق هذا النور منه هو السبب الذى من أجله عدل الناس عن إطلاق لفظة حراء إلى لفظة نور.

يقول العلماء إن العرب فى الجاهلية كانوا يُجلّون رمضان، ويأوون فيه إلى الكهوف والغيران، لتقديس الله بعيداً عن الناس وما هم منغمسون فيه من شواغل النفس وهموم العيش، ومن أجل هذا كان الرسول محمد ﷺ إذا أقبل رمضان أعدت له زوجه خديجة الزاد والماء، وآوى إلى غار حراء فأقام فيه ما شاء الله مفكراً فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء باحثاً عن الطريق الذى إذا سلكه خلّص الناس من الشرك وهداهم إلى الحق.

وكانت إقامة الرسول ﷺ فى هذا الغار تزداد من سنة إل سنة، حتى إذا لم يبق على اصطفائه سوى ستة أشهر، أخذت تظهر عليه علامات لم تكن تظهر عليه من قبل.

١ ـ طول الإقامة فى الغار

٢ ـ لم يكن يمر علي صخرة شجرة إلا صلت عليه.

حتى جاءه الروح الأمين وكان قد بلغ أشده، وبلغ الأربعين من عمره، وأنزل عليه الآيات الأولى من سورة العلق وهى قوله سبحانه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ {العلق١/٢/٣/٤/٥}.

المساجد المأثورة فى مكة المكرمة

١ـ مسجد العقبة: ويقع بين مكة ومنى على يسار الصاعد إلى منى وهو المكان الذى جرت فيه بيعة الأنصار الأولى للنبى ﷺ والثانية. وكان المبايعون أكثر من ثمانين نفراً من الأنصار الذين شرح الله قلوبهم للإسلام والتى تم فيها عقد الهجرة بين النبى ﷺ وبين الأنصار، والمسجد لا يزال قائماً حتى اليوم وهو على يمين الجسر المنحدر من منى إلى مكة المكرمة.

٢ـ مسجد بيعة الرضوان: والمشهور بمسجد الشجرة ومكانه بالحديبية أو الشميسى. وقد كان هذا المسجد مبنياً منذ قرون طويلة جداً وفى مكان هذا المسجد أو حوله نزل قوله تعالى ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ .

وسبب هذه البيعة أن قريشاً منعت النبى ﷺ والمسلمين من الهجرة وأداء الطواف بالبيت فأوفد إليهم عثمان بن عفان ﷺ يفاوضهم وكان ذا عصبة فيهم ولكنهم أبوا وسمحوا له بالطواف منفرداً فأجابهم بقوله "ما كان لى أن أطوف بهذا البيت والنبى محجوز عنه وصحبه". وشاع فى المسلمين أن عثمان قُتل فبايعوا النبى على قتال قريش أخذاً بثأر عثمان ثم ظهر سلامة عثمان وكان ما كان من صلح الحديبية مما هو معروف.

هدم هذا المسجد قبل نحو أكثر من خمسون عاماً ثم قامت وزارة الحج والأوقاف بإعادته.

٣ـ مسجد الراية (أ): وهو المسجد المعروف بالغزة بقرب دار نجد وأمام عمارة الجفالى وبين شارعى الغزة الجودرية.. وهو المكان الذى نصب النبى ﷺ رايته فيه يوم فتح مكة المكرمة أو كما يقال (غز الراية) وهى لغة فصيحة ولهذا سميت المنطقة منطقة الغزة وهى مكان مشرف على وادى إبراهيم وقد جُدد المسجد ووسعه خادم الحرمين الشريفين المغفور له الملك فهد بن عبد العزيز.

٤ـ مسجد الراية (ب): المسمى مسجد خالد بن الوليد ومكانه فى محلة الباب. ويقال إنه بنى فى مكان راية خالد بن الوليد الذى كان أمير جيش المسلمين الذى دخل مكة من أسفلها ولقى مقاومة من بعض المشركين فقضى عليها بما عُرف عنه من إقدام وبسالة ﷺ.

٥- مســـجد الراية (ج): وهو مســـجد ثالث وكان مكانه فى الجانب الأيمن من المعلاه أمام مبنى البريد المركزى ولكنه أزيل فى توسـعة الشــارع العام. ويُنسـب إلى راية الجيش الثالث الذى دخل مكة يوم الفتح من ثنية الحجون بقيادة قيس بن سعد بن عبادة أو الزبير بن العوام على اختلاف لدى المؤرخين.

لأن جيش الفتح ثلاثة أقسـام كل قسـم على رأسـه الرسـولﷺ ودخل مكة من ريع آذاخر وهو ريع ذاخر المعروف الآن. وقسم دخلها من أوسطها أى من ثنية كداء – أى الحجون – وقسم من أسفلها بقيادة خالد بن الوليد وكل جيش نصب رايته حيث عسكر بعد اتمام الفتح.

٦- مســـجد الجموم: وهى القرية الزراعية الواقعة فى طريق المدينة مما يلى مكة من وادى مر الظهران.. وكان يقع على جانب عين وادى الجموم التى كانت جارية إلى وقت قريب وهو يقع فى المكان الذى كانت جيوش المسـلمين تتجمع فيه لدخول مكة المكرمة والذى تم فيه اسـلام أبى سـفيان على يدى النبى ﷺ فى قصـة ليس هذا مجال ذكرها.

٧- مســجد الخيف: وهو المســجد المعروف بمنى وهو المكان الذى نزل فيه النبى ﷺ فى حجة الوداع وقد جرى تجديده وتوسعته.

٨- مســـجد نَمرة: وهو مســـجد عرفات المعروف ويقع فى المكان الذى نزل فيه النبى ﷺ فى عرفات فى حجة الوداع، حيث صلى بالناس الظهر والعصر جمعاً وقصراً وخطب فيهم خطبة الوداع المشهورة.

وهذا المســجد باعتباره خارج نطاق الحرم أى خارج مكة إلا أنه يعتبر من المســاجد الأثرية القريبة من مكة مثل مســجد الجموم وإن كان مسـجد نمرة أهم وأعم وأعلم ويقع نصـفه مما يلى الشــرق فى عرفات ونصـفه مما يلى القرية فى وادى عرفه.

٩- مسجد الكوثر: وهو مسـجد صـغير كان موقعه فى أوسـط منى على اليمين ويقال إن سـبب تسـميته هو نزول سورة (الكوثر) على النبى ﷺ فى هذا المكان وقد ازيل فى توسعة منى.

١٠- مسجد حمزة بن عبد المطلب: وهو المنسوب لسيد الشهداء منذ القدم ويقع بالمسفلة على يمين الشارع وهو معروف بهذا الاسم حتى الآن.

١١- مســـجد أبى بكر: ويقع فى الزاوية القائمة بين بازان المســفله ودار البوقرى ويقال إنه بنى فى مكان الدار التى كان يسـكنها أبو بكر الصـديق ﷺ وهو ظن غير بعيد لأن هذه المنطقة كانت مكان سـكنى بنى تيم الذين منهم أبو بكر ﷺ.

١٢- مسجد الجن: وهو معروف بهذا الاسـم حتى الآن ويقع بين الشـارع الذى يؤدى إلى مقبرة المعلاة السـفلى وبين شـارع المعلاة وينسـب إلى المكان الذى اجتمع فيه النبى ﷺ بالجن ليلاً وكان بصـحبته الصـحابى الجليل عبد الله بن مســـعود وحيث خط له النبى ﷺ خطا على الأرض فى ذلك المكان وأمره أن لا يتجاوزه حتى يرجع إليه ثم انطلق إلى الجن وظل يعلمهم الإسـلام ويجيب على أسـئلتهم حتى الفجر حيث خاف ابن مسـعود على النبى ﷺ من طول مكثه بينهم.

١٣- مسجد التنعيم: على لفظ المصدر من نعمته تنعيماً.

وهو بين مر وسـرف، بينه وبين مكة فرسـخان. ومن التنعيم يحرم من أراد العُمرة، وهو الذى أمر رسـول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبى بكر يعمر منه عائشـة: وإنما سُـمى التنعيم لأن الجبل الذى عن يمينه يقال له نعيم، والذى عن يساره يقال له ناعم، والوادى نعمان.

وروى يوسف بن ماهك عن حفصـة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصـديق ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال له: يا عبد الرحمن أردف أختك عائشة فأعمرها من التنعيم، فإذا هبطت بها من الأكمة فلتحرم فإنها عُمرة متقبلة.

وقال محمد بن عبد الله النميرى:

فلم تر، عينى مثـل سـرب رأيتــه

خرجــن مــن التنعيــم معتمــرات

مــررن بفخ ثــم رحــن عشيـــة

يلـبـيـــن للرحــمــن مــؤتــجـــرات

فأصبــح ما بيــن الأراك فحـــذوة

إلى الجـزع، جزع النخـل والعمرات

لـه أرج بالعنبـر الغـــض ناعـــم

تــطــلـــع ريـــاه مـــن الكـفـــرات

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت

بــه زينـــب فــى نســوة عـطــرات

وأكثر الأماكن فى مكة المكرمة هى أماكن أثرية يفوح منها عبق الإسلام وذكرى الدعوة العظيمة.

ومثل هذه الأماكن كثيرة جداً فى مكة المكرمة ومن بينها من منازل الوحى ومواطن الدعوى وما أجدر أن تخلد كل هذه الأماكن بأن يُبنى مكانها مســاجد تدل عليها وتكون مقرا للجماعة والعبادة وذكر الله وتعلم العلوم الدينية والتاريخية.

مسجد الاجابة:

على يسـار الذاهب إلى منى بالأبطح، وهو إلى الشـمال الشـرقى، من مبنى إمارة منطقة مكة المكرمة سـابقاً، يقال إن النبى ﷺ صـلى المغرب فيه. يقول ابن ظهيرة أنه فى شـعب قرب ثنية آذاخر، وفى عام ١٣٩٤هـــ جرى هدم المسـجد القديم، وأقيم مكانه البناء الحالى، وشـيد على طراز عصـرى، وزيدت مسـاحته التى تبلغ حوالى أربعمائة متر مربع.

مسجد بلال بن رباح:

اتخذ بلال بن رباح رضى الله عنه، مؤذن رسول الله ﷺ ، من قمة جبل أبى قبيس مكانا ليعبد الله فيه، بعيداً عن أعين المشركين، ويمتع نظره بتأمل بيت الله العتيق ولما كان يوم فتح مكة، رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة، أو المسجد المنسوب إلى بلال بن رباح رضى الله عنه فى أعلى أبى قبيس، فى شمال شرق الصفا، يطل على المسجد الحرام والمسعى، ويصعد إليه على السفح الجنوبى الغربى من أبى قبيس، حيث يصل الصاعد إلى زقاق مرتفع يتدرج صعودا، ويسمى بزقاق السنوسى.

مسجد المشعر الحرام:

يتوسط فى موقعه المسافة بين مسجد نمرة بعرفات، ومسجد الخيف بمنى ولقد خلد القرآن الكريم موضع المشعر الحرام، بمزدلفة وجعله نسكا من شعائر الحج قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ ﴿ البقرة/١٩٨ ﴾

مسجد الكبش:

بمنى على يسار الذاهب إلى عرفة، والكبش المشار إليه هو الذى فدى الله تعالى به نبيه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وذكر الفاسى نقلا عن الفاكهى ما يقتضى أن هذا الكبش نحر فى غير هذا الموضوع، لأنه روى حديثاً يسنده إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قصة ذبح إبراهيم لإسماعيل وفيه "فنزل عليه كبش من ثبير فاضطره إلى الجبل، ثم جاء به حتى نحره بين الجمرتين".

مسجد الجعرانة:

وهو الموضع الذى أحرم منه النبى ﷺ ، لما رجع من الطائف بعد فتح مكة المكرمة وهو موضع مشهور بين الطائف ومكة، وهو إلى مكة أقرب بكثير لأن بينه وبين مكة نحو ثمانية عشر ميلا.
ووادى الجعرانة، يعيد إلينا ذكرى حنين، فقد شهد الوادى يوما مشهودا، ففيه عفا الرسول ﷺ عن نساء هوازن وأبنائها ودخلت القبيلة فى الإسلام، ثم توالت وفود القبائل على النبى ﷺ معلنة إسلامها، وعم الإسلام شبه الجزيرة العربية عقب ذلك، وقد أعمر الرسول ﷺ من موضعه.

رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة

رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة

المملكة العربية السعودية تلك الدولة التى قامت على أساس من الإسلام وسارت فى مختلف مراحلها من منطلق رسالة الإسلام منذ نزل الوحى على رسولنا ﷺ كما أن لها تفردها فى العصر الحاضر حيث تميزت منذ عهدها الأول بخدمة الإسلام، وظهر هذا التميز من حيث الوحدة ومن حيث تكامل المؤسسات ومن حيث التعاون مع الأمة الإسلامية، وظهر هذا جلياً فى عهد الملك عبدالعزيز واستمر إلى الآن وسيستمر بإذن الله لأن رسالة الإسلام هى أمانة فى أعناق المسلمين جميعاً، ومن أولى بحملها وتطبيقها سوى المملكة التى شرفها الله بخدمة الحرمين الشريفين؟ إن من ثوابت المملكة التى لا يتطرق لها جدل أو نقاش التمسك بالإسلام، وهذا أمر ثابت فى سياسة المملكة، ولو رجعنا إلى سياسة الملك عبدالعزيز التى كان يجتمع بها مع المسلمين لوجدنا التمسك بالإسلام وسنة رسول الله وجمع كلمة المسلمين، كما أن التعاون بين المسلمين هو الحقيقة الأولى للمملكة ولقد سار أولاد الملك عبدالعزيز من بعده على ذلك.

أيضاً من ثوابت سياسة المملكة الاهتمام بقضايا المسلمين علي مستويين: (١) التنظيم (٢) العمل.

وتنظر المملكة للمسلمين على أنهم أمة واحدة وقضايا المسلمين محل اهتمامها أينما وُجُدوا وفى مقدمتها قضية فلسطين باعتبارها قضية إسلامية وليست عربية فقد ولوجود المسجد الأقصى الذى له تميزه وتفرده عند المسلمين.

ورابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة مؤسسة إسلامية شعبية محضة لا ترتبط بأية حكومة بل هي هيئة مستقلة تحاول كل جهدها أن تجمع بين قوى الخير العاملة فى الحقل الإسلامى فى جميع البلدان وتنسق بين جهودها وبين طاقاتها فى تضامن وتعاون إسلامى من أجل إعلاء كلمة الله ورفع شأن الإسلام والمسلمين ومناهضة الأفكار الدخيلة والقوى المعادية التى تعمل ضد عقيدة المسلمين وأوطانهم. وليس لرابطة العالم الإسلامى تدخل فى الشئون الداخلية للدول ولا ميل إلى فريق دون آخر ولا إلى لون من الألوان أو جنس من الأجناس فالمؤمنون كلهم أخوة ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى.

ورابطة العالم الإسلامى عضو من الدرجة الأولى فى هيئة الأمم المتحدة ضمن المنظمات غير الحكومية ذات الوضع الاستشارى بالمجلس الاقتصادى والاجتماعى.. وعضو فى منظمة اليونسكو وفى صندوق الطفل العالمى بهيئة الأمم المتحدة ومراقب فى منظمة المؤتمر الإسلامى وتحضر جميع مؤتمراتها بهذه الصفة.

نشأتها:

عندما ظهرت بوادر الانقسام بين المسلمين ودبَّ الخلاف فى صفوفهم وسيطرت النزاعات والأهواء على قلوبهم استغل أعداء الدين الإسلامى هذه المشاحنات والخلافات فبذروا الفساد والإلحاد وابتدأوا ينشرون مبادئهم الهدامة ومذاهبهم المضللة بقصد تشكيك المسلمين فى عقيدتهم الإسلامية وتفتيت وحدتهم الدينية والقضاء على التقاليد الصالحة والتعاليم الإنسانية التى يزخر بها ديننا الحنيف ومحو فضائل هذا الدين من قلوب أبناء المسلمين وقد لعب الاستعمار وأعوانه جهوداً ضخمة لتحقيق ذلك.

عندما وصلت الأمور إلى هذا المستوى المؤسف تنادى نفر من قادة المسلمين ومفكريهم إلى القيام بعمل حازم وسريع لتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم وتقوية صلاتهم للوقوف صفاً واحداً وقلباً واحداً ضد التيارات المنحرفة وموجات الإلحاد العاتية.

ولما كان في شهر الحج فى مكة المكرمة أكبر مجال وأنسب فرصة لالتقاء أعداد كبيرة من المسلمين فقد قرر قادة المسلمين وعلماؤهم ومفكروهم أن يستفيدوا من حكمة فريضة الله سبحانه وتعالى فى الحج فعقدوا مؤتمرهم الإسلامى بمكة المكرمة فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ١٣٨١ هـ.. الموافق الثامن عشر من شهر مايو ١٩٦٢م.. واتخذوا عدة قرارات من أهمها تأسيس هيئة إسلامية مقرها مكة المكرمة تسمى (رابطة العالم الإسلامى) - المادة العشرون - كما تم فى المؤتمر اختيار أعضاء المجلس التأسيسى للرابطة وقد روعى فى هذا الاختيار تمثيل الشعوب الإسلامية بالعلماء الذين يترأسون أعلى القطاعات الإسلامية فى بلادهم كما وضع المؤتمر صيغة مبدئية تكون نواة لنظام هذه الرابطة والذى تم إقراره رسمياً فى المؤتمر الإسلامى العام الثانى الذى عقد بمكة المكرمة فى الخامس عشر من شهر ذى الحجة ١٣٨٤ هـ، الموافق السابع عشر من أبريل ١٩٦٥م.

ميثاقها:

ينص ميثاق رابطة العالم الإسلامى على ما يأتى:

نحن أعضاء رابطة العالم الإسلامى الممثلين له تمثيل عقيدة وإيمان نعاهد الله تعالى على:

١ - أن نؤدى فريضة الله علينا بتبليغ رسالته ونشرها فى جميع أنحاء العالم وأن نؤكد من جديد إيماننا بأنه لا سلام للعالم إلا بتطبيق القواعد التى أرساها الإسلام.

٢- أن ندعو الأمم عامة إلي التسابق فى ميدان العمل لخير البشرية وإسعادها وتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفرادها وإيجاد المجتمع الإنسانى الأفضل.

٣ - أن نشهد الله على أننا لا نريد إفساداً لأمر أحد ولا سيطرة ولا هيمنة على أحد وفى سبيل تحقيق هذه الأهداف اعتزمنا القيام بما هو آت:

أ - أن نبذل قصـــارى جهدنا فى توحيد كلمة المســلمين وإزالة عوامل التفكك المحيقة بالمجتمعات الإســلامية المنتشرة فى بقاع الأرض.

ب - أن نذلل العقبات التى تعترض إنشاء جامعة العالم الإسلامى.

جـ - أن نساند كل ما يدعو إلي الخير والهدف ونساعده على تأدية مهمته الإسلامية.

د - أن نستخدم جميع ما نملكه من وسائل روحية ومادية وأدبية لتحقيق ما نصبو إليه فى هذا الميثاق.

هـ - أن نوحد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض بطريق إيجابى سليم.

و - أن نطرح كل دعوى جاهلية قديمة منها وحديثة.

ز - وأن نعلن لا شعوبية ولا عنصرية فى الإسلام.

الهيئات التابعة للرابطة:

١ - المجلس الأعلى العالمى للمساجد

يعتبر هذا المجلس من الهيئات الرئيســية التى تعمل تحت مظلة الرابطة.. وقد تم تشــكيله بناء على قرار مؤتمر رسالة المسجد الذى عقد بمكة المكرمة فى منتصف شهر رمضان ١٣٩٥هـ.. الموافق سبتمبر ١٩٧٥م بدعوة من رابطة العالم الإسلامى.. ويتكون من هيئة تأسيسية يبلغ عدد أعضائها ٥٣ عضواً يمثلون ٤٥ شعباً وأقلية إسلامية فى العالم.

أهداف المجلس:

أ - تكوين رأى عام إسلامى في مختلف القضايا والموضوعات الإسلامية فى ضوء الكتاب والسُنة.

ب - محاربة الغزو الفكرى والسلوك المنحرف.

جـ - العمل على حرية الدعوة إلى الله.

د - حماية المساجد من كل اعتداء يقع عليها أو على ممتلكاتها.

هـ - المحافظة على الأوقاف الإسلامية.

و - الدفاع عن حقوق الأقليات الإسلامية.

٢ـ معهد إعداد الأئمة والخطباء بمكة المكرمة

فكرة المعهد:

أنشــئ هذا المعهد عام ١٤٠٣هـــ بمكة المكرمة وبدأت فكرة إنشـائه من أول دورة عقدت لتدريب الأئمة والدعاة بنواكشـوط عاصـمة الجمهورية الإسـلامية الموريتانية، وللحاجة الماسـة إلى فئة على مسـتوى معين من الأئمة والدعاة الذين تحتاج إليهم القارة الأفريقية والدعوة بها.

ولا شـــك أن إقامـة المعهد فى مكـة المكرمـة يعتبر خطوة رائدة لتدريـب الأئمة والدعاة من المؤهلين لهذا العمل الإسـلامى، لذا فقد تبنت حكومة خادم الحرمين الشـريفين الفكرة وأعطت المجلس الأعلى العالمى للمسـاجد كافة المسـاعدات المالية لإقامة هذا المعهد الذى يهدف إلى تدريب خريجى الجامعات الإسـلامية وتأهيلهم للدعوة إلى الإسلام.

أهدافه:

يخدم هذا المعهد شئون الدعوة والدعاة فى العالم الإسلامى وبين الأقليات الإسلامية وحتى بين الجاليات الإسلامية الموجودة فى أوروبا وأمريكا وهو هدف ينطلق من صـميم أهداف إحياء رسـالة المسـجد لان المسـجد له دوره الأساسـى والفعال فى حياتنا نحن المسلمين والحاجة قائمة إلى إيجاد دعاة دائمين على مستوى رفيع من الأخلاق والعلم والقدرة على أداء هذا العمل النبيل لخدمة حاضر المسلمين ومستقبلهم.

ويشـــترط فى قبول الطلاب أن تكون مؤهلاتهم العلمية على مســتوى الشـــهادة الجامعية من إحدى الجامعات الإسـلامية بعد تخرجهم فى توجيههم إلى المناطق التى تحتاج إلى دعاة مع الوضـع فى الاعتبار أن الرابطة تقوم بتعيين البعض منهم على حسابها.

وتقوم الرابطة بتأمين السـكن مجاناً للطلاب مع توفير الكتب الدراسـية لهم بالإضـافة إلى تذاكر السـفر ومكافأة شهرية لكل طالب.

٣ـ مجلس المجمع الفقهى

بدأت فكرة إنشـاء هذا المجمع عام ١٣٨٤هـــ عندما نادت حكومة المملكة العربية السـعودية بإنشـاء مجمع فقهى إسـلامى يضـم نخبة من فقهاء الشـريعة فى العالم.. لدراسـة المسـائل المسـتجدة وحل المشـكلات التى يعانيها المسلمون فى أنحاء المعمورة.

واستجابة لهذا النداء أصدر المؤتمر الإسلامى العام فى دورته الثانية المنعقدة فى عام ١٣٨٥هـ بدعوة من رابطة العالم الإسـلامى قراراً يقضـى بتأليف هيئة من كبار علماء المسـلمين يتولون القيام بالدراسـات الإسـلامية وبحث القضايا الفكرية التى تواجه العالم الإسلامى وبيان الحكم الشرعى فى كل حالة.

ثم تبلورت الفكرة بشكل واضح لدى الرابطة: فأصدرت الأمانة العامة قرارها رقم ٧٩٨ فى ٢٩ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ بتأسيس المجمع الفقهى ومقره مكة المكرمة ويضم مجموعة من العلماء والفقهاء والمحققين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى يتولون دراسة واقع المسلمين والمشكلات التى يواجهونها وإيجاد الحلول التى تستند على أساس القرآن الكريم والسُنة النبوية الشريفة والإجماع وبقية المصادر المعتمدة فى الفقه الإسلامى.. وأداء لهذه الأمانة تم وضع مشروع نظام للمجمع الفقهى جرى عرضه على المجلس التأسيسى فى دورته التاسعة عشرة المنعقدة بمكة المكرمة عام ١٣٩٧هـ.. وبعد تعديل جزئى أقره المجلس بالإجماع.

وبناءً على ذلك باشر مجلس المجمع الفقهى أعماله فى شهر رمضان عام ١٣٩٨هـ.. ويتكون المجمع من ٢٣ عضواً من ١٢ دولة إسلامية.. يجتمعون مرة فى السنة فى مقر المجمع بمكة المكرمة وقد عقدوا عدة دورات اتخذوا خلالها مجموعة من الفتاوى الفقهية تجاه عدد من القضايا المعاصرة كالتلقيح الصناعى وأطفال الأنابيب وحكم التأمين وتحديد النسل والأعمال المصرفية وحكم الإسلام فى المذاهب المنحرفة كالقاديانية والماسونية.

٤ - هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية

عندما بدأت الرابطة السير فى طريق الأعمال الإنسانية للعمل على تخفيف الألام نتيجة الفقر والزلازل والحروب، اتضحت بشكل أكبر الحاجة الماسة إلى التوسع فى القيام بمثل هذه الأعمال.. ونظراً للإمكانيات المحدودة وشعوراً بواجب المشاركة فقد طرحت الرابطة أمام الشعوب والدول الإسلامية مشروع إنشاء منظمة إسلامية عالمية للإغاثة – وطلبت إلى الجميع المساهمة فى هذا المشروع بتبرعاتها وصدقاتها وزكواتها وهباتها وأوقافها لمشاركة إخوانهم المسلمين فيما يتعرضون له من مآسى على اعتبار أن الأغلب الأعم فى معظم الكوارث والحروب التى تحدث فى العالم تصيب قطاعات كبيرة من المسلمين.

وتهدف الرابطة من وراء إنشاء هذه المنظمة إلى تنظيم الجهود الخيرية والإنسانية التى يبذلها المسلمون على المستوى الرسمى والشعبى حتى تستطيع أن تنافس الجهات الدولية المعادية العاملة فى هذا الميدان.

وقد جعلت الرابطة مقر هذه المنظمة فى مكة المكرمة وتقوم بعملها ضمن رابطة العالم الإسلامى.

وتعتبر الإغاثة الإسلامية من أهم الميادين التى ترتكز عليها أعمال وجهود رابطة العالم الإسلامى فى سبيل تحقيق أهدافها الإسلامية والإنسانية لخدمة الإنسان المسلم فى أى مكان من العالم.

وقد تزامنت أنشطة الرابطة فى هذا المجال منذ إنشائها، عن طريق إداراتها التنفيذية المختلفة وأقسامها المتخصصة ومكاتبها العاملة فى العالم.

وفى عام ١٣٩٩هـ وافق المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى على إنشاء هيئة للإغاثة الإسلامية، توحد قوالب العمل فى هذا المجال وترمى إلى التنسيق بينها بما يكفل تطوير أعمال الإغاثة ومهامها وميادينها وجعلها أكثر قدرة على الوصول إلى الإنسان المسلم فى أى مكان من الأرض ومد يد العون والمساعدة له فى الوقت المناسب.

٥- هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسُنة

أنشــئت هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسُــنة بناء على اقتراح من المجلس الأعلى العالمى للمســاجد برابطة العالم الإسلامى.. كما درس المجلس فى دورته التاسعة المنعقدة بمكة المكرمة التقرير الخاص بتشكيل هيئة علمية لأبحاث الإعجاز العلمى فى القرآن والسُنة وقرر ما يلى:

يكلف المجلس أمانته العامة بتشـكيل هيئة علمية لأبحاث الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسُـنة تكون تابعة لها وتكون مهمتها ما يلى:

(١) جمع وتنظيم جهود الباحثين المسلمين العاملين فى هذا المجال.

(٢) التنسيق مع الجامعات والهيئات الإسلامية بحيث تتمكن من القيام بأبحاث مشتركة أو تمحيص أبحاث قائمة

(٣) الدعوة لندوات متخصصة حول موضوع الإعجاز العلمى فى القرآن والسُنة.

(٤)عقد اللقاءات مع كبار العلماء فى العالم من غير المســـلمين لإقناعهم بنتائج الأبحاث وطلب مشـــاركتهم فى التحقيق العلمى فيها.

(٥) الاتصـــال بمســئولى الجامعات والمعاهد والمدارس وإمدادها بنتائج الأبحاث الممحصـــة لإدخالها فى مناهج الدراسة.

(٦) إصـــدار نشـــرة دوريـة تحمل الجديد من نتـائج هذه الأبحـاث وتوزع على المهتمين والراغبين فى العـالم الإسلامى.

(٧) دعوة عدد من الباحثين المسـلمين للمشـاركة بهذه الأبحاث فى المؤتمرات الدولية وتزويدهم بما يحتاجون من ذلك لتأتى مشاركتهم ناجحة.

(٨) العمل على نشـر الأبحاث المحققة فى المجلات العلمية العالمية، وفى سـائر أجهزة الإعلام فى العالم بالطرق المناسبة.

(٩) الاستفادة من المراسلين العلميين المعروفين لمتابعة أحدث الأبحاث.

(١٠) يمكن للهيئة بعد تشكيلها إعادة النظر فى هذه النقاط إذا اقتضى الأمر حرصاً على نجاح هذه المهمة.

أمراء مكة المكرمة منذ فتحها إلى الآن

أمراء مكة منذ فتحها إلى الآن

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
عتاب بن أَسَيْد	أوائل شوال سنة ٨ هـ	ولاه الرسول ﷺ وقال له حين بعثه: هل تدرى إلى من أبعثك إلى أهل الله فاستوص بهم خيراً – قالها ثلاث
المحرز بن خارثة قنفذ بن عمير التيمى نافع بن الحارث الخزاعى خالد بن العاص أحمد بن خالد طارق بن المرتفع الحارث بن نوفل	سنة ١٤ هـ	ولاة مكة فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ من ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣هـ.
على بن عدى خالد بن العاص المتقدم الحارث بن نوفل المتقدم عبد الله بن خالد بن أسيد عبد الله بن عامر الحضرمى نافع بن الحارث الخزاعى خالد بن العاص المتقدم	سنة ٢٤هـ	تولوا فى خلافة عثمان ﷺ الذى قتل سنة ٣٥هـ
أبو قتادة الأنصارى قثم بن العباس	سنة ٣٦هـ	توليا مكة فى خلافة على ﷺ الذى استهشد فى سنة ٤٠ هـ
عتبة بن أبى سفيان مروان بن الحكم سعيد بن العاص عمرو بن سعيد خالد بن العاص المتقدم عبد الله بن خالد بن أسيد	سنة ٣٩هـ	تولوا فى خلافة معاوية الذى توفى سنة ٦٠هـ
عمرو بن سعيد الوليد بن عتبة بن أبى سفيان عثمان بن محمد بن أبى سفيان	سنة ٦١هـ	بعض ولاة مكة زمن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير وقد بايع الناس عبد الله بن الزبير سنة ٦٢ هـ. وتوفى يزيد سنة ٦٤هـ واستشهد عبد الله سنة ٧٣هـ

أمراء مكة منذ فتحها إلى الآن

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
الحارث بن خالد المخزومى عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب يحيى بن حكيم	سنة ٦١ هـ	باقى ولاة مكة زمن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير
الحجاج بن يوسف الثقفى مسلمة بن عبدالملك بن مروان الحارث بن خالد المخزومى خالد بن عبد الله القسرى نافع بن علقمة الكتانى يحيى بن الحكم بن أبى العاص	سنة ٧٣هـ	ولاة مكة فى زمن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ.
عمر بن عبد العزيز خالد بن عبد الله القسرى	سنة ٨٦ هـ سنة ٨٩هـ	توليا زمن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٦ هـ. وبقى خالد مدة فى ملك سليمان.
طلحة بن داود عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ابن أسيد	....	توليا فى زمن سليمان بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٩هـ . وبقى خالد إلى زمن عمر فى ملك سليمان.
محمد بن طلحة بن عبد الله عروة بن عياض عبد الله بن قيس بن مخرمة عثمان بن عبيد الله العدوى	....	تولوا فى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى توفى سنة ١٠١هـ. وبقى عثمان مدة فى زمن يزيد.
عبد الرحمن بن الضحاك القرشى عبد الواحد بن عبد الله النصرى	سنة ١٠١هـ	توليا فى زمن يزيد بن عبد الملك الذى توفى سنة ١٠٥هـ. واستمر عبد الواحد مدة فى خلافة هشام.
إبراهيم بن هشام المخزومى محمد بن هشام نافع بن عبد الله الكنانى	....	تولى الثلاثة فى زمن هشام بن عبد الملك الذى توفى سنة ١٢٥ هـ.
يوسف بن محمد النقفى	سنة ١٢٥هـ	ولى فى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى قتل سنة ١٢٦هـ.
عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	سنة ١٢٦هـ	ولى فى زمن يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر من ولايته وخلفه أخوه إبراهيم وخُلع بعد أربعين يوماً وبقى عبد العزيز إلى زمن مروان.

أمراء مكة منذ فتحها إلى الآن

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك	سنة ١٢٦هـ	عينه مروان بن عبد العزيز.
أبو حمزة الخارجى	....	تولى على مكة قهراً.
عبد الملك بن محمد بن عطية	....	ولاه مروان بعد قتل أبى حمزة وإخراج جيشه منها.
الوليد بن عروة السعدى محمد بن عبد الملك بن مروان	....	وليا مكة من قبل مروان بن محمد أيضاً وقتل مروان سنة ١٣٢ هـ
داود بن على بن عبد الله بن عباس عمر بن عبد الحميد	سنة ١٣٢هـ	ولياها فى زمن مؤسس الدولة العباسية السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس وتوفى أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ.
العباس بن عبد الله بن معبد زياد بن عبد الله الحارثى الهيثم بن معاوية العتكى السرى بن عبد الله بن الحارث	سنة ١٤٣هـ	ولاهم أبو جعفر المنصور.
محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر	سنة ١٤٥هـ	تولى من قِبل النفس الزكية محمد بن عبد الله الذى خرج على أبى جعفر بالمدينة وبايعه الأئمة من أهل عصره كمالك وأبى حنيفة ومن فى طبقتهما.
السرى بن عبد الله بن الحارث عبد الصمد بن على بن عبد الله ابن عباس محمد بن إبراهيم الإمام	سنة ١٤٥هـ .... سنة ١٤٦هـ سنة ١٤٩هـ	ولاهم أبو جعفر المنصور أيضاً وتوفى أبو جعفر سنة ١٥٨هـ.
إبراهيم بن يحيى بن محمد جعفر بن سليمان بن على عبيد الله بن قثم بن العباس	سنة ١٥٨هـ سنة ١٦١هـ سنة ١٦٦هـ	ولاهم محمد المهدى بن المنصور وتوفى المهدى سنة ١٦٨ هـ وبقى عبيد الله مدة فى زمن الهادى.
الحسين بن على بن الحسن بن المثنى	سنة ١٦٩هـ	خرج الحسين هذا على العباسيين واستولى على مكة حتى قتل مع مائة من جنده يوم التروية وكان ذلك فى زمن موسى الهادى الذى توفى سنة ١٧٠هـ.

أمراء مكة منذ فتحها إلى الآن

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
أحمد بن إسماعيل حماد البربرى سليمان بن جعفر العباس بن موسى	....	ولى هؤلاء أخو الهادى هارون الرشيد الذى توفى سنة ١٩١هـ.
العباس بن محمد بن إبراهيم عبد الله بن قثم على بن موسى الفضل بن العباس محمد بن عبيد الله موسى بن عيسى بن موسى	.... سنة ١٦٩هـ	ولى هؤلاء أخو الهادى هارون الرشيد الذى توفى سنة ١٩١هـ.
داود بن عيسى بن موسى	....	ولاه محمد الأمين بن الرشيد ولما قتل الأمين سنة ١٩٧هـ. وخلفه أخوه المأمون. بقى داود مدة والياً على مكة.
الحسين بن الحسن المعروف بالأفطس	....	تولى من قِبل أبى السرايا السرى بن منصور الشيبانى الذى قام بالعراق يدعو لأهل البيت
على بن محمد بن جعفر الصادق	سنة ٢٠٠هـ	ولاه الحسين بن الحسن لما بلغه قتل أبى السرايا سنة ٢٠٠هـ وخاف على نفسه بطش العباسيين .
محمد بن عيسى بن يزيد الحلودى يزيد بن محمد المخزومى	سنة ٢٠٠هـ	توليا من قبل المأمون.
إبراهيم بن موسى الكاظم	سنة ٢٠٢هـ	جاء من اليمن واستولى على مكة عنوة وقتل يزيد بن محمد.
عبيد الله بن الحسن صالح بن العباس سليمان بن عبد الله محمد بن سليمان الحسن بن سهل عبيد الله بن عبد الله بن الحسن	....	تولوا مكة من قِبل المأمون العباسى وتوفى المأمون سنة ٢١٨هـ.
صالح بن العباس أشاش التركى محمد بن داود بن عيسى	سنة ٢١٨هـ	تولوا فى عهد المعتصم بن الرشيد وتوفى المعتصم سنة ٢٢٨هـ وبقى محمد بن داود فى الولاية مدة الواثق ابن المعتصم الذى توفى سنة ٢٣٢هـ.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
على بن عيسى بن جعفر عبد الله بن محمد بن داود عبد الصمد بن موسى	سنة ٢٣٢عـ سنة ٢٣٩هـ	

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
محمد بن سليمان بن عبد الله محمد المنتصر بن المتوكل ايتاح مولى المعتصم	سنة ٢٣٩هـ	تولوا فى زمن المتوكل بن المعتصم الذى قتل سنة ٢٤٧هـ. وتولى بعده ابنه المنتصر فمات بعد ستة أشهر.
عبد الصمد بن موسى جعفر بن الفضل	سنة ٢٤٧هـ	توليا فى عهد المستعين بن المعتصم.
إسماعيل بن يوسف	....	غلب جعفربن الفضل على مكة ومات سنة ٢٥٢هـ.
العباس بن المستعين محمد بن طاهر بن الحسين	سنة ٢٥٢هـ	توليا فى عهد المستعين ولكن لم يباشرا العمل والمستعين توفى سنة ٢٥٢هـ.
عيسى بن محمد بن إسماعيل محمد بن أحمد بن عيسى	....	توليا فى خلافة المعتز بن المتوكل الذى قتل سنة ٢٢٥هـ.
على بن الحسن الهاشمى	سنة ٢٥٥هـ	ولاه المهتدى بن الواثق الذى قتل سنة ٢٥٦هـ.
الموفق طلحة بن المتوكل إبراهيم بن محمد بن إسماعيل أبو المغيرة محمد بن أحمد أبو عيسى محمد بن يحيى الفضل بن العباس هارون بن محمد أحمد بن طولون محمد بن أبى الساج يوسف بن أبى الساج	....	تولى هؤلاء التسعة فى خلافة المعتمد على الله بن المتوكل وأحمد ابن طولون صاحب مصر ولى عقدا ولم يباشر وتوفى المعتمد سنة ٢٧٩هـ.
يوسف بن أبى الساج ابن طعج مؤنس الخادم ابن ملاحظ ابن محلب أو ابن محارب أبو طاهر القرمطى محمد بن طعج المعروف بالاخشيد وولداه أبو القاسم وعلى أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز	 سنة ٣١٧هـ سنة ٣٣١هـ سنة ٣٣٨هـ	المعتضد المتولى سنة ٢٧٩هـ المكتفى " " ٢٨٩هـ المقتدر " " ٢٩٥هـ القاهر " " ٣٢٠هـ الراضى بالله " " ٣٢٢هـ المتقى بالله " " ٣٢٩هـ المستكفى " " ٣٣٢هـ المطيع لله " " ٣٣٤هـ واستمرت ولايته إلى سنة ٣٦٣هـ لم يعلم من ولاة هؤلاء الخلفاء إلا الثمانية الذين ذكرناهم وأبو طاهر من القرامطة دخل مكة وعاث فيها فسادا وابن طعج وولداه تولوا مكة بالعقد لا بالمباشرة
جعفر بن محمد بن الحسين أول الأشراف عيسى بن جعفر أبو الفتوح الحسن بن جعفر	سنة ٣٥٨هـ .... سنة ٣٨٤هـ	خرجت مصر من يد العباسيين إلى يد الفاطميين من سنة ٣٥٨هـ ومن ذلك الوقت ابتدأ حكم الأشراف بمكة وأول من وليها منهم جعفر بن محمد من الأشراف الحسنيين.
أبو الطيب داود بن عبد الرحمن	....	تولى مكة لما غاب عنها أبو الفتوح حينما خرج على الفاطميين.

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
تاج المعالى محمد شكر بن أبى الفتوح	سنة ٤٣٠هـ	
عبد تاج المعالى	سنة ٤٥٣هـ	
محمد بن أبى الفاتك	. . . .	من بنى أبى الطيب داود عبد الرحمن
على بن محمد الصليحى	سنة ٤٥٥هـ	قدم إلى مكة من اليمن وانتزعها من بنى أبى الطيب واستعمل العدل والاحسان.
محمد بن جعفر بن محمد	. . . .	ولى مكة من قِبل الصليحى وهو من الأشراف الحسنيين.
حمزة بن وهاس بن أبى الطيب محمد بن جعفر بن محمد	. . . .	انتزع حمزة مكة من ابن جعفر ولكن ما لبث أن استرجعت منه.
القاسم بن محمد بن جعفر	سنة ٤٨٤هـ	
الأصهيد بن سارتكين	. . . .	انتزع مكة من يد القاسم ثم استردها القاسم منه.
القاسم بن محمد بن جعفر	سنة ٤٨٨خـ	كان قوياً شجاعاً.
فليتة بن القاسم	سنة ٥١٨هـ	من الأدباء الشعراء.
هاشم بن فليتة	سنة ٥٢٧هـ	نهب الحج العراق أثناء طوافه لخلاف بينه وبين أميره.
القاسم بن هاشم	سنة ٥٤٩هـ	صادر أموال أعيان مكة وتجارها والمجاورين بها.
عيسى بن فليتة	سنة ٥٥٣هـ	حصلت فتنة بين القاسم وعمه عيسى انتهت بطرد القاسم من مكة.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
القاسم بن هاشم	سنة هـ٥٥٧	قُتل بعد أيام لقتله قائداً من قواده فتغير عليه أصحابه.
عيسى بن فليتة مالك بن فليتة عيسى بن فليتة	. . . . سنة ٥٦٥هـ	فى سنة ٥٦٧هـ أثناء ولاية عيسى انقرضت دولة العبيديين بمصر واستولى عليها السلطان صلاح الدين الأيوبى ودعا للعباسيين.
داواد بن عيسى	سنة ٥٧٠هـ	عزله الناصر العباسى فى ١٥ رجب سنة ٥٧١هـ
مكثر بن عيس طاشتكين القاسم بن مهنا الحسينى	سنة ٥٧١هـ	نحى مكثرا عن مكة طاشتكين أمير الحج العراقى بعد أن جرى بينهما قتال شديد نهبت فيه دور كثيرة وأحرقت وسلب مكثرة من الحجاج أموالهم.
داود بن عيسى	. . . .	ولاه طاشتكين بعد أن أظهر له القاسم عجزه عن حكم مكة.
مكثر بن عيسى	سنة ٥٨٧هـ	فى زمنه أبطل صلاح الدين المكوس التى كان يتقاضاها أمير مكة من الحجاج عن طريق

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
		عيذاب وهى سبعة دنانير مصرية عن كل شخص وعوضه عنها ثمانية آلاف أردب من القمح.
الشريف قتادة بن إدريس الحسنى العلوى	سنة ٥٩٧هـ	انتزع مكة من مكثر وبذلك انقرضت ولاية بنى فليتة المعروفين بالهواشم والشريف قتادة هو جد الأشراف الذين حكموا مكة بعد ذلك
الحسن بن قتادة	سنة ٦١٧هـ	قيل إنه قتل أباه خنقاً وكان أبوه مريضاً.
على بن رسول	سنة ٦١٩هـ	انتزع مكة من الحسن ملك اليمن المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر وولى عليها المسعود على بن رسول نائبه على اليمن.
صارم الدين ياقوت عتيق المسعود	سنة ٦٢٦هـ	ولى مكة من قِبل الملك المسعود.
طغتكين التركى	....	ولى مكة من قِبل الملك الكامل.
راجح بن قتادة	سنة ٦٣٠هـ	ولى مكة بمساعدة على بن رسول صاحب اليمن بعد المسعود وقد انتزعت منه واستردها ثمانى مرات حتى توفى راجح سنة ٦٥٤هـ بعد أن نزعت منه مكة لآخر مرة سنة ٦٥٢هـ
الحسن بن على بن قتادة	سنة ٦٣٩هـ	
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
جماز بن الحسن بن قتادة	سنة ٦٥١هـ	ولى عليها بمساعدة الملك الناصر صاحب مصر.
غانم بن راجح	سنة ٦٥٢هـ	انتزع إمارة مكة من أبيه راجح الذى أخرج جمازاً من مكة بلا قتال.
إدريس بن قتادة ومحمد أبو نمى الأول	سنة ٦٥٤هـ	انتزعا مكة من غانم فى شوال سنة ٦٥٤هـ
محمد أبو نمى الأول	سنة ٦٦٧هـ	تقاتل مع إدريس حتى قتله سنة ٦٦٧هـ. وانفرد بالولاية.
غانم بن إدريس	....	لما قتل أبوه استنجد بجماز بن شيحة فأخرج أبانمى ثم استرد أبونمى مكة.
جمازين شيحه	سنة ٦٨٨هـ	كان والياً على المدينة وأضاف إليه قلاوون صاحب مصر مكة فأخذها أياماً ولكن ما لبث أن استرجعها منه أبو نمى.
رميثة وحميضة ولدا أبى نمى عطيفة وأبو الغيث ولدا أبى نمى	سنة ٧٠١هـ	تنازل أبوهما عن الملك لهما ولما حج بيبرس أمير الكرك ولى أخويهما عطيفة وأبا الغيث لما شكوا إليه وقبض على رميثة وحميضة وأخذهما معه.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
رمثة وحميضة ولدا أبى نمى	سنة ٧٠٣هـ	استعادا مكة سنة ٧٠٣هـ ووقعت بينهما فتن وكذا بينهما وبين عطيفة وأبى الغيث وقُتل حميضة أخاه أبا الغيث سنة ٧١٤هـ وقتل حميضة سنة ٧١٨هـ وبقى التنازع بين رميثة وعطيفة زمناً طويلاً هذا يأخذ مكة مرة وذا ينتزعها منه أخرى حتى استقر الملك لرميثة بعد سنة ٧٣٧هـ.
رميثة منفردا	سنة ٧٣٧هـ	
عجلان بن رميثة عجلان وثقبة	سنة ٧٤٥ هـ سنة ٧٤٦هـ	اشترك معه فى الولاية بعد سنة ٧٤٦هـ أخوه ثقبة الذى توفى سنة ٧٦٢هـ فأشرك معه ابنه أحمد حتى توفى سنة ٧٧٧هـ.
سند ومغامس ابنا رميثة	سنة ٧٤٦هـ	ولاهما صاحب مصر فى حين ولاية عجلان وثقبة وقتل مغامس سنة ٧٦١هـ.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
أحمد بن عجلان منفردا	سنة ٧٤٧هـ	استقل بالملك بعد وفاة أبيه وأشرك معه فى الملك ابنه محمدا سنة ٧٧٨هـ. وتوفى أحمد سنة ٧٨٨هـ.
محمد بن أحمد بن عجلان منفردا	سنة ٧٨٨هـ	قتله أمير الحج المصرى بعد أن تولى ١٠٠ يوم
عنان بن مغامس على بن عجلان	. . . . سنة ٧٨٩هـ	ولاة مكة الظاهر برقوق وأشرك عنان معه أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك بن رميثة ظانا أن ملكه يدوم بذلك ولكن عزله برقوق وولى على بن عجلان فأشرك على معه عنانا ثم استقل على بالملك سنة ٧٩٤هـ.
محمد بن عجلان	سنة ٧٩٧هـ	ولى بعد قتل أخيه على.
حسن بن عجلان	سنة ٧٩٨هـ	ولاه سلطان مصر لما قتل على فحضر إلى مكة فسلم له أخوه محمد.
بركات بن الحسن	سنة ٨٠٩هـ	أشركه أبوه معه فى هذه السنة.
أحمد بن الحسن	سنة٨١٠هـ	أشركه أبوه مع أخيه بركات وتولى الحسن نيابة السلطنة فى جميع بلاد الحجاز.
رميثة بن محمد بن عجلان الحسن بن عجلان	سنة ٨١٨هـ سنة ٨١٩هـ	ولى رميثة سلطان مصر فأرسل الحسن ابنه بركات يستعطف السلطان فأعاد الحسن.
على بن عنان بن مغامس	سنة ٨٢٧هـ	ولاه برسباى ملك مصر ثم أعاد الحسن.

<table>
<tr><td>الحسن بن عجلان</td><td>سنة ٨٢٨ هـ</td><td>توفى بمصر سنة ٨٢٩هـ. وكان من العلماء الفضلاء.</td></tr>
<tr><td>بركات بن الحسن</td><td>سنة ٨٢٩هـ</td><td>تولى مرارا وكان من العلماء الأنجاب.</td></tr>
<tr><td>على بن الحسن</td><td>سنة ٨٤٥هـ</td><td>عزل أخوه بركات وتولى هو مكانه ولكن ما لبث أن أعيد بركات</td></tr>
<tr><td>بركات بن الحسن</td><td>. . . .</td><td>عزل بعد سنة بأخيه أبى القاسم</td></tr>
<tr><td>أبو القاسم بن الحسن</td><td>سنة ٨٤٦هـ</td><td>أخرجه بركات سنة ٨٤٩هـ. ثم عاد إلى مكة وبقى عليها إلى سنة ٨٥١هـ حيث ذهب إلى مصر ومات بها سنة ٨٥٣هـ.</td></tr>
<tr><th>اسم الأمير</th><th>تاريخ التولية</th><th>معلومات</th></tr>
<tr><td>بركات بن الحسن</td><td>سنة ٨٥١هـ</td><td>أعاد إلى ولاية مكة السلطان جقمق وبقى بها حتى توفى سنة ٨٥٩هـ</td></tr>
<tr><td>محمد بن بركات</td><td>سنة ٨٥٩هـ</td><td>كان عالماً فاضلاً حج فى ولايته السلطان قايتباى سنة ٨٨٤هـ.</td></tr>
<tr><td>بركات بن محمد</td><td>سنة ٩٠١هـ</td><td>قد أشركه أبوه معه فى الملك من سنة ٧٧٨هـ. واستقل به بعد وفاته سنة ٩٠١هـ.</td></tr>
<tr><td>هزاع بن محمد
أحمد بن محمد
حميضة بن محمد</td><td>سنة ٩٠٧هـ

سنة ٩٠٨هـ</td><td>تولى كل من هؤلاء بعض شهور وتغلب عليهم أخوهم بركات حتى صفا له الملك سنة ٩٠٨ هـ. واستمر فيه إلى أن توفى سنة ٩٣١هـ.</td></tr>
<tr><td>أبونمّى الثانى محمد بن بركات</td><td>سنة ٩٣١هـ</td><td>أشركه السلطان الغورى مع أبيه فى ولاية مكة من سنة ٩١٨هـ ولم تعد سن أبى نمّى ٧ سنوات وبعد وفاة أبيه استقل بالولاية وقد أقره مع أبيه السلطان سليم لما فتح مصر سنة ٩٢٢هـ.</td></tr>
<tr><td>أحمد بن أبى نمّى</td><td>سنة ٩٤٥هـ</td><td>أشركه السلطان سليمان مع أبيه فى ولاية مكة سنة ٩٤٥هـ. وتوفى فى حياة أبيه سنة ٩٦١هـ.</td></tr>
<tr><td>حسن بن أبى نمّى</td><td>سنة ٩٩٢هـ</td><td>شارك أباه فى الملك من سنة ٩٦١هـ. واستقل بعد وفاة أبيه سنة ٩٩٢هـ.</td></tr>
<tr><td>حسين ومسعود ابنا الحسن</td><td></td><td>ولى كل منهما مكة مع أبيه فى حياته وتوفيا قبل وفاة والدهما.</td></tr>
<tr><td>أبو طالب بن الحسن</td><td>سنة ١٠١٠هـ</td><td>هو أكبر أولاد الحسن ولى بعد وفاة أبيه ولم يعقب أبوطالب.</td></tr>
<tr><td>إدريس بن الحسن</td><td>سنة ١٠١٢هـ</td><td>ولى بعد وفاة أبى طالب.</td></tr>
<tr><td>فهيد بن الحسن</td><td></td><td>أشركه الأشراف مع أخيه إدريس ثم خُلع سنة ١٠١٩هـ.</td></tr>
<tr><td>محسن بن الحسين بن الحسن</td><td>سنة ١٠٣٢هـ</td><td>أشرك مع عميه إدريس وفهيد وبعد نزاع استقرت له الولاية سنة ١٠٣٢هـ.</td></tr>
<tr><td>أحمد بن عبد المطلب بن الحسن</td><td>سنة ١٠٣٧هـ</td><td>ولاه أحمد باشا والى اليمن من قِبل السلطنة وقد قاتل أخاه محسناً فهزمه.</td></tr>
</table>

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
مسعود بن إدريس بن الحسن عبدالله بن الحسن	سنة ١٠٣٩هـ سنة ١٠٤٠هـ	ولاه قانصوه باشا بعد أن قتل أحمد خنقاً اقتصاصاً منه للشيخ عبد الرحمن المرشدى مفتى مكة الذى قتله أحمد لضغائن بينه وبينه.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
عبد الله بن الحسن	سنة ١٠٤٠هـ	تنازل عن الإمارة لابنه محمد واستدعى محسن بن زيد من اليمن وأشركه مع ولده أيضاً.
محمد بن عبد الله بن الحسن	سنة ١٠٤١هـ	قتله نامى بن عبد المطلب بن الحسن الذى دخل مكة ونهب بيوتها.
زيد بن محسن		بعد أن قتل نامى سنة ١٠٤٢هـ. خلصت له الولاية إلى أن توفى سنة ١٠٧٧هـ.
نامى بن عبد المطلب	سنة ١٠٤١هـ	قتل فى المحرم سنة ١٠٤٢هـ بعد أن تولى ١٠٠ يوم.
سعد بن زيد	سنة ١٠٧٧هـ	ولى بعد وفاة أبيه ثم ولى ثلاث مرات أخرى ومجموع مدة الولاية ٧ أشهر و١٥ سنة.
أحمد بن زيد	سنة ١٠٨٠هـ	أشركه معه أخوه سعد ثم هربا سنة ١٠٨٢هـ.
بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمّى	سنة ١٠٨٢هـ	ولى بعد هروب أحمد وسعد وبقى فى الولاية حتى توفى سنة ١٠٩٤هـ. وكان حميد السيرة.
سعيد بن بركات	سنة ١٠٩٤هـ	حصلت بينه وبين الأشراف فتن انتهت بخلعه.
أحمد بن زيد	سنة ١٠٩٥هـ	ولاه السلطان بعد خلع سعد وتوفى سنة ١٠٩٩هـ.
أحمد بن غالب سعيد بن سعد بن زيد	سنة ١٠٩٩هـ	تنازعا الإمارة بعد وفاة أحمد بن زيد فجاء الأمر السلطانى بتولية أحمد بن غالب فسلم له سعيد فى السنة نفسها.
محسن بن حسين بن زيد	سنة ١١٠١هـ	ولاه والى جدة فخرج أحمد من مكة.
مساعد بن سعد	سنة ١١٠٣هـ	نازع سعيد بن سعد محسنا فتنازل عن الملك لمساعد بن سعد وهذا تنازل عنه لسعيد.
سعيد بن سعد	....	
سعد بن زيد	....	ولى بأمر سلطانى وكان فى بلاد الروم فأناب عنه ابنه سعيدا.
عبد الله بن هاشم	سنة ١١٠٥هـ	طلب الولاية له والى جدة ولكن قاتل سعد عبد الله وانتزع مكة منه.
سعد بن زيد	سنة ١١٠٦هـ	استمر فى هذه الولاية إلى سنة ١١١٣هـ حيث نزل عن الإمارة لابنه سعيد.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**

اسم الأمير	تاريخ التولية	معلومات
سعيد بن سعد	سنة ١١١٣هـ	حصلت بينه وبين الأشراف فتن كثيرة فعزلوه وولوا عبد المحسن
عبد المحسن بن أحمد بن زيد	سنة ١١١٦هـ	نزل عن الإمارة بعد تسعة أيام لعبدالكريم
عبد الكريم بن يعلى	....	أخرجه من مكة سعد بن زيد.
سعد بن زيد	....	طعنه عبد الكريم عدة طعنات مات منها.
عبد الكريم بن يعلى سعيد بن سعد	سنة ١١١٦هـ	تقاتلا على ولاية مكة وقد تولاها الأول ثلاث مرات مجموعها ست سنين وعشرة أشهر وتولاها الثانى خمس مرات مجموعها عشر سنين وسبعة أشهر.
عبد الله بن سعيد	سنة ١١٢٩هـ	تولى بعد وفاة أبيه سعيد.
على بن سعيد	سنة ١١٣٠هـ	لما عزل الأشراف عبد الله أرادوا الولاية لعبد المحســن بن أحمد بن يزيد فأباها فأرادوها لأخيه مبارك فأباها له واختار على بن سعيد.
يحيى بن بركات	....	
مبارك بن أحمد بن زيد	سنة ١١٣٢هـ	
يحيى بن بركات	سنة ١١٣٤هـ	تنازل عن الولاية لوالده.
بركات بن يحيى	سنة ١١٣٦هـ	
مبارك بن أحمد بن زيد	....	
عبد الله بن سعيد	....	
محمد بن عبد الله بن سعيد	سنة ١١٤٣هـ	انتزع الإمارة منه عمه مســعود مع أنه الذى ساعده عليها.
مسعود بن سعيد	سنة ١١٤٥هـ	انتزع الإمارة منه محمد بن عبد الله.
محمد بن عبد الله بن سعيد	....	اصطلح مع عمه سنة ١١٥١هــ وبقى تحت طاعته إلى أن توفى سنة ١١٦٩هـ.
مسعود بن سعيد	سنة ١١٤٦هـ	بقى فى الولاية إلى أن توفى.
مساعد بن سعيد	سنة ١١٦٥هـ	تولى مرتين مدتهما ١٨ شهراً و٩ سنين.
اسم الأمير	**تاريخ التولية**	**معلومات**
جعفر بن سعيد مساعد بن سعيد	سنة ١١٧٢هـ سنة ١١٧٣هـ	ولى جعفرا أمير الحج الشامى بعد أن عزل سلفه ولكن دفع إليه مساعد مالا وتنازل عن الولاية بعد أن مكث بها دون شهر.
عبد الله باشــا بن محمد بن عبد المعين	سنة هـ١٢٧٤	ولى بعد وفاة أبيه محمد بن عون

عبد الله بن سعيد	سنة ١١٨٤هـ	نازعه أخوه أحمد فتنازل له عن الولاية ولم يمض عليه أيام.
أحمد بن سعيد	....	تولى مرتين مدتهما سنتان.
عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات	....	انتزع الولاية من أحمد بمساعدة حملة مصرية برياسة عبد الله محمد بك أبى الذهب قاتله ثم قبض عليه ابن أخيه سرور بن مساعد وأودعه السجن حتى توفى سنة ١١٩٥هـ.
أحمد بن سعيد	سنة ١١٨٥هـ	
سرور بن مساعد	....	
غالب بن مساعد يحيى بن سرور	سنة ١٢٠٢هـ سنة ١٢٢٨هـ	ولى غالب بعد وفاة أخيه وفى سنة١٢٢٨هـ أقصاه عن الولاية محمد على باشا وأسكن سالنيك فمات بها سنة١٢٣٠هـ.وتولى يحيى إلى أن نزعت منه الإمارة سنة ١٢٤٢هـ. لقتله الشريف شنبر المنعمى.
عبد المطلب بن غالب بن مساعد محمد بن عبد المعين بن عون عبد المطلب بن غالب محمد بن عبد المعين بن عون	سنة ١٢٤٢هـ سنة ١٢٤٣هـ سنة ١٢٦٧هـ سنة ١٢٧٢هـ	تولى عبد المطلب بعد يحيى ولكن لم توافق الدولة العثمانية على توليه بل ولت محمد بن عون بطلب محمد على باشا وتوجه عبد المطلب إلى بلاد الروم وولته الدولة على مكة سنة ١٢٦٧هـ. وعزلت محمد فذهب أيضاً إلى بلاد الروم وفى سنة ١٢٧٢هـ ولى مكة وعزل عبد المطلب فذهب إلى بلاد الروم.
حسين باشا الشهيد بن محمد بن عبد المعين	سنة ه١٢٩٤هـ	قتله أفغانى بجدة.
عبد المطلب بن غالب	سنة ١٢٩٧هـ	فصل عن الإمارة سنة ١٢٢٩هـ.
عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين	سنة ١٢٩٩هـ	تولى فى ٢٤ ذى القعدة وكان بالأستانة فوصل إلى مكة فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٩هـ.
على باشا......	سنة ١٣٢٣هـ	ولى وأعطى رتبة الوزارة فى ١٥ شعبان من السنة نفسها.
حسين بن على	سنة ١٣٢٦هـ	ولى فى ٦ شوال سنة ١٣٢٦هـ. ثم أعلن نفسه ملكاً على الحجاز ثم خليفة.

خالد بن لؤى	سنة ١٣٤٣هـ	وليها من قبل السلطان عبد العزيز بن السعود أمير نجد
فيصل بن عبد العزيز آل سعود		
الأمير عبد الله بن فيصل بن عبد العزيز	حتى ١٣٧٧هـ	
الأمير متعب بن عبد العزيز	فى ١٣٧٨هـ	
الأمير عبد الله بن سعود	فى ١٣٨٠هـ	
الأمير مشعل بن عبد العزيز	فى ١٣٨٣هـ	
الأمير فواز بن عبد العزيز		
الأمير ماجد بن عبد العزيز		
الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز	إلى الآن	

أشهر الرحلات التاريخية والرحالين الأجانب لمكة المكرمة

أشهر الرحلات التاريخية والرحالين الأجانب لمكة المكرمة

عندما انهارت الحضـــارة الإســـلامية بالأندلس وتخلت الدولة العثمانية عن حماية ثغور الإســـلام من الزحف الصـليبى الغاشم،انقلبت الأوضـاع وتغيرت الأحوال وأصـبحت الأمة الإسـلامية المتحضـرة متخلفة عن مسـايرة الركب الحضـارى، تعيش عصـر الانحطاط والتقهقر، بينما أوروبا تعيش عصـر الرقى والنهضـة، وبدأ عصـر الاكتشافات الأوروبية فى العلوم والفنون يغزو العالم.

وتمكن"كريستوفر كولمبوس" من اكتشاف قارة أمريكا الجديدة الخامسة، ونجح المغامر البرتغالى "فاسكودى جاما" من اكتشـاف الطريق إلى الهند مروراً برأس الرجاء الصـالح، كما اكتشـف "ماجلان وكوك" الطريق إلى المحيط الهادى بالإبحار حول أفريقيا غرباً. واســتطاع كوك التوغل فى رحلته فى المحيط الهادى (الباســفيكى) مكتشــفاً لأول مرة الممر المائى الذى تحدث عن وجوده المكتشــفون الأوائل دون أن يعثروا عليه، ووصـــل إلى أطراف "ألاســكا" إلى المحيط المتجمد الشـــمالى، واثر عودته من رحلته قتل فى معركة كماجلان، واكتشـــف النرويجى "رولد امندسن" القطب الجنوبى فى ديسمبر ١٩١١م.

هذه الاكتشـــافات والرحلات غيرت مجرى التاريخ البشـــرى، وأظهرت طرقاً جديدة للمواصـــلات التجارية، وقارات مجهولـة أخرى، وفتحت آفاقاً بعيدة فى عـالم الاكتشـــافات عادت بالخير والرفاهية والتقدم على الغرب مكنتـه من فرض ســـيطرتـه على الطرق التجـاريـة العـالميـة فأدى ذلك إلى انتعاش تجارتـه واقتصـــاده وتوســـع امبراطوريته وتزايد ومستعمراته.

وبفضــل الاكتشــافات الجديدة تقدم الغرب فى مدارج الرقى والحضــارة ودخل عصــر النهضــة، وتفوق على العرب فى جميع الميادين، ولاســيما فى ميدان الاكتشـــافات والرحلات التى كان للعرب فيها باع طويل وتاريخ حافل بالأمجاد.

ومواصـلة لهذه الاكتشـافات والرحلات، قررت أوروبا إرسـال بعثات ووفود اكتشـافات أخرى إلى جميع بلدان العالم الإسلامى والعربى، التى كان لها تاريخ مجيد وحضارة قديمة عريقة، وتوجهت تلك البعثات والوفود بأعداد كبيرة إلى مكة المكرمة مهبط الوحى والنور ومهد الحضــارة الإســلامية،وملتقى الحجاج المسـلمين من مشــارق الأرض ومغاربها لمعرفة سـر قوة الدين الإسـلامى، وكذا مجاهل صـحراء الربع الخالى، ومسـالك شـبه الجزيرة العربية ومراكز التجارة والعادات والتقاليد والإنســان والحيوان والطيور والبر والبحر فيها..ثم توجهت إلى اليمن حيث يوجد ســد مأرب وحضـــارة مملكة التبابعة والســبئيين والحميريين، وإلى وادى الرافدين بالعراق منبع الحضــارة الســومرية والبابلية والآشــورية، وإلى أهرامات مصــر أصــل الحضــارة الفرعونية للقيام بالبحوث والدراســات والرحلات لاكتشـــاف منبع نهر النيل الخالد، وإلى أفريقيا الســـوداء للاطلاع على عجائب أدغالها ووحوشها وغرائب مسالكها وممالكها وأقوامها.

وهؤلاء الرحالة كانوا خليطاً من الجواسيس والمغامرين والمستشرقين والمستكشفين ومن المسلمين الحقيقيين والمزيفين.

وسنتناول فى هذه الفصل من الكتاب ذكر تراجم بعض الذين زاروا مكة المكرمة من الرحالة الأوروبيين مع بيان رحلاتهم واكتشافاتهم وتأليفهم.

والملاحظ أن أسلافنا العلماء رحمهم الله ونفعنا بعلمهم لفرط حبهم للأماكن المقدسة كتبوا عنهم مجلدات فخمة ولم يتركوا عنها شاذة ولا نادة إلا وذكروها، ومؤلفاتهم الموسوعية القيمة ظلت للأسف حبيسة بين الخزائن والرفوف.

الدراسات الشرقية

ومن أجل أن يعزز الغرب نفوذه ويفرض سيطرته على العالمين: العربى والإسلامى أعطى أهمية للاستشراق إدراكاً منه أنه لا يمكن السيطرة على العرب إلا بعد اكتشاف بلادهم وتعلم لغاتهم.. ودراسة أحوالهم وسلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم وحياتهم.. دراسة عميقة شاملة مبنية على المنهاج العلمى الصحيح، أساسها الواقعية والبعد عن الأساطير والخرافات والمبالغات التى كانت سائدة فى أفكار الغرب نحو العرب، يتناقلها جيلاً بعد جيل.

وتمهيداً لغزو بلدان العرب عمل الغرب على إدخال الدراسات الشرقية فى برامج تعليمه وشجع على تلقينها، وأعطى هذا البرنامج الجديد نتائج مثمرة وإيجابية، فبعد ما كانت الدراسة المفضلة عند الجميع هى الدراسة الإغريقية الهيلنية، أصبحت الدراسة الشرقية هى المفضلة ومطمح وآمال الشباب الصاعد لبلوغه ما يصبو إليه من أهداف وتطلعات فى ميدان المغامرات والرحلات إلى بلاد العرب لاكتشاف المجهول، وتوضيح ما غمض من آثار وتاريخ الأمم الغابرة الساكنة فيه، وقد ذكر هذه الحقيقة كاتب معروف من كُتاب الغرب هو "هيفور" فى مقدمة كتابه (الشرقيات)وقال: (هناك الآن اهتمام بالشرق أكثر من أى وقت مضى، فلم يبق للدراسات الشرقية أن حققت مثل التقدم الذى تشهده اليوم فى عصر لويس الرابع عشر، كان كل واحد هيلنياً منكباً على الدراسات الإغريقية أما اليوم فالناس كلهم مستشرقون، ولم يبق للعديد من أصحاب العقول النيرة هذه أن تنكب على التنقيب فى الخضم الكبير الذى هو آسيا، لقد استولى الشرق على العقل والخيال وأصبح كل شيء فى الشرق كبيراً غنياً وخصباً وقال أيضاً: (وإن القارة بأجمعها تنحنى نحو الشرق).

١- رحلة دى بارتيما إلى مكة المكرمة

ومن الرحالة الأوروبيين المستشرقين المغامرين الذين كانت لهم الأولوية والأسبقية فى اكتشاف جزيرة العرب (لود فيكودى بارتيما) تظاهر باعتناق الإسلام وسمى نفسه (ياسين) حتى يتمكن من الدخول إلى الأراضى المقدسة فى حرية تحت ستار أداء فريضة الحج.

وكانت بداية رحلته خروجه من بلدته (البندقية) فى ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٥٠٣متوجهاً إلى الديار المقدسة، ماراً بالقاهرة وبيروت، وحلب ودمشق وفى هذه الأخيرة تعلم العربية وتعرف على ضابط تركى حديث العهد بالإسلام عزم على أداء فريضة الحج وقد رافقه فى قافلة الحجاج الشاميين التى خرجت إلى الحج من دمشق يوم ٣ ابريل (نيسان) سنة ١٥٠٣م وكانت تتكون ـــ حسب ما يرويه بارتيما ـــ من خمسة وثلاثين ألف جمل، وأربعين ألف رجل، وعدد كبير من الخيول، ومرت القافلة بحوران وقبائل شاكر وعند وصولها إلى تبوك وخرائب مدائن صالح ظن بارتيما أنها خرائب مدينة سدوم وعمورة، وبين تلك المواقع الأثرية اعترضت القافلة جماعة من البدو من قُطاع الطريق وطالبتهم بدفع تعويض مقابل شربهم الماء فى أرضهم، فجمع أفراد القافلة ألفاً ومائتى قطعة ذهبية وسلموها للبدو للسماح لهم بالمرور لكنهم لم يقنعوا بالمبلغ المذكور وطلبوا منهم المزيد، وهنا اضطرت القافلة الدفاع عن نفسها والدخول فى معركة مع البدو مستعملة فيها السلاح وفعلاً نشبت المعركة بين الجانبين تكبد فيها البدو خسائر فادحة فى الأرواح وعن هذه المعركة قال بارتيما: لم نفقد من القافلة سوى جندى واحد وسيدة، فى حين قتلنا منهم حوالى ألفاً وخمسمائة، ولا غرابة فى ذلك لأنهم كانوا غير مسلحين.

وقد تشكك بعض الكتاب العرب فى العدد الضخم للقتلى الذين ذكرهم بارتيما وعد ذلك من أسباب المبالغات.

أسباب رحلة دى بارتيما إلى البلاد العربية:

وقد يتساءل البعض لماذا سافر الرحالة دى بارتيما إلى البلاد العربية؟ وما هو سبب رحلته هذه؟ وقبل الدخول فى الجواب عن هذه الأسئلة نقول: إن الرحلات تنقسم إلى أنواع كثيرة ومتنوعة وتختلف أهدافها وأسبابها.. فهناك رحلة تكون فى سبيل طلب العلم.. وهناك أيضاً رحلة يقصد منها التجول والتعرف على بلدان وشعوب العالم.. ورحلة يبغى من ورائها صاحبها التجارة وتنمية المال.. ورحلة الغرض منها أداء فريضة الحج..ورحلة الهدف منها القيام بمهام سياسية ودبلوماسية إلى غير ذلك من أنواع الرحلات.. ورحلة بارتيما كانت تجمع بين الحج والتجول والتعرف على بلدان وشعوب الدول العربية وفى هذا صرح: (لو أننى سئلت عن السبب فى رحلتى هذه فاننى لن أقول أكثر من أنها الرغبة الجامحة فى المعرفة وهى نفس الرغبة التى دفعت كثيرين غيرى لمشاهدة العالم وعجائب الخالق، ولأن كثيراً من أجزاء العالم قد زارها غيرى كان عزمى أن أزور وأصف هذه البلاد (يعنى الحجاز) التى لا نعرف عنها الكفاية).

وإذا كان بارتيما حقق أمنيته فى زيارة البلاد العربية فإنه أثناء رحلته هذه إلى الحج لقى أهوالاً ومتاعب كثيرة، وحين وصلت القافلة إلى المدينة المنورة،غير أفرادها ملابسهم العادية وارتدوا ملابس الإحرام وتوضأوا ودخلوا إلى المسجد النبوى للصلاة والسلام على النبى ﷺ، وقد حظى بارتيما بمشاهدة قبرالرسول داخل المسجد النبوى ووصفه بقوله: "داخل هذا الباب المقبرة، قبر تحت الأرض حيث دفن محمد مع أصحابه". وبذلك يكون بارتيما أول كشف لأوروبا حقيقة قبر الرسول (ﷺ) واعتماداً على قوله لم تعد أوروبا تؤمن بخرافة أن جثمان النبى (ﷺ) كان معلقاً بين السماء والأرض فى سماء المدينة التى كانت شائعة فى الغرب.

دخول بارتيما إلى مكة المكرمة:

وبعد رحلة شاقة ومتعبة من المدينة إلى مكة واجهت فيها القافلة رياح الشمال العاتية وعواصف الرمال القوية تصل سالمة إلى مكة المكرمة يوم ١٨ مايو ١٥٠٣م وكانت المدينة وقتذاك كما قال بارتيما: تحتوى على ستة آلاف بيت تشبه البيوت بيوت روما فى بنائها، وبعد وقوفه بمنى وعرفات يذهب للطواف حول الكعبة المشرفة ويراها لأول مرة فى حياته، ويخفق قلبه ويشعر بإحساس غريب ينتابه ويصف ما تراه عيناه فى الحرم المكى من مشاهد أخاذة ويقول: "ندخل إليه بالنزول حوالى اثنتى عشرة درجة، وفى الرواق تُباع المجوهرات والأحجار الكريمة. عندما تتعدد المداخل نجده مقفلاً من أعلى والجدران المطلية بالذهب تشع من كل جانب بضخامة لا تقارن..فى المكان المنخفض من المعبد يوجد عدد لا يحصى ولا يُعد من الرجال ـ يوجد من خمسة إلى ستة آلاف رجل يبيعون المراهم الحلوة وروائح معينة وبورة حلوة التى تستخدم للرش على أجساد الموتى، تجعل الإنسان يعتقد أن هذه الرائحة الحلوة تفوح وتفوق كثيراً على الروائح من دكاكين العطارين".

وبعد انتهاء موسم الحج لم يعد بارتيما إلى قافلة الحجاج الشاميين للعودة إلى بلاده بل انفصل عنها واختفى فى بيت مملوك تعرف عليه بأنه مسيحى، وبقى وحده فى الحجاز وقرر زيارة اليمن، وتوجه إلى جدة ومنها جاوز البحر إلى عدن وهو يجهل وقتذاك تطور الأحداث السياسية والصراع الدائر بين المسلمين والبرتغاليين فى المنطقة، وعند وصوله إلى عدن.. ألقت عليه السلطة اليمنية القبض بتهمة أنه جاسوس أوروبى خطير جاء إلى البلاد ليتجسس لصالح (البرتغال) ووضعت فى يديه الأغلال والقيود وسيق إلى السجن المدنى بعدن.

٢- المغامر الانجليزى جوزيف بتس

ولد جوزيف بتس فى ايكستر بانجلترا سنة ١٦٦٣م وعمل بحارا منذ كان عمره خمسة عشر عاما كباقى البحارة الانجليز فى الناحية الغربية من البلاد، وعاش فى السفن متنقلا من بلد إلى بلد حتى وقع اسيرا فى قبضة قراصنة أتراك الجزائر سنة ١٦٧٧م الذين كانوا يسيطرون بسفنهم على البحر الأبيض المتوسط ويهددون الملاحة الدولية فى هذا البحر ويعترضون السفن الأجنبية المارة فى سواحل منطقة نفوذهم.

ومن أجل القضاء على قراصنة الأتراك قامت عدة دول كبرى مثل أسبانيا وفرنسا بشن هجومات قوية على الجزائر العاصمة فى محاولة منهم لطرد حكامها الأتراك لكنهم فشلوا فى ذلك وعادوا إلى بلادهم منهزمين خائبين.

ويصف دوجلاس مؤلف كتاب (القراصنة) بأن القراصنة هم: "طابور من الأوغاد شنوا حربا على العالم بأسره".. ويقول الباحث فائق فهيم (بأن دوجلاس كان صادقا فى ذلك الوصف لأنهم (يعنى القراصنة) فى نهمهم من أجل الذهب لم يميزوا بين سفينة وأخرى ولم يدخلوا فى اعتباراتهم أية عوامل انسانية أو سياسية أو غيرها..

ويستعرض نفس الباحث قائمة بأسماء مشاهير قراصنة الإنجليز (بلد جوزيف بتس) الذين عرفهم التاريخ وعلى رأسهم كابتن كيد الشهير، وهنرى ايفرى، وتشارلز فين وبارتلميوروبتس، وهاولى دافيز وغيرهم.. ومن قراصنة الأتراك المشـــهورين يذكر خير الديس بارباروس صـــاحب (اللحية الحمراء) الذى اســتولى على الجزائر وكان يحمل لقب أمير البحر بدون منازع.

وقوع جوزيف بتس أسيرا

ألقى قراصـنة الأتراك القبض على سـفينة إنجليزية بتاريخ١٦٧٨م وكان يعمل بها جويف بتس، وقد بيعت تلك السـفينة فى الجزائر، وكان جوزيف بتس من نصـيب ضـابط خيالة تركى اشـتراه ليخدم عنده، وعند غيابه وقيامه ببعض المهام العسكرية باعته زوجته إلى جزائرى آخر للتخلص منه، وكان المشترى شخصا غليظ القلب متشددا فى أمور الدين، أجبره على اعتناق دين الإسـلام عن كراهية، ثم أنه دبر مؤامرة لاسـقاط الحاكم الجزائرى وفشـل فيها فأعدم، وانتقل جوزيف بتس بعد اعدام سيده للعمل كعبد عند سيد جزائرى آخر عجوز واعزب عامله معاملة حسـنة وقبل قيامه مع سيده الجزائرى العجوز بأداء فريضـة الحج نستعرض أهم الأحداث السياسية التى عاصرها جوزيف بتس فى الجزائر.

جوزيف بتس فى الجزائر

عاصر جوزيف بتس فى الجزائر حكم ثلاثة دايات هم:

(١) حكم الحاج محمد داى تولى سنة ١٠٨٢هـــ –١٦٧١م وفى عهده استولى الاسبان على مدينة تلمسان سنة ١٦٧٥م ثم خرجوا منها وعادوا إلى حصنهم الحصين مدينة وهران

(٢) حكم بابا حسن داى تولى سنة ١٠٩٢هـ ١٦٨١م ومات مقتولا سنة ١١٠٤هـ ١٦٩٣م.

(٣) حكم الحاج حسين داى (موزرمبورتو) تولى سنة ١١٠٤هـ - ١٦٩٣م.

وأثناء وجود جوزيف بتس فى الجزائر عرفت الجزائر حدثا سـياسـيا هاما هو قطع العلاقات الدبلوماسـية بين أتراك الجزائر وفرنسا سنة ١٠٩٣هـــ - ١٦٨٢م وإعلان الأتراك الحرب ضد فرنسا واستيلائهم على ٢٩ سفينة فرنسية وأسرهم ثلثمائة فرنسى.

بتس فى طريقه إلى مكة المكرمة

حج جوزيف بتس مع سـيده الجزائرى سـنة ١٦٨٥م عن طريق السـويس ورابغ وجدة ومنها واصـلا سـيرهما على الجمال متوجهين إلى مكة ولما وصـــلاها اســتعانا بالمطوف وبعد طوافهما بالكعبة المشــرفة وســعيهما بين الصفا والمروة قبلا الحجر الأسود وقال عنه بتس بأنه اسود بسبب ذنوب العباد وهو تفسير بعض عامة الناس، ثم صـــعدا إلى منى وجبل عرفة وعادا إلى مزدلفة ومنى لرمى الجمرات.. وعندما اديا جميع مناســك الحج اقاما فى مكة المكرمة مدة شــهرين.. ووصــف جوزيف بتس الحجاج وهم فى ملابســهم البيضــاء يطوفون حول الكعبة فى خشوع وابتهال

وقال: "كان مشـهدا ينفذ إلى القلب. مشـهدا يكفى لأسـر كل هذه الألآف فى ثيابهم البسـيطة التى تنم عن الزهد وقد تعرت رؤوسهم والدموع تبلل وجوههم.. متضرعين إلى الله أن يغفر ذنوبهم".

كما أنه وصـف أيضاً مشـاهد رمى الحصوات ويوم شراء الأضحية وغيرها من شعائر الحج وقال: "بعد رمى السـبع الحصـوات فى اليوم الأول يشـترى الحاج الأغنام للأضـحية، يعطى اللحم للفقراء والمعدمين وللأصـدقاء والباقى يأكلونه بأنفسـهم. بعد ذلك يحلقون رؤسـهم، ويخلعون الاحرام ويسـلمون على بعضـهم البعض بالتحيات قائلين (العيد بركة عليكم).

خلال هذه الأيام الثلاثة كل حاج يسـتطيع أن يذهب إلى المسـجد الكبير (الحرم) جاريا معظم الطريق وعندما يصلون إلى الكعبة سوف تتفجر عيونهم بالبكاء وبعد الطواف المعتاد والصلوات يعودون نشيطين إلى منى).

وعندما انتهى جوزيف بتس مع سيده الجزائرى من أداء مناسك الحج بمكة توجها إلى المدينة المنورة للسـلام والصـلاة فى مسجد رسـول الله ﷺ وبعد قضـائهما ثلاثة أيام فى المدينة وتفقد معالمها الدينية والتاريخية عادا إلى الجزائر وقرر سـيده الجزائرى عتقه وبذلك أصـبح حرا طليقا يتمتع بحريته، لكنه لم يثبت على إسـلامه ولم يكن صـادقاً فى إيمانه، وارتد وهرب بعد سـبع سـنوات قضـاها فى الجزائر التحق خلالها بالجيش التركى، وفر من الجيش والتحق بوطنه انجلترا سنة ١٦٤٣م بعدما عاش فى بلاد المسلمين ستة عشر سنة، ثمان سنوات قضاها فى ظل العبودية والأسر، وثمان سنوات أخرى قضاها حرا طليقا بعد حجه، وقد ألف "بتس" كتابا عن رحلته إلى مكة المكرمة بعنوان "وصف حقيقى وصادق لدين المحمدين" ونشر الكتاب فى انجلترا سنة ١٧٠٤م.

٣- الرحالة الأوروبى دومنغو باديا المعروف بـ (على باى العباسى)

من الرحالـة الأوروبين والعلمـاء الجغرافيين الأوائـل الـذين جـابوا بلاد العرب دومنغو باديا لبليش المعروف بـ على باى العباسى الأسبانى الأصل وهو أشهر رحالة أوروبى زار بلاد الجزيرة العربية بعد الرحالة دى بارتيما، امتـازت رحلتـه عن بـاقى الرحلات الأوروبيـة الأخرى بطـابعهـا العلمى والجغرافى، وهو أول من أعطى للغرب تقريراً مفصـلاً عن الطرق التجارية الهامة فى الحجاز، وأول من وصـف الأماكن والمواقع والبلدان التى مر بها وصفا طبوغرافيا دقيقا، وصحح بعض الأخطاء الجغرافية التى كانت سائدة فى عصره.

وليس هناك أى ترجمة وافية موسعة كتبت بالعربية لهذا الرحالة الأسبانى الذى كثرت حوله الظنون والشكوك واتهم بالجاسـوسـية بسبب كثرة تحركاته المشبوهة وتصـرفاته المريبة، حينما حل بالمغرب الأقصـى وحاول جر السـلطان المولى سـليمان العلوى إلى عقد اتفاقية تجارية مع أسـبانيا للتخلى لها عن بعض الموانئ المغربية فى المحيط الأطلسى.

ميلاده وبداية أمره

وهو من مواليد سنة ١٧٦٦م بمدينة برشلونة الأسبانية.. درس العلوم فى مدريد وكان يجيد اللغة العربية والفرنسية والإيطالية والانجليزية.. وله اطلاع على علوم الرياضيات والفيزياء والتطبيعات والفلك والجغرافية. واسمه الأصلى هو دومنغو باديا لبليش – وقد غير اسمه حتى يتمكن من التجول فى البلدان الإسلامية فى حرية كأى مواطن مسلم فكانت زيارة النصارى فى عهده لبلاد المسلمين ممتنعة ومستحيلة ومحل شكوك وانتقاد نظرا للعداء الذى كان قائما انذاك بين المسلمين والنصارى نتيجة حروبهم الصليبية الدامية التى تركت آثارها السلبية فى العالم الإسلامى.

أعفى دومنغو باديا لبليش لحيته واختتن وتزين بالزى العربى وأطلق على نفسه اسم التاجر الحلبى المشهور "عثمان باى العباسى" وادعى أن أباه أرسله من حلب إلى الأندلس ليتعلم العلوم الإسلامية لما فيه مصلحة أمته.

وفى سنة ١٨٠٢م زار لندن ليزيد من معلوماته ومعارفه وطلب من الجمعية الأفريقية مساعدته للقيام برحلة استكشافية إلى أفريقيا لحساب الجمعية وبالخصوص إلى المغرب الأقصى ثم قصد لنفس هذه الغاية باريس واتصل بوزارة الخارجية وبمعهد الأبحاث العلمية وعرض عليهم مشروعه المذكور فحظى بموافقتهم وشجعه طليران وكتب فى شأنه توصية إلى ممثل فرنسا بطنجة.. ورجع باديا إلى أسبانيا مسرورا لبلوغ هدفه وتحقيق أمنيته.. واتصل بكودوى وأعانه ماديا وسلم له عدة هدايا تليق بمقام سلطان المغرب وأعطاه توصية مكتوبة إلى ممثلى أسبانيا فى أفريقيا وآسيا لمساعدته فى أداء رحلته العلمية.

وكشف كودوروى فى مذكراته عن أهداف رحلة باديا وقال: "لقد أدركت منذ الوهلة الأولى غرابة كون باديا ينتحل صفة اجتيازه إلى الامبراطورية بوصفه عربياً لا أسبانيا وادعاءه الحج إلى الأماكن المقدسة كسليل للنبى وكونه يسعى بذلك للحصول على ثقة سلطان المغرب أو مساعدته ضد الثوار وجعل السلطان يقوم بنفسه يطلب التأييد الواسع من البلاط. وهو ان لم يحقق ما كان يتوق إليه يكتفى بطبع الاحاطة وتقدير قوته والسعى للتفاهم مع خصوم الملك حتى يتمكن من خوض غمار الحرب وتنفيذ ما كان مبرما من اتفاق معهم وبذلك يمكننا الحصول على ما نريد".

رحلته إلى المغرب الأقصى

غادر باديا أسبانيا متوجها إلى المغرب الأقصى وحل بميناء طنجة يوم ٢٩ يونيه سنة ١٨٠٣م فى موكب كبير مهيب ملفت للأنظار. يحمل معه عدة أحمال وصناديق تشتمل على هدايا من أسبانيا إلى سلطان المغرب وقد حظى بمحبة الناس واحترامهم بطنجة لمواظبته على أداء الصلوات المفروضة فى وقتها مع الجماعة،

وكثرة سخائه وصدقاته على الفقراء والمساكين فكان يطعم منهم كل يوم اثنى عشر فقيرا، كما أنه بنى سقايات للماء لفائدة سكان طنجة وفى شهر أكتوبر ١٨٠٣م زار المدينة السلطان المولى سليمان وانتهز باديا هذه الفرصة وقام بزيارته للسلطان وقدم له هداياه وهى عبارة عن مدفعين وعشرين بندقية وثلاثين مسدسا وبرميل من البارود الانجليزى علاوة على قطع حريرية وحلى وعطر ومظل ملكى رفيع، تقبل السلطان هذه الهدايا برضى واعجاب من باديا وقربه إليه ونال ثقته ومحبته. وفى ظل حماية السلطان انطلق باديا فى التجول فى بلدان المغرب الأقصى فى حرية لتدوين ملاحظاته ومشاهداته وقام برحلته العلمية إلى كل من مدينة أصيلة والقصر الكبير والعرائش ومكناس وفاس والرباط والدار البيضاء ومراكش التى وصلها فى ٢٥ مارس ١٨٠٤م وفيها حظى أيضاً بمقابلة الملك الذى وهب له دارا واسعة بنواحى مراكش، إلا أنه فشل فى استدراجه لعقد اتفاقية تجارية مع أسبانيا، وحينذاك التجأ إلى مدينة الصويرة واتصل ببعض الثوار أعداء الملك واغتر بقوتهم وشعبيتهم وتسرع فى القضية وكتب إلى كودى يطلب منه أمداده بالجيوش لغزو المغرب وحدد لهم النزول فى مدينة الصويرة، فجندت أسبانيا لهذا الغرض حوالى عشرة آلاف جندى وجهت لحملهم بحرا جميع السفن التابعة لها فى المراسى المغربية ودخل باديا مراكش دخول المنتصر تحت مظلة ملكية فخورا مختالا محاطا باتباعه وانصاره.

ومغامراته هذه لفتت إليه أنظار مسؤولى الحكومة المغربية ونواب الدول الأجنبية المعتمدين فى مدينة طنجة، وحامت حوله الشكوك والظنون وأدرك باديا تورطه فى الشؤون الداخلية للمغرب فطلب من الحكومة الأسبانية تأجيل هجومها المسلح على المغرب ولبت أسبانيا طلبه منقذة بذلك حياته – ولم يبق لباديا حينئذ سوى مغادرة البلاد، فطلب من الملك المولى سليمان أن يأذن له فى أداء فريضة الحج لكن الملك اقترح عليه تأجيل سفره إلى السنة المقبلة، وكلفه بالاشراف على كوكبة عسكرية للهجوم على مدينة مليلية المحتلة من طرف أسبانيا فى المغرب لاختيار اخلاصه ومعرفة نواياه الحقيقية إلا أنه راوغ كعادته ولم يقم بالهجوم المقرر شنه على مليلية.

وأخيراً يأذن له الملك فى شهر مارس ١٨٠٥م فى التوجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج عن طريق الجزائر، ويصل باديا إلى وجدة الحدود الشرقية للمغرب الفاصلة بينه وبين حدود الجزائر، وينصحه عامل وجدة بتأجيل سفره بسبب اندلاع نار الفتن بناحية تلمسان وقطع طرق المواصلات البرية المؤدية إلى الحجاز وانعدام الأمن، لكنه أبى العمل بنصيحته وواصل رحلته معرضا نفسه للأخطار، فلما علم الملك بذلك أرسل له كوكبة من الفرسان إلى وجدة لحمايته، فتمكن باديا تحت رعايتها وحمايتها من العودة فى سلام إلى فاس وهناك لاحظ تغير معاملة الملك له، واتسامها بطابع الشك والحذر وعدم الثقة وتحت الحراسة المشددة أُخْرِج بالقوة من فاس وأبعد هو وزوجته وخدامه، وأدخل إلى مركب طرابلسى، وتوجه به إلى مرسى طرابلس الغرب فى شهر أكتوبر ١٨٠٥م وعلى هذه الحالة انتهت مغامرات هذا الرحالة الأوروبى الأسبانى بالمغرب الأقصى، الذى كان مغامراً طموحاً إلى السلطة والحكم والبروز فى ميدان الأحداث السياسية لفرض نفسه وشخصيته.

رحلته إلى مكة المكرمة

ومن طرابلس الغرب تبدأ رحلته الثانية قاصــدا الحج برا فى قافلة تتكون من أربعة عشــر جملا وثلاثة خيول ويصل إلى ميناء السويس فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٦م.. ويزور الإسكندرية ويلتقى فيها بـــ (شوشريان) الفرنسى.. ويزور أيضــاً القاهرة ويحظى بمقابلة محمد على باشــا حاكم مصــر.. ثم يتابع رحلته فى البحر الأحمر على متن سـفينة كادت أن تغرق أثر عاصـفة بحرية هوجاء مهلكة أصــابتها وينجو بأعجوبة من الغرق.. ويصــل إلى مكة المكرمة فى ٢٣ يناير ١٨٠٧م وكان الشـــريف حاكم المدينة يرافقه فى تجواله.. وقد وجد أن معظم ما فى المدينة من عمران تحول إلى خراب وقفار وانخفض عدد سكانها بشكل مدهش من مائة ألف إلى ستة عشر ألفاً مع عدم وجود أى صناعة فيها تذكر وكان هذا الخراب العمرانى والإفلاس الصناعى من جراء حملة محمد على باشا ضد الحجاز.

شـارك فى موسـم الحج مع شـريف مكة فى غسـل الكعبة المشـرفة، وسـمع بدعوة محمد بن عبد الوهاب التى انتشرت فى أنحاء الجزيرة العربية.

وفى ٢ مارس من نفس السـنة المذكورة غادر باديا مكة وتوجه إلى جدة بعد انتهاء موسـم الحج ومن جدة ذهب إلى ينبع، وحتى لا يتهم بالســحر والشــعوذة تخلص من كل ما يحمله من الحشــرات والزهور التى جمعها خلال جولاته قصـــد دراســـة نماذج منها.. ومن ينبع توجه مرة أخرى إلى مصـــر ومن مصـــر عاد إلى أوروبا ثم إلى رومانيا سنة ١٨٠٧م.

وأثناء عودته إلى بلاده استقبله الأمبراطور الأسبانى بحفاوة ومكث قليلاً فى أسبانيا ثم انتقل إلى فرنسا واستقر بباريس وكان يعرف فيها بالجنرال "باديا" وقيل أنه اتصـل بنابليون ونال عطفه وتشـجيعه وحصـل من الحكومة الفرنسية على الأمان المالى له ولأسـرته، لكنه عاوده الحنين والشـوق إلى وطنه الأصـلى أسـبانيا فرجع إليه سـنة ١٨٠٨م.

مؤلفاته

دون رحلاته فى كتابه (رحلاتى بأفريقيا وآسيا) ونشره فى حياته فى باريس فى ثلاثة أجزاء سنة ١٨١٤م جاء فى مقدمته: "بعد أن قضـيت سـنوات عديدة فى البلاد المسـيحية لدراسـة علوم الطبيعة والفنون التى لا غنى عنها لإنسـان، عزمت أخيراً على زيارة بلاد المسلمين وخلال أداء فريضـة الحج سوف أدرس عادات وسلوك وطبيعة البلاد التى سوف أمر عليها خدمة للوطن الذى اخترته مثواى الأخير".

وطبعت رحلته بالأسـبانية فى مدينة فالنسـيا بأسـبانيا بعد وفاته سـنة ١٨٣٦م تحت عنوان: أسـفار على بك العباسى (دومينكو باديا لابليك) فى آسيا وأفريقيا خلال السنوات من ١٨٠٣ إلى ١٨٠٧م".

٤- الرحالة السويسرى يوهن لودفيك بوركهارت

ميلاده ودراسته

ولد بوركهارت فى مدينة لوزان بسويسرا سنة ١٧٨٤م وكان والده كلونيل فى الجيش السويسرى غادر بلاده أثناء الغزو الفرنسى، وتابع دراسته فى ليبسيك وغوتنجن وجامعة كمبردج بألمانيا وكذا بلندن، ودرس الطب والفلك والفيزياء وجميع العلوم الإنسانية والعربية، وفى لندن سنة ١٨٠٦م تعرف على "جوزيف يانكس" عضو الجمعية الإفريقية التى قامت بتمويل عدة بعثات استكشافية إلى أفريقيا للبحث عن منبع النيل بدون ننتيجة وعرض عليه القيام برحلة لاكتشاف النيل لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية مقابل جنيه استرلينى كل يوم، فقبل بوركهارت العمل معه، واعد لرحلته برنامجاً صارماً يشتمل على الرياضة لمواجهة ظروف الحياة القاسية وسط الغابة والأدغال الموحشة، وكذا تقلبات الطقس وفقدان الماء والطعام، وبدأ يبيت فى العراء ويمشى مسافات طويلة سيراً على الأقدام ويصبر على الجوع ويقتات ما يسد به الرمق وحين انتهى من تطبيقه التمارين الرياضية التى رسمها لنفسه عزم على تعلم اللغة العربية إيماناً منه أنها لغة التفاهم بينه وبين العرب سكان المناطق التى سيمر بها أثناء رحلته، ومن أجل ذلك سافر إلى مالطا منتحلاً شخصية طبيب هندى، ومنها توجه إلى حلب بسوريا. وعاش هناك بين البدوسنتين يتعلم فيها اللغة العربية، وخلال هذه المدة أجاد التحدث بها وفهم معانيها وترجم إلى العربية رواية (ربنسون كروزو) وكتب بالعربية (الأمثال العربية). وبالإضافة إلى معرفته العربية فإنه درس الإسلام وألم به وأعلن إسلامه وسمى نفسه الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامى،وظهر علمه واشتهر أمره بين الناس واعترف العلماء بعلمه.

وعاش فى قبيلة "عنيزة" وبين "تدمر" ونهر الفرات متنقلاً متجولاً دارساً أياماً خالدة مع البدو والرحل، ذاق معهم حلو الحياة البدوية الأصيلة ومرها، ووصف تلك الأوقات التى عاشها معهم وقال: "لقد عشت بين البدو أسعد أيام حياتى، كما عشت فيهم أيضاً أحلك الأيام، وقد كتب عن هؤلاء البدو الرحل بصدق وإعجاب أول دراسة تحليلية لحياتهم سماها:"ملاحظات عن البدو الوهابيين".

وخلال تجواله فى ربوع صحراء الأردن اكتشف سنة ١٨١٢م مدينة البتراء العجيبة المنحوتة فى الصخر التي ظلت مدينة منسية زماناً لا يعرفها أحد من الناس.

بدأ رحلته إلى أفريقيا فى شهر فبراير سنة ١٨١٢م ووصل إلى مصر فى شهر سبتمبر ومنها خرج متتبعاً مجرى نهر النيل، وخلال سنتى ١٨١٣ ــــ ١٨١٤م سافر مع قافلة الحجاج السودانيين والنوبيين المتوجهين إلى أرض السودان وبلاد النوبة، وزار مدينة (شندى) وميناء (سواكن) وعن رحلته هذه تحدث د. يوسف فضل حسن وقال: "زار السودان حتى بلغ مدينة (شندى) وميناء (سواكن) خلال ١٣ ــــ ١٨١٤منتدباً من الجمعية الأفريقية بلندن للكشف عن داخل أفريقيا وكان لوس بروكهارت هذا يجيد العربية.. يقظ العقل.. قوى الملاحظة.. دقيق العبارة.. أميناً وصبوراً.. وقد تركت كل هذه الصفات آثارها على رحلاته فى بلاد النوبة إذ إنه وصف طبيعة البلاد وأعطى صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية خاصة تجارة الرقيق فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر.

وأمام صعوبة اختراق أدغال أفريقيا ومسالكها الوعرة، تخلى بوركهارت عن مواصلة رحلته فى أفريقيا وغير تاريخ رحلته، وقرر الرحلة إلى مكة المكرمة انطلاقاً من ميناء (سواكن).

رحلته إلى مكة المكرمة

ومن ميناء (سواكن) توجه بحراً على متن سفينة إلى مدينة جدة ودخلها فى يوليو ١٨١٤م وأصيب فيها بمرض الكوليرا مدة شهر وبعد شفائه سافر إلى مدينة الطائف لزيارة محمد على باشا حيث حظى بمقابلته بواسطة صديقه (بوصرى) الطبيب الأرمنى الخاص للباشا.وطلب منه إذنه فى زيارة المدينتين المقدستين فأذن له فى ذلك، وفى جدة لاحظ أن الناس ـ وكذا صديقه الطبيب الأرمنى ـ ينظرون إليه نظرة شك وارتياب معتقدين أنه جاسوس انجليزى أرسلته حكومته إلى الحجاز للتجسس على المسلمين وخاف أن تلصق به هذه التهمة ويسجن، وعلى سبيل الاحتياط غادر فى الحين مدينة الطائف وتوجه إلى مكة المكرمة مع قافلة الحجاج وكان منسجماً مع أفراد القافلة يتبادل معهم الحديث والطرائف فى جو يسوده المرح،وسربهذه الرحلة الممتعة ودخل إلى مكة المكرمة فى ٨ سبتمبر ١٨١٤وفيها زال خوفه واضطرابه، وشعر بالطمأنينة والراحة تملأ نفسه وفى ذلك قال: "خلال رحلتى فى الشرق فإننى لم أشعر بمثل الراحة التى أحسست بها فى مكة، ولسوف أظل دائماً أتذكر فترة إقامتى فيها".

أحب بوركهارت سكان مدينة مكة المكرمة ونوه بذكائهم وشجاعتهم وحسن ضيافتهم واستقبالهم، وانتقد تصرفات بعض المطوفين الذين يزعجون الحجاج بجشعهم، وصادفت زيارته لمكة المكرمة حلول شهر رمضان المعظم وأحيا مع المسلمين صيام وتراويح هذا الشهر المبارك فى جو دينى آخاذ كله انسجام وأخوة إسلامية صادقة تسيطر عليه روح التعاون والإخاء الإسلامى المتبادل.. وقد تحدث بدقة عن صيام المسلمين وترقبهم بتلهف وشوق ساعة الإفطار فى مكة المكرمة حيث قال:"يجتمع الحجاج فى مجموعات كبيرة فى المسجد للعبادة.. كل شخص يحمل فى منديله قليلاً من التمر وقطعة من الخبز والجبن أو بعضاً من العنب ويضعه أمامه منتظراً اللحظة التى يرفع فيها أذان صلاة المساء وهى اللحظة التى يفطر فيها الصائم".

"خلال هذه اللحظة من الترقب يقدمون بأدب لجيرانهم بعضاً من طعامهم ويأخذون طعاماً من الآخرين،وبعض الحجاج يذهبون من رجل إلى آخر ويضعون ما معهم من لقيمات الطعام ويأتى الفقراء لالتقاط الطعام من الأشخاص الذين وضع أمامهم.حالماً يبدأ الإمام يقول الله أكبريسرع كل شخص لكى يشرب من دورق زمزم الذى وضعه أمامه بعد أن يكون قد أكل شيئاً ما حتى يؤدى الصلاة مع الجماعة بعد ذلك يعودون إلى منازلهم لتناول طعام العشاء ويعودون إلى المسجد لصلاة العشاء".

ظل بوركهارت فى مكة المكرمة إلى حلول موسم الحج ليؤدى الفريضة، وفى يوم ٢٥ نوفمبر ١٨١٤م أطلقت المدافع طلقاتها معلنة بداية موسم الحج الذى كان كما قال ـــ درجة الحرارة فيه مرتفعة جداً، أدت إلى وفاة عدد كبير من الحجاج، وقد رأى أحد الحجاج المغاربة يلفظ أنفاسه الأخيرة وطلب قبل موته رشه بماء زمزم،

ومن مكة المكرمة توجه إلى المدينة المنورة يوم ٢٨ يناير ١٨١٥م وفيها زار مسجد الرسول (ﷺ) وقبور الصحابة وجبل أحد، ومدفن حمزة عم النبى ﷺ وعاد إلى مكة المكرمة مرة ثانية بعد انتهاء موسم الحج وطاف بنواحيها وانتقد كثرة الروائح القذرة المنبعثة من الأضاحى التى تركها الحجاج أثناء الأضحية والفدية.

غادرمكة المكرمة بعد قضائه فيها ثلاثة أشهر وحل بميناء "ينبع" ومرض فى هذه البلدة بالطاعون وبصعوبة شاقة يعود إلى القاهرة منهوك القوى فى ٢٤ يونيو ١٨١٦م.

مؤلفاته

رغم قصر مدة حياته فإنه كان رحالة ذكياً مبدعاً ترك عدة مؤلفات هامة منها:

- رحلات فى بلاد العرب ـ طبع فى لندن سنة ١٨٢٩م.
- ملاحظات حول البدو.
- الأمثال العربية ـ ألفها بالعربية وترجمها إلى الإنجليزية.
- روبنسون كروزو ـ رواية ترجمها من الإنجليزية إلى العربية.
- رحلة للشام والأراضى المقدسة.

٥- رحلة المغامر الألمانى "ستيزن"

إلى مكة المكرمة واكتشاف "حصن الغراب"

الرحلةالتى قامت بها البعثة العلمية الدنمركية لاكتشاف جزيرة العرب كانت من أغرب وأمتع الرحلات فى التاريخ لما اشتملت عليه من المغامرات، فمعظم أعضاء هذه البعثة الاستكشافية لقوا حتفهم أثناء الطريق، ولم ينج منهم سوى "نيبور" الذى استطاع التوغل داخل المناطق المجهولة من جزيرة العرب واليمن والعودة إلى بلاده سالماً موفقاً، وفيها نشر رحلته الممتعة المليئة بالأحداث والغرائب وبواسطتها تعرف الغرب لأول مرة على مجاهل الجزيرة العربية. والعربية السعيدة "اليمن".

ويمكن القول إن أول رحالة أجنبى زار اليمن بعد "نيبور" هو العالم الألمانى "ستيزن" الذى عزم على حل رموز اللغة الحميرية مهما كلفه ذلك من ثمن، وحتى لا يتهم بأنه جاسوس أجنبى خطير عند دخوله الأراضى المقدسة والعربية السعيدة اعتنق الإسلام وسمى نفسه الحاج موسى وتظاهر بالتقوى، وأعلن بأنه سيؤدى فريضة الحج وسيقوم بزيارة البقاع المقدسة تكملة لدينه، وأثناء سفره إلى الحج مر بمناطق "اللجاء" و"حران" التى كانت منذ عهد الرومان من الطرق القديمة المستعملة لمرور قوافل الحجاج.

وعثر أثناء مروره على الأطلال والبنايات الأثرية وهو فى طريقه إلى الحج، وعلى كتابات قديمة تعود إلى عصور مختلفة ودخل إلى مكة المكرمة سنة ١٨١٠م وأدى مناسك الحج وشاهد المدينتين المقدستين (مكة والمدينة).ثم سافر بحراً من جدة إلى اليمن، ونزل بالحديدة وبمدينة صنعاء.ومنها توجه إلى مدينة "ظفار" عاصمة دولة الحميريين قديماً التى كانت تسمى حينذاك "ظفار ريدان".

وبينهما كان "ستيزن" فى اليمن يجول ويبحث عن النقوش الحميرية ويقوم بنسخها دس له بعض جهلة اليمن من الأعراب المتعصبين السم فى الطعام وقتله ظلماً وعدواناً سنة ١٨١١م بدعوى واهية خرافية لا تستند على أى أسس علمية صحيحة هو اتهامه باستخدام الحيوانات الميتة فى السحر.. لنبع مياه الآبار وبمقتله أسدل الستار عن هذا العالم الفذ الذى ضحى بحياته من أجل البحث العلمى.

٦- الرحالة العبقرى ريتشارد بيرتون

وهذا رحالة آخر مغامركبير يمتاز عن باقى الرحالة الأوروبيين بنبوغه وكثرة لغاته وتآليفه ورحلاته ــــ هو ريتشارد فرنسيس بيرتون الإنجليزى الأصل العربى الأم.

ولد سنة ١٨٢١م وكان منذ صباه ميالاًإلى حب المغامرات شغوفاً بالرحلات.. ظل يحلم باكتشاف منابع النيل ومجاهل شبه الجزيرة العربية التى اعتبرها "أرضه المفضلة".

ولكى يحقق حلمه فى الطواف حول بلدان العالم ذهب فى أكتوبر سنة ١٨٤٢م إلى (بومباى) وعمل بشركة الهند الشرقية التى كانت تمثل آنذاك مصالح الاستعمار البريطانى فى منطقة الخليج العربى، وقد استغلت الشركة مواهبه ووظفته ضمن أطرها العاملة وطلب من الشركة مساعدته لإنجازرحلته الاستكشافية،ورفضت الشركة ذلك بحجة أن رحلته ستكون غير مضمونة العواقب، لكنها فى الأخير اقتنعت بجدواها واقترحت على صاحبها بتعلم اللهجات المحلية ليكون على تفاهم مع الشعوب التى سيمر بها خلال رحلته القادمة، وبالإضافة إلى ذلك شجعته الجمعية الملكية الجغرافية لتنفيذ رحلته الاستكشافية، كل ذلك دفعه لبدأ رحلته الأولى إلى مكة المكرمة.

رحلته إلى مكة المكرمة

فى ابريل ١٨٥٣ توجه ريتشارد بيرتون إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ومن أجل كشف شبه الجزيرة العربية منتحلاً شخصية رجل أفغانى مسلم اسمه الحاج عبدالله، وذهب إلى مصر وقضى فيها زهاء شهر يحصل فيها على الحماية الإنجليزية.. واستمع فيها إلى المحاضرات والدروس التى كان يلقيها الشيوخ على الطلبة فى الجامع الأزهر، ليحتك بالمسلمين ويتعرف على أحوالهم ودينهم حتى لا يفتضح أمره فى مكة بأنه أجنبى ويعرض نفسه للهلاك كما حدث لكثير من الرحالة الأجانب عندما اكتشف أمرهم.

سافر إلى الحج مع بدو سيناء ورافقه فى هذه الرحلة شاب من مكة المكرمة يدعى "محمد البسيونى" وزار ينبع والمدينة المنورة فى ٢٥ يوليو ١٨٥٣م وألف عنها تأليفاً خاصاً عبر فيه عن مشاهداته فى المدينة، وبعدئذ ومن المدينة المنورة انتقل إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فى ١١سبتمبر ١٨٥٣م يرافقه صديقه المكى "محمد البسيونى" الذى تعرف عليه سابقاً، وفى مكة المكرمة شاهد المسلمين يطوفون حول الكعبة المشرفة فى خشوع وابتهال ويؤدون شعائرهم الدينية فى حرية وفى نظام بديع، قال وهو يصف المشاهد الدينية فى الحرم المكى: "لقد شاهدت شعائر دينية لكثير من الشعوب..لكننى لم أشاهد أبداً مثلما شاهدته هنا من خشوع ورهبة".

وزيارته إلى مكة المكرمة لم تمر مرور الكرام بل تركت فى نفسه أعمق الآثار وأوحت إليه بأفكار وخيالات كثيرة جعلته يكتب عن المدينة ومكة كتابين ضخمين فى جزئين

يحمل اسم (الحج إلى المدينة ومكة) وهذا الكتاب كان سبب اشتهار اسمه فى العالم العربى يحتوى على مخطط هندسى رسمه بنفسه للمدينتين المقدستين مع خريطة تبين الطريق من مكة إلى عرفة.

اهتم ريتشـــارد بيرتون فى كتابه عن المدينة ومكة بتســجيل الظواهر والعادات والتقاليد الاجتماعية التى كانت سائدة فى وقته فى الجزيرة العربية، ورغم تظاهره بحب الإسلام والمسلمين فى أسلوبه، فإنه لم يكن مسلماً حقيقياً بل كان أجنبياً فى تفكيره وعقيدته ونصرانياً فى زى عربى رحالة..ويقول راشد راسم بأنه: لم يعتنق الإسلام،ولم يقل إنه غير مسلم ولكنه ادعى أنه ولد مسلماً من أب عجمى وأم عربية معتمداً فى ذلك على سحنته ولهجته.

٧- الرحالة الفنلندى جورج والن

تحتوى جامعة هلســـنكى كباقى الجامعات الأوروبية الأخرى على كثير من المخطوطات العربية جلبها إليها الرحالة الأوروبيون الذين اعتنوا بالاستشراق وتخصصوا فى الدراسات العربية، ومن أبرز أولئك المستشرقين الرحالة الفنلندى جورج أوغسط والن المعروف بالحاج "عبد الولى".

كانت صـــورته تبدومعلقةفى الجامعة وهو متزى بالزى العربى،ولد ســـنة ١٨١١م فى جزائر الأند بلنغراد بروسيا.وتتلمذ على يد الأستاذ الشيخ الطنطاوى. وامتازت لينغراد فى عصره بنفائس المخطوطات العربية مما مكنه من الاطلاع والاستفادة منها. وقد نجح فى طبع ونشر بهلنسكى شرح الشيخ عبدالغنى النابلسى لحاشية ابن الفارض (أوميض برق الأبرق لاحا).

وحتى يزداد ثقافة باللغة العربية وتمكنا من ناصيتها استقر بمصر سنة ١٨٤٢م مدة ست سنوات تزود فيها بالثقافة والعلوم الإسلامية والعربية.. وعاد إلى بلاده ليتخصص فى الشؤون العربية..ومنحت له جامعة هنكفورس منحة للقيام برحلات إلى الشرق الأدنى.. وهكذا قام برحلة إلى إيران والعراق وسوريا.. وقضى نحو سبع سنوات من عمره، متنقلاً متجولاً بين بلدان هذه الدول فى حرية بدون خوف ولا وجل.. ولقى تفاهماًَ مع العرب ولم يجد أى صـعوبة فى التحدث معهم والانسـجام مع البيئة العربية وحياة البدو الرحل وذلك لمتانة ثقافته العربية وحسـن أسلوبه وأخلاقه وهندامه.

رحلته إلى مكة المكرمة

زار مكة المكرمة والمدينة مرتين خلال سنوات ١٨٤٥ – ١٨٤٨م وفى رحلته الأولى سلك طريقا يمر بمنطقة النفوذ.. واتجه صـوب حائل وقضـى فيها أياما ثم توجه إلى المدينتين المقدسـتين عن طريق شـاطئ (المويلح).. وزار أرض (مدين) و (واحة تبوك) و (تيماء) و (حائل).. وتوغل فى الشمال الشرقى للجزيرة العربية حتى بلغ النجف ثم بغداد، وكانت رحلته هذه الثانية رحلة شاقة ومضنية وطويلة زار فيها الأماكن والمآثر التى لم يشاهدها فى رحلته الأولى.

وعن رحلته الثانية قال الأستاذ الباحث شريف يوسف: بأن المعلومات التى قدمها والن عن هذه الرحلة الطويلة تعد الأولى من نوعها حيث لم يقم من قبله أحد باختراق شمال الجزيرة.. وكانت المعلومات التى جمعها ذات فائدة كبيرة للذين تابعوا خطاه فيما بعد – فأسـتفادوا كثيراً من ملاحظاته القيمة عن المواقع التى مر بها ثم يضـيف الباحث المذكور قائلاً: (إن الرحالة الفلندى والن لم يكتف بملاحظاته عن الحياة الاقتصـادية والاجتماعية عن البدو، بل دون ملاحظات جغرافية هامة – تنم عن ذكاء شديد وتتصف بالدقة).

وبعد انجاز والن الرحلة الأولى والثانية إلى مكة المكرمة والمدينة ألف مذكرات عن رحلاته ومشـاهداته فى البلدان العربية، وعندما نشرها بين القراء اشتهر وذاع صيته وعرفت أوروبا فضله وقيمته واعتبرته من الرحالة الرواد.

واستقر بلندن سنة ١٨٤٩ وعين سنة ١٨٥١م استاذا للعربية فى جامعة هلنسكى. واشترك مع المستشرقين فى وضع خريطة بلاد العرب، وكان محل تقدير واحترام فى بلاده إلى أن وافته المنية بها.

٨- المستشرق الفرنسى نصر الدين رينيه الفنان الملهم والإنسان المسلم

هو الفنان الفرنسى (الفونس ايتان رينيه) رحالة مستشرق جمع بين الفن والأدب، اعتنق الإسلام وسمى نفسه (نصر الدين رينيه) أحب العرب، وعاش معهم جل عمره بين طبيعة الصحراء الخلابة ببلدة (بوسعادة) بالجزائر متمتعاً بجمالها وهدوئها، بعيدا عن ضوضاء المدينة وصخبها.

ولد فى باريس يوم ٢٨ مارس ١٨٦١ وكان والده يعمل محاميا.. ووالدته السيدة (مارى اديل وشيه) بنت محام وجده مهندس ابن وكيل الملك فى مقاطعة (فونتين بلو).. نشـأ (رينيه) وترعرع فى وسـط مجتمع فرنسـى يؤمن بالمادة وبأن الحياة أخذ وعطاء وعمل وكفاح، لا يؤمن بالقيم الروحية.

ولما بلغ الثانية والعشـرين من عمره قام برحلة اسـتطلاعية إلى الجزائر سـنة ١٨٨٤م. تمكن مرة أخرى من زيارة الجزائر بعد حصوله على مكافأة مادية من صالون قصر الصناعة بباريس، ولما شاهد صحراء الجزائر وواحاتها ومناظرها الاخاذة هام بحبها وسـحرته طبيعتها. وتركت فى أعماق نفسـه أقوى الانطباعات والتأثيرات وحولت حياته من المدينة الباريسية إلى بادية الصحراء الجزائرية. وفى ذلك يقول د. حسن الباب: "وكانت نقطة التحول فى حياته وفنه قيامه برحلة الجزائر..

انتهت إلى (ورقلة) و (الاغواط) فى الجنوب. حيث عثر على كنزه المنشــود. إذ بهرته المناظر الصــحراوية وتركت أثراً عميقاً فى حياته. وإذا كانت الموهبة وروح الفنان المغامر وســيلته فى الدخول إلى عالم الصــحراء، فإن حاجته كانت شـديدة لمعرفة الشـعب الجزائرى الذى يسـكن ذلك العالم البديع النائى. إلى أن قال: "ومنذ سـنة ١٩٠٥ استقر (نصر الدين رينيه) فى بوسعادة" مع التردد على باريس الفينة بعد الفينة.

رحلته إلى مكة المكرمة

ومرت السـنون والأيام والليالى سـراعا وتبدلت أحوال الجزائر من حال إلى حال، وبقى نصـر الدين رينيه فى بيته المتواضـع (بوسـعادة) بدون ارتحال وانتقال بعدما بلغ ثمانية وسـتين سـنة بالتمام والكمال وضـعفت صـحته وأصيبت بهزال، وأحس بالشيخوخة ودنوا الآجال وقرر حج بيت الله الحرام سنة ١٩٢٩م ومن هناك بين التكبير والخشـوع والابتهال قال: "تركت هذه الرحلة فى نفسـى انطباعات لم أشـعر بما هو أسـمى منها فى كل حياتى فلا أحد فى العالم يمكنه أن يعطى فكرة عما شـاهدته من جوانب هذه العقيدة الوحدانية من حيث المسـاواة والأخوة بين حوالى ٢٥٠,٠٠٠ من الناس من مختلف الأجناس، كانوا مزدحمين الواحد بجانب الآخر فى صحراء موحشة.

مؤلفاته

لم يكن (رينيه) فنـانـا فحســـب، بل كان أيضـــاً مؤلفاً غيوراً على الإســـلام مدافعاً عنه داحضـــاً لإفتراءات المسـتشـرقين المغرضـين بحجج دامغة قاضـية على الجاحدين منهم والمعاندين، وشـملت دراسـاته ميدان الفن والإسلام ومن تآليفه نذكر:

أفات الرســم ووســائل مكافحتها – المطبوع ســنة ١٩٢٦. وهو دراســة عميقة تقنية فى الوســائل الفيزيائية والكيميائية المتبعة لصيانة الآثار الفنية، وكيفية المحافظة على القماش والرقع من الاندثار.

- حياة الرسـول محمد ﷺ سـاعده فى تأليفه سـليمان بن إبراهيم الجزائرى – طبع بالفرنسـية والانجليزية. وهو كتاب مهم مزدان بلوحات زخرفية للفنان الجزائرى العالمى محمد راسم – ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود، محمد عبد الحليم محمود.
- حياة العرب – بالفرنسية.
- الحج إلى بيت الله الحرام – وهى رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج صدر بعد وفاته.
- حياة الصحراء.
- أشعة من نور الإسلام – رسالة طبعت بالعربية.
- الشرق فى نظر الغرب.

٩- عبد الكريم جرمانوس الرحالة المجرى المسلم

وهذا رحالة آخر تعلق قلبه بالإسلام والأدب العربى، هو عبد الكريم جرمانوس، المولود فى بودابست بالمجر يوم ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤م تابع دراسته سنة ١٩٠٥م فى جامعتى فيينا بالنمسا واسطنبول بتركيا. وكان به ميل إلى معرفة تاريخ الشرق الأدنى ولغاته.. وفى لندن انكب ردحا من الزمن على دراسة النصوص التركية القديمة فى المتحف البريطانى وتم تعيينه سنة ١٩١٢ استاذا لتاريخ الفكر الإسلامى واللغتين العربية والتركية فى أكاديمية بودابست للدراسات الشرقية.. وانتخب أمينا عاما لنادى القلم المجرى سنة ١٩٢٦م وعضوا فى المجمع الإيطالى سنة ١٩٣٥م.. وذهب إلى القاهرة ليكمل تحصيله وتخرج من جامعة الأزهر.. واختير عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٦م وعضوا عاملا فى النادى المصرى – وعضوا فى معهد الأبحاث الشرقية بلندن سنة ١٩٧٢م، وعضوا بأكاديمية علوم البحر الأبيض المتوسط الإيطالية.

كان يجيد اللغة الألمانية والانجليزية والفرنسية والتركية والفارسية والأوردية والعربية.

بدعوة من شاعر الهند طاغور ذهب إلى الهند وعين فيها استاذا للحضارة فى جامعات دلهى ولاهور وحيدراباد ما بين (١٩٢٩ – ١٩٣٢).. وأثناء اقامته بالهند ألف كتابه (الحركات الحديثة فى الإسلام) سنة ١٩٣٠م. تحدث فيه بإسلوب صريح جرئ عن أمجاد الإسلام ومحن المسلمين والنهضة الإسلامية الحديثة التى دعا إليها المصلحون المخلصون عندما رأوا تأخر المسلمين والعرب وتقدم الغرب – وأحدث صدور كتابه ردود فعل إيجابية فى الشرق والغرب ولفت إليه أنظار كبار المفكرين فى العالم، من ضمنهم فيلسوف باكستان محمد اقبال الذى أعجب بغيرة عبد الكريم جرمانوس على الإسلام ودفاعه عنه، وتفاؤله فى كتابه "المستقبل لهذا الدين"، مما دفعه للتعرف عليه وربط أواصر الصداقة معه.

وكان الفيلسوف محمد اقبال شعلة نشاط يتحرق شوقا وحنانا لزيارة البقاع المقدسة، وقال يوما وهو يخاطب جرمانوس فى هذا الصدد: "يجب أن تشرق شمس الإسلام من مكة مرة ثانية". وقد نظم عدة أبيات شعرية رائعة يبث فيها وجده وشوقه لزيارة البيت الحرام، انشدها على مسامع جرمانوس ومنها قوله: "إن جسمى ريحانة من رياض الجنة الأرضية كشمير، والقلب منبته بلد الله الحرام، وأفانين الكلام من ألحان شهرزاد". ومنها قوله من ديوان "ارمغان حجاز" (يعنى هدية الحجاز) أرض الإسلام الأولى: "إنى أتساءل هل للنعمة المفقودة من رجعة لا أدرى؟ هل أجد بعد اليوم نسيم الريح التى تهب من البطحاء فى أرض الحرم؟.

اسلامه

كان تعلق قلب محمد اقبال الشديد بالحرم الشريف وحبه القوى لهذا البلد الأمين، الذى أشرقت منه أنوار الهداية الربانية على الأرض لانقاذ البشرية من ظلماتها وجهلها على يد محمد رسول الله خير البرية، هوأحد الأسباب الرئيسية التى دفعت عبد الكريم جرمانوس إلى إعلان اسلامه فى المسجد الكبير بدلهى بالهند.. وعن كيفية اسلامه قال جرمانوس؛: "إن الإسلام هو الدين الوحيد كما جاء فى قوله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام".

والإسلام هو دين الفطرة أى الدين الذى يجد الإنسان نفسه عليه بفطرته.. والإسلام هو الدين الوحيد الخالى من الرموز والذى لا يضـــع أى وســـيط بين العبد والرب – لقد قرأت كثيراً فى علم الأديان المقارن ولم أترك دينا ســماويا أو وضــعيا متطورا أو بدائيا إلا وقد تغلغلت فيه وتأملته طويلا. وظهرت لى جميع الاديان متكلفة، مليئة بالرموز والأســـاطير والتلفيقات التى يأخذها اتباعها كعقائد جامدة لا ســـبيل إلى الشـــك فيها مع انها فى الحقيقة خرافات لا تصمد أمام العقل، ولذلك فهى بالتأكيد إضافات أو تشويهات لحقت بالأديان السماوية فيما عدا الإسلام فهو خال تماما من الإضافات والتشويهات والعقائد التى لا يقبلها العقل.. وهذا دليل على أنه الدين الصحيح أو دين الأديان أو ذروة اكتمال الفكر الدينى لدى الإنسان فإذا أضفت إلى ذلك معجزة القرآن الذى لا يدانيه كتاب آخر فى عطائه واتساقه، وسيرة حياة محمد وكفاحه وأخلاقه تبدد أى شك فى أن هذا هو الدين الصحيح المنزل من السماء. ثم زاد قائلاً: وفى اعتقادى أن أى إنسان يدرس الإسلام دراسة غير متحيزة لابد أن يعتنقه".

ويقول صديقه وعارف فضله د. محمد رجب البيومى عن تدينه ومواهبه: (كان الدكتور عبد الكريم جرمانوس مسلما عظيما حقا، لأنه رحمه الله درس الإسلام دراسة مقارنة بصيرة قبل أن يعتنقه حتى إذا أشرق نور الحق فى قلبه هام به حبا.. وفاخر بانتسـابه إليه.. وأخذ يحفظ آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسـول ﷺ فى شـغف وإكبار.. لقد كانت كتب التفســير القرآنى العربية أحب الكتب إليه.. وحين انتقل رحمه الله إلى الدار الآخرة حزن عليه عارفو فضله من مؤيدين ومعارضين إذ قدروا فيه مواهبه الكبيرة النادرة.. وتحصيله الدائب الملح وهو تحصيل كاد يقرب من حد الاعجاز.. إذ ما تقول فى شـيخ قارب المائة من الأعوام وهو لا يفارق القرطاس والقلم والكتاب إلى ريثما يقضــى ضـروريات حياته، فإذا قابل إصـدقاءه فالحديث عما يتضـمن الكتاب والقرطاس. وما تقول فى شيخ يؤلف بلغات عدة فيقرؤه الناس فى الشرق والغرب معجبين وهو يُعد رحالة منقطع النظير لم تثنه الشيخوخة، عن أن يطير فى الجو أو يرحل فى البحر حتى لكأن القارات الخمس مدينة واحدة ذات دروب يقطعها الشـيخ دربا دربا فى سهولة ميسرة).

يعترف الحاج جرمانوس أن معجزة القرآن الكريم حولت الناس من الضـــلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور، حتى أصـبحت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ويظل القرآن الكريم هذا الكتاب المقدس الذى لا يزال وبعد قرابة ألف وأربعمائة عام – يهز بآياته الكريمة كل ســـامعيه وحتى من لا يفهمون العربية يهز وجدانهم لسـماعه.. وقد أصـبحت هذه الكلمات المقدسـة هى العبادة والابتهال والسـلوى من الأحزان وعماد العلوم للملايين من البشر.

ويؤكد الحاج جرمانوس أن جوهر الدين هو المعرفة وبدونها لا يمكن أن يعرف الإســـلام ربه ويؤدى واجبه الدينى.

وتحدث الحاج جرمانوس فى بعض مقالاته عن العادات والتقاليد الدينية التى كان يمارســـها العرب فى الحرم المكى فى عهد الجاهلية وقال: (كانوا فى تلك العصـــور، يقدرون الأشـــخاص الذين ذاع صـــيتهم نتيجة لمميزات جسـدية او عقلية، فكانوا يطوفون حولهم سـبع مرات، وفى أيام الوثنية أيضـاً كانوا يطوفون بالحجر الأسـود فى الكعبة الشريفة فى مكة سبع مرات فى الشهر الحرام تعبيرا عن احترامهم،

وفى حالة انقطاع المطر كانوا يبتهلون إلى نجوم السماء أن تبارك أراضيهم الجافة بهطول الأمطار. وباستثناء هذه الشعائر فإن العرب فى الجاهلية لم يمارسوا أى نوع من أنواع الصلاة المنتظمة قط. وقد فرضت الصلاة كأحد أهم أركان الإسلام ولازالت حتى يومنا هذا واحدة من أهم مظاهر الإيمان بالعقيدة، وإذا كانت الصلاة تقوم على التلفظ بكلمات استهلال معينة، فإن لب الصلاة ليس فى الالقاء الآلى للنصوص بدون ادراك لمعانى الكلمات، وليست الصلاة مجرد تحريك للفم واللسان، وإنما جوهر الصلاة هو فى التفهم التام والكامل لكل كلمة، ففى الادراك الكامل للكلمات والاحساس بمعانيها تكمن القوة التى توحى للمؤمن بواجباته..)

رحلته إلى مكة المكرمة

منذ أن قال له محمد اقبال: إن الإسلام يجب أن تشرق شمسه من جديد فى مكة المكرمة وهو يتطلع بشوق وتلهف إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة، فتشاء الأقدار الإلهية أن تجعل حلم هذا المجرى المسلم حقيقة واقعية ملموسة لا خيالا فيقوم بزيارة مكة المكرمة ويؤدى مناسك الحج فى جو دينى رائع مع الحجاج المسلمين.. كله خشوع وابتهال. وبهذه المناسبة الدينية ألف رحلته إلى الحج المشهورة (الله أكبر) التى ترجمت إلى عدة لغات فى العالم ونالت اقبالا منقطع النظير من طرف القراء وفى إحدى فصول هذا الكتاب يصف جرمانوس شعوره الدينى الفياض فى مكة المكرمة ويقول: (أُذن الفجر، الله أكبر.. فنهضت من نومى وسمعت حركة رفاقى فى الغرفة إذ يتهيئون للصلاة فتوضأت وصليت ركعتين، ثم وصلت إلى الكعبة المقدسة، وفى تلك الدقيقة انفتح أمامى منظر سماوى إذ شاهدت هذه البناية العظيمة تكسوها شقق الديباج، وحولها من النساء والرجال أمواج ونشيد (الله أكبر) هو الرباط الذى ينتظمنا جميعا، ويوحى للدنيا شعورا جديدا، يخلقنا خلقا جديدا، فتحولت من إنسان دنيوى إلى مؤمن مفكر استشعر عظمة الله ورفض الحياة، ووقفت أقول لنفسى: كم مرة قرأت وصف هذا البيت، وكم صورة رأيتها له، وكم عرفت مقاييسه وعرضه وارتفاعه؟ ولكن الواقع أن كل ما قرأته لم يكن ليمت بصلة إلى تلك المشاهد التى أراها..

فالكعبة الحقيقية ليست مادة تقاس بمقياس إنما هى رمز معان دينية روحية عليا، لا يكاد المرء يمثل أمامها حتى تتجلى عن عينيه غشاوة الغفلة عن أكبر معنى من معانى الوجود وهو وحدانية الله تعالى وسمو العالم الروحى على العالم المادى.

إن مشهد وطواف حجاج بيت الله الحرام حول الكعبة المشرفة وهم يذرفون دموع التوبة والندم.. وقلوبهم منكسرة حزينة.. وعيونهم باكية شاخصة إلى السماء يرددون لبيك اللهم لبيك وحدك لا شريك لك".. أوحى إلى جرمانوس أن يكتب فى كتابه المذكور فصولا وصفية حية عن هذا الطواف الدينى عبر فيها عما يختلج فى صدره من إحساس دينى عميق ويقول فى إحدى تلك الفصول: "رفعت يدى إلى السماء مكررا ما يقول المطوف وأخذت أستعرض أمواج الطائفين، هؤلاء من جاوة تقدموا وعيونهم ملأى بالعبرة، وهؤلاء قوم (تتاريون) شقوا الطريق بعضلاتهم القوية،

وأولئك الصــينيون تبدو عيونهم مثل اللوز، وقد اظهرت ملامحهم براءة الطفولة، وطهارتها ووراءهم الأفغان بلحاهم الطويلة وقد جروا حول الطواف كأنهم غزاة فى ميدانهم، وخلفهم الهنود يكررون دعاء المطوف حرفا بحرف متكبدين صابرين، وهنالك النساء فى اكسيتهن البيض يزدحمن فى محاذرة، فليس فى هذه الساعة رجال ونساء ولكن أرواح مؤمنة متدينة تستوهب من الله الرحمة والغفران فى هذه الساعات الفاضلة.

مؤلفاته

بلغت تآليفه ما بين بحث ومقالة وكتاب حوالى (١٣٢) شـــملت ميدان اللغة والأدب والإســـلام والتاريخ نذكر بعضا منها كما يلى:

- الأدب العثمانى (١٩٠٦) بالألمانية.
- تاريخ الجامعات فى المجر بعد الفتح التركى.
- الحركات الحديثة فى الإسلام (١٩٣٠).
- الأدب التركى الحديث (١٩٣١).
- الله أكبر – وهى رحلته إلى مكة المكرمة.
- شوامخ الأدب العربى.
- دراسات فى التركيبات اللغوية العربية.
- ابن الرومى (١٩٥٧).
- نهضة العروبة.
- الأدب العربى الحديث وأدباؤه المعاصرون (١٩٧٩).

تُوفى رحمه الله عن ســـن يناهز ٩٥ ســـنة ويعتبر من الرحالة الأوروبيين المســـلمين الذين جندوا أقلامهم ومواهبهم للتعريف بعبقرية الفكر الإســـلامى وبمزايا الأدب العربى ويصـــدق فيه ما قاله المرحوم الكاتب الكبير محمود تيمور، "إن رحلة هذا المستشرق الغربى كانت رحلة من أجل دراسة الإسلام، وهى تظهر أن عبد الكريم جرمانوس كان فى أثناء هذه الرحلة من العلماء الذين خدموا الإسلام وخدموا الثقافة الإسلامية.

١٠- رحلة محمد أسد المستشرق النمساوى

الأجانب الذين قاموا برحلات إلى بلاد الجزيرة العربية فى مختلف العصـــور للبحث عن الإيمان كثيرون.. منهم من اعتنق الإسلام بعد دراسة واقتناع عن صدق طوية ظاهرا وباطنا.. ومنهم من بقى على دينه وملته يخدم الاستعمار والصهيونية عن طريق بعث التقارير والمذكرات السياسية السرية من أجل بلوغ مصلحته الشخصية من مال وجاه وشهرة

ومن أولئك الرحالة الأجانب الذين زاروا بلاد الجزيرة العربية واعتنقوا الإسلام ليوبولد فايس الذى سمى نفسه (محمد أسـد) وهو يهودى العرق نمسـاوى الأصـل ولد فى فيينا بالنمسـا سـنة ١٩٠٠م، وكان والده يعمل محاميا وحـاخامـا من أكبر أغنيـاء اليهود، كثير البحث فى موضـــوعـات ما وراء الطبيعة مع رجال الدين والفكر، وكان يؤهل ابنه ليكون إما طبيبا أو حاخاما مثله، لكن الطفل كانت به ميولا منذ الصـــبا إلى حب المغامرات، وقد عاش طفولته فى المدينة البولونية (لو) المعروفة بـــ (لمبرج) التى كانت تابعة انذاك للنمسا، وقام فى هذه السن المبكرة من طفولته برحلات اســـتطلاعية مع والده إلى فينا وبريت وجبال الألب وغابات بوهيميا، وبحر الشـــمال وبحر البلطيق، ســاعدته على تفتح ذهنه وغرســت فى نفســه غريزة البحث والملاحظة وعند بلوغة الثالثة عشــرة من عمره استطاع ان يتعلم العبرانية ويفهم الآرامية مما سهل عليه فيما بعد تعلم اللغة العربية.

درس العهد القديم ونصـوص التلمود وشـروحهما والفروق والاختلافات القائمة بين تلمود بابل وتلمود القدس.. وخلال دراسته للديانة اليهودية لاحظ ان الذى يمثله العهد القديم والتلمود يهتمان بالطقوس الدينية المفروضة على شـعب الله المختار. وباله مشـغول بصـورة غريبة بمصـير أمة واحدة معينة هى أمة اليهود، وفى هذا يقول: "إن تأثير تلك الدراسات المبكرة الى قمت بها كان عكس ما قصد بها، إذ انها ابعدتنى عن دين آبائى وأجدادى بدلا من ان تقربنى إليه".

وظل ينظر إلى الديانة اليهودية بأنها سلسلة من الأنظمة والأصـول التقليدية الجامدة ومن أجل ذلك لم تسـتهوه هذه الديانة وابتعد عنها ولم يشعر بأى ميل وتجاوب نحوها وصار يبحث عن دين جديد.

لم يكمل دراســـتـه الجامعية وجذبته مغامرات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة وأدوا فريضـــة الحج، وتركوا للأجيـال القـادمـة رحلاتهم المثيرة إلى الجزيرة العربيـة دونوا فيهـا مشـــاهداتهم وملاحظـاتهم عن الجزيرة، ولبلوغه إلى هذا الهدف قرر دراسة الإسلام دراسة عميقة حتى يستطيع الدخول إلى الأراضى المقدسة. وعن المصــادر التى اعتمد عليها فى دراسـته الإسـلامية قال: "لقد درسـت القرآن الكريم وحديث الرسـول عليه السلام.. لقد درست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام وكثيراً مما كتب عنه أو كتب فى الرد عليه.. وقد قضيت أكثر من خمس سـنوات فى الحجاز ونجد – وأكثر ذلك فى المدينة – ليطمئن قلبى بشـئ من البيئة الأصـلية للدين الذى قام النبى بالدعوة إليه فيها. وبما أن الحجاز ملتقى المســلمين من جميع الأقطار تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التى تسود العالم الإسلامى فى أيامنا هذه.. هذه الدراسات والمقارنات خلفت فى العقيدة الراسخة أن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التى خلفها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر).

وكان يتطلع كثيراً إلى ما يطمع إليه شــباب عصـــره وهو العمل والمغامرة وكل ما يثير النفس، وســعيا وراء بلوغه هذه الغابات مل الدراســات الجامعية وانقطع عنها وبدأ يبحث عن فرص العمل والمجد والشـهرة، وشــارك فى كتـابـة ســـينـاريو عدة أفلام ســـينمـائيـة فى بداية حياته العملية، وعمل كناقل أخبار بالتليفون إلى المقاطعات، واشتهر أمره بإذاعة خبر حلول زوجة ستالين بأوروبا فى مهمة اجتماعية سرية،

ثم عمل صـــحافياً فى القدس وأصـــبح مراســـلا لصـــحيفة (فرانكفورتر الجماين زيتونج) ولبعض الصـــحف الأوروبية، وتوجه إلى الهند، واجتمع بـالفيلســـوف الإســـلامى محمد اقبال الذى حثه على البقاء فى باكســـتان لمسـاعدته فى تأسـيس دولة باكسـتان الإسـلامية، التى كانت كما – يقول محمد أسـد – (حلما يراود مخيلة محمد اقبال)، وعندما انشـئت دولة باكسـتان دعته الحكومة إلى تنظيم دائرة احياء الإسـلام لتشـاد عليها أسـس الدول الحديثة.

أسس فى باكستان مجلة (عرفات)، وتولى رئاسة معهد الدراسات الإسلامية فى لاهور، وعين وزيرا مفوضا لباكستان لدى الأمم المتحدة، وعينته الحكومة الباكستانية رئيسا لقسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية بعد ما قدم اسـتقالته من وزارة الخارجية سـنة ١٩٥٢، وتفرغ للبحث والتأليف وتزوج بفتاة أمريكية اعتنقت الإسـلام، وعاش ردحا من الزمن فى مدينة طنجة بالمغرب فى أواخر حياته ثم انتقل منها للعيش فى سويسرا.

وصف رحلته إلى مكة المكرمة بقلمه

أعلن اسلامه فى مكة المكرمة سنة ١٩٢٧، وحظى بمقابلة ورضى الملك الراحل عبد العزيز آل سعود، الذى طلب منه أن يؤذن له فى القيام برحلات استطلاعية لشبه الجزيرة العربية فأذن له فى ذلك.

أدى محمد اسد فريضة الحج سنة ١٩٢٧م بصحبة زوجته على متن باخرة كانت تنقل حجاج أفريقيا الشمالية من مصر إلى جزيرة العرب مرورا بالبحر الأحمر عبر خليج السويس، وقد رست الباخرة فى ميناء جدة ونزل منها محمد اسد وجال فى أسواق المدينة متفقدا أحوالها للتعرف على بضاعتها وتجارتها ويصف مشاهدته فى جدة ويقول: "عندما مشـيت لأول مرة فى سـوق جدة ورأيت مزيجا سـائبا وتكرارا غير منتظم لما يلاحظه المرء فى أماكن أخرى من الشـرق على جانب أعظم من الكمال، كانت السـوق مسـقوفة بالألواح وقماش الأكياس وقاية من الحر اللاهب، ومن بين الثقوب والسقوف كانت أشـعة الشـمس الأنيسـة تنسـاب فتظلى نورا لغسـق بنور الذهب، مطابخ مكشوفة أمامها كان الأولاد يشوون قطعا من اللحم على أسياخ فوق فحم متقد، ومقاه فيها الأوانى النحاسية المصـقولة والمقاعد المصـنوعة من جذوع النخل، وحوانيت صـغيرة ملأى بالأثواب الأوروبية والشـرقية. فكان المكان حرارة رطبة ورائحة سمك وغبار فى كل مكان، جماهير من الناس، - الحجاج – لا عد لهم ولا حصر فى ثياب الاحرام".

ومن جدة يذهب إلى مكة المكرمة راكبا على متن سـيارة وقت زمانه (الهوادج) تسـير فى موكب مهيب من الحجاج من مختلف الأجناس، كان الرجال يهللون ويسبحون ويكبرون، والنساء يصحن ويزغردن. ويسجل هذه الرحلة ويقول عنها: "كان الحجاج يرددون (لبيك اللهم لبيك) أو تنشـد فلاحة مصـرية نشـيدا فى مدح الرسـول، وعندئذ تطلق فلاحة أخرى صيحة سرور تدعى فى مصر (زغروطة) وفى جزيرة العرب (غطرفة) تطلقها نساء العرب فى جميع المناسبات البهيجة مثل الزفاف والولادة والطهور والحفلات الدينية، وطبعا الحج".

وعند بزوغ خيوط الفجر ظهرت للقافلة أول بيوت مكة المكرمة وكانت تشـبه بيوت جدة فى بنائها ولونها، ويتحدث عن تلك البيوت ويقول: (كانت البيوت تشـبه بيوت جدة بنوافذها البارزة وشـرفاتها المحصـورة، ولكن الحجارة التى كانت مبنية منها، كان يبدو أنها أثقل وزنا وأضخم جسما من حجارة جدة المرجانية الخفيفة اللون).

ثم ينقل لنا صورا حية ناطقة عن الحجاج ويقول عنهم: "فقد كانت الجماهير غفيرة جدا فى الشوارع بحجاج لا عد لهم ولا حصر بلباس الاحرام، وآخرون ارتدوا مؤقتا ثيابهم العادية – ثيابا من جميع أرجاء العالم الإسلامى، وسقاة منحنون فوق قربهم أو تحت ذات أجراس الرنانة كاز قديمة تستخدم بدلا من الدلو وسقائى حمير من حميرهم ذات الاجراس الرنانة وسرجها البهيجة المبهرجة، ومطايا قادمة من الجهة المقابلة محملة بالهوادج الفارغة تصيح بنغمات مختلفة. ولقد كان هنالك هرج ومرج وضوضاء عظيمة فى الشوارع الضيقة بحيث يخيل إليك أن الحج لم يكن يحدث سنويا منذ قرون، بل مفاجأة لم يكن الناس قد اعدوا لها عدتها ولم تعد قافلتها قافلة بمعنى الكلمة بل خليطا مضطربا من الابل والهوادج والأمتعة والحجاج وسائقى الجمال والضجيج".

تجول محمد اسد فى شوارع مكة المكرمة والحرم المكى ورأى هذه المدينة مكتظة بالحجاج المسلمين من مختلف الأجناس اتوا إليها من شتى بقاع العالم، وينقل لنا ارتساماته عن المسجد الحرام ويقول: "خرجت إلى المسجد الحرام.. فمشينا خلال الشوارع المكتظة الصاخبة، ومررنا بحوانيت القصابين وقد علقت أمامها صفوف الخرفان المسلوقة،وباعة الخضار وقد نشروا بضاعتهم فوق حصائر من قش فرشت على الأرض". وفى الحرم المكى رأى معرضاً كبيراً تعرض فيه جميع نماذج أنواع البشر الساكنين فى الكرة الأرضية وهم يلبسون لباسهم الوطنى التقليدى، وقد رسم لباس تقاليد كل جنس وما يمتاز به الشخص من خصال وشيم وخاصة فى عبارات وصفية حية تجعلنا نعيش مع هؤلاء الأجناس ونتعرف على هواية كل واحد منهم من خلال زيه وملامحه الخاصة وفى ذلك يقول:

(وكان هناك أيضاً أناس من جميع الأجناس والهيئات، بعضهم يلبسون العمائم وبعضهم مكشوفوا الرؤوس، بعضهم يمشون صامتين وقد احنوا رؤوسهم. ولربما امسكوا المسابح بأيديهم وغيرهم يهرولون بخفة بين الجماهير.. صوماليون ذوو أجسام سمراء تلمع كالنحاس من بين ثنايا أثوابهم الشبيهة بالشملات التى كان يشتمل بها الرومان واليونان.. وعرب ذوو قامات مائلة ووجوه ضيقة وسمات شماء.. وتركستانيون مكتنزون غلاظ الاطراف من بخارى، ظلوا يرتدون رغم هذا القيظ الشديد فى مكة قفاطينهم المصرية وجزماتهم الجلدية الطويلة التى تبلغ الركبتين.. وفتيات من جاوا لوزيات العيون غير محتجبات.. ومراكشيون يخطرون ببطء واعتزاز فى برانسهم البيضاء.. ومكيون بأثوابهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة بالطاقيات الصغيرة.. وفلاحون مصريون على وجوههم أثار الحماسة.. وهنود بأثوابهم البيضاء وعيونهم السوداء تتطلع من تحت عمامات ضخمة بلون الثلج.. وهنديات تغطى البستهن البيضاء أجسامهن جميعاً فلا يمكن للناظر أن ينفذ إليها.. وزنوج ضخام من تومبوكتوا وداهومى يرتدون ألبستهم النيلية الزرقاء وطاقياتهم الحمراء.. وسيدات صينيات رقيقات البنية كالفراشات المطرزة يمشين برشاقة على أقدام صغيرة تشبه حوافر الغزلان.. هرج ومرج وضجيج وعجيج من كل جانب بحيث تشعر أنك وسط أمواج منكسرة وتستطيع أن ترسم بعض خطوطها ولا تستطيع أن تأخذ لها أبداً صورة كاملة – كان كل شئ يطفو وسط ازيز من لغات لا تحصى وحركات سريعة إلى أن وجدنا أنفسنا فجأة أمام إحدى بوابات الحرم).

ولأول مرة فى حياته تظهر له فى حلة مهيبة الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين فى العالم وأمنية الحجاج التائبين وبسمة المذنبين، وفرحة البكائين، وسرور المحزونين، فيخفق قلبه فيقول عنها: ("هذه اذن الكعبة" التى كانت ولا تزال محط أشواق الملايين الكثيرة من الناس قرونا عديدة، إن حجاجا لا يحصون ولا يعدون قد بذلوا تضحيات عظيمة عبر العصور للوصول إلى هذه المحجة، فمات الكثيرون على الطريق وبلغها الكثيرون منهم بعد مشقة كبرى، وفى أعينهم جميعا كان ذلك المبنى المربع الصغير ذروة آمالهم وغاية أحلامهم).

وخلال تأدية فريضة الحج مرضت زوجته وتوفيت ودفنها فى مكة المكرمة وحزن على وفاتها حزنا كبيرا.

مؤلفاته

له عدة تآليف مطبوعة أهمها:

(١) فى طريق مكة أو الطريق إلى الإسلام: وهو كتاب رحلاته يسجل فيه سيرته الذاتية وقصة دخوله فى الإسلام، وتجاربه ومغامراته فى بلاد الجزيرة العربية، وجولاته عبر مختلف بلدان العالم، يقع فى نحو ٥٠٠ صفحة وترجم لأهميته إلى بعض لغات العالم.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق: دراسة مختصرة شاملة عن الإسلام حلل فيها المؤلف الإسلام تحليلا علميا عجيبا دل على معرفته بأمور الدين وشؤون المسلمين فى العالم. حيث تمكن أن يطلع على حقيقة الدين الإسلامى وسر قوته وتأخر المسلمين، مما جعله يؤمن بأفضلية الإسلام على سائر الديانات والفلسفات والنظم المدنية السائدة فى عصرنا.

(٣) منهاج الإسلام فى الحكم: وهو دراسة قيمة يعرف موضوعها من عنوانها لا تقل أهمية عن الدراسة الأولى.

(٤) ترجمة القرآن الكريم وصحيح البخارى: ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الانجليزية.

مؤلفات عن مكة المكرمة

مؤلفات عن مكة المكرمة

إن تعلق قلوب المسلمين فى العالم بمكة المكرمة هذه المدينة المقدسة عبر مختلف العصور وحبهم القوى لها، وإيمانهم بقدسيتها وفضلها، وإبداء رغبتهم فى التمتع بمناسكها الدينية فى موسم الحج عندماتشدإليها الرحال، ألهب مخيلة الشعراء والأدباء والعلماء، فعبروا عن مشاعرهم الجياشة نحوها عن طريق الشعر أو النثر كل فى نطاق فنه وتخصصه.

وظهرت إلى حيز الوجود فى مختلف الأزمنة مؤلفات قيّمة فى الرحلات والسير والتراجم والتاريخ ألفها أصحابها عن مكة المكرمة، ذاكرين فيها أخبارها وتاريخها وأعلامها وأمراءها وحكامها ومشاهيرها، وكانت كتب السيرة النبوية مصدراً أساسياً مهماً لا غنى عنها لكل من كتب فى تاريخ مكة المكرمة.

ونظراً لغزارة هذه التآليف عن مكة المكرمة رأينا بيان عناوينها والإشارة إلى مؤلفيها مرتبة ترتيباً على حروف المعجم.

حرف الألف:

- إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاث والبيت العتيق – ألفه محمد بن إسحاق الخوارزمى المعروف بشمس الدين المتوفى عام ٨٢٧ هـ ١٤٢٤م / الحرم المكى.
- أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام – ألفه محمد بن أحمد الأسد المتوفى عام ١٠٦٦هـ/الحرم المكى.
- أخبار مكة – للواقدى محمد بن عمر(١٣٠ هـ / ٢٠٧هـ - ٧٤٧ / ٨٢٣م).
- أعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام – لمحمد صالح الشيبى وهو من سدنة بيت الله الحرام، ويوجد ضمن مخطوطات الدهلوى بالحرم المكى.
- افتخار الحرمين المحروسين مكة والمدينة – مجهول المؤلف يوجد بخزانة كمبردج.
- أخبار الورى بأخبار أم القرى – لمحمد بن عمر (٨٠٩ – ٩١٧ هـ - ١٤٥٥ / ١٥١١م) فى مجلدين،سجل فيه الحوادث التاريخية لمكة منذ سنة ٨٧٢ هـ إلى سنة وفاته (٩١٧ هـ).
- أفضل القرى لقراء أم القرى – فى تاريخ مكة وهو مجهول المؤلف يوجد بمكتبة كمبردج.
- أخبار مكة – لابن شبه المتوفى بمدينة سامراء عام (٢٦٤ هـ /٨٧٧م).
- إشراف مكة وأمراؤها – مجهول المؤلف فى نحو ٢٥٠ صفحة.
- إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام – للكرمى بن يوسف (١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م).
- ابتهاج الإنسان والزمن فى الإحسان الواصل للحرمين من اليمن لمولانا الوزير العدل الباشا حسن – النهروانى محمد (بعد ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م).

- الأحوال السياسية والاقتصادية لمكة فى العصر المملوكى للمستشرق مرينار موتيل.
- اتحاف فضلاء الزمن فى تاريخ مكة المكرمة – مجهول المؤلف حققه العلامة حمد الجاسر.
- الأخبار المستفادة فيمن ولى مكة المكرمة من آل قتادة – لصلاح الدين أبى المحاسن المعروف بابن ظهيرة المكى (ت ٩٤٠ هـ).
- الإشارة والأعلام ببناء الكعبة البيت الحرام – للشيخ تقى الدين أحمد المقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ.
- أخبار بناء الكعبة – للمدائنى على بن محمد (١٣٥ هـ - ٢٢٥هـ).
- الأساطين فى حج السلاطين – لعبد القادر الطبرى (٩٧٦هـ – ١٠٣٣هـ).
- أعظم القربة فى تعظيم الكعبة – لبدر الدين محمد سبط الشرينلالى المتوفى عام ١١٨٢هـ.
- الإلمام فى فضائل بيت الله الحرام – لابن رجب زين الدين عبدالرحمن الحنبلى (٧٠٦هـ – ٧٩٥هـ).
- أساطين الشعائر الإسلامية وفضائل السلاطين والمشاعر الحرمية – لمحب الدين عبدالقادر.
- الأقوال المعلمة فى وقوع الكعبة المعظمة – لمحب الدين عبدالقادر الطبرى.
- أخبار أمراء مكة – لابن شبه البصرى البغدادى (١٧٣ هـ / ٢٦٢هـ).
- الأعلام لفضائل بيت الله الحرام – لقارى الهروى على بن سلطان المتوفى عام ١٠٠٤هـ.
- أسنى المواهب والفتوح لعمارة المقام الإبراهيمى وباب الكعبة وسقفها والسطوح – لابن علان المكى (٩٩٦ هـ / ١٠٥٧هـ).
- أعلام سائر الأنام بقضية السيل الذى سقطت من بيت الله الحرام – لنفس المؤلف المذكور.
- أحكام الأساس فى قوله تعالى إن أول بيت وضع للناس – للكرمى مرعى بن يوسف المقدسى (ت ١٠٣٣هـ).
- أخبار مكة لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى المتوفى فى العقد الخامس من القرن الثالث الهجرى، وكتابه هذا أشهر تأريخ لمكة.
- أخبار مكة للإمام أبى عبد الله محمد بن اسحاق الكنانى الفاكهى المتوفى حول (٢٨٠هـ).
- إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، لعبد الكريم بن محب الدين الشهير بالقطبى المتوفى سنة ١٠١٤هـ.
- الأقوال المعلمة فى وقوع الكعبة المعظمة – لعلى عبد القادر بن محمد الطبرى الحسينى الشافعى
- اتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد (محمد بن محمد بن محمد بن محمد) الشهير بابن فهد القرشى.
- أم القرى، للشيخ عبد الرحمن الكواكبى الحلبى.
- أودية مكة، للأستاذ عاتق بن غيث البلادى.
- الأرج المسكى فى تأريخ الحرم المكى، للعالم الناثر الناظم عبد القادر الطبرى الحسينى (٩٧٦ – ١٠٣٣هـ).
- افادة الأنام فى أخبار البلد الحرام، للشيخ عبد الله بن غازى، مخطوط فى مكتبة الحرم.

- الأحوال السياسية والاقتصادية لمكة فى العصر المملوكى للمستشرق مرينار دمورتيل.
- الأقوال المعلمة فى وقوع الكعبة المعظمة ـــــ لعلى عبد القادر بن محمد الطبرى الحسـينى الشـافعى تقدمت ترجمته.

حرف الباء:

- البيان والإعلام فى توجيه فرضية عمارة الساقط من البيت لسلطان الإسلام – لابن علان المكى.
- البشارة الهنية بأن الطاعون لا يدخل مكة والمدينة – لخطاب الرعينى (٩٠٢ هـ ـ ٩٥٤هـ).
- بلوغ القرى فى ذيل اتحاف أخبار أم القرى – لعبدالعزيز بن فهد المكى المتوفى عام ٩٢٠هـ.
- بناء الكعبة – ثلاثة تواريخ ألفها ابن علان محمد بن على (٩٧٦ – ١٠٥٧هـ / ١٥٨٨ ـ ١٦٤٧م).
- البحر العميق فى مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق ـ لابن الضياء المكى (ت ٨٥٤هـ).
- بناء الكعبة وأخبارها ـ لليزيدى إبراهيم بن يحيى من بصرة العراق (٢٢٥ هـ / ٨٤٠م).
- بهجة الزمان بعمارة الحرمين بملوك آل عثمان ــــ لجار الله محب الدين القرشى الشافعى المعروف بابن فهد (ت ٩٥٤ هـ).
- بناء الكعبة ـ لإبراهيم بن أبى محمد اليزيدى (ت ٢٢٥هـ).
- بهجة الدماثة فيما ورد فى فضل المساجد الثلاثة ـ لابن فهد المكى.
- بغية الراغبين وقوة عين أهل البلد الأمين ـ لعبد الله الزواوى (١٢٦٦هـ ـ ١٣٤٣هـ ـ ١٨٥١م ـ ١٩٢٤م).
- بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، للأستاذ أحمد بن عبد المغفور عطار، طبع سنة (١٣٩٨هـ).

حرف التاء:

- تاريخ مكة ـ لعثمان بن ساج (١٨٠هـ / ٧٩٦ م).
- تاريخ فى إشراف وأمراء مكة المعظمة ـ لمؤلف مجهول / الحرم المكى.
- تاريخ مكة المكرمة وأخبارها فى الجاهلية والإســلام ــــــ لمحمد بن إســحاق الفاكهى من علماء القرن ١٩ المتوفى عام ١٢٨٥ هـ.
- تاريخ مكة ـ لابن فهد المكى (٨٥٠ هـ ـ ٩٢١هـ).
- تاريخ جسـتنية ــــ لعبد الرحمن بن محمد سـعيد المعروف بجسـتينة (نحو ١٢١٥ هــــ / ١٨٠٠م) دَون فيه حوادث تاريخ مكة وأمرائها.
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المشرفة والقبر الشريف ــــ لابن الضياء المكى (٧٨٩ هــــ / ٨٥٤ هـ ـ ١٣١٧ / ١٤٥٠م).
- تاريخ المدينتين ـ للسخاوى محمد عبدالرحمن المصرى (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ ـ ١٤٢٧ / ١٤٩٧م).
- تاريخ الملوك.. دولة مكة الشرفاء ـ لتقى الدين الفاسى المؤرخ المكى المغربى.

- تاريخ مكة ـ للشيبى محمد بن على (٧٧٩ هـ ـ ٨٣٨هـ).
- تاريخ مكة شرفها الله تعالى وأخبارها وجبالها وأوديتها ـــ للمؤرخ المكى المعروف الأزرقى محمد بن عبد الله المتوفى عام ٢٢٣ هـ.
- تاريخ عمارة المسجد الحرام ـ لنفس المؤلف المذكور.
- تحفة الكرام فى تاريخ مكة والمسجد الحرام ـــ لابن المرتضى محمد بن مهدى الطباطبانى النجفى (١٢١٢ هـ ـ ١٧٩٧م) مخطوط.
- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ــ لديار بكرى (٩٦٦ هــ ـــ ١٥٥٩م) والخمس فى اللغة جمع أخمس وهم سكان الحرم من قريش وهو تاريخ مكة المكرمة فى أحوال أنفس نفيس وهو الرسول (ﷺ)
- تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام ـ ألفه ابن الضياء المكى.
- تراجم بعض أشراف مكة وأمرائها ـ مجهول المؤلف.
- التحفة اللطيفة فى بناء المسجد الحرام والكعبة الشريفة ـــ لمحب الدين محمد عز الدين المعروف بابن فهد المكى.
- تهنئة أهل الإسلام بتجديد بيت الله الحرام ـ للميمونى إبراهيم بن محمد (٩٩١ ـ ١٠٧٩هـ ـ ١٤٢٧/١٤٩٧م).
- التشويق إلى البيت العتيق ـ لجمال الدين محمد بن أحمد الطبرى المكى الشافعى.
- تشويق الحرمين ـ لفضل الله بن القاضى نصير الكسائى.
- تحذير أئمة الإسلام عن تغيير بناء البيت الحرام ـ لابن زياد عبدالرحمن اليمنى.
- تحفة الكرام بأخبار عمارة السقف والباب من البيت الحرام ـ لعلى بن عبدالقادر الطبرى (ت ١٠٧٠هـ).
- تحفة القرى فى فضل القاطنين بأم القرى ـ لعلى بن أبى بكر بن الجمال المكى (١٠٠٢ / ١٠٧٢هـ).
- ترجمة الأعلام فى أخبار بلد الحرام ـ لمحمود عبد الباقى الومى (٩٣٣ ـ ١٠٠٨هـ).
- تشويق الأنام إلى الحج إلى البيت الحرام ـ للمرعى بن يوسف الكرمى المقدسى.
- تمكين المقام فى المسجد الحرام ـ للبوسنوى على بن الحاج الحنفى الشهير بعلى دده (ت ١٠٠٧هـ).
- تفضيل مكة على المدينة ـ لابن القيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ).
- تهييج الغرام على البلد الحرام ـ للفيروز أبادى محمد بن يعقوب (٧٢٩ ـ ٨١٧).
- تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام فى مختصر شفاء الغرام ـ للفاسى تقى الدين.
- تحصيل المرام فى تاريخ البلد الحرام ـ لمحمد بن أحمد تقى الدين الفاسى المغربى الأصل (٧٧٥ هـ / ٨٣٢ هـــ ـ ١٣٧٣ / ١٤٢٩م) وهو مختصر كتابه (العقد الثمين) ولابن فهد بن عمر بن محمد تعليق عليه سماه (ذيل تاريخ مكة) وهو من مخطوطات الدهلوى بالحرم المكى.

- تحصيل المرام فى أخبار البلد الحرام ـ أو (تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام) لمحمد بن أحمد الصباغ المكى (١٢٤٣ هـ / ١٣٢١هـ) بخزانة الحرم المكى.
- تأريخ الكعبة المعظمة، للشيخ حسين با سلامة، المتوفى سنة (١٣٥٦هـ).
- تأريخ مكة، للأستاذ المرحوم أحمد السباعى، وقد صدر فى جزئين.
- التأريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام للأستاذ عبد القدوس الأنصارى.
- تأريخ عمارة الحرم المكى الشريف للأستاذة فوزية بنت حسين بن مطر.
- تأريخ الكعبة، للدكتور على حسنى الخربوطلى.

حرف الجيم:

- الجوهرة الثمينة فى فضل مكة والمدينة ـ مجهول المؤلف ذكرها حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون.
- الجوهرة المنظمة بفضيلة الكعبة المعظمة ـــ لعلى بن عبدالقادر الطبرى الحسنى المكى الشافعى (ت ١٠٧٠هـ).
- جامع أخبار مكة ـ للمؤرخ أبو شامة المزداد بدمشق عام ٥٩٩ هـ.
- الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، للعالم الفاضل جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبى بكر على بن ظهيرة القرشى المخزومى، المتوفى سنة (٩٨٦هـ).
- جداول أمراء مكة وحكامها، للشريف مساعد بن منصور آل عبد الله بن سرور.

حرف الحاء:

- حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحج ـ لأحمد الرشيدى وهو من علماء المغرب (ت ١٠٩٦ هـ) بخزانة الحرم المكى.
- الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة ـ لجلال الدين السيوطى (٨٠٩ هـ) بخزانة كوبنهاجن.
- حرك سواكن الغرام إلى حج بيت الله الحرام ـ للكرمى بن يوسف المتوفى عام ١٦٢٤م.
- حفر بئر زمزم ـ للأخبارى اسحق بن بشر (ت ٢٠٦هـ).
- حمامة البشرى إلى أهل مكة وحلماء أم القرى ـ للمتنبى أحمد القاديانى (ت ١٩٠٨م).

حرف الخاء:

- خلاصة الرسائل فى فضائل مكة ـــ للبرهانبورى محمد بن بار الهندى (١٠٤١هـ/ ١١١٠ هـ ـ ١٦٣١ / ١٦٩٨م).
- الخطط المكية ـ للحضراوى محمد بن سعيد (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م).
- خير القرى فى زيارة أم القرى ـ لأحمد بن عبدالله محمد الطبرى ولد سنة ٦١١هـ وتوفى سنة ٦٩٤هـ.
- خريطة مكة والمشاعر ـ لمحمد زكى فارس طبع بجدة عام ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣هـ.

● خلاصة الكلام (فى بيان أمراء البلد الحرام) لشيخ الإسلام السيد أحمد بن زينى دحلان، المتوفى سنة (١٣٠٤هـ).

حرف الدال:

● الدرة المكللة فى فتوح مكة المشرفة المكملة ـــ لأبى الحسن البكرى الشافى المتوفى عام ٩٥٢هـــ بخزانة كمبردج.

● الدرة المكللة فى فتح مكة المبجلة ـ نظم لمحمد عبدالرحمن (٨٩٩ / ٩٥٢ هـ ـ ١٤٩٣ / ١٥٤٥م).

● الدر الكمين فى ذيل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ـ للمؤرخ المكى ابن فهد، حققه ونشره حمد الجاسر.

● دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ـ للواء محمد صادق المصرى (١٣٨٧ / ١٣٢٠هـ/ ١٨٢٢ ـ ١٩٠٢م).

● الدائرة بين مكة والبلاد ـ لابن فضل العمرى القرشى (٧٠٠ ـ ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ ـ ١٣٤٩هـ).

● درر الحكم فى أسرار مناسك الحج والبيت الحرام ـ رسالة ألفها يونس وهبى الرومى الحنفى.

● دار القلائد فيما يتعلق بزمزم وسقاية العباس من العوائد ـ لابن علان المكى.

حرف الذال:

● الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الملوك ـــ لتقى الدين أحمد المقريزى (ت ٨٤٥هـــ) وهو فى خمسة أجزاء.

حرف الراء:

● رسالة فى بيان العمارة الواقعة بعد سقوط الكعبة ـ لعلى عبد القادر.

● رسالة ذرع الكعبة المعظمة ومساحة المسجد الحرام ـ لديار بكرى (ت ٩٦٦هـ).

● رحلة عبد السلام الدرعى، المتوفى سنة ١٢٣٩ هـــ رحلة إلى الحج، ذكر فيها – بالإضافة إلى طرق الحج الكثير عن الحرمين، (١٤٠٢هـ).

حرف الزاى:

● الزلف والقربة فى تعمير ما سقط من الكعبة ـ لتاج العارفين بن أحمد المصرى (ت ١٠٤٠هـ).

● الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ـ للفاسى تقى الدين.

حرف السين:

● سيرة عن الحرمين ـ للدكتورإبراهيم عبده ـ طبع بالقاهرة عام ١٣٨٠هـ.

● سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك، العصامى المكى.

حرف الشين:

● شن الغارة على صانع نصب الستارة للكعبة ـ لعلى عبدالقادر الطبرى.

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، للإمام العلامة الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد بن أحمد المكى (٧٧٥ – ٨٣٢هـ).

حرف الصاد:

- صـفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ـــ المسـمى (تاريخ المسـتبصـر)لابن المجاور طبع فى ليدن سـنة ١٩٥١م.
- صحائف الأخبار ـ لابن لطف الله (١١١٣ هـ ١٧٠٢م) فى التاريخ يوجد فى عدة مجلدات.

حرف الطاء:

- طراز العلمين فى فضائل الحرمين المحترمين ـــ لجمال الدين عبدالهادى الصنعاتى اليمانى المعروف باسم الوزير (٧٥٩ ـ ٨٢٢ هـ).
- الطواف بالبيت ولو بعد الهدم ـ للقارى الهروى على بن سلطان فهد.
- الطبريون من بيوت العلم والسيادة بمكة ـ للمؤرخ على الطبرى.

حرف العين:

- العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين ـــ للحضراوى أحمد بن محمد المكى الهاشمى (١٢٥٢ـــ ١٣٢٧هـــ / ١٨٣٦ ـ ١٩٠٩م).
- عجالة القرى للراغبين فى تاريخ أم القرى ـ لتقى الدين الفاسى.
- العلم المفرد فى فضل الحجر الأسود لابن علان المكى.
- عمارة المسجد الحرام ـ للشيخ حسين باسلامة.
- العقد الثمين فى تأريخ البلد الأمين، للفاسى.
- غاية المرام بأخبار سـلطنة البلد الحرام، لعزالدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد القرشـى الهاشـمى (٨٥٠ – ٩٢٢هـ).

حرف الفاء:

- فضائل مكة ـ لابن سرور المقدسى عبد الغنى عبد الواحد (٥٤١ / ٦٠٠هـ).
- فضائل مكة ـ لأبى سعيد مفضل بنى محمد الشعبى (ت ٣٠٠هـ).
- فضائل مكة ـ لابن اللباد محمد بن محمد (٢٥٠ هـ / ٣٣٣ هـ ـ ٨٦٤ / ٩٤٤م).
- فضائل مكة ـ لمحمد بن على بن علان المكى الصديقى (ت ١٠٥٧هـ).
- فضـائل مكة والمدينة ـــ للحضـراوى أحمد بن محمد المكى الهاشـمى (١٢٥٢ ـــ ١٣٢٧ هـــ / ١٨٣٦ / ١٩٠٩م).

- فضائل مكة والمدينة ـ لبلدر زادة محمد بن مصطفى القاضى(ت ١٠٦٠هـ).
- فضائل الحرمين ـ للبنانى محمد عبد السلام المغربى الأصل (١١٦٣هـ / ١٧٥٠م).
- فضائل المدينة على مكة ـ للأبهرى محمد عبد الله المالكى (٢٨٧ هـ ـ ٣٧٥هـ).
- فى رحاب البيت الحرام ـ لمحمد بن علوى بن عباس المالكى الحسنى.
- فتوح الحرمين ـ لعبد الله بن الحسين الأزرنجانى الرومى يوجد فى جزئين بخزانة أيا صوفية.
- فضائل مكة للحميدى صاحب الشافعى المتوفى سنة ٢١٩هـ.
- فضائل مكة للمفضل الجندى، والمتوفى سنة ٣٠٨هـ.
- فضائل مكة وحرمة البيت الحرام للكاتب عاتق بن غيث البلادى.

<u>حرف القاف:</u>

- القرى فى ساكن أم القرى ـ لمحب الدين الطبرى المكى الأصل (٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ ١٢١٨ / ١٢٩٥ م).
- قصة الكعبة ـ لأبى عبيدة معمر بن المثنى البصرى.

<u>حرف الكاف:</u>

- كتاب الكعبة ـ للعباشى محمد بن مسعود العراقى السمرقندى (ت ٣٢٠ هـ).
- كتاب مكة والحرم ـ لعبيدة معمر بن المثنى البصرى.
- كنز المطالب فى فضائل البيت الحرام والشاذروان وما فى زيارة القبر الشريف من المآرب للحسن بن العدوى الحمزاوى المصرى (١٢١٠ ـ ١٣٠٣هـ).
- الكعبة المشرفة ـ لأمينة الصاوى.

<u>حرف اللام:</u>

- اللطائف المنيفة فى فضل الحرمين وما حولهما من الأماكن الشريفة ــ للفيومى عبدالله عبد القادر المصرى الحنفى (ت ١٠١١هـ).

<u>حرف الميم:</u>

- منائح الكرم فى أخبار مكة وولاة الحرم ــ لتاج الدين على السنجارى (ت ١٠٩٥) من مخطوطات الدهلوى بخزانة الحرم المكى.
- منائح الكرم فى أخبار البيت وولاة الحرم ـــــ مجهول المؤلف بخزانة الحرم المكى / بخزانة طوبى قابى / وبخزانة كمبردج.
- مرآة الحرمين ـ لإبراهيم رفعت باشا المصرى (١٢٧٣ ـ ١٣٥٣ هـ ١٨٥٧ / ١٩٣٥م).
- مثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن ـ فى تاريخ مكة والمدينة ألفه ابن الجوزى (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ ـ ١١١٤ / ١٢٠١م).

- مثير شوق الأنام إلى حج بيت الله الحرام ـــ لابن علان محمد بن على (٩٩٦ ـــ ١٠٧٦ هـــ / ١٥٨٨ ـ ١٦٤٧م).
- مكة فى عصر ما قبل الإسلام ـ لأحمد أبو الفضل من منشورات دارة الملك عبدالعزيز.
- مسودة تاريخ مكة ـ قال صاحب (الأعلام) رحمه الله إن هذه المسودة تقع فى جزءين فى مجلد وهى مجهولة المؤلف، جاء فيها أنها ألفت سنة ١٠٣١ هـ.
- مخاطبات بينى وبين الكعبة المشرفة ـ لابن العربى (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ).
- مناقب مكة ـ لشيخ التربة على دده مصطفى الموستاوى.
- منازل مكة ـ لابن الكوفى ٢٥٤ هـ ـ ٣٤٨ هـ / ٨٢٨ ـ ٩٦٠م.
- مناسك الحج وبيان حقيقة مكة والمدينة ـ للبرهانبورى محمد الهندى.
- المرام فى أحوال البيت الحرام – لمصطفى بن سنان الطوسى من مستعربى الروم (١٠٣٢هـ ١٦٢٣م)
- مساحة الكعبة والمسجد الحرام – رسالة الفها الديار بكرى حسين بن محمد قاضى بمكة (٩٦٦هـــ ـ ق١٥٥٩م).
- المياه بمكة وأدوارها التاريخية – مطبوع ألفه بن عبد المقصود خوجة محمد بن سعيد (١٣٦٠هـــــ ـ ١٩٤١م).
- مهيج الغرام إلى البلد الحرام – لمجد الدين ابن طاهر الفيروز ابادى (ت ٧١٧هـ).
- محرك سواكن الغرام إلى حج بيت الله الحرام – لمرعى بن يوسف الكرمى.
- مرآة الحرمين – بالتركية فى تاريخ المدينتين المقدستين لأيوب صبرى باشا الرومى فى خمس مجلدات.
- مرآة مكة – لأيوب صبرى باشا (ت ١٨٩٠م) ألفه سنة ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٤م.
- المناهل العذبة فى إصلاح ما تهدم من الكعبة – لابن حجر المكى الهيثمى شهاب الدين أحمد (٨٩٩/ ٩٧٤هـ).
- ما انفرد به أهل مكة – لابن حبان محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ).
- منازل الحج – لابن العطار أبو عبد الله (ت ٨٣٠هـ).
- منهل الطرافة بذيل مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة – لابن فهد المكى.
- مكة وعلاقاتها الخارجية – لأحمد عمر الزيلعى – صدر عن قسم النشر العلمى بجامعة الرياض.
- المختصر من كتاب (نشر النور والزهر) لمؤلفه الشيخ عبد الله مرداد أبى الخير.
- مكة فى القرن الرابع عشر الهجرى، لمحمد رفيع.
- المنتقى فى أخبار أم القرى، تحقيق وتعليق وتعقيب: محمد عبد الله مليبارى.
- معالم مكة التأريخية والأثرية، هو معجم لعاتق بن غيث البلادى.

- منائح الكرم فى تأريخ الحرم، للسنجارى.

حرف النون:

- نزهة الورى فى أخبار أم القرى – لابن النجار محمد بن محمود (٥٧٨ – ٦٤٣هـ ١١٨٣/١٢٤٥م).
- نسبة الأعمال وخلاصة الأفعال فى تاريخ مكة والمدينة – لسعد الدين الاسفرائينى المتوفى عام ٥٨١هـ بخزانة الحرم المكى.
- نشر النور والزهر فى تراجم أفاضل أهل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. أو الدر المكنون – أو الميمون فى تراجم أهل الخمسة قرون – هذا الكتاب له عدة عناوين وهو من تأليف عبد الله بن أحمد بن ميرداد (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م) خطيب المسجد الحرام، يقع فى مجلد ضخم يوجد بخط المؤلف فى مكتبة عبد الوهاب الدهلوى بخزانة الحرم المكى.
- نظم الدرر فى اختصار نشر النور والزهر فى تراجم علماء مكة وأفاضلها من القرن العاشر إلى الرابع عشر – وهو اختصار للكتاب المتقدم لعبد الله بن محمد غازى الهندى.
- النخبة السنية فى الحوادث المكية – لأبى عبد الشكور أحمد بن أمين المكى الأصل (١٢٣٥ – ١٣٢٣هـ / ١٨٣٩ – ١٩٠٥م).
- نزهة الكرام فى مدح طيبة والبيت الحرام – نظم للشيخ الإمام سعيد بن محمد القرشى الشافعى (ت ٨٢٨هـ).
- النبا الانبه فى الكعبة – لابن حجر العسقلانى (٧٧٣ – ٨٥٢هـ).
- نيل المرام فى فضل بيت الله الحرام – لمحمد بن ظافر المكى.
- نفح العود فى أيام الشريف حمود – لعبد الرحمن بن أحمد البهكلى الصمدى القاضى المولود سنة ١١٨٠هـ.
- نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق إلى البيت الحرام – لعبد الله محمد بن غالب أحمد المكناسى الشهير بابن الكاك)ت ٨٠٧هـ).
- نشر ألوية التشريف بالإعلام والتعريف بمن له ولاية عمارة ما سقط من البيت الشريف – لمحمد على المعروف بإبن علان المكى.
- نزهة ذوى الأحكام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة بلد الله الحرام – لعز الدين عبد العزيز المكى المعروف بابن فهد.
- النبذة اللطيفة فى بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة – لشهاب الدين أحمد بن سلامى القليوبى المصرى الشافعى (ت ٦٣٢هـ).
- نظم تاريخ مكة للأزرقى – للأرمنتى تقى الدين عبد الملك المصرى الشافعى (ت ٦٣٢هـ).
- نشر الأنفاس فى فضائل زمزم وسقاية العباس – للزمزمى خليفة بن أبى الفرج)ت ١٠٦٠هـ).

حرف الهاء:

- هداية الثقلين فى فضـــل الحرمين – لابن عراق محمد بن على عبد الرحمن (٨٧٨ – ٩٣٣هـــــ - ٤٧٣ / ١٥٢٦م).
- هدى الحرمين – لمحيى الأدونة محيى الدين محمد (ت ١٠١٤هـ).

حرف الواو:

- وصف لمدينة مكة والمدينة – لمؤلف مجهول بخزانة لوثر.
- ولاة مكة بعد الفاسى – لعبد الستار الدهلوى رسالة طبعت بمصر سنة ١٩٥٦م.
- وجوب طواف البيت على الأنـام ولو كان بعد الانهدام – لمؤلف مجهول ذكره البغدادى فى كتابه (ايضــــاح المكنون).
- الوصول والمنى فى فضل منى – للفيروز أبادى.
- ولاة مكة – لابن فهد النجم عمر (٨٨٥هـ).

مكة المكرمة فى عيون الشعراء

مكة المكرمة فى عيون الشعراء

للشعرا أمام جلال مكة المكرمة وقفة فيها الخشوع وفيها اليقين، وفيها التبتل، وفيها الخضوع.. تذرف العيون.. وتفيض المشــاعر.. وتتدفق القرائح.. شــاعرية زكية يفوح منها الشــذا لارتباطها التاريخى الموغل فى القدم بهذه الأمـة منذ (أن أذن نبى الله إبراهيم فى الناس) فاســتجيب دعاؤه.. ومنذ أن أســتودع فيها (فلذة كبده).. ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ {إبراهيم/٣٧}.. ومنذ ذلك الحين والمهج تتلهف.. والأفئدة تتوقد..

القصــيدة التالية رائعة من روائع القصــيد الذى قيل عن مكة المكرمة وهى لعمر بن الفارض الملقب بسـلطان العاشـقين وشــاعر الحب الألهى.. والقصــيدة من الشــعر الوجدانى الذى قلّ له نظير حيث البلاغة متجلية والفكرة متدينة والأسلوب رائع، والقصيدة بعنوان (فى رحاب بيت الله الحرام)

يا ساكنى البطحاء هل من عودة
أحيا بها يا ساكنى البطحــاء
إن ينقضى صبرى فليس بمنقض
وجدى القديم بكم ولا برحائى
ولئن جفا الوسمُّى ما حل تُربكُم
فمدامعى تربى على الأنــواء
واحسرتى ضاع الزمان ولم افز
منكـم أهيـل مودتـــى بلقــاء
ومتى يؤمل راحة من عُمره
يومان: يوم قلـــى ويم تنـــاء
وحياتكم يا أهل مكة وهى لى
قسم لقد كلفت بكم أحشائـــى
حُبيكُم فى الناس أضحى مذهبى
وهواكم دينى وعقُــد ولائـــى
يا لائمى فى حبُ من من أجله
قد جد بى وجدى وعز عزائى

هلا نهاك نُهاك عن لوم امرئ

لم يلــق غير مُنعــم بشقـــاء

لو تدر فيم عذلتنى لعذرتنى

خفض عليك وخلّنى وبلائى

فلنازلى سرح المربع فالشبيـ

ـكة فالثنية من شعاب كـــــداء

ولحاضرى البيت الحرام وعامرى

تلك الخيام، وزائر الحثمـــاء

ولفتية الحرم المريع وجيزة الـ

ـحي المنيــع تلفتـــى وعنائـى

فهم هم صوا دنوا وصلوا جفـــوا

غذروا وفواهجروا رثوا لضنائى

وهُم عياذى حيث لم تُغن الرُقـــى

وهم ملاذى إن غـــدت أعدائـــى

وهم بقلبـــى إن تناءت دراهـــم

عنى وسخطى فى الهوى ورضائى

وعلى محلّي بين ظهـــرانيهـــم

بالاخشبين أطـوف حـول حمائـى

وعلى اعتناقى للرفـاق مُسلمـــا

عنــد اســتــلام الركــن بالايــمــاء

وتذكرى أجياد وردى فى الضحى

وتهجــدى فـــى الليلـــة الــليـــلاء

وعلى مقامـى بالمُقـــام أقام فـــى

جسمـــى السقــام ولات حيــن شفــاء

عمرى ولو قلبت بُطاح مسيله

قُلبــا، لقلبـــى الـــري بالحصبـــاء

أسعد أخي وغنني بحديث من

حل الاباطح إن رعيت إخائى

وأعده عند مسامعى فالروح إن

بعد المـــدى ترتـــاحُ للأنبـــاء

وإذا أذى ألــم ألـــمّ بمهجتـــى

فشذا أعيشاب الحجاز دوائي

أأذاد عن عذب الورود بأرضه

وأحاد عنه وفى نقاه بقائــى

وربوعه أربى أجلّ وربيعـــه

طربى وصارف أزمـة اللأواء

وجبالـــه لى مربـــع ورمالـــه

لى مرتـــع وظـــلاله أفيائـــى

وترابه نـــدى الذكـــى ومـــاؤه

وردى الروّى وفى ثراه ثرائى

وشعابه لـــــى جنــــة وقبابـــه

لى جنة وعلى صفاء صفائى

حيا الحيا تلك المنازل والرُبى

وسقى الولى مواطـن الآلاء

وسقى المشاعر والمحصب من منى

سحا وجاد مواقف الأنضـاد

ورعى الآله بها أصيحابى الألى

سامرتهم بمجامـع الأهـــواء

ورعى ليالى الخيف ما كانت سوى

حلم مضى مع يقظة الاغنـــاء

واهاً على ذاك الزمان وما حوى

طيب المكان بغفلة الرقبــاء

أيام أرتع فى ميادين المنـــى

جذلاً وأرفل فى ذيول حبــاء

ما أعجب الأيام توجب للفتى

منحاً وتمحنه بسلب عطـــاء

يا هل لماضى عيشنا من عودة

يوماً وأسمـــح بعـــده ببقائـــى

هيهات خاب السعى وانفصمت عُرى

حبل المنى وانحل عقد رجائى

وكفى غراماً أن أبيت مُتيماً

شوقى أمامى والقضاء ورائى

*****

ويروى أنه لما خرج رســـول الله ﷺ من مكة وقف على الحزورة وقال: "إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلىّ وأنك أحب أرض الله إلى الله ولولا أن المشـــركين أخرجونى منك ما خرجت". وقال عائشـــة رضـــى الله عنها: "لولا الهجرة لسكنت مكة فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ولم يطمئن قلى ببلد قط ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة"

وقال ابن مكتوم وهو آخذ بزمام رسول الله ﷺ وهو يطوف:

يا حبــذا مكــة من وادى

أرض بها أهلي وعــوادي

أرض بها ترسخ أوتادى

أرض بها أمشي بلا هادي

وكان بلال بن رباح رضـــى الله عنه بعدما خرج من مكة المكرمة يحن إليها ويتشــوق. ويرفع عقيرته منشــداً وهو يذكر بعض المواضـــع التى فى مكة مثل: "فتح، أذاخر، جليل" وهى الآن أحياء ســـكنية كجبل أذاخر بعدما تعرض لشئ من التغيير لاستقامة البيت وحى "جليل" وشامة وطفيل جبلان جنوبى مكة المكرمة يقول بلال:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة

بفخ وعندى إذخـر وجليـــل؟

وهل أ رِدْنَ يوماً مياه مجّنــة

وهل يَبدوُنْ لى شامة وطفيل؟

ويذكر بأن سعيد بن عمرو السهمى أول من بنى بيتاً بمكة مرصوصاً بالحجر والطين بديلاً عن بيت الشعر وقد قيل فى ذلك:

وأول من بـــوا بمكـة بيتــه

وســور فيهــا مسكناً بأثافـي

وهجا رجل من بنى عوف أباجهل وعرض بقومه قريش فاستنشاط هذا الهجاء غضب "الزبرقاف بن بدر" فقال مدافعاً:

أتدرى من هجوت أبا حجيب

سليل خضارم سكنوا البطاحا

أزاد الركب تذكر أم هشاماً

وبيــت الله والبلــد اللقاحــا؟

دعا حرب بن أمية "الحضـــرمى" إلى النزول فى مكة حيث الأمن والألفة والاطمئنان والاســتقرار وكان الحضرمى يرغب النزول خارجها ويكنى أبا مطر فقال حرب للحضرمى:

أبا مطر هلم إلى الصلاح

فيكفيك الندامــى من قريــش

وتنزل بلدة عزّت قديماً

وتأمن أن يزورك ربّ جيش

فتأمن وسطهم وتعيش فيهم

أبا مطر هُديت بخير عيــش

ومما تواتر ذكره أن قبيلة جرهم كانت سيادة البيت فيهم فبغوا وفسقوا فثارت بينهم وبين خزاعة حرب فأجلتهم خزاعة عن مكة إلى اليمن. فضلت إبل لمضاض بن عمرو الجرهمى "ملك جرهم" فاتبع أثرها حتى أشرف على وادى مكة فإذا إبله تنحر وتطبخ فأنشأ مضاض يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

إلى المنحنى من ذى الأراكة حاضر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا

صروف الليالــى والجدود العواثــر

وبدّلنا ربى بها دار غُربة

بها الذيب يعوى والعدو المحاصــــر

فإن تمل الدنيا علينا بكلها

وتصبـــح حـــال بعدنـــا وتـشاجـــر

فكنا ولاة البيت من بعد نابت

نطوف بهذا البيت والخير ظاهر

وشاعر آخر يشير إلى مدى الارتباط العميق بهذا البلد وهذا البيت وأن هذه الأمة تحج وتمارس طقوسها الدينية وتشرب من ماء زمزم هذه البئر المشهورة والمباركة.. يقول:

ومازلنا نحج البيت قدماً

ونلـقــى بالأباطــح آمنينـــا

وساسان ابن بابك سار حتى

أتى البيت العتيق بأصيدينـا

وطاف به وزمزم عند بئر

لاسماعيل تروى الشاربينـا

مكة حيث الملتقى. والمهرجان الإسلامى الكبير الذى يضم مختلف الألسن والأجناس. والألوان تهيج مشاعر الشريف الرضى فيعلن آهته ويتدفق عاطفة جياشة متذكراً ومستعرضاً بعض الأماكن المقدسة.

أحبك ما أقام منى وجمع

وما أرسى بمكة أخشباهـــا

وما رفع الحجيج إلى المصلى

يجرون المطى على وجاها

وما نحروا بخيف منى وكبوا

على الأذقان مشعرة ذُّراها

جلاء العين منى بل قذاها

ولما وقف الشاعر عزيز أباظة فى حمى البيت الحرام شعر بعظمة ما حوله، وقدسية كل ما يحيط به فهو

فقال:

رفت الأرض من حولها والسماء

وتناهى إليها السَّنى والسّناء

وزكا عندها الهوى فهى للكون

جمال.. ورحمة.. وإخاء

قف ببطحائها قبالة بيت

الله واخشع فإنها البطحاء

بارك الله حولها واجتباها

فزكت فى صعيدها الأنبياء

وللشاعر القدير محمد حسن فقى قصيدة بعنوان:

مكة المكرمة

مكتـى أنت لا جـلال علـى الأرض. يدانـى جلالـها أو يفـوق!

مـا تباليـن بالرشـاقة والسـحر.. فمعنـاك ساحـر ورشيـق!

سجـدت عنـده.. فمـا ثـم جليـل سـواه.. أو مرمـوق!

ومشـى الخـلد فى ركابـك مختـالاً.. يمـد الجـديد منـه العتـيق!

أنت عندى معشوقة. ليس يخرى العشق منها ولا يفضل العشيـق!

مـا أباهى بالحسن فيـك.. على كثرة ما فيك من مغـان تشـوق!

أنت قـدس.. فليس للهيكـل الفانى بقاؤه – كمـثله – وسمـوق!

كل حسن يبلى. وحسنك يا مكـة – رغـم البلى الفتـى العـريـق!

درج المصطـفى عليـك فاغـلاك.. وإغـلاك بعـده الصـديـق!

وشكـول مـن الرجـال. سبـوق. جد مـن خلفـه.. فجـلى سـبـوق!

إن أرادوا القتـال أرجفـت الأرض. وضاقـت على العدو الطريـق!

أو أرادوا السـلام رحـب بالسـلم.. عـدو أصـابـه الـتمـزيـق!

كان فى الله حـربـهـم والـعـداوات.. وفى الله سلـمـهـم والـوثـوق!

رب صخـر فى بطـن واديـك – يا مكـة – يهفـوا إليه غصـن وريـق!

لسـت وحـدى متيمـاً. فالملاييـن. فـريـق يمضـى. فيـأتـى فـريـق!

تتـوالى عليـك منـهـم صبـابـات. فيصـغـى لـهـا الـفـؤاد الرقيـق!

ليـس فيـك الدلال يـوحى به الزهـو. ويغـرى به الـجـمـال الطـليـق!

لـم تزهيـن؟ رب زهـو من الـحسـن.. تجلى بـه علينـا العقـوق؟!

وعـتـى مـن الجـمـال.. تـحـداه.. أسـيـر.. بـحـبـه مـوثـوق!

ان حسـنـا يكـبـل العـقـل والـروح. لحسـن – وان انـال – حنيـق!

فقـد تركـت البريـق للبـلـد الخـامـل. مـاذا يجـدى عـليـك البـريـق!

وتمخضـت عن فخـار طـوى الأرض. وما احـدبـت عليـك العـروق!

أيـن منــه الكلـدان – يـا مكـة الخيـر – وأيـن الرومــان والإغـريــق!
والبــلاد التــى تـتيـه. أجــاءت؟ بـالـذى جئــت؟ أم هــو الـتـلـفيـــق!
مــا يـقيـم الولـود تخصـب للنــاس.. مكــان العـقيـم. إلا الـصـفيـق!
إن غـمـطـنـا الحـقـوق – يا بـلـد الـطهـر – خسـرنـا وأنكرتـنـا الحـقــوق!
إن جـرحـاً يـصـيـبـنـا مـن تـجـافيك – ومـا تـفـعـلـين جـرح عـمـيــق!
قـد شـربـنـا مـن السلافـة فتيـانــاً – ونـحـن الكـهـول. مــا نـسـتـفيــق!
ذاقــهـا قبـلـنـا الكــرام فقـالـوا. أيـن مـنـهــا. ومـن شـذاهــا الـرحـيـــق!
نـجـد الانـس فـى رحـابــك. والـبـسـطــة. حـتـى كـأنـنـا مـا نـضـيـق!
ويشـد الـقـلـوب نـحـوك – يـا مـكــة – حـب يـطـوى الـقـلـوب وثيــق!
مـا نطيـق الفـراق عنـك – وهـل يحمـل قـلـب فـى الحـب مــالا يـطـيــق؟!
لــك فـضــل عــلـى المدائــن – يـا مـكـــة – مـا يـجـتـويــه. إلا الـمــروق!
أيـن مـنـه. فضـل الـمـدائــن يخلـبــن؟ وأيـن الإغــراء والـتـشـويــق!
أيـن مـنـه. الـغـديـر والـروض، والـعـزف. وأيــن الطــلاء والـتـزويــق!
إنـمـا الحـسن فى الـنـفـوس. فـمـا يـعـشـق ثـوبـاً مـن الـخـيـوط الـمـشـوق!
أتـرانـا مــن الـثــرى. فـإذا الـروح غـريـب. والـحـسـن جـسـن مـشـيــق!
لـصـقـت بـالـتـراب أجسـامـنـا الـغـلـف. فاهـوى إلـى اللـصـيـق. اللصـيـق!
يـا نـفـوسـاً تـطـوف بـالـبيـت لـولا. حـرمـة الـبيـت ميـزتــهـا الـفــروق!
أنـت لـولا الإســلام. كـنــا نــرى الـسـبــاق مـنـتـه. يـفـوقـــه الـمـسـبــوق!
مـا تـأنـقـت فـى الـمقــال.. ففـى سـحـرك مـعـنـى – يـعـى المـقـال – أنـيـق!
واللسـان الـذلـيـق. يـعـجـز أحـيـانـاً. إذا احـصـر اللـسـان الـذلـيــق!

وقصيدة أبى طالب من السيرة النبوية لابن هشام بعنوان:

وأبيض.. يستسقى الغمام بوجهه

ولما رأيت القوم لاود فيهم
وقد قطعوا كل العـرى والوسائــل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقد طاوعوا أمـر العدو المُزايــل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنه
يعضـون غيظـاً خلفنـا بالأنـامــل
صبرتُ لهم نفسى بسمراء سمحة
وأبيض عضب من تراث المُقاول[1]
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى
وأمسكـت من أثوابــه بالوصائـل[2]
قياماً معاً مستقبلين رتاجه

[1] المقاول: الملوك، يريد بهم آباءه؛ ولم يكونوا ملوكا ولا كان فيهم من ملك، بدليل حديث أبى سفيان حين قال له هرقل: هل كان فى آبائه من ملك؟ فقال: لا.
[2] الوصائل: ثياب حمر فيها خطوط، كان يُكسى بها البيت

لدى حيث يقضى حلفـه كل نافـل

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم

بمفضى السيـول من إسـاف ونائـل

مُوسمة[٣] الأعضاد أو قصراتها

مُخيـسـة بيـن السـديـس وبازل

ترى الودع[٤] فيها والرخام وزينة

بأعنـاقهـا معـقـودة كالـعثـاكـل[٥]

أعوذ برب الناس من كل طاعن

علينـا بسـوء أو مُـلحَّ بباطـل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة

ومن ملحق فى الدين ما لم نحاول

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه

وراق ليرقى فى حراء ونازل[١]

وبالبيت، حق البيت، من بطن مكة

وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحَجر المُسود إذ يمسحونه

إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة

على قدميه حافياً غير ناعل

ومن حج بيت الله من كل راكب

ومنْ كل ذى نذر ومن كل راجل

وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له

الإل إلى مفضى الشراج القوابل

وتوقافهم فوق الجبال عشية

يقيمون بالأيدى صدور الرواحل

وليلة جمع والمنازل من منى

وهل فوقها من حرمـة ومنـازل

وجمع إذا ما المقربات أجزْنه

سراعا كما يخرجن من وقع وابل

---

[٣] موسمة: معلمة.
[٤] الودع (بالسكون والفتح): خرزات تنظم ويتحلى بها النساء والصبيان. والرخام: أى ما قطع من الرخام.
[٥] العشكل الأغصان التى ينبت عليها الثمر واحدها عشكول وجمعها عشاكيل وحذفت الياء للضرورة

[١] ثوروثبير وحراء. جبال بمكة

وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها

يؤمـون قذفــا رأسهــا بالجنـــادل

وكِنْدة إذا هُم بالحصاب عشية

تجيز بهم حُجــاج بكر بن وائــل

حليفان شدا عقد ا احتلفا له

وردا عليه عاطفــات الوسائـــل

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ

وهل من معيــذ يتقــى الله عــاذل

يطاع بنا العُدى وودوا لو اننا

تســد بنــا أبــواب تــرك وكابـــل

كذبتم وبيت الله نترك مكة

ونظــعــن إلا أمــركـــم فى بــلابــل

كذبتم وبيت الله نُبزى محمداً

ولمـــا نطـــاعــن دونـــه ونـنـــاضـل

ونُسلمه حتى نصرع حوله

ونذهــل عــن أبنــائنــا والحـلائـل

وينهض قوم فى الحديد إليكم

نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وحتى ترى ذا الضغن يركب ردعه

من الطعــن فعــل الأنكــب المتحامل

وإنا لعمر الله إن جد ما أرى

لتلــتـبـســن أسـيــافـنــا بــالأمــاثـل

بكفى فتى مثل الشهاب سميدع

أخـــى ثـقــة حامـــى الحقيقـــة باسـل

شهوراً وأياماً وحولاً مُجرّما

علــينــا وتــأتــى حــجــة بــعــد قابـل

وما ترك قوم لا أبا لك سيداً

يحــوط الذّمـــار غيــر ذربُ مَـواكـل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثــمــال اليتــامــى عـصـمــة للأرامل

فهــم عنــده فــى رحمــة وفــواضـــل

لعمرى لقد أجرى أسيد وبكره

إلـــى بــغـــــضــنـــا وجـــزانـــا لآكـل

وعثمان لم يربع علينا وقنفذ

ولكــن أطــاعــا أمــر تلك القبائــل

كما قد لقينا من سُبيع ونوفل

وكل تــولى معـرضـا لـم يجـامـل

فإن يلقيا أو يمكن الله منهما

نكـل لهمـا صــاعـا بصــاع الماكيـل

وذاك أبو عمرو أبى غير بغضنا

ليظــعننــا فــى أهــل شــاء وجـامـل

يُناجى بنا فى كُل مَمسى ومصبح

فـنــاج أبـا عـمـرو بـنـا ثـم خـاتـل

ويؤلى لنا بالله ما إن يغشنا

بلــى قـد نـراه جـهـرة غـيـر حـائـل

أضاق عليه بغضنا كل تعلة

مــن الأرض بيــن أخـــشــب فـمجادل

وسائل أبا الوليد ماذا حبوتنا

بسعيـك فينـا معـرضــاً كــالمخــاتل

وكنت امرأ ممن يُعاش برأيه

ورحـمـتـه فـيـنـا ولســت بجـاهــل

فعُتبة لا تسمع بنا قول كاشح

حـسـود كـذوب مـبـغـض ذى دغــاول

ومر أبو سفيان عنى معرضاً

كــامـر قـيـل مـن عـظــام الـمـقــاول

يفر إلى نجد وبـرد مياهــه

ويـزعم أنــى لسـت عـتـنكـم بغـافــل

ويُخبرنا فعل المناصح أنه

شفـيـق ويخـفــى عــارمــات الدواخــل

أمطعم لم أخذ لك فى يوم نجـدة

ولا مُـعـظـم عـنـد الأمــور الجـلائـل

ولا يوم خصم إذا أتـوك ألــدة

أولــى جـدل مـن الخصــوم الـمســاجل

أمطعم إن القوم ساموك خطــة

وإنــى مـتــى أُوكـل فلـســت بــوائـــل

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا

عــقــوبــة شـــر عاجـــلا غــيــر آجــل

بميزان قسط لا يخس شعــيرة

لــه شاهــد مــن نــفــســه غــيــر عــائــل

لقد سفهت أحلام قــوم تبـــدلــوا

بنـــى خــلــف قــيــضــاً بنــا والغــيــاطــل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشـــم

وآل قــصـــى فــى الـــخــطــوب الأوائـــل

فان نك قوماً نتئر ما صنعـــتم

وتــحــتــلــبــوهـــا لقــحـــة غــيـــر بـــاهل

وسائط كانت فى لؤى بن غالــب

نـــفـــاهـــم إلــيــنـــا كــل صــغــر حُــلاحــل

ورهط نفيل شر من وطئ الحصى

وألأم حـــــاف مــن مـــعـــــد ونــــاعــــــل

فأبلغ قصيا أن سينشـــر أمــــرنـــا

وبـــشـــر قـــصــيـــا بـــعـــدنـــا بالتـــخـــاذل

إذا مـــا لجـــأنـــا دونـــهــم فـــى المـــداخــــل

ولو صدقوا ضرباً خلال بيوتهم

لكنـــا أســـى عنـــد النســـاء المـــطـــافــل

فكل صديــق وابــن أخــت نعــده

لعمــرى وجــدنـــا غبـــه غــيـــر طـــائـــل

سوى أن رهطا من كلاب بن مرة

بـــراء إلـــيـــنــــا مـــن معـــقـــة خـــاذل

وهنا لهم حتـــى تبـــدد جمعهــم

ويــحــســــر عـــنـــا كل بـــاغ وجـــاهـــل

وكان لنا حــوض السقايــة فيهـم

ونحـــن الكـــدى من غـــالـــب والكـــواهــل

شبــاب من المُطيبيـــن وهاشــم

كبيض السيـــوف بين أيـــدى الصـــياقـــل

فما أدركوا دخلا ولا سفكوا دماً

ولا حـــالـــفـــوا إلا شـــــرار القبــــائـــل

بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم

ضـــوارى أُســـود فـــوق لحـــم خـــرادل

بنـــى أميتة محبوبـــة هندكيـــة

بنـــى جمـــع عبيـــد قيـــس بـــن عـــاقـــل

ولكننـــا نســـل كـــرام لســـادة

بهـــم نُعـــى الأقـــوام عـــنـــد البـــواطـــل

ونعم ابن أخت القوم غير مُكذب

زهيـــر حُسامـــا مـــفـــرداً من حـــمائـــل

أشم من الشم البهاليل ينتمـــــى

إلى حســـب فى حومـــة المجـــد فاضـــل

لعمرى لقد كلفت وجـــداً بأحمـــد

وإخـــوتـــه دأب المحـــب المـــواصـــل

فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلها

وزيـــنـــا لمـــن والاه ربُّ المشـــاكـــل

فمن مثله فى الناس أى مؤمل

إذا قاســـه الحـــكـــام عنـــد التفـــاضـــل

حليم رشيد عادل غير طائش

يـــوالـــى إلاها ليـــس عـــنـــه بغـــافـــل

لقد علموا أن ابننا لا مُكـــذب

لدينـــا ولا يُعنـــى بقـــول الأبـــاطـــل

فأصبح فينا أحمد فى أرومة

تقصـــر عـــنـــه ســـورة المتـــطـــاول

حدبت بنفسى دونه وحميته

ودافـــعـــت عنـــه بالـــذُرا والكـــلاكـــل

فأيده رب العبـــاد بنصـــره

وأظهـــر دينـــا حقـــه غـــيـــر باطـــل

رجل كرام غير ميل نماهم

إلـــى الخيـــر آباء كـــرام المحاصـــل

فإن تك كعب من لؤى صقيبة

فـــلابـــد بـــومـــاً مـــرة مـــن تـــزايـــل

المسجد الحرام بمكة المكرمة

المسجد الحرام بمكة المكرمة

إن أشــرف المواطن لدى الله عز وجل وإن أقدس الأماكن وأجلها عند عباده – تلكم التى يتعرف فيها الإنســان على ربه ويقف فيها على واجبه ووظيفته فى الحياة.

وليست هذه المواطن التى تشع وتفيض سوى بيوت الله تعالى – تلكم التى تمثل مراكزالإشعاع فى أرض الله. ومصادر العطاء الروحى والنفسى.. ومعالم انضباط الذات وصدق السلوك.. والتزام المنهج فى كل شئون الحياة ومظاهرها.

ولقد كان فى طليعة هذه المواطن على الإطلاق منذ فجر الحياة بيت الله الحرام، فى مكة المكرمة، بلد الله الأمين، ذلك الذى كان أكثرها عطاء وأبعدها عمقاً فى إلهام البشــرية وتوجيهها، وتحويل مســارها نحو التوحيد والإيمان، والعرفان الحق بالله، وما يصــدر عنه فى نطاق الحق والخير والفضـيلة.. من أصــالة المنهج، وسـواء القصد.. وسمو الوسيلة. ونبالة الغاية. فكان منذ عرفت الدنيا الحياة والأحياء والبشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: الجزيرة الوداعة وسط المحيط، والمنارة الهادية التى تلقى بأضوائها فى كل اتجاه.

ولقد كان طبيعياً حينئذ أن يتوفر لهذا البيت الحرام من عناية الله ورعايته والحفاظ عليه ما لم يتوفر لأى مكان غيره فى أية بقعة من بقاع العالم في الشرق والغرب حيث جند له الله عز وجل من عباده وسخر له عبر العصور من خلقه من تتابعوا على تطهيره ورفع قواعده وبنائه، وتجديد حرمه وتوسيع ساحته، وإعداده وتهيئته لضـيوف الرحمن من قاصـــديه وحجاجه، وعُماره وزُواره والطائفين به والعاكفين فيه، والقائمين الذين يفدون إليه من كل فج عميق.

فليس فى الوجود كله مكان حُظى بالشــرف والطهر والمكانة فى ضــمير الإنســانية عبر أجيالها وعصــورها المتعاقبة كما حُظى المسجد الحرام ومن ثم حفل التاريخ به واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره من دنيا الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ {آل عمران/٩٦}

ومن آثار النبوة "إن لله خواصــاً فى الأزمنة والأمكنة والأشـخاص" وإذا كانت الخواص فى أشــخاص أشــاد القرآن بذكرها كالأنبياء والأخيار، أو فى أزمنة رفع الله من شــأنها حتى أقســم بها كالفجر والضــحى والليل. فإننا ننهض فى تقديس واكبار إلى الحديث عن بقعة الأرض التى كرمها ربنا فيما كرم من بقاع.. وآثرها بمزيد فضــله ورضوانه.. وأضفى عليها من حمايته وسلطانه حتى كانت فى عين الزمن حلية الدنيا.

بقعة اختصها الله فسماها المسجد الحرام، وسماها البيت العتيق فأى مسجد ذلك؟ وأى بيت هو؟.

هو الكعبة التى جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة والبيتية فى قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿البقرة/١٤٨﴾ . . وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿الحج/٢٩﴾ .

وإن فى وصفه بالعتاقة لايذانا بأصالة فى الشرف وتأكيداً بأنه أول بيت وضع فى الأرض للعبادة.

وبالبيت العتيق هتف القرآن غير مرة: وركز فى الأذهان: إنه المهبط الذى تخيرته عناية الله أول ما تخيرت.. وربطت به تاريخ البشرية فى مرحلة من مراحلها الحية.. وجعلته منارة تشع بضوئها فى جنبات الدنيا ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران/٩٦}

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت، وستضيف إليه الآيات من بعد مناقب أخرى جدت على الأيام.

وكأن تلك المناقب كانت آمالاً تداعب الإنسانية منذ فجرها الأول، وتنشدها منذ صبوتها الضالة، لتأنس بها فى مهامه دنياها، وتركن إليها كلما هبت من حولها الأعاصير فى حياتها الطولى. حتى إذا ما حان لكل منقبة من مناقب البيت، موعدها المقدور، عند الله برزت فى عالم الوجود، وتم بها جانب من جلال البيت على ما شاء صاحب البيت له من جلال.

ومن هنا تتابع على بناء البيت الحرام وتجديده وكسوته سادة الناس وقادتهم وأشرافهم. وشيوخهم وأهل النهى وذوو الصدارة فى الجاهلية والإسلام.. وشاركت فى ترميمه وبناياته والحفاظ عليه والرعاية له أموال المسلمين.

وإن بيتاً اختلف على بنائه وعمارته.. ورفع قواعده وتجديده والعناية به أقطاب الخلق وقادتهم سيما أبو الأنبياء "إبراهيم الخليل" وولده الذبيح "إسماعيل" جد النبى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وتنافس فى ذلك كل مقدس له معظم لدوره – لهو البيت الذى ليس وراء شرفه شرف.. ولا بعد جلاله فى الأرض جلال بيت، ومقامه إنه بيت الله الحرام وكعبته المشرفة فى مكة المكرمة.

ولقد ذكر التاريخ الثبت الوثيق: عدة بنايات للبيت العتيق على أيدى كثير من الناس وفى غابر التاريخ السحيق وفى حديثه وقريبه.

ولقد حفل التاريخ بهذا البيت الأمين وبناياته والقائمين عليها ثم بأوصافه ومساحاته والمتغيرات عليه. كما حفل الرواة بجميع الروايات والقصص حول البيت الحرام.

لم يكن الباعث للمتثبتين لأخبار البيت العتيق أو المتساهلين فيها إلا الإجلال له أو التقديس لدوره فى خدمة التوحيد.. ورعاية الحق.. وتأصيل اليقين.. وتقويم الخلق وتعديل السلوك.. وتأليف القلوب بين البشر.

وهذا يدل على أعلى ما توصل إليه الإعظام والإجلال للبيت المعظم ولا غرو فهو بيت الله الحرام وقبلة إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولقد بلغ من عناية الله بالبيت العتيق أنه يتعرض له القرآن الكريم صراحة وضمنا، تسعاً وخمسين مرة، تراها منثورة من سور البقرة إلى سورة النصر(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) .

ونرى القرآن الكريم يردد ذكر البيت فى ألفاظ متنوعة. وما كان القرآن الكريم ليردد ذكر البيت أويذكر مكة باسم البلد الأمين إلا للإشارة بتلك البقاع والتوجيه إليها. لقد كان لهذا البيت أسبقية فى التاريخ على كل مكان وله أفضلية فى رعاية الله له.

وهذه البقعة المباركة أكثر من سواها فى الأرض تسامت البيت المعمور فى السماء – والبيت المعمور مطاف الملائكة هناك. فكان اختيار هذا البيت مطافاً لنا فى الأرض وفرصة لنا نتجاوب فيها مع الملائكة فضلاً من فضل الله علينا.

سار هذا البيت فى مدى زمنه الطويل مزاراً للأنبياء وقبْلة للجميع فيما كانت لهم من صلاة. وشاءت حكمة الله أن تزحف الأحداث على بناء البيت بعد أن أقامته الملائكة فى مستهل الحياة الدنيا.. ثم جدده آدم بعد حقبة وجددة من بعد آدم أبناؤه بعد حقبة أخرى.. ثم أذن الله أن يقيم البيت على قواعده ويشيد البناء القشيب على يد رسوله إبراهيم وأن يعهد إليه وإلى ولده إسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت من آثار الإهمال بإعداده للغاية التى من أجلها وُجد مُنذ وُجد ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

﴿ الحج/٢٦ ﴾ .

والمسجد الحرام له قداسته الخاصة فى نفوس المسلمين فقد أضافه الله تعالى لنفسه تكريماً له وتعظيماً لشأنه ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾﴿ البقرة/١٢٥ ﴾ .

فقد عطف ســبحانه القلوب والأفئدة إليه دون غيره من البلاد، فهو للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، ولهذا أخبر الله ســبحانه وتعالى أنه (مثابة للناس وأمناً) – أى يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضــون منه وطرا، بل كلما اقتربوا منه ازدادوا شــوقاً والســر فى هذا التوقان دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام حينما دعا ربه يقوله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿ إبراهيم/٣٧ ﴾ .

البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضــع للناس فى هذه الأرض ليكون مصــدر الخير والبركة، ومعلم الهدى والنور للناس أجمعين.

هذا البيت الحرام مصـلى إبراهيم ومقامه – سـاقته العناية الإلهية إليه ليحدد معالمه ويرفع غاياتها على يد آخر المرســلين من أبنائه وهو محمد ﷺ، وهذا البيت اتخذه إبراهيم مصــلى له، وهو بيت الله وهو أول بيت على هذه الأرض اتصل فيه الإنسان بربه منذ طفولة الإنسانية الأولى.

ولم يكن إبراهيم هو الذى أنشــأه وأقامه فهو أقدم من إبراهيم بأزمان بعيدة. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿ البقرة/١٢٥ ﴾ .

– وفى هذا دلالة على أنه كان بيتاً لله قبل أن يعهد الله إلى إبراهيم وإســماعيل بتطهيره من الأوثان التى عبدها العابدون فيه ثم يقول الله تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإســماعيل) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْــمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّــمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿ البقرة/١٢٧ ﴾ – وفى هذا إشــارة أخرى إلى أن البيت كان قائماً على قواعد وأنها كـانت إلى عهد إبراهيم وإســماعيل قد تهدمت فكان عمل إبراهيم وإســماعيل فيها هو إقامتها على أصولها التى كانت عليها.. وفى اشتراك إسماعيل مع أبيه إبراهيم فى إقامة هذا البيت وتطهيره من الأوثان إعداد للرسالة الإسلامية التى ستكون لمحمد ﷺ ميراثاً خالصاً له من أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل.

ومن هذا يبدو أن الرسالة الإسلامية كانت هى الفلك الذى تدور فيه رسالات الأنبياء والمرسلين،وإنها الجامعة التى تجتمع إليها الرســـالات وتلتقى عندها. كما أنها كانت هى المنبع الذى فاضـــت منه عيونها، والكوكب الذى استمدت منه شعاعها، ففى كل نبوة، وبين يدى كل نبى قبسه من أقباس الإسلام، وضوء من أضوائه حتى جاء صاحب الرسالة الإسلامية محمد بن عبدالله، فوضعها الله بين يديه على أتم تمامها وأكمل كمالاتها.

ومن ثم كان طبيعياً أن يهيئ الله لهذا البيت المعظم من يرفعون بنايته، ويتعهدونه بالتجديد والتحســـين، والتوسعة والإضافة والصيانة والرعاية اللائقة به، حسبما تقتضيه ظروف كل عصر من الإمكانيات والطاقات البشرية والمادية، وما وصل إليه العلم فى مجالات العمارة والهندسة.

وعلى بساط الطهر وتحت سماء النقاء، وفى نطاق الشفافية والسمو كان بين موطن البيت العتيق وبين إبراهيم الخليل، تفاعل مستمر وتجاوب تام وجاذبية واتساق.

ومن وحى هذا جميعاً كانت ضراعة إبراهيم عليه السلام ودعاؤه ورجاؤه ربه وتشبثه به أن يتم الله على هذه البقعة الطاهرة نعمته، وأن يحيلها من حول بيته الحرام موئل أمن ومرفأ سلام ومهوى لأفئدة المؤمنين.

ولقد كان أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام على أعلى ما عرفت البشرية من أسباب الطهر، والصفاء، وعلى أرقى ما عرفت من النقاء والشفافية وسمو الروح ورقة الوجدان ونور البصيرة ورحابة الأمل ووثيق التطلع وعظيم الرجاء فى ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿البقرة/١٢٦﴾ .

وقد ذكر الله المسجد الحرام فى كتابه العزيز فى خمسة عشر موضعاً ستة فى سورة البقرة.

وذكر الماوردى: إن كل موضـــع ذكر الله فيه المســـجد الحرام.. فالمراد به الحرم إلا فى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿البقرة/١٤٤﴾ فإنه أراد به الكعبة.

وروى النسائى فى سننه عن حديث ميمونة رضى الله عنها قالت: "سمعت رسول الله ﷺيقول: صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الكعبة".

وفى رواية ابن ماجة "وصلاته بمكة بمائة ألف".

فالبيت الحرام هو النقطة الوحيدة التى تميزت دون سائر بقاع الدنيا وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق.. وتغلغل فى أعماقها جوهر التوحيد.. وكأنها تفردت لتمثل بؤرة الضوء الصالحة لإشعاع الهداية فى الضمير الإنسانى ونشر الأمن والأمان والإيمان فى أرجاء الدنيا.

وللبيت الحرام من الآيات والبركات مالا نظير له لأى مكان آخر فى أرض الله عز وجل، ومن حيث جعله الله مثابة للناس وأمناً (ومن دخله كان آمناً) – يأمن فيه الخائف.. ويطمئن الفزع.. ويستقر المضطرب.. كما يأمن فى رحابه أيضاً إلى جوار الإنسان.. الحيوان والطير والنبات والجماد.. من حيث إن الله تبارك وتعالى جلب إليه الأرزاق والثمرات من كل نوع وصنف من بقاع الدنيا.

ولأن الله تعالى جعله ذروة فى الأسبقية والفضل والشرف، والمكانة فهو أول مكان عرفته الدنيا لعبادة الله فى أرضه ومن حوله المطاف وفى رحابه المسعى وفى حرمه يكون الوقوف بعرفه.. كما تكون سائر المشاعر فى الحج والعمرة وإلى أن تقوم الساعة.. ثم به تتعلق القلوب والأفئدة، وإليه تتجه وتطوف به من قريب وبعيد فى كل ركن من أرجاء المعمورة حيث إشعاعات هداياته وانعكاساته،قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ {آل عمران/٩٦}

ولاشك أن هذا جميعاً وما يبعث إليه من وحى مبارك وما يحتويه من رسالة عالمية خاتمة يعد من أشرف أنواع الهدايات وأبرها وأوفاها بالبشرية قاطبة فه مقام الخليل إبراهيم وموطئ قدميه، وفيه بئر زمزم ذو الماء القراح المبارك، وفيه الصفا والمروة والمسعى العتيق بينهما وفيه الحجر الأسود والحطيم والملتزم والركن اليمانى.

وما تثيره هذه الأبيات من ذكريات دارت كلها فى رحاب البيت وأرجاء الحرم لما يبعث النفس على استحضار ظروفها وملابستها وما ارتبط بها من مناسك ومشاعر ووجدانات وعواطف، وما اقترن بها أيضاً من رجوات ودعوات وثناءات وتلبيات، تفيض كلها بآيات من الخشوع البالغ لله رب العالمين.

وأما عن الطمأنينة والأمن فإن البيت الحرام يعتبر واحة الأمان ومرفأ السلم، ومهد الطمأنينة ومثواها، والمثابد التى تثوب إليها الأفئدة وتهواها القلوب، ولا يكاد المرء يخرج منه إلا ويعاوده الحنين إليه والشوق له.

بل إن أمنه وأمانه قد بلغ من أمر الله فيه أنه أعلى كعبة، وأفسح أفقه، ووسع دائرته، وأسبغ منه لا على الإنسان فحسب وإنما أيضاً على الحيوان والطيروالنبات والجماد، فلا روع ولا فزع ولا خوف ولا قلق ولا إساءة ولا أذى.

حقاً إنه حرم الله وبيته العتيق وكعبته المشرفة مكّن الله له فى الأرض وجعله حرماً آمناً، يشع بالأمن والإيمان. وذلك من حيث زيارته والدخول إليه والطواف به والوداع له وتحيته.

ومن حيث أمنه الذى يسبغه على زواره.. وبركته التى تنعكس بالمضاعفة على كل من العبادة والطاعة فيه. وأيضاً من الهيبة التى يضفيها الله على زوار هذا البيت وحجاجه وعُماره لقاء ما دخلوه طائعين متواضعين مخبتين خاشعين لله رب العالمين.

كذلك من حيث إشاعة الأمن والسكينة فيه والعمل على بث الطمأنينة والاستقرار فى أرجائه.

ومن ثم أوجب الإسلام على المسليمين وندبهم نحو هذا البيت العتيق إلى خصائص ومميزات وواجبات وسنن ومشاعر ومناسك تتناسب وصفاءه، وطهره ودوره فى صنع الحياة،وصقل الناس بطابع الإيمان وصبغة الحق ومسحة التوحيد، وسمات السمو والنبل والشرف، وواجبات الحب، والإخاء والمساواة والعدل، والقسط والإنصاف والالتزام بشتى الآداب ومختلف القيم والمُثل.

إن المستقرئ لتاريخ الإنسانية فى القديم والحديث فى كافة الدنيا لن يجد وسوف لا يجد وإلى أن تقوم الساعة ما هو أعز من هذا البيت على نفوسهم وأقدس فى حياتهم من مواطن الطهر والصفاء، والروحانية والشفافية، حيث تبلغ فيها الروح قمة الإشراف، ويصل الإنسان فيها إلى أقصى ما يمكن من الاحتشاد والاستجماع للذهن والعقل والقلب والوجدان. سيما ما كان فى لحظات التألق النفسى الفذ والاستعلاء الروحى الفريد.

وفى طليعة هذه المواطن ما كان مرتبطاً منها بالعاطفة الحية والوجدان الدقيق، والإيمان الحق، واليقين الوثيق فى الله رب العالمين.

ولا ينطبق هذا على مكان بصدق قدر ما ينطبق على البيت العتيق.. الذى جعله الله مثابة للناس.. وجعله آمناً.. وجعله أول بيت وضع للناس فى الشرف والمكانة.

ولقد تعلق الناس منذ فجر الحياة بهذا البيت العتيق وارتبطوا به وهفت إليه نفوسهم من حيث كان ولا يزال موئل عبادتهم ومحل طاعتهم ومنطلق صلتهم بالملأ الأعلى.

الأمر الذى يمكن أن يقال معه: إن البيت الحرام كان قد احتل فى نفوس المؤمنين بالله موضع الروح من الجسد مما حدا بالمؤمنين أن يستقر لديهم ويتأكد فيهم الاستعداد التام لحمايته والذود عنه، وبذل المهج من أجله ما وسعهم هذا وأطاقوه وإن يقفوا من كل عاد عليه متربص به موقف العداء العلنى الذى لا مواربة فيه ولا حيلة ولا حيدة عنه ولا مناص منه.

ولما كانت للكعبة المشرفة من القداسة والجلالة ما ليس لبيت سواء من بيوت العباءة فى الأرض فقد حرمها الله وجعلها حرماً آمناً لا يحل انتهاكه ولا افزاع الناس من حوله، ولاشن الحرب فيه ولا فى رحابه ولا فى مكة المكرمة التى تضمه بحال من الأحوال.

المسجد الحرام بمكة فى صدر الإسلام

بعد أن تم بناء الكعبة من جديد قبيل الإسلام وضع فيها العرب المشركون بعض الأصنام والأوثان، كما رسموا داخلها على جدرانها وأعمدتها وسقفها صوراً تمثل بعض الأنبياء والملائكة والشجر. ومع ذلك فقد ظلت الكعبة موضع التقديس والإجلال من النبى ﷺ قبل الهجرة فكان يزورها ويطوف بها ويصلى عندها رغم ازدرائه لما كان فيها من صور وأصنام ما أنزل الله بها من سلطان.

ولقد كان النبى ﷺ يدعو قومه إلى نبذ عبادة الأصنام، وألا يشركوا بالله شيئاً،وبالتالى كان يدعوهم إلى تطهير بيت الله الحرام مما فيه من أصنام وأوثان، غير أنهم لم يلقوا بالاً إلى دعوته، وتمادوا فى غيهم.

وارتبط المسجد الحرام قبل الهجرة بحدث من أهم الأحداث الإسلامية: ذلك أن النبى ﷺ بدأ منه رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى الذى عرج به منه إلى السموات العلا.ولقد خلد هذا الحدث الجليل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ ﴿الإسراء/١﴾

وهاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة. وفى المدينة أمر النبى المسلمين فى أول الأمر أن يولوا وجوههم فى صلاتهم نحو بيت المقدس، وفى السنة الثانية بعد الهجرة نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿البقرة/١٤٤﴾ ومن ثم صار المسلمون يصلون نحوالكعبة الشريفة.

وفى المدينة علا شأن الإسلام، وعز المسلمون وقويت شوكتهم حتى استطاعوا أن يرجعوا إلى مكة ويدخلوها أعزة فاتحين.

وبعد فتح مكة مباشرة أمر الرسولﷺ بتطهير الكعبة مما فيها من تماثيل وصور وأصنام.

ولم يكن للمسجد الحرام على عهد النبى ﷺ جدران تحده، فلم يكن بينه وبين البيوت سور أو حاجز، بل كانت البيوت تحدق به والأزقة بينها تفتح عليه.

وظلت الحال على ذلك طوال خلافة أبى بكر ﷺ، ولكن عمر ﷺ قرر بعد أن ولى الخلافة أن يحيط المسجد بجدار فعرض على أصحاب الدور المحدقة بالمسجد أن يبتاعها منهم فأبى بعضهم، غير أن عمرلم يأبه لذلك واشترى هذه الدور وهدمها ووسع بها حدود المسجدووضع عمر أثمان الدور التى رفض أصحابها بيعها فى خزانة الكعبة لحسابهم، فأخذوها بعد أن قال لهم عمر: "إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم". وبنى عمر حول المسجد جداراً قصيراً كان ارتفاعه أقل من القامة وبذلك كان عمر أول من اتخذ للمسجد الحرام جداراً.

وكان ذلك فى السنة السابعة عشرة بعد الهجرة.

وأجرى عثمان ﷺ توسعة ثانية فى سنة ٢٦ من الهجرة / ٦٤٦ م وقد لجأ إلى ذلك حين كثر الناس. وقد قوبل عثمان بأكثر مما قوبل به عمر من الاعتراض: إذ أبى قوم أن يبيعوا دورهم واعتصموا بها فلم يكن من عثمان إلا أن أمر بالهدم عليهم فصاحوا به، فقال لهم: "إنما جرأكم على حلمى عنكم، فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد". ولم يكتف عثمان بالجدار وإنما جعل للمسجد أروقة وبذلك كان أول من اتخذ للمسجد الحرام أروقة.

ولم يكن للمسجد الحرام منبر على عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين إذ كان الخطباء يقفون على الأرض فى وجه الكعبة وفى الحجر. وكان أول من أدخل المنبر فى المسجد الحرام هو معاوية بن أبى سفيان.وكان ذلك سنة ٤٤ من الهجرة حين قدم من الشام ليؤدى فريضة الحج إذ يقال إنه أحضر معه حينئذ منبراً من خشب له درجات، وقد خطب عليه فى المسجد الحرام ثم تركه به.

هذا وقد ظل المسجد الحرام دون عمارة تذكر إلى أن عَمر كله من جديد على يد عبدالله بن الزبير فى العقد السابع بعد الهجرة.

ففى عهده بعد أن انتهى من عمارة الكعبة المعظمة عمر المسجد وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية وسقف المسجد وكان ذلك عام ٦٥ من الهجرة تقريباً.

فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان أمر بعمارة المسجد ورفع جداره وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة وجعل على رأس كل اسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب فكانت عمارته منحصرة فى تجديد البناء ورفع الجدار وتسقيفه بالساج وتزيينه بالذهب، ولم يزد فى مساحته شيئاً.وفى خلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتوسيع المسجد ونقض عمل أبيه وعمره عمارة متينة محكمة وهو أول من أتى بالأساطين الرخام من مصر والشام، وسقفه بالخشب الساج المزخرف وجعل رؤوس الأساطين صفائح الذهب وجعل له شرافات وعقود وجعل فى وجوه العقود من أعلاها الفسيفساء وهو أول من زين بها المسجد الحرام وجعل للمسجد سرادقات،وكوكانت زيادته من الجهة الشرقية كما يدل عليه سياق التاريخ وكان هذا عام هذا عام ٩١ من الهجرة.

المسجد الحرام بمكة فى العصر العباسى

ذكر صاحب مرآة الحرمين أنه أجرى بالمسجد الحرام فى العصر العباسى عدد من العمائر الهامة وقد قصد من هذه العمائر أن تصل ببنائه إلى أقصى ما يمكن من الكمال الفنى والمعمارى اللائق به.

وكانت أولى هذه العمائر الهامة تلك التى حدثت فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين. وقد تولى أبو جعفر الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح الذى قضى فترة خلافته فى إرساء قواعد الدولة العباسية.

وفى عهد أبى جعفر استقرت أمور الدولة، وثبتت دعائمها، وعمرت خزائنها.

ومن المعروف أن هذا الخليفة كان قد اعتزم تحقيق خطة معمارية هائلة فى أنحاء الدولة الإسلامية تضمنت تأسيس مدينة بغداد لتكون عاصمة الدولة، وعمارة الحرم الشريف بمكة.

وقد تمت عمارة المنصور للمسجد الحرام بمكة على مرحلتين:

وابتدت المرحلة الأولى فى سنة ١٣٧هـ (٧٥٤م) وتم فى هذه المرحلة توسيع المسجد الحرام من جانبيه الشمالى والغربى بمقدار ضعف المساحة التى كان عليها، وبناء رواق واحد فى الجانبين الجديدين، وتشييد مئذنة بنى سهم، بالإضافة إلى تجميل المسجد بالنقوش المختلفة، وتحليته بالذهب. وانتهت هذه العمارة فى سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م.

وفى السنة نفسها تمت المرحلة الثانية من عمارة المنصور التى اقتصرت على الحجر. والحجر بكسر الحاء وسكون الجيم رقعة من الأرض تلى جدار الكعبة ويحدها شرقاً مقام إبراهيم وزمزم، ويطيف بها جدار يسمى الحطيم.

وقد ورد ذكر الحجر فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة، ويستشف من هذه الأحاديث الشريفة أن قريشاً حين أعادت بناء الكعبة فى حياة النبى ﷺ وقبيل بعثته كانت قد أخرجت من مساحتها الأًصلية نحو سبعة أذرع أو ثلاثة أمتار ونصف أضيفت إلى مساحة الحجر، وقد فعلت قريش ذلك لما قصرت بها النفقة التى جمعتها من حلال عن بناء الكعبة على حدودها الأصلية، وكان النبى ﷺ يود أن يعيد هذا الجزء إلى الكعبة، ولكن عاقه عن ذلك أن الناس كانوا حديثى عهد بكفر، وأنه لم يتوفر لديه النفقة اللازمة لهذه العمارة.

وعندما أعاد عبد الله بن الزبير بناء الكعبة فى سنة ٦٤هـ (٦٨٣م) أدخل فيها تقريباً الجزء الذى كانت قريش قد أخرجته منها، ثم عاد الحجاج فأخرج هذا الجزء مرة ثانية، وأعاد بناء الكعبة إلى ما كانت عليه قبل ابن الزبير.

وقد حدثت عمارة المنصور للحجر أثناء قيامه بالحج فى سنة ١٤٠هـ (٧٥٧م) وذلك حين ساءه أن يرى حجارة الحجر بادية فأمر بتغطيتها بالرخام، ويقال أنه أمر أن يتم هذا العمل فى نفس الليلة حتى لا يرى هذه الحجارة فى الصباح التالى. وكان من جراء ذلك أن اضطر الصناع أن يعملوا على ضوء المصابيح. هذا وقد جدد رخام الحجر بعد ذلك عدة مرات.

أما العمارة الهامة الثانية التى أجريت بالمسجد الحرام فكانت فى عهد الخليفة العباسى المهدى بن المنصور.

وتعتبر هذه العمارة أعظم العمائر التى أجريت بالمسجد فى العصر العباسى.

ولقد عنى المهدى بعمارة الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة وتمت على مرحلتين أيضاً.

وبدأت المرحلة الأولى فى سنة ١٦١هـ (٧٧٧م) وفيها زاد المهدى فى المسجد رواقين على ما زاد أبوه، وجدد رخام الحجر الذى كان قد وضع فى عهد أبيه، كما أصلح مقام إبراهيم الذى كان قد انثلم لرخاوة حجره. وقد بعث بحوالى ألف دينار ضبب بها المقام من أعلاه وأسفله وكان ذلك هو أول تحلية للمقام. وقد تمت تقوية المقام بالذهب والفضة عدة مرات بعد ذلك، ثم بنى فوقه قبة وصار يغطى بكسوة.

أما المرحلة الثانية من عمارة المهدى فى المسجد الحرام فقد تمت فيها كبرى العمارات التى أجراها المهدى فى المسجد، وقد أصدر المهدى أوامره بهذه العمارة فى سنة ١٦٤هـ (٧٨٠م).

وعلى الرغم من أن عمارة المهدى للمسجد الحرام بمكة كانت العمارة الأساسية التى أجريت فيها فى العصر العباسى والتى وضعت حدود الجوانب الأساسية التى بقى عليها المسجد بعد ذلك فيما عدا بعض الزيادات الطفيفة، فإن المسجد الحرام ظل ينال من عناية سائر الخلفاء العباسيين ورؤساء الدول الذين لم يألوا جهداً فى عمارته والعناية به وصيانته، كما حرصوا على إصلاح ما كان يتخرب فيه.

ففى عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) أقام عبد الله بن عمران الطلحى أمير مكة مظلة للمؤذنين على سطح المسجد ليؤذنوا فيها.

وفى عهد المعتضد "٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م" أضيف إلى المسجد دار الندوة وكانت فى شمال المسجد، وكان طول هذه الزيادة من الشمال إلى الجنوب أربعة وستين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب سبعين. وقد أقيم فى جوانب الزيادة الأربعة أروقة ذات أسقف من الساج مسامتة لسقف أروقة المسجد، وبنى فيها مئذنة، ووصلت الزيادة بالمسجد، وجعل لها ثلاثة أبواب شارعة إلى الطريق، وفتح لها اثنا عشر باباً فى جدار المسجد الحرام تعلوها عقود. وقد أدخل على هذه الأبواب تعديل فى سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) بحيث صار المصلى فى دار الندوة يرى الكعبة كلها.

وفى خلافة الطائع لله أضيف إلى المسجد الحرام محل فى الجانب الغربى يعرف باسم باب إبراهيم، وكان طول هذه الزيادة نحو سبعة وخمسين ذراعاً وعرضها اثنين وخمسين. وصار الناس يصلون فيها. وقد أقام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون مسقى فى سنة ٧٥٩هـ (١٣٥٧م).

غير أن المسجد الحرام قد تعرض خلال هذا العصر العباسى لعمل بالغ الخطورة نزل على المسلمين نزول الصاعقة: ذلك هو سطو القرامطة على مكة، وقلعهم الحجر الأسود من الكعبة الشريفة.

والقرامطة طوائف ظهرت فى العالم الإسلامى منذ أواخر القرن الثالث الهجرى واستمرت إلى القرن الخامس.

وقد اعتنقت هذه الطوائف مبادئ دينية واجتماعية وسياسية متطرفة وعاث القرامطة فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى فساداً، واستطاعت بعض طوائفهم أن تثبت أقدامها فترات من الوقت فى بعض الأقطار العربية.

وكانت الطامة الكبرى فى سنة ٣١٨هـ (٩٣٠م) حين استولى أبو طاهر سليمان القرمطى على مكة، ونكل بأهلها وزوارها، ونهب أموالهم. ويقال أن القرامطة الذين غزوا مكة قتلوا ما يزيد على ثلاثين ألفاً من المسلمين، ودفنوا بعضهم فى بئر زمزم وفى المسجد الحرام. وقد زاد بغى سليمان القرمطى واشتد اعتداده بنفسه حتى أنه يقال أنه ركض بفرسه وهو سكران، ودخل المسجد الحرام، وتقدم إلى المطاف، وطلع إلى باب الكعبة، وأخذ يقول:

أنـــا بالله وبالله أنـــا

يخلق الخلق وأفنيهم أنـا

وخلع القرامطة باب الكعبة، وأخذوا كسوته، كما قلعوا الحجر الأسود من مكانه بالكعبة، وأخذوه معهم إلى بلاد هجر. وقد عرضت الحكومة العباسية على القرامطة إرجاع الحجر الأسود فى مقابل خمسين ألف دينار ولكنهم رفضوا وقالوا: "أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمره".

وبقى موضع الحجر الأسود خالياً إلى أن أعاده سنبر بن الحسن القرمطى فى سنة ٣٣٩هـ (٩٥١م) بناء على أمر الخليفة الفاطمى المنصور. وقدم سنبر بالحجر الأسود وقد شد بالفضة حتى لا ينكسر نتيجة ما حدث به من شقوق أثناء قلعه. ووضعه سنبر بيده فى مكانه، وثبته بعض الصناع بجص أحضره معه سنبر نفسه. ويقال أن سنبر قال فى هذه المناسبة: "أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله".

وكانت فرحة المسلمين عظيمة بعودة الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة الشريفة. وبقى الحجر الأسود محل رعاية المسلمين الذين عملوا على حفظه وصيانته.

المسجد الحرام بمكة فى عصر المماليك

بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية فى بغداد فى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) انتقلت إلى مصر زعامة العالم الإسلامى، وتأكدت هذه الزعامة بفضل الانتصارات الحربية التى أحرزها سلاطين مصر من المماليك الذين استطاعوا أن يصدوا المغول فى عين جالوت فى سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وأن يطهروا بلاد الشام جميعها من الصليبيين.

ولم يفت المماليك أن يكملوا هذه الزعامة الفعلية بالمراسم الشكلية فبعثوا الخلافة العباسية من جديد بالقاهرة وهكذا صارت القاهرة مقر الخلفاء العباسيين الذين كانوا يفوضون إلى سلاطين مصر حكم بلاد الخلافة العباسية السابقة فضلاً عما يفتحونه من الأقطار.

وقد ورد فى صيغة عهد الخليفة العباسى إلى السلطان بيبرس أنه قلده.. "الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمانية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوَرا ونجدا".

خادم حرمى الله ورسوله

وورث المماليك – فيما ورثوه – رعاية الحرمين الشريفين بمكة والمدينة وشرف خدمتهما. وصار من الألقاب التى يعتز بها سلاطين مصر لقب خادم الحرمين الشريفين وما فى معناه من الألقاب مثل خادم حرمى الله ورسوله، وصاحب الأقطار الحجازية، وملك الجهات الحجازية، وسلطان اليمن والحجاز، وسلطان بيت مكة العالى. وسلطان البيت العالى الشريف بمكة.

وكان سلاطين مصر من المماليك يبالغون فى الاحتفاء بالمسجد الحرام بمكة: فكانوا يوالونه بالعمائر اللازمة، ويهدون إليه ثمين التحف، ويوقفون عليه وعلى ما يتصل به الأوقاف الكثيرة.

وقد تم فى المسجد الحرام فى عصر المماليك عمارتان كبيرتان. وبدأت أولى هاتين العمارتين فى عهد السلطان الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق على أثر حريق مدمر اجتاح جزءاً كبيراً من المسجد. وقد بدأ الحريق فى ليلة السبت الثامن والعشرين من شوال سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م فى رباط عند باب الحزورة المعروف بباب عزورة بالجانب الغربى من المسجد الحرام ولم يلبث أن انتقلت إلى سقف المسجد وعمت الجانب الغربى وأجزاء من الرواقين المقدمين من الجانب الشامى. وأدى هذا الحريق إلى تخريب نحو ثلث المسجد وتدمير مائة وثلاثين عموداً.

ولما بلغ خبر الحريق السلطان فرج بن برقوق عهد إلى الأمير بيسق الشيخى بعمارة ما احترق من الحرم وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلى التاجر الكارمى وبعث معه عشرة آلاف دينار لينفق منها على العمارة.

وقدم الأمير بيسق مكة فى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وانتظر ريثما يرحل الحجاج ثم شرع فى العمارة.

أما العمارة الكبيرة الثانية التى تمت فى عصر المماليك فكانت فى عهد السلطان الأشرف برسباى فى سنتى ٨٢٥ و ٨٢٦هـ/ ١٤٢١ و ١٤٢٢م.

وقد أسند الأشرف مهمة هذه العمارة إلى الأمير زين الدين مقبل الدويدى وأوفده إلى مكة.

وشملت هذه العمارة كل المسجد تقريباً إذ تم فيها إقامة عشرات العقود وتجديد كثير من أبواب المسجد وتعمير سقوفه وطلاؤها وإصلاح سقف الكعبة ورخامها وأخشابها وحلق الحديد الذى تربط به كسوة الكعبة.

وبالإضافة إلى هاتين العمارتين الكبيرتين أجرى بالحرم المكى وملحقاته طوال عصر المماليك عمائر كثيرة بغرض الصيانة والتجميل.

المسجد الحرام بمكة فى عهد العثمانيين

وبسيطرة العثمانيين على مصر انتقلت إليهم بصفة رسمية السيادة على الحجاز ورعاية الحرمين الشريفين بمكة والمدينة. وصار السلطان العثمانى يلقب منذ ذلك الوقت بخادم الحرمين الشريفين.

وعلى الرغم من أن رعاية الحرم المكى قد انتقلت إلى العثمانيين فقد ظلت مصـــر بعد ذلك تتولى عمارته إذ كان تعميره يتم فى معظم الأحوال بأموال مصرية وبمواد بناء من مصر وعلى يد مهندسين مصريين، وأجريت أول عمارة كبيرة بالحرم المكى بعد زوال دولة المماليك فى سنة ٩٧٩هـــ (١٥٧١م) وذلك حين تراءى للسلطان سليم الثانى أن يجدد سقف الأروقة الأربعة بحيث يستبدل بالسقف المسطح سقف على هيئة قباب صغيرة.

المعلم محمد المصرى

وعهد الســـلطان ســـليم إلى واليه على مصـــر بهذا العمل فوقع الاختيار على أن يقوم بالعمارة المعلم محمد المصرى شيخ المهندسين بمصر حينئذ وبعثت مصر بمواد البناء إلى مكة وكانت تتألف من أخشاب وحديد. وأهلة للقباب مطلية بالذهب.

ووصل المعلم محمد المصرى مكة فى آخر ذى الحجة سنة ٩٧٩هـــ/١٥٧١م وبدأت العمارة فى ١٤ ربيع الأول سنة ٩٨٠هـــــ واتبع العمال فى هذه العمارة نفس الأسلوب الذى اتبع أحياناً من قبل فى عمارة الحرمين الشـــريفين من حيث القيام بالعمارة فى جزء بعد جزء أى أن يهدم كل جزء ثم يعمرمباشـــرة قبل هدم الأجزاء الأخرى، وكان يقصد من ذلك بدون شك ألا تتعطل الشعائر فى المسجد من جهة وأن يحتاط فى المحافظة على التصميم الأصلى من جهة أخرى حتى لا تتغير المعالم التقليدية فى المسجد.

ومما تجدر الإشـارة إليه أن السلطان سليم الثانى توفى قبل أن تتم العمارة غير أن خليفته السلطان مراد أمر بأن تستمر العمارة بل وحث على إنجازها فى أسرع وقت ممكن.

وفعلاً تمت العمارة فى أواخر سنة ٩٨٤هـ أى بعد نحو أربع سنوات من بداية العمل.

وقد أعقب هذه العمارة عمائر أخرى أجريت بالمسجد وبالكعبة وبملحقاتها.

وكنتيجة للعمائر التى تمت فى العهد العثمانى اتخذ المسجد الحرام شكله النهائى تقريباً.

التوسعات السعودية فى المسجد الحرام بمكة

وجاء العهد السعودى الزاهر الذى أكتسى بخدمته للحرمين أجمل الحلل والمفاخر، عصر التوسعات السعودية للحرمين الشريفين التى لم يشهد التاريخ لها مثيل.

إن اهتمام الملك عبد العزيز رحمه الله بالحرم المكى شــئ فطرى فقد شــعر بأن الله تعالى قد اختصـــه من بين العباد لينال شـرف خدمة حرمه وكعبته، وخدمة ضـيوفه ووفوده من الحجاج والمعتمرين، فبذل جلالته فى سـبيل هذه الخدمة جل الوقت والجهد فأمضـــى الأيام يســارع فى تقديم كل ما فى وســعه وفوق جهده، فبذل من الأموال أعزها لترميم وتعمير المســجد الحرام، وأصـــدر من الأوامر والقرارات ما تنؤ به الصــفحات اهتماماً وتنظيماً، متابعة وتنفيذاً خدمة عامة وصيانة تامة وما إلى ذلك مما يتعلق بشئون الحرم المكى.

وظل كذلك يقدم كل ما يســتطيع خدمة لهذا الحرم ووفوده. وأورث هذا لبنيه فســلكوا طريقه وانتهجوا منهجه، اكملوا المسـيرة، فحققوا ما كان يصـبوا إليه ويؤمله، فقرت عينه فى مرقده بما بذل ويبذل أبناؤه الميامين الغر من نفائس الجواهر والدر خدمة لهذا البيت العتيق ســيراً على نفس الطريق، فتوالت مراحل تعميرهم وتوســـعتهم للمسـجد الحرام على أسـس متينة وهندسـة جميلة وإتقان فى التنفيذ وروعة فى البنيان تليق بما لبيت الله الحرام من مهابة وقداســة وما له فى نفوس المســلمين من توقير وتعظيم حتى وصــلوا به إلى هذا الحال الذى هو فيه كمال وجمال من كل النواحى عمارة وتنفيذ وخدمة وصيانة.

ومع ما لاحظه جلالته من ضـيق الحرمين الشـريفين عن اسـتيعاب أعداد المصـلين المتزايدة باضـطراد، وعن حاجة الحرمين الشريفين إلى التوسعة والترميم، أذاع، يرحمه الله، بياناً فى العام (١٣٦٨هـــ) يبشر فيه المسلمين باعتزامه الشروع – بمشيئة الله – فى توسعة الحرمين الشريفين بدءاً بالحرم النبوى الشريف.

وبعد الانتهاء من المشـروع الأول، بوشـر يوم الرابع من ربيع الثانى عام (١٣٧٥هــــ/١٩٥٥م) فى الأعمال التنفيذية لمشـروع التوسـعة السـعودية الأولى للمسـجد الحرام المبارك فى مكة المكرمة، وكان ذلك فى عهد جلالة الملك سـعود بن عبد العزيز آل سـعود. يرحمه الله. وقد بوشر فى الأعمال التمهيدية والتنفيذية فى آن واحد، لكسب الوقت، أملاً فى انجاز العمارة الجديدة للمسعى قبل حلول موسم الحج للعام نفسه.

بل إن العمارة فى عمارة المســعى بدأ من طرفيه الشــرقى (من ناحية الصــفا) والجنوبى (من ناحية الصـــفا الغربى) حتى الجهة المقابلة لباب "أم هانئ" فى أجياد.

وفى ٢٣ شعبان ١٣٧٥هـــ انتهت الأعمال التمهيدية، ووضـع حجر أسـاس المشروع، وكان أهم إنجاز حقق، تلك السـنة، هو تحويل المرور من المسـعى، والمباشـرة فى عمارته بحيث أمكن لحجاج بيت الله الحرام، عامهم ذاك، أن يقوموا بالسعى بين الصفا والمروة دون أن يختلطوا بالباعة أو المارة لأول مرة منذ أكثر من ألف عام.

المسعى

لقد بنى المســعى فى التوســعة الســعودية الأولى، من طابقين، انطلاقاً من نظرة مســتقبلية أخذت فى الاعتبار تزايد أعداد الحجيج عاماً بعد عام.

يبلغ طول المسعى (٣٩٤,٥) متراً، وعرضه (٢٠) متراً، وارتفاع الطبقة الأولى منه (١٢) متراً، وارتفاع الطبقة الثانية (٩) أمتار. مما ساعد ليس على تيسير السعى، فحسب، بل على توفير مساحات واسعة تستوعب عدداً كبيراً من المصلين، وتخفيف الزحام فى المسجد، وقد أنشئ الطابق الثانى للمسعى استناداً إلى فتوى شرعية بجواز ذلك.

كما أقيم فى وسط المسعى حاجز يقسمه إلى قسمين متوازيين، أحدهما للسعى باتجاه الصفا والثانى للسعى باتجاه المروة، وأنشئ وسط القسمين ممر ضيق ذو اتجاهين لسعى العاجزين وغير القادرين على المشى والهرولة.

وبنى درج، قُسم إلى قسمين، فى كل من الصفا والمروة، ولكل منهما جانبان أحدهما للصعود والثانى للهبوط.

كما أنشئ (١٦) باباً للمسعى، تنتشر على الواجهة الشرقية للمسجد، وعند الطبقة العليا، أنشئ مدخلان على خارج الحرم، أحدهما عند الصفا، وثانيهما عند المروة، وهذان المدخلان يرتفعان عن سطح الأرض بما يساوى السطح المخصص للصلاة، وفى داخل المسجد أقيم للطبقة العليا سلمان أحدهما عند باب الصفا، والثانى عند باب السلام، وتحت الطبقة الأولى، أنشئت طبقة من الأقبية سطحها بمستوى الأرض، وارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف المتر.

ولحماية المسجد من السيل أنشئ مجرى خاص، يمتد تحت رصيف الجهة الجنوبية من شارع القشاشية، ويمر أسفل منطقة الصفا، ثم أسفل رصيف الشارع الجديد، وبلغ عرض هذا المجرى خمسة أمتار، وارتفاعه بين أربعة أمتار وستة، وبذلك حول مجرى السيل الذى كان يخترق المسعى، ويتسبب فى تسرب المياه من أبواب المسجد.

كسوة جدران المسجد

لقد روعى فى التوسعة السعودية، كسوة جميع الجدران والأرضيات، بالرخام المرمر الفاخر، كما كسيت الأعمدة وتيجانها بالأحجار الصناعية المزخرفة، وزينت السقوف بالزخارف، ونقوش الموزاييك كما أن جميع كميات الرخام والمرمر التى استخدمت فى المشروع، جئ بها من بعض الجبال القريبة من مكة المكرمة، وأنشئ لها مصنع خاص للصقل والقطع أما الأحجار الصناعية، فكانت تنتج فى مصنع بجدة، ثم تنقل بالسيارات إلى مكة المكرمة.

تجديد وترميم الكعبة المشرفة

لوحظ، أثناء أعمال التوسعة الأولى، وجود خلل فى سقف الكعبة المشرفة، وتصدع فى الجدران، نتيجة تآكل الأخشاب الحاملة للسقف، بفعل عوامل الزمن، والأمطار والحراة.

وكانت آخر ترميم أجريت على الكعبة المشـــرفة تعود إلى ســـتمائة ســـنة خلت، ورفع الأمر إلى جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود، يرحمه الله، فأم بتجديد وترميم الكعبة المشرفة على الفور.

وأقيم يوم ١٨ رجب ١٣٧٧هـــ (١٩٥٧م)، احتفال كبير حضــره ممثلون عن الدول الإســلامية، وجموع من المواطنين، بمناسبة المباشرة بتجديد وترميم الكعبة المشرفة.

وقد اســتغرق العمل فى هذا المشــروع أقل من شــهرين اثنين، حيث احتفل بانتهائه يوم ١١ شــعبان ١٣٧٧هـ وبذلك تكون هذه العمارة، لتجديد وترميم الكعبة المشرفة، هى الثالثة عشرة، منذ عمارتها الأولى.

أبواب المسجد الحرام

وقد روعى فى التوسعة السعودية الأولى، الإبقاء على أسماء أبواب المسجد القديمة ومواقعها مع زيادة جديدة فى هذه الأبواب، بحيث أصبح إجمالى عدد الأبواب واحداً وخمسين باباً، ما بين كبير وصغير، منها ثلاثة أبواب رئيسية هى: باب الملك (عبد العزيز)، وباب العمرة، وباب السلام، وتعلو كلاً من هذه الأبواب منارتان ارتفاع كل منهما (٩٢) متراً، وعرض قاعدتها ٧×٧ أمتار، وفى أعلى كل منارة هلال مع قاعدته بارتفاع خمسة أمتار وستين سنتيمتراً، وهو مصنوع من البرونز المطلى بالذهب الخالص، أما المنارة السابعة فهى فوق باب الصفا، وبجوارها سطح مقبب مستدير، تعلوه من الخارج قبة قطرها (٣٥) متراً، وقد زين داخلها بآيات من القرآن الكريم، ولها هلال مماثل للأهلة الأخرى.

كان للمسجد الحرام قبل البدء فى عمارته الحالية ستة وعشرون بابا وسبع مآذن. أما الأبواب فمنها خمسة بالجهة الشرقية وهى:

١- باب السلام، وهو الذى يدخل منه الحاج لأداء طواف القدوم، أنشأه المهدى الخليفة العباسى فى عمارته للمسجد الحرام عام ١٦٤هـ، ويتكون من ثلاثة مداخل، وكان فى موضع الباب قبل توسعة المسجد دور لبعض أهل مكة، ولعل هذا هو السبب فى تسمية هذا الباب بباب بنى شيبة، وباب بنى عبد شمس. وقد جدده السلطان العثمانى سليمان خان ابن السلطان سليم خان عام ٩٣١هـ.

٢- باب قايتباى، وقد أنشأه السلطان قايتباى حين أنشأ المدرسة الملحقة بالمسجد والمنارة، وبه مدخل واحد.

٣- باب النبى، ويسمى باب الجنائز، لأن الجنائز كانت تخرج منه إلى مقبرة المعلاة. وعلل الأزرقى فى كتابه "أخبار مكة" تسميته باب النبى، بأن النبى - ﷺ- كان يخرج منه إلى دار زوجته خديجة ويدخل منه إلى المسجد.

وقد أنشأ هذا الباب الخليفة المهدى، وجدده السلطان الأشرف أبو النصر برسباى عام ٨٢٥هـ ثم السلطان عبد الحميد خان الثانى عام ١٣١٤هـ، وبه مدخلان.

٤- باب العباس. أنشأه الخليفة المهدى، وسمى بذلك لأنه يواجه دار العباس بن عبد المطلب التى كانت قائمة بالمسعى، وجدد عمارته السلطان سليم خان عام ٩٨٤هـ، وبه ثلاثة مداخل.

٥- باب على، ويعرف أيضاً بباب بنى هاشم، وباب البطحاء، له ثلاثة مداخل أنشأه الخليفة المهدى وجدده السلطان سليم خان.

وللمسجد الحرام من الجهة الجنوبية سبعة أبواب هى:

١- باب بازان، أنشـأه الخليفة المهدى، وسـمى بذلك لأنه كان يواجه "بازان" عين حنين، وهو مكان للسـقاية. وكان يسـمى باب عائد، وأحدث أسـمائه باب القرقول لأن المخفر كان يقع أمامه. ولهذا الباب مدخلان، وقد جدد عمارته السلطان مراد ابن السلطان سليم.

٢- باب البغلة، قال الفاسى فى كتابه "شفاء الغرام" لم أدر ما سبب هذه الشهرة. وسماه الأزرقى فى "أخبار مكة" باب بنى سفيان، وقد أنشأه الخليفة المهدى، وجدد عمارته السلطان مراد خان.

٣- باب الصفا، سمى بذلك لأنه يلى الصفا، وسماه الأزرقى باب بنى مخزوم، أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان مراد. ويتآلف من خمسة مداخل.

٤- باب أجياد الصـغير، وكان يسـمى باب بنى مخزوم. أنشـأه الخليفة المهدى وجدده السـلطان مراد. وله مدخلان.

٥- باب المجاهدية، نسبة إلى مدرسة الملك مجاهد صاحب اليمن. ويسمى أيضاً باب الرحمة، وكان يسمى باب بنى مخزوم – فهى أبواب ثلاثة كانت تتصـل بمسـاكن بنى مخزوم – وأحدث أسـمائه باب أجياد لأنه يواجه شارع أجياد. أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان مراد. وله مدخلان.

٦- باب مدرسـة الشـريف عجلان، نسـبة إلى هذه المدرسـة. وكان يسـمى باب بنى تيم. وأحدث أسـمائه باب التكية، لأنه كان يواجه التكية المصرية. أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان مراد، وله مدخلان.

٧- باب أم هانئ. سـمى بذلك لقربه من دار أم هانئ بنت أبى طالب أخت أمير المؤمنين على ابن أبى طالب. ومن أسمائه باب أبى جهل، وباب الفرج، وباب الملاعبة. وأحدثها باب الحميدية، لأن فى مواجهته كانت تقوم دار الحميدية مقر الحكومة فى مكة. أنشأ هذا الباب الخليفة المهدى، وجدده السلطان مراد، وله مدخلان.

وللمسجد الحرام من الجهة الغربية ستة أبواب هى:

١- باب الحزورة، نسـبة إلى سـوق فى الجاهلية كان فى ذلك المكان وأدخل فى المسـجد عند توسـعته، ومن أسـمائه باب بنى حكيم بن حزام، وباب بنى الزبير بن العوام، وأحدثها باب الوداع، لأن الحاج يغادر المسـجد الحرام عند سفره من هذا الباب، أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان فرج بن برقوق الجركسى عام ٨٠٤هـ. وله مدخلان.

٢- باب إبراهيم. قال الفاسـى أن إبراهيم المنسـوب إليه هذا الباب كان خياطاً يجلس عنده، ولم يأخذ بما ذكره بعض الرحالة والعلماء من نسبة الباب إلى إبراهيم الخليل. أنشأه السلطان الغورى. وهو أكبر أبواب الحرم وله مدخل واحد.

٣- باب صغير بمدخل واحد بجوار رباط اليمانية.

٤- باب مدرسة الشريف غالب، له مدخلان صغيران.

٥- باب مدرسة الداودية بمدخل واحد.

٦- باب العمرة، سمى بذلك لأن المعتمرين من "التنعيم" اعتادوا الدخول والخروج منه. وسماه الأزرقى باب بنى سهم. أنشأه أبو جعفر المنصور، وجددت عمارته فى عهد الخليفة المهدى السلطان سليم والسلطان مراد. وهو بمدخل واحد.

وللمسجد الحرام من الجهة الشمالية ثمانية أبواب هى:

١- باب عمرو بن العاص ويسمى "السُدة" لأنه سد ثم فتح، وأحدث أسمائه باب العتيق نسبة إلى دار ابن عتيق القريبة منه، وكان ابن عتيق هذا من الأعيان. أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان سليم. وله مدخل واحد.

٢- باب مدرسة الزمامية، نسبة إلى هذه المدرسة، وله مدخل واحد.

٣- باب الباسطية، نسبة إلى المدسة التى أنشأها عبد الباسط ناظر الجيش فى عهد الملك الأشرف برسباى، أنشأه الخليفة المهدى، وجدده السلطان سليم، وله مدخل واحد.

٤- باب القطبى، نسبة إلى مدرسة قطب الدين الحنفى، وكان يسمى باب الزيادة لوقوعه غربى الزيادة التى ضمت دار الندوة للمسجد، وهو أقدم أبواب الحرم، فقد أنشأه المعتضد بالله العباسى عام ٢٨١هـ وظل على بنائه القديم أحد عشر قرناً.

٥- باب الزيادة، وهو فى صدر زيادة دار الندوة. قال الأزرقى هو باب دار بنى شيبة بن عثمان، وكان يسمى باب سويقة. أنشأه الأمير قاسم والى جدة فى عهد السلطان سليمان خان العثمانى، وله ثلاثة مداخل.

٦- باب المحكمة، نسبة إلى المحكمة الشرعية الكبرى، التى كانت تجاوره. أنشأه الأمير قاسم. وله مدخل واحد.

٧- باب السليمانية، نسبة إلى رباط السليمانية الذى أنشأه السلطان سليمان خان. أنشأ هذا الباب الأمير قاسم، وله مدخل واحد. أنشأ هذا الباب الأمير قاسم، وله مدخل واحد.

٨- باب الدريبة، جدد بناءه الأمير قاسم، وله مدخل واحد.

كما أقيم بجوار كل من الأبواب الثلاثة الرئيسية أسبلة عديدة لسقيا الحجاج من ماء زمزم مباشرة، لتخفيف الزحام عن بئر زمزم.

*****

بات بالإمكان أن يتسع المسجد بعد التوسعة الأولى لنصف مليون مصلّ، فى كل من صحن الحرم، والسطح الأعلى.

كانت مساحة المسجد قبل التوسعة السعودية الأولى (٢٧,٠٠٠) متر مسطح، فأصبحت بعد التوسعة (١٨٠,٠٠٠) متر مسطح، أى بزيادة (١٥٣,٠٠٠) متر مسطح.

بلغ حجم الحفريات والهدميات فى المرحلة الأولى (١,٢٨٢,٩١٨) متراً مكعباً.

بلغت قيمة التعويضات التى صرفت لأصحاب المبانى والأراضى لصالح مشروع التوسعة (٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال.

بلغ إجمالى تكاليف التوسعة السعودية الأولى (٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال تشمل تعويضات نزع الملكية وأعمال الهدم والبناء.

المطاف ومقام إبراهيم

كان المطاف يضيق بأعداد الطائفين فى مواسم الحج أو غيرها، الأمر الذى استدعى التفكير فى إيجاد حل تمثل فى إزالة المبانى المقامة قرب الكعبة المشرفة مثل المبنى المقام فوق بئر زمزم، والمنبر، والمبنى المقام فوق "مقام إبراهيم".

وتحقيقاً لهذه الغاية، أزيل مبنى بئر زمزم، وجعل البئر من أسفل ثم تم توزيع البئر إلى عدة أسبلة موزعة على أبواب الحرم كما نقل المنبر إلى ناحية الشرق.

وقد بحث المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى موضوع إزالة البناء والزوائد المقامة فوق المقام، وخلص إلى أن معظم الزحام نشأ عن وجود الزوائد التى لا ضرورة لبقائها، وأن رفع هذه الزوائد يزيل عن الطائفين والقائمين والركع السجود، كثيراً من الضيق والحرج والمشقة.

واقترحت رابطة العالم الإسلامى فى مذكرة رفعتها لجلالة الملك فيصل، يرحمه الله، بتاريخ ١٣٨٤/١٢/٢٧هـ (١٩٦٤م) – ورقم ١٩٨٥، إزالة تلك الزوائد، وأن يجعل على مقام إبراهيم صندوق من البللور السميك القوى، على قدر الحاجة فقط، ويكون مدوراً وبارتفاع مناسب لئلا يتعثر به الطائفون، وبذلك تحصل التوسعة لهذا الجزء من المطاف، ويزول كثير من الضيق والحرج، كما يتسنى للكثير رؤية مقام إبراهيم عليه السلام عند رفع القواعد من البيت، وينتفى ما تظنه العامة من أن بداخل المبنى الذى كان موجوداً، قبراً لإبراهيم عليه السلام.

وتتبين لنا أهمية هذا الإنجاز فى تسهيل الطواف والصلاة، عندما نعلم أن مساحة مقصورة المقام كانت ٦×٣ أمتار (١٨ متراً مربعاً)، بينما لا يزيد حجم المقام نفسه عن ٤٠×٤٠ سم.

وهكذا صـــنع غطاء المقام من زجاج الكريســـتال الثمين، مع حاجز حديدى وقاعدة رخامية، أبعادها مجتمعة ١٨×١٣٠سـم، وبهذا توافرت مســاحة عرضــها خمســة أمتار تقريباً، فزادت فى عرض المطاف، وكان لها أثر ملموس فى تخفيف الرخام حول الكعبة المشرفة.

وقد بلغ قطر الغطاء الزجاجى (٨٠سـم) وسـماكته (٢٠سـم)، وارتفاعه (١٠٠سـم)، وأقيم على قاعدة نحاسـية ارتفاعها (٧٥ســم)، أما وزن الغطاء فهو (١٧٠٠) كيلو جرام، منها (٦٠٠) كيلو جرام وزن القاعدة النحاســية، واما القاعدة الرخامية فقد صـنعت من الرخام المحلى الممتاز، وصـبت بداخلها قاعدة خرسـانية مسـلحة، وأحيط المقام من الداخل بحاجز من المرمر، كى لا تتصل الخرسانة به، وبلغ ارتفاع الحاجز الحديدى ثلاثة أمتار تقريباً.

وقد احتفل بإزاحة الستارة عن الغطاء بتاريخ ١٨/ رجب/ ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م).

باب الكعبة المشرفة

فى جمادى الأولى من العام ١٣٩٨هــ (١٩٧٧م) كان جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود، يرحمه الله، يؤدى الصـــلاة داخل الكعبة المشـــرفة، فلاحظ أن بابها قد اعتراه البلى، وهذا الباب كان قد صـــنع عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٣م) فى عهد جلالـة الملك عبد العزيز آل ســـعود، يرحمه الله، وأمر جلالة الملك خالد بصـــنع باب جديد، بمواصفات متطورة، ليوضع بدل الباب الأول.

والواقع أن باب الكعبة المشرفة مؤلف من بابين أحدهما خارجى والثانى داخلى،

وبوشر فى وضع الدراسات التصميمية الفنية التى تكلفت (٣٠٠,٠٠٠) ريال، وقام بها مهندس متخصص فى الزخارف الإسلامية.

وبعد الموافقة على التصـميمات النهائية، أنشئت ورشة خاصة، يشرف عليها "شيخ الصاغة" فى مكة المكرمة مع عدد من الفنيين المهرة.

وتضـمنت التصـميمات النهائية، تحقيق الانسـجام بين سـتارة الكعبة المشـرفة وبابها، واعتماد خط "الثلث" فى كتابة الآيات الكريمة والكلمات الأخرى، مع تنفيذ أعمال الزخرفة، حفراً ونقشاً، بالذهب مع نسبة قليلة من الفضة.

وبعد اسـتكمال التجارب الأولية، بوشـر بالتنفيذ الفعلى، وتولت مؤسـسـة النقد العربى السـعودى تأمين كميات الذهب اللازمة، التى بلغت (٢٨٠) كليو جراماً، من عيار (٩٩٩,٩%) وتكلفت (١٣,٤٢٠,٠٠٠) ريال.

أمـا البـاب الـداخلى للكعبـة المشـــرفـة، ويـدعى "بـاب التوبـة"، فهو مطـابق للبـاب الخـارجى من حيث الزخرفة والخطوط والنقوش.

كذلك صُـنع قفل جديد للكعبة المشـرفة، حيث إن القفل القديم يعود عهده إلى أكثر من سـبعين سـنة حينذاك، وبذلك استكمل تجديد وتجميل كل ما يتعلق بقبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم.

وكما لاحظنا، فإن المغفور له خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، كان يولى شؤون الحرمين الشريفين عنايته واهتمامه ومتابعته من مختلف مواقع المسؤوليات التى حملها، وزيراً ونائباً ثانياً، ثم ولياً للعهد، ثم مليكاً، ومن هنا كانت مشروعات التوسعة والتطوير التى رعاها وأمر بتنفيذها، منطلقة من خبرة ميدانية شخصية، ومعرفة بأدق شؤون هذه المشروعات.

وقد تألفت مشروعات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد من – يرحمه الله - نوعيتين:

الأولى ـــ مشروعات التحسين والتجميل والتجهيز

الثانية ـــ مشروع توسعة جديدة للحرم المكى الشريف.

ومن أهم المشروعات الأولى:

تحسين سطح المسجد الحرام:

وقد نفذ هذا المشروع بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد يرحمه الله لتجميل سطح المسجد الذى يرتفع إلى خمسة وثلاثين متراً، وإعداده لاستيعاب مزيد من المصلين (بلغوا ثمانين ألف مصل)، وتناول هذا المشروع تحسين طريقة الدخول والخروج، بحيث يمكن للمصلين الدخول مباشرة من خارج المسجد إلى الطابق الأول، ثم الانتقال إلى السطح بواسطة سلالم كهربائية متحركة، يمكن التحكم فى حركتها صعوداً أو هبوطاً، ولكل مجموعة من السلالم المتحركة أربعة مسارات.

وقد قام هذا المشروع الذى بلغت تكاليفه (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال، على تجميع التمديدات الكهربائية والصوتية الموجودة على السطح، واحتوائها داخل قباب جميلة الشكل، وإبعادها عن مكان المصلين، ويبلغ قطر كل من تلك القباب خمسة عشر متراً، حوت التمديدات القريبة من أركان المسجد الأربعة، عند باب الفتح وباب الملك، وباب العُمرة، وباب الصفا.

الصيانة العامة ومشروعات أخرى:

وحفاظاً على كفاءة تشغيل مرافق المسجد الحرام المبارك، ونظافته، فهناك عقود أبرمت مع شركات سعودية متخصصة، أحدها للصيانة العامة والثانى لخدمات النظافة والفرش وخدمات السقى، والثالث لصيانة وتشغيل الأعمال الكهربائية

- نفذ مشروع شامل لتركيب مراوح كهربائية (٨,٠٠٠ مروحة)، وساعات إليكترونية، وفرش المسجد بالسجاد، واستبدال درج صحن المطاف بالرخام البارد (أى المقاوم للحرارة).

- نفذ مشروع لتجديد أربعة وخمسين باباً من أبواب المسجد (بكلفة ١١,٩٦٠,٠٠٠ ريال)، وآخر لإنشاء أربعة جسور للمسعى، ثم جسرين آخرين نفذا بعد إنجاز الجسور الأربعة، وبلغت تكاليف الجسور الستة (١٣,٠٩٣,٢٥٠ ريالاً).

- نفذ مشروع لإنشاء منظومة لإطفاء الحريق، ذات مصادر للمياه فى جميع أنحاء المسجد.

- نفذ مشروع لإنشاء شبكة لغسل المطاف فى أسفله.

- نفذ مشروع لإنشاء وحدات متكاملة من صنابير مياه زمزم، عند المطاف، والدور الأرضى، وما بين باب الفتح وباب العمرة، وباب العمرة وباب الملك، وباب الملك والصفا.

- بلغ عدد مصابيح الإنارة، من مختلف الأنواع والأحجام (٥٥,٠٠٠) مصباح، تتصل ببعضها بشبكة من الكابلات والأسلاك طولها (٣٥,٠٠٠) متر، ويستهلك المسجد بكل تجهيزاته الكهربائية طاقة مقدارها (٨) ميجاوات.

التوسعة الجديدة

لقد هدف مشروع المغفور له خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود لتوسعة المسجد الحرام المبارك توسعة جديدة، تواجه الأعداد المتزايدة من الحجاج والمعتمرين والزائرين، وتوفر لهم مكاناً يصلون فيه وكان توجيه خادم الحرمين الشريفين هو تنفيذ أقصى توسعة ممكنة للمسجد الحرام المبارك، لرفع طاقته الاستيعابية إلى أكبر حد، والاستفادة من كل فراغ يمكن الاستفادة منه لتوفير مزيد من الأماكن للصلاة فى المسجد، أو فيما حوله.

إضافة جديدة إلى الحرم:

على صعيد التوسعة بإضافة مساحة جديدة إلى الحرم، تبلغ مسطحات هذه المساحة (٧٦,٠٠٠) متر مربع، وتتناول توسعة المسجد من الناحية الغربية فى منطقة "السوق الصغير" من باب العمرة وباب الملك، مما يستوعب حوالى (١٤٠,٠٠٠) مصل، فى الطابق الأرضى، والطابق العلوى والسطح.

وهذه بعض المعلومات عن هذه التوسعة:

- يضم مبنى التوسعة مدخلاً رئيسياً جديداً، و (١٤) مدخلاً فرعياً، ومدخلين للطابق تحت الأرضى (البدرون)، إضافة إلى المداخل الحالية، وهى ثلاثة مداخل رئيسية، و (٢٧) مدخلاً فرعياً، و (٤) مداخل للطابق تحت الأرضى.

- يتضمن مبنى التوسعة مئذنتين جديدتين، ارتفاع كل منهما (٨٩) متراً، وتتشابهان فى شكلهما مع المآذن السبع، وبذلك يصبح عدد المآذن تسعاً.

- يقام مبنيان للسلالم الكهربائية المتحركة، أحدهما شمالى التوسعة والآخر جنوبه، ومساحة كل منهما (٣٧٥) متراً مربعاً، وفى كل مبنى مجموعتان من السلالم الكهربائية المتحركة، تحمل (١٥,٠٠٠) شخص فى الساعة إلى سطح المسجد، علاوة على الأدراج الثابتة، بما يحقق الكفاءة التامة أوقات الذروة، وبذلك يصبح عدد مبانى السلالم المتحركة خمسة، تنتشر حول محيط الحرم والتوسعة.

- يبلغ عدد الأعمدة فى التوسعة الجديدة (٤٩٢) عموداً، قطر كل منها (٧١) سم للأعمدة المستديرة، وطول ضلع كل عمود (٧١) سم من الأعمدة المربعة، المكسوة بمادة "إيبوكس – موزاييكو" أو بالرخام.

- ارتفاع الأعمدة فى الطابق الأرضى (٤,٢١٥)م، وفى الطابق الأول (٥,٠٤)م.

- بلاط سطح التوسعة من الرخام البارد (المقاوم للحرارة).

- العقود والمقرنصات (الكرانيش) كسيت ببلاط من الحجر الصناعى، والأعمدة الدائرية بالموازييك، والأعمدة المربعة بالرخام.

- بلطت الأرضيات برخام مزين بزخارف إسلامية، وإجمالى مساحتها (٧٥,٠٠٠) متر مربع، أما الساحات الخارجية فقد بلغت مساحة الرخام الذى بلطت به (٤٦,٠٠٠) متر مربع.

- النوافذ، على اختلاف أنواعها، صنعت من نوع خاص من الألمونيوم الأصفر المخروط، وهى مماثلة لنوافذ الحرم السابقة، واستوحيت فى تصميمها وتنفيذها أسس الزخرفة الإسلامية الدقيقة.

- أنشئت محطتا تحويل كهربائية، طاقة كل منها "ميقا – فولت/ أمبير واحد"، وهذه الطاقة تعادل استهلاك المسجد بأكمله من الكهرباء، وهما محطتان احتياطيتان.

- روعى إخفاء جميع التمديدات الكهربائية، وتجهيزات التهوية، وربطت بأجهزة مراقبة وتحكم إليكترونية.

- تناول مشروعات التوسعة، امتداد شبكة الإذاعة الداخلية، لإيصال الصوت إلى جميع أنحاء المسجد.

- نفذت فى المشروع طريقة جديدة للتهوية والتبريد، ففى الطابق تحت الأرضى تمت التهوية بدفع الهواء البارد بمراوح مركزية عبر مرشحات (فلترات) تنقى الهواء من الغبار، وتطرد الهواء الفاسد من الأبواب الخاجية، ومن الواجهة المقابلة لساحة الحرم، وفى الطابقين الأول والأرضى، تتم التهوية بصورة طبيعية، من خلال النوافذ المتقابلة، مع استخدام مراوح تقليب الهواء على الأعمدة لتخفيف الحرارة إلى أقل قدر مستطاع

حجر الأساس

فى يوم الثلاثاء ٢ صفر ١٤٠٩هـ (١٣ سبتمبر ١٩٨٨م)، أقيم احتفال كبير قرب باب الملك فى المسجد الحرام المبارك، رعاه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود يرحمه الله، وحضره جمع كبير من المسؤولين، ورجال السلك الدبلوماسى الإسلامى والعربى، وعدد من كبار الشخصيات الإسلامية.

وقد صرح المغفور له خادم الحرمين الشريفين، بهذه المناسبة، قائلاً:

"فى الواقع، إن ما شاهدناه وسمعناه من شرح معالى وزير الحج والأوقاف، ومن المسؤول عن المشروع، قد أبرز الكثير مما سوف يتم.

أما بالنسبة لى، فإن شعورى هو شعور أى مواطن فى هذه البلاد، يرى هذا الإنجاز العظيم الذى سوف ينتهى – إن شاء الله – فى وقت قريب، قياساً على نوعية البناء التى كانت موجودة فى التوسعة الأولى.

وليس هناك شئ أستطيع أن أقوله، أكثر من أن أشكر رب العزة والجلال، الذى مَن علينا جميعاً فى هذه البلاد، بأن نتمكن من القيام بهذه التوسعة التى سوف يكون فيها – إن شاء الله – الفائدة الكبرى لحجاج بيت الله الحرام".

ثم وضع خادم الحرمين الشريفين يرحمه الله، حجر أساس المشروع، باسم الله، وعلى بركة الله.

ومما يذكر أن جميع مشروعات التوسعة السعودية للحرم المكى الشريف، عنيت بتهيئة الساحات المحيطة بالحرم، لأداء الصلاة فيها لدى امتلاء داخل المسجد بالمصلين.

وقد احتوى مشروع الملك فهد، على تأمين الساحات المواجهة للتوسعة الجديدة وتجهيزها بحيث تستوعب أعداداً أخرى من المصلين.

ماء زمزم

يبلغ متوسط ما يستهلكه حجاج بيت الله الحرام من ماء زمزم، عشرة آلاف متر مكعب يومياً، بمعدل ضخ مقداره (٧٦٥) متراً مكعباً فى الساعة.

ولقد روعى خلال جميع مشروعات التوسعة السعودية لبيت الله الحرام، الحفاظ على بئر زمزم وعدم تأثره بأعمال الحفر والتعمير.

ومما تتوجب الإشارة إليه، أنه منذ أيام "هاجر" أم إسماعيل، عليه السلام، ومياه البئر تتدفق، باستثناء مرات قليلة نقص فيها ماء البئر عام (٢٢٣هـ) وعام (٢٣٤هـ)، وفيما عدا ذلك استمرت مياه البئر فى التدفق دون انقطاع، لتسقى حجاج بيت الله الحرام وعماره وزواره مهما بلغ عددهم.

ويعرف البئر الرئيسى باسم "زمزم الأم"، وتوجد فيه وحدات رخامية ذات صنابير من الكروم وحوض من الصلب غير قابل للصدأ.

وتوزع مياه زمزم فى جميع أنحاء المسجد فى مواقع تبدأ من الطابق تحت الأرضى، وتنتشر فى الطابق الثانى، وعند بعض الأبواب الكبيرة، وتلك المواقع عبارة عن ثلاجات تبرد المياه الواصلة إليها، وتقدمها عذبة سائغة إلى قاصدى المسجد، وهذا إضافة إلى أوعية حفظ البرودة (الترامس) التى يوجد منها ثلاثة آلاف ترمس، تزاد فى موسم الحج إلى خمسة آلاف.

وهناك سبيل الملك عبد العزيز المقام فى "الهجلة" والذى تُنقل منه يومياً أربعون طناً من مياه زمزم إلى المسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة.

ويتم التحكم فى سحب مياه زمزم وتبريدها، بواسطة الحاسب الآلى (الكومبيوتر)، كما يتم تمرير المياه تحت الأشعة فوق البنفسجية، زيادة فى الحرص على التعقيم، علماً بأن ذلك لا يؤثر على مذاق المياه أو لونها أو تركيبها، وأن المياه تصل إلى شاربيها دون أن يضاف إليها شئ.

فى مكة المكرمة وضع الله له بيتاً

(الكعبة المعظمة)

فى مكة وضع الله له بيتاً..
الكعبة المعظمة

لم تنل بقعة فى الدنيا على مر الأيام والعصور من الشوق والحب والاحترام والتقديس ما نالته الكعبة المشرفة، فإلى الكعبة المشرفة يتوجه المسلمون فى شتى ديارهم وأصقاعهم حين يؤدون فريضتهم المكتوبة أو حين يتهجدون ويركعون ويسجدون، وإلى الكعبة تحن قلوبهم وتهفو أفئدتهم ليأتون إليها حاجين أو معتمرين متطوعين وعابدين.

وحول الكعبة المشرفة نرى القائمين والعاكفين والطائفين والركع السجود والداعين والمبتهلين أناء الليل وأطراف النهار فى الغداة والعشى فى الحر وفى الجمر.. لا تتوقف مواكبهم ولا تنقطع جموعهم على مدى الساعات والدهور .

هكذا كانت الكعبة المشرفة ومازالت وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مقصد المسلمين على اختلاف أشكالهم وألوانهم عبر العصور المختلفة فإليها يتوجهون فى صلاتهم خمس مرات فى اليوم وتهوى إلى زيارتها نفوسهم وأفئدتهم.

قال عز من قائل فى محكم آياته:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ {آل عمران/٩٦}

هذا البيت الفريد فى تلك البقعة الطاهرة له من المكانة والقداسة والتبجيل فى نفوس البشر وعبر طول الزمن ما لم يحظ به أى بيت آخر.

ففى مكة وضع الله له بيتاً. وهذا البيت هو أول بيت وضع للناس على الأرض قبل أن يخترع الإنسان الهندسة ويعرف العلم.. وهذا البيت مازال فى مكانه منذ تاريخ البشرية على الأرض.. ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين قدسوا هذا البيت ولكن شعوباً أخرى وقبائل متعددة كانت تؤمن به وتحج إليه.. وقد حاول «أبرهة» نجاشى الحبشة أن يهدمه قبل الإسلام فدافع الله عن بيته وأرسل على أبرهة وجيوشه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

وقد عرفت شعوب كثيرة مثل الهنود والفرس.. والصابئة.. واليهود الحج إلى بيت الله.. وذلك كله قبل الإسلام.. وكانت الشهور التى يحجون فيها شهوراً حرماً.. يحرم فيها القتال لأن الرحلة إلى الله كانت رحلة سلام.. ومواكب الحجاج كانت حافلة قبل الإسلام بمواكب التجارة وفرق الفقهاء والخطباء والشعراء.. وكان الناس يشهدون خلال هذا الموسم منافع لهم فى رحلة الخير التى يذهبون فيها إلى الله. وكانوا يخلعون ملابسهم عندما يقتربون من حرم الكعبة ويطوفون ببيت الله.. وهم يؤمنون أن القوة السماوية العليا التى ليس كمثلها شىء.. «ستخلع» عنهم أوزارهم وتعيدهم كيوم ولدتهم أمهاتهم.. وهم لم يفعلوا ذلك فحسب بل إنهم كانوا يذبحون الذبائح ويضحون الأضحيات توبة إلي الله واستغفاراً له.

وكانت طوابير البقر والإبل التى يسمونها «بدناً» والجمل وغيرها تسير فى طوابير طويلة كهدية - أو هدايا - إلي الكعبة.. والله لن ينال لحومها بطبيعة الحال لكن يناله التقوى من الناس والتوبة إليه.. وكانوا يتركون هذه الأضـــحيات فى فناء الكعبة ذبيحة مســفوكة دماؤها.. وبعضـــهم كان يلطخ الكعبة بهذه الذبائح.. لأنها كفارة عن ذنوبهم - كل ذلك قبل الإسلام.

وكان أحد من الناس لا يســتطيع التعرض للهدى الذى توضـــع في أعناقه «قلادة» رمزاً على أنه مهدى إلى الكعبة.. والفقراء وكانوا يأكلون من هذا اللحم ويتبركون به.

ورغم أن الكعبة فى تاريخها الطويل بنيت أكثر من مرة إلا أن الحقيقة الثابتة أنها فى نفس المكان في قلب جبال مكة فى واد غير ذى زرع... ورغم أن الحجاج قبل الإســلام كانوا كفاراً لا يؤمنون بتعاليم الإســلام التى نعرفها إلا أنهم كانوا يعتبرون الحج إلى الكعبة مقدساً.. وهم عندما عبدوا الأوثان - الأصـنام - لم يجدوا لها مكاناً أفضل من الكعبة ليضعوها فيه.

وكان العرب من أهل مكة على درجة عالية من الذكاء فأدركوا أن هذا الموســم الكبير ينبغى الاســتفادة منه بطريقة أحسـن.. فكانوا «يسـتوردون» أصـناماً خاصـة بحجاج البلاد المختلفة أصـنام للهنود والصـابئة واليمن وغيرها.. وصـحيح أنهم كانوا يؤمنون أنفسـهم بهذه الأصـنام وصـحيح أن اليهود والنصـارى كانوا يعيشـون فى مناطق غير بعيدة منهم داخل الجزيرة العربية إلا أنهم لم يؤمنوا إيماناً كاملاً بهم.. وقد كانوا يعلمون بعض أخبار هذه الأديان فى موسـم الحج إلى الكعبة.. لكن فطرتهم التى لم تتلوث لم تنجح هذه الفلسـفات والأديان المحرفة فى أن تجذبهم إليها..

وقد اعترف فريق من أهل العلم منهم بوجود إله واحد لهذا الكون.. وقد استمع فريق منهم إلى أحاديث الرهبان عن المســيحية واليهودية.. وعرفوا بأنها من عند الله لكنهم لم يؤمنوا بانحرافها حول الكعبة التى بناها إبراهيم وإسماعيل فقد كانوا يستمعون إلى قصص آبائهم الأقدمين ومنهم من اهتدى إلى الحنفية السليمة وإلى تعاليم الله.. وكثير منهم اعتزل الأصـنام.. لكن فرقاً أخرى منهم كانت تتخذ الأصـنام وسـيلة للتقرب إلى الله ومنهم من أدخلوا مع الأصنام النجوم والكواكب والملائكة..

وعندما بدأ الإيمان بالأصنام يتزعزع قبل الإسلام بفترة قصيرة، اتجهت الأفكار إلى دين إبراهيم وإلى الطريق الذى كان يعرف بالحنيفية.. التى كانت تقترب من تعاليم الإســلام وتدعو إلى توحيد الله إله هذا الكون الواحد الأحد.. ومازالت عبادة الأصنام حول الكعبة تتحطم حتى وصل الإسلام وفتح الرسول ﷺ الكعبة وحطم الأصنام وقال قولته المشهورة.. "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"

الكعبة المشرفة سُرة الأرض وقلب العالم

الكعبة هى مركز الأرض:

ولابد لنا أن نذكر هنا تلك البحوث العلمية الفلكية التى كشـــفت لنا مؤخراً أن الكعبة هى مركز الأرض، وقد بنيت فى قلب مكة المكرمة.. وهى بحوث تناولها علماء بالدراســـة، وأثبتوا نظريتهم هذه فيها بالأدلة العلمية، وإذا أضفنا إلى ذلك ما هو مقرر فى التاريخ من قبل الإسلام وفى الإسلام من أن الحجر الأسود هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة، وأن هؤلاء الطائفين إنما يبدأون طوافهم من الحجر الأسود جاعليه عن أيسارهم، ويسيرون هكذا فى ســائر طوافهم إلى آخر أشــواطه، جاعلى الكعبة أيضــاً عن أيســارهم إلي أن يختموا طوافهم بلثم الحجر الأسود أيضاً فى إطار مسيراتهم المستديرة المستمرة الدوران سبعة أشواط وهما على أيسارهم، فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة للأرض، وعملية الطواف الذى يمشى فيه الطائفون صوب اليسار بالنسبة للحجر الأسود والكعبة معاً، وأضــفنا إلى ذلك كله نظرية دورة الكرة الأرضــية العامة الدائمة من هذه الناحية اليســارية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً مبدئياً يســيراً من ســر تقرير الطواف صــوب اليســار خلافاً للتيامن الذى تتبنى عليه آداب الإسلام فى الأعمال والأحوال ومختلف الشؤون الإسلامية الهامة. وندرك أيضاً بعض أسرار كون الكعبة مركز الأرض.

ونحن هنا نضيف إلي ما ورد آنفاً من كشف البحوث العلمية الفلكية أخيراً أن الكعبة مركز الأرض ـ نضيف إلى ذلك أن علماء العالم الإســلامى القدامى قد أشــاروا إلى هذا الموضــوع إشــارة صــريحة واضــحة فقد جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى قوله: (وقد جاء فى الأخبار أن أول ما خلق الله، فى الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهى سُــرة الأرض ووســط الدنيا. وأم القرى أولها الكعبة. وبكة حول مكة، وحول مكة الحرم، وحول الحرم الدنيا).

ورغم أن هذا البيت العتيق يمثل أصــــل الأرض ومنه دحيت.. كما أثبتت الآثار الصـــحيحة ذلك فإن الأجهزة العلمية الحديثة التى تدرس بوســـاطتها المواقع الطبوغرافية على الكوكب الأرضـــي.. أثبتت أن مركز تلاقى الإشعاعات الكونية تتلاقى عند مكة..

وهذا ما توصل إليه عالم أمريكى لم يدفعه إلي تلك الدراسة عقيدة دينية.. بل قام فى معمله مشدوداً بنشاط كبير مواصلاً ليله بنهاره.. وأمامه خرائطه عن الأرض وغيرها وآلاته وأدواته التى لا نعرفها فإذا به يكتشف الحقيقة.. نقطة الالتقاء الباطنية.. وراح يعيد النظر والعمل مأخوذا بروعة وآثار هذا الكشــف.. ربما عندها تبين له ما نادى به الإســـلام من قبل ذلك بأجيال.. فإذا بإعادة البحث تؤكد ما ظهر له.. فوقف مأخوذاً أمام هذا الســـر.. فخوراً بما قدر له من الوصـــول إليه.. مســـارعاً بعد التثبت منه إلى إعلانه.. ولعظمة هذه التجربة العلمية وآثارها مما يزيد المؤمن إيماناً.. ولأن لهذا الأمر خطورته قام من بعده عالم عربى كبير فى ذات تخصـــص ذلك العالم هو الدكتور حسين كمال الدين أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروى.. فقد قام بإجراء بحوث بقصد تعيين مواقيت الصلاة فى أى زمان وأى مكان فى الأرض يوجد فيه مســـلمون، وقد خلص من هذه البحوث إلي إثبات أن مكة المكرمة هى مركز الأرض اليابســة، ووضــع فى ذلك نظرية هندسية سماها: «الإسـقاط المسـاحى المكى للعالم» وعلى الوتيرة نفسها، وبالمنهج ذاته سار د. أحمد السيد دراج ـ أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة فى كتابه المهم «الكعبة المشــرفة سُــرة الأرض ووســط الدنيا».. فهو لا يكتفى بالروايات التاريخية المعروفة ولكنه يردف هذه الروايات بالأدلة والبراهين العلمية التى أضافها العلم الحديث لإثبات هذه الحقائق..

إذن فحج المسلمين لبيت الله الحرام هو الاستجابة للنداء الخفى للاتجاه إلي الموطن الإشعاعى الذى عنده تتلاقى القلوب والأفئدة بتقدير عليم خبير. والذى يقدر له زيارة - متحف الفضاء الأمريكى بمدينة واشنطن ويشاهد اللوحات الجغرافية التى وضعت لتبين ما كانت عليه الأرض، أو اليابس من الكرة الأرضية قبل انفصال القارات وتباعدها - وخاصة تلك اللوحات المتحركة - يخرج بانطباع أن الجزيرة العربية وبدقة أكبر، وبتحديد أكثر - الكعبة - بيت الله تقع في مركز الأرض، أو مركز اليابس من - الكرة الأرضية.

أسماء الكعبة المعظمة

تمكنت نتيجة البحث فى مختلف المراجع. من جمع عشرة أسماء للكعبة قبل الإسلام.

وقد ورد بعض هذه الأسماء في القرآن الكريم. وفى الحديث النبوى الشريف، وفى الشعر العربى الجاهلى، وفى الشعر المخضرم. وفى ا لمراجع اللغوية وغيرها.

١ - الكعبة:

من تلك الأسماء اسم «الكعبة» الذى ورد فى القرآن المجيد مرتين فى سورة المائدة.. فى الآيتين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾﴿المائدة٩٥/٩٦﴾

وورد هذا الاسم فى ا لقرآن الكريم يحمل فى طياته أنه كان اسماً معروفاً مُتَدَاولاً فى الجاهلية لهذا البيت العتيق.

واسم الكعبة وارد كثيراً فى الأحاديث النبوية، وفى كلام العرب المنثور، وفى المراجع اللغوية والتاريخية، والأدبية، وفى السيرة النبوية، وغير ذلك، وبديهى أن المعنى بهذا الاسم هو نفس «البيت الحرام» بمكة المكرمة. وتقول المراجع اللغوية المعتمدة: إن اسم الكعبة مشتق من مادة التكعيب فى اللغة العربية وهو: التربيع، أو مع الارتفاع قالوا: ومنه الكعب، سُمّى بهذا الاسم لنتوئه وخروجه من جانبى القدم.

وعثر على اسم «الكعبة» نصاً فى قصيدة مطولة يتحدث فيها الشاعر: جُمَاعة البارقى عن هجرات بعض أهل اليمن من الجنوب إلى الشمال. فقد ورد فى هذه القصيدة المسهبة التى تبدو على نسجها الصنعة قولها:

واحتوت منهم خزاعتها الكعـ	ـبة ذات الرسوم والآيات
أخرجت جُرهم بن يشجُب منها	عنوة بالكتائب المعلمات

ووجدت كلمة (الكعبة) المراد بها الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، فى ديوان الشاعر الجاهلى المشهور «النابغة الذبيانى» قال فى داليته المشهورة:

فلا لَعَمـر الذى مسّحـت كعبتــه | وما هُريقَ على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسخها | وكيـان مكــة بين الفيــل والسعــد

وقد نص شراح الديوان على أن المراد (بالكعبة) هنا هو (كعبة مكة المشرفة)..

واسـم (الكعبة) لا ريب أنه معروف ومتداول قبل الإسـلام لدى عرب الجاهلية: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وذكره في القرآن المجيد الذى نزل بلغة العرب الفصحى، فيه دليل قاطع على تداول العرب الجاهليين، لهذا الاسم العربى.

هذا وكان فى بلاد العرب كعبات أخرى مذكورة، غير هذه الكعبة التى بناها إبراهيم وإســماعيل ابنه عليهما الســلام وبيديهما، تنفيذاً لأمر الله جل جلاله، وقد أمر جل وعلا نبيه وخليله إبراهيم، أن يؤذن فى الناس بالحج، ففعل، ونعتقد أن الكعبات الأخرى التى أقامها العرب فى أنحاء بلادهم هو تقليد منهم للكعبة المقدسة فى مكة، فهن كعبات بنين على تقاليد الشرك لدى عرب الجاهلية. وبمجرد ظهور الإسلام اندثرن وأصبحن كلهن أثراً من الآثار التى يُحكى عنها.

٢ ـ البيت:

ومن أسماء الكعبة التى وردت فى القرآن الكريم مرات متعددة، اسم (البيت) ورد هذا الاسم موصوفاً بالعتيق وبالحرام وبالمحرم، ومضافاً إلى ياء المتكلم الذى هو ربنا (الله) جل جلاله. وذلك حسب ما يلى تبيانه:

أولاً: فى ســورة البقرة بالآيات الكريمة ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَــلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ﴿البقرة/١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿البقرة/١٢٧﴾ إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَـعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة/١٥٨﴾ .

ثانياً: فى سورة آل عمران، فى الآيتين الكريمتين:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْــتَطَاعَ إِلَيْهِ سَــبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران٩٦/٩٧﴾ .

ثالثاً: فى سورة المائدة فى الآية الثانية منها﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿المائدة/٢﴾

رابعاً: فى ســورة الأنفال، فى الآية ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُــدُّونَ عَنِ الْمَسْــجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الأنفال/٣٤﴾

خامســاً : فى ســورة إبراهيم فى الآية ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْــكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّــلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿إبراهيم/٣٧﴾

سـادسـاً: فى سـورة الحج فى الآيات ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَـيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿الحج/٢٦﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿الحج/٢٩﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿الحج/٣٣﴾ .

ســابعاً: فى ســورة الطور بالآية الرابعة منها: (وقد فســر ابن كثير تلك الآية: وهى قوله تعالى: وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿الطور/٤﴾ بأنه: (كعبة أهل السماء السابعة).

ثامناً: فى سورة قريش بالآية الثالثة منها.

وكما ورد اسـم «البيت» فى القرآن المجيد، كذلك ورد فى الأحاديث النبوية الشـريفة، مما هو مدون بالكتب المختلفة من كتب الحديث النبوى الشـريف، والسـيرة النبوية، والتاريخ، واللغة، وكذلك ورد اسـم «البيت» فى الشعر الجاهلى..

ولعل من أقدم من يُعزى إليه ذلك الشـعر من عرب الجاهلية هو: تُبع الأول (ولعله): أسـعد أبو كرب الذى قال بعض المؤرخين: أنه عاش فى القرن العاشـر قبل الهجرة.. وأنه قدم إلى مكة من إحدى غزواته فى العراق ماراً فى طريقه منها بيثرب، متجهاً إلى بلاده: (اليمن) بجنوب كل من يثرب ومكة.. وقد رووا أنه عظّم الكعبة وأكرم أهلها.. وأطعمهم وأسقاهم، وكسا الكعبة أول من كساها.. ورد ذلك فى حديث نبوى كريم. وقالوا: إنه لما انتهى من زيارته لمكة وأزمع التروع منها إلى اليمن قال هذا الشعر مباهياً بما صنع لمكة وللكعبة المقدسة:

وكسونا البيت الحـرام الـذى   حرم الله مُعصباً وبُروداً
وأقمنا به من الشـهر عشـراً   وجعلنا لبابـه أقليـداً
وخرجنا منـه نـؤم سهيـلاً   ورفعنا لواءنا المعقودا

وذكر الأزرقى فى أخبار مكة اسم (البيت العتيق) للكعبة وقال: إنما سميت الكعبة بالبيت العتيق من أجل أن الله أعتقها من الجبابرة.

٣ - البِنَيةُ:

ومن أسماء الكعبة قبل الإسلام أيضاً: (البنية) على وزن غنية.. قالت سبيعة بنت الأحب أو الأجب فى ذلك:

ولقد غزاها تُبع   فكسا بنيتها الحبير

وفى رحلة العبدرى، يقول صـاحبها: ويقال للكعبة: «البنية» اسم لها مشتق من البناء. وفى لسـان العرب لابن منظور: "والبنية على فعيلة: الكعبة لشـرفها إذ هى أشـرف مبنى.. وفى حديث البراء بن معرور: (رأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر) - يريد: الكعبة وكانت تدعى «بنية إبراهيم عليه السلام لأنه بناها.

٤ - الدوار:

ومن أسـماء الكعبة (الدوّار) بتشـديد الواو وتخفيفها مع فتح الدال المهملة قبلها، وضـمها. و«الدوار» فى كتاب الأصنام لابن الكلبى: الطواف حول الأصنام والأوثان وهذا نص كلامه:

"وكانت للعرب - حجارة غير منصـوبة يطوفون بها، ويعترون عندها أى يذبحون الغنم عندها - يسـمونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدوار".

٥ ـ القادس.. وناذر:

ومن أسـماء الكعبة أيضـاً «القادس».. وفى لسـان العرب: القادس «البيت الحرام» (مادة قدس) وقد ورد مثل ذلك أيضـاً عن «القادس اسـماً للكعبة، فى كل من كتاب «أخبار مكة» للأزرقى ومعجم متن اللغة لأحمد رضـا وكتيب أسماء الكعبة المشرفة.

وفى كتيب محمد المكى بن الحسين أيضاً رواية عن أحد مراجعه أن البيت سمى بذلك من التقديس والتطهير.. ومن أسـمائها أيضـاً: (ناذر) وذلك على ما ذكره كتاب أخبار مكة، ثم كتاب «مرآة الحرمين» وكتيب «أسـماء الكعبة المشرفة» لمحمد المكى بن الحسين.

٦ ـ القرية القديمة.. والقبلة:

ومن أسمائها أيضاً: القرية القديمة فقد ورد هذا الاسم فى شعر رَجزَى لشاعر جاهلى، يتحدث عن بعض تقاليد الجاهلية القريبة من الإسلام ألا وهى أجازة الإفاضة للناس من المزدلفة إلى منى.. قال:

خلوا الطريق عن أبى سيارة ... وعن مواليـه بنـى فزاره

حتـى يجيز سالمـاً حمـاره ... مستقبل القبلة يدعو جاره

فقد أجار الله من أجاره

هذا وقد سـمى الله الكعبة «قبلة» فى قوله جل من قائل:﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿البقرة/١٤٤﴾ وقال عبدالمطلب مخاطباً المولى جل وعلا، لما اقترب أبرهة من مكة يريد هدم الكعبة فى أبيات مشهورة:

إن كنت تاركهـم وقبلتنـا ... فأمـر مـا، بـدا لـك

أما اسـم المسـجد الحرام فهو من الألقاب القرآنية، جعل علماً على حريم الكعبة المحيط بها وهو محل الطواف ولم يكن يعرف بالمسجد فى زمن الجاهلية إذ لم يكن لهم صلاة ذات سجود، والمسجد مكان السجود، فاسم المسجد الحرام علم بالغلبة، على المساحة المحصورة المحيطة بالكعبة.

٧ ـ الحَمسَاء:

وجاء فى «القاموس المحيط» للفيروز آبادى اسـم آخر، للكعبة هو: «الحمسـاء». قال ما نصـه: والحُمس: الأمكنة الصـلبة، جمع أحمس، وهو لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم فى الجاهلية لتحمسـهم فى دينهم، أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها أبيض إلى السواد.

٨ ـ المُذَهب:

ومن الأسماء التى سميت بها الكعبة فيما أورده صاحب القاموس المحيط أيضاً (مادة ذهب): اسم (المُذهَب).

٩ ـ الإلاُ:

وأورد محمد المكى ابن الحسين أن من أسماء الكعبة عن الزبير بن بكار، اسم (الآل) ككتاب.. وفسر بذلك قول النابغة الذبيانى فى البيت التالى: استناداً إلي «مستدرك التاج».

بمصطحبات من لصاف وثبرة يزرن الإلا سيرُهن التدافع

١٠ ـ بكة

كما أورد محمد المكى بن الحسين أن من أسماء الكعبة أيضاً (بكة) فروى عن زيد بن أسلم قوله: بكة، الكعبة والمسجد (نقلاً عن ياقوت الحموى.. فى معجم البلدان، والمشهور أن بكة اسم لمكة كلها. والباء والميم فى اللغة العربية تتبادلان فى النطق. ومما يثبت أن بكة اسم لمكة لا للكعبة قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران٩٥/٩٦﴾ . فجعل الكعبة – نصاً – فى بكة، أى (مكة) .

وصف الكعبة

فى وسط المسجد الحرام بناء فخم يمثل حُجرة كبيرة مرتفعة البناء مربعة الشكل تقريباً، هى المعروفة بالكعبة أو بالبيت الحرام والواجهتان الظاهرتان الواجهة الشرقية والواجهة الجنوبية وترى به الكسوة وحزامها المقصب وإزارها الأبيض وستارة الباب مطوية والحجاج متزاحمون لتقبيل الحجر الأسود ، وفى جدار الكعبة الشرقى ميل إلى الشـمال بنحو ٢٠ درجة، وكذلك يميل جدارها الشـمالى إلى الشـرق ٢٠ درجة أيضـاً، وارتفاعها ١٥ متراً، وطول ضلعها الشمالى ٩,٩٢ أمتار، والغربية ١٢,١٥ متراً، والجنوبية ١٠,٢٥ أمتار، والشرقية ١١,٨٨ متراً، وفى الضلع الشرقى بابها ويرتفع عن الأرض بنحو مترين، وارتفاعه هو متران وعتبته مصفحة بصفائح الفضة، وكذلك مصـراعا الباب إلا أن صـفائحه الفضـية مطلية بالذهب، وكذلك قفل الباب وذلك من مدة خلافة السـلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ هــ، وعلى الباب ستارة مزركشة آية فى الجمال وهى من ضمن كسوة الكعبة ويصعد إلى الباب على مدرج من خشـب مصـفح بالفضـة، ويلاصـق جدر الكعبة من أسـفلها بناء من الرخام يسـمى بالشـاذروان أقيم تقوية للجدران، وهو يحيط بها من جهاتها الأربع، وارتفاعه فى الجهة الشـمالية ٥٠ سـنتياً فى عرض ٣٩، ومن الجهة الغربية ارتفاعه ٢٧ فى عرض ٨٠، ومن الجهة الجنوبية ارتفاعه ٢٤ فى عرض ٨٧، ومن الجهة الشـرقية ارتفاعه ٢٢ فى عرض ٦٦، قال أبو حامد الاسـفراييني وابن الصـلاح والنووى وغيرهم: أصل الشاذروان ما نقصته قريش من عرض جدر أساس الكعبة حين ظهر على الأرض كما هو عادة الناس فى الأبنية، وهو عند الشـافعية والمالكية من البيت فالمطاف بعده، وليس من البيت عند الحنفية ومذهب الحنبلية أن الاحتراز عنه مطلوب إلا أن ترك الاحتراز لا يفسد الطواف، ولا يعلم متى بدئ البناء على أصل الشاذروان، وقد جدد البناء عليه مرات فبنى فى سنة ٥٤٢ هـ. وفى سنة ٦٣٦ و٦٦٠ و٦٧٠ و١٠١٠ هـ. وبين ذلك وقبله وبعده.

وفى الركن الجنوبى الشـرقى للكعبة من الخارج الحجر الأسـود الذى هو مبدأ الطواف، ويرتفع عن الأرض متراً ونصفاً والحجر أسود اللون ذو تجويف وعمل له فى سنة ١٢٩٠ هـــ. غطاء من الفضة، فى وسطه فتحة مستديرة قطرها ٢٧ سنتيمتراً.

ويواجه ركن الحجر من البلاد الجزء الجنوبى من بلاد الحجاز إلى عدن وهرر ومدغشـقر وأسـتراليا وجنوب الهند والصين.

وركن الكعبة الشـمالى الشـرقى يسـمى بالركن الشـامى والعراقى ويواجهه من البلاد الجزء الأكبر من بلاد الحجاز والعجم وتركستان والعراق وشمال الهند والسند والصين وسبيريا.

وركن الكعبة الشـمالى الغربى ويسـمى بالركن الغربى يسـامته من الجهات غرب روسـيا وجميع أوروبا والأستانة وبلاد المغرب ومصر إلى الشلال.

وركن الكعبة الغربى الجنوبى ويسمى بالركن اليمانى يسامته من البلاد الجزء الجنوبي من أفريقيا من سواكن على البحر الأحمر والرأس الأخضر على المحيط الأطلسى إلى رأس الرجاء الصالح، فكل جهة تستقبل ركنها: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة/١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿البقرة/١٤٩﴾ .

الكعبة من الداخل

والكعبة مبنية من الحجارة الصماء ذات الحجم الكبير واللون الأزرق، أما شكل الكعبة من الداخل، فمربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها. وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى. وهذه الأعمدة موجودة من عهد عبدالله بن الزبير وهى غالية القيمة جداً. ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جلّ جلاله). وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى ﷺ. ويحيط ببناء البيت من الداخل هامش من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين.

وداخل البيت ألواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة.

وبداخل البيت ثلاثة أعمدة من خشب العود الماوردى الجيد، قطر الواحد منها ربع المتر وهى على صف واحد من الشمال إلى الجنوب وعلى يمين الداخل للكعبة فى زاوية الركن الشمالى الشرقى باب يصعد منه على مدرج إلى أعلى الكعبة يقال له: باب التوبة مسدولة عليه ستارة من الحرير المزركش. وسقف الكعبة منقوش بالنقوش العربية البديعة ومعلق به هدايا ثمينة أهداها إليها الملوك فى الأزمنة المختلفة. وفى سنة ١٢٩٥ هـ. فرش السطح بألواح المرمر وبدائره من الجهات الأربع حلقات تربط بها الكسوة الخارجية حتى تكون مسدولة على الجدر، كما أنه يوجد فى الشاذروان حلقات تربط بها من الأسفل وهى مصنوعة من النحاس الأصفر، وفى شمالى الكعبة الحطيم - وهو ما حطم من الكعبة وكسر - وهو بناء مسدير على شكل نصف دائرة ارتفاع ١,٣١ متراً، وعرض جداره من الأعلى ١,٥٢ مترا، ومن أسفل ١,٤٤ متر، وهذا البناء مغلف بالرخام وأحد طرفيه محاذ للركن الشامى والآخر محاز للركن الغربى وسعة الفتحة التى بين طرفه الشرقى وآخر الشاذروان ٢,٣٠ متر، وسعة الفتحة الأخرى التى بين طرفه الغربى ونهاية الشاذروان ٢,٢٣ متران، والمسافة التى بين طرفى نصف الدائرة ثمانية أمتار، ووراء الحطيم بمسافة اثنى عشر متراً المطاف. والأرض التى بين جدار الكعبة الشمالى وبين الحطيم هى المعروفة بالحِجر، ويدخل إليها من الفتحتين السالفتين وهى مفروشة بالرخام والمسافة من منتصف جدار الكعبة الشمالى ووسط تجويف الحطيم من الداخل ٨,٤٤ أمتار.

وفى أعلى الجدار الشـمالى في منتصـفه الميزاب الذى وضـع لتصـريف ماء المطر الذى ينزل على سـطح الكعبة، وهو من الذهب أرسله السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٧٠ هـ.

وما بين ا لحجر الأسـود وباب الكعبة يسـمى بالملتزم، لكون الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه وكان ﷺ يدعو فيه.

أما المطاف فإنه يحيط بالكعبة كما قدمنا وقد قيست المسـافة بينه وبين جدر الكعبة الأربعة فكانت هى ١٣,٢٥ متراً من الجهة الشـرقية و٢٠,٤٤ متراً من الجهة الشـمالية و١٦,١٥ متراً من الجهة الغربية و١٤,٧٥ متراً من الجهة الجنوبية.

غسيل الكعبة

ولغسـل الكعبة احتفال عظيم، يحضـره كبار الشـخصـيات والحجاج، فيدخل شـريف مكة فيصـلى ركعتين، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسـل أرضـها بمكانس صـغيرة من الخوص، ويسـيل الماء من ثقب فى عتبتها، ثم يغسـلها بماء الورد، ثم يضـمخ أرضـها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بأنواع الأدهان العطرية، وفى أثناء ذلك يكون البخور متصاعداً فيها. ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى استخدمها فى غسل الكعبة، فيتهالك الواقفون عليها، فمن حصل على واحدة عدها من الذخائر التى لا تقدر بمال.

الكعبة المشرفة ومراحل عمارتها على مر العصور

الكعبة المشرفة ومراحل عمارتها على مر العصور

قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران٩٦/٩٧﴾ . قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله (إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين). اختلف أهل التأويل فى تفسير ذلك فقال بعضهم. تأويله: إن أول بيت وضع للناس يعبد الله فيه مباركاً وهدى للعالمين للذى ببكة، قالوا وليس هو أول بيت وضع فى الأرض لأنه كان قبله بيوت كثيرة، وقال آخرون: بل هو أول بيت للناس، ثم قال: والصواب من القول فى ذلك ما قال جل ثناؤه فيه (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى). ومعنى ذلك أن أول بيت وضع للناس أى لعبادة الله فيه مباركا وهدى يعنى بذلك ومآبا لنسك الناسكين وطواف الطائفين تعظيما لله وإجلالا له للذى ببكة لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ، وذلك ما حدثنا به محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن سليمان عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول؟ قال "المسجد الحرام" قال ثم أى؟ قال: "المسجد الأقصى" قال كم بينهما قال: "أربعون سنة" فقد بيّن هذا الخبر عن رسول الله أن المسجد الحرام هو أول مسجد وضعه الله فى الأرض على ما قلنا.

قال التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام ما ملخصه: لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت عدة مرات، واختلف فى عدد البنايات ويتحصل من مجموع ما قيل فى ذلك أنها بنيت عشر مرات بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء الخليل وبناء العمالقة وبناء جُرهم وبناء قصى بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج بن يوسف الثقفى، ثم بين أن بنايات الملائكة وآدم وأولاده لم يأت بها خبر ثابت، وأما بناء الخليل فجاء به القرآن والسُنة قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿البقرة/١٢٧﴾

رويات حول الكعبة قبل إبراهيم

قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة، بعد نزوحهما من فلسطين إلى بلاد الحجاز، بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهو ما يؤكده القرآن الكريم، ويجمع عليه المؤرخون ولكن يخلو لبعض المؤرخين أن يذكروا بعض الروايات التى تدور حول تاريخ بناء الكعبة، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولاً وجذوراً تمتد إلى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل، ويصبح الخيال الواسع عنصراً بارزاً فى بعض الروايات. واختلاف بعض الروايات وتناقضها، وعدم موافقتها للكتب السماوية، يجعلنا لا نؤمن بصحتها. ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة، لا نرى بأسا من أن نذكر بعض هذه الروايات التى حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين، فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم، وهى محط أنظار القراء فى كل زمان، وحتى يمكننا أن نناقش هذه الروايات ونحكم عليها حكماً تاريخياً منهجياً.

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض، ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام أو إلى ابنه (شيث). ولكن هذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلى قديم. وجميع الشواهد تؤكد أن وادى مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذى زرع، لا يسكنه أحد، لعدم توافر وسائل الحياة.

أما المؤرخون الذين ينسبون بناء البيت إلى الملائكة، فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة/٣٠﴾ . وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم، فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب، وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهو يقولون: "لبيك اللهم لبيك، ربنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك" فنظر الله عز وجل إليهم، ونزلت الرحمة عليهم، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور، ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت، ودعوا العرش. فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة، كما يذكر المؤرخون، من سكان الأرض، أن يبنوا فى الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفى عام، وكانوا يحجون إليه. فلما حج آدم إلى هذا البيت قالت الملائكة له: "بر حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفى سنة.

وروى العمرى فى كتابه "مسالك الأبصار" عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "خلق الله البيت قبل الأرض بألفى عام، وكان عرشه على الماء زبدة بيضاء، فدحيت الأرض من تحته" وأسند العمرى هذه الرواية إلى مجاهد وقتادة والسدّى. وأسند العمرى إلى قتادة أنه قال: "ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم، وحين أهبط قال الله: أهبط معك بيتى يطاف به كما يطاف حول عرشى. فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين، حتى إذا كان زمن الطوفان، رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض، فصار معموراً فى السماء، ثم إن إبراهيم تتبع منه أثراً بعد ذلك، فبناه على أساس قديم كان قبله".

وقال عطاء بن أبى رباح: وجه آدم إلى بكة – مكة – حين استوحش، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فى دعائه. فلما انتهى إلى بكة، أنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه، فذلك قوله تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت).

وروى أبو الوليد الأزرقى بسنده عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، قال: إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة، فقال ابنوا لى بناء فى الأرض مثل البيت وقدره. وأمر الله من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. قال: وكان هذا قبل خلق آدم، عليه السلام، والله أعلم.

ومن الروايات التى تدور حول بناء آدم البيت، رواية تفرد ابن لهيعة فى نسبتها إلى الرسول ﷺ، أنه قال: "بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لى بيتاً، فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل، حتى إذا أجابه الماء، نودى من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنى أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت. ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد فيه".

وينسب بن قتيبة فى كتابه "المعارف" بناء الكعبة إلى شيث بن آدم، فروى: "كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه، وكان وصى أبيه وولى عهده، وهو الذى ولد البشر كلهم، إليه انتهى أنساب الناس، وهو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة، وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة". ويروى العمرى: "وقيل إن آدم أول من بناها – أى الكعبة – وقيل شيث بن آدم، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم". ولكن العمرى بعد أن عدد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على يد الملائكة أو على يد آدم، أو على يد ابنه شيث.

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون، ولا نرى بأساً من ذكر بعضها، فيذكر المؤرخ المسعودى أن قوم عاد لما أصابهم القحط "وفدوا إلى مكة يستسقون، وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يشيد بناءها إبراهيم، وكان ربوة حمراء" وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين، فيذهبون إلى أنه كان فى مكان الكعبة معبد قديم للعماليق، اندثر واختفى، قبل قدوم إبراهيم إلى بلاد الحجاز، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس، حتى إن المصريين القدماء سموا بلاد الحجاز "البلاد المقدسة".

وقبل الكعبة، كان لبعض الأنبياء بيوت، فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم، وكان لإبراهيم بيوت فى وطنه، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد، وفيه آيات بينات[1].

بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام، ونزوحهما من فلسطين إلى مكة ببلاد الحجاز، مما يجعلنا نشير إلى قصتهما فى إيجاز.

---

[1] الكعبة على مر العصور د. على حسنى الخربوطلى

نشأ إبراهيم فى بلاد العراق، وكان أبوه نجاراً تخصص فى صناعة الأصنام التى كان يعبدها مواطنوه، وكان اشتراك إبراهيم مع أبيه فى تشكيل الأوثان دافعاً على العزوف عن عبادتها. حتى إذا أصبح شاباً، تسلل إلى المعبد وحطم الأصنام عدا كبيرها، وسأله مواطنوه ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ﴿الأنبياء ٦٢/٦٣﴾ . وعاقب الوثنيون إبراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه فى النار، ولكن الله عز وجل جعلها برداً وسلاماً. وخرج إبراهيم إلى فلسطين ناجياً بنفسه وبزوجه سارة.

ثم رحل إبراهيم إلى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس (العماليق)، وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن. وأعلن إبراهيم بين الناس أن سارة أخته حتى ينجو من القتل. وانتزع الملك سارة من إبراهيم، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بإبراهيم، فرأى الملك فى نومه أن سارة ما هى إلا زوجة إبراهيم، فندم وأعادها إلى زوجها، ومنحه كثيراً من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر.

وكانت سارة لم تنجب لإبراهيم، ودفعتها عاطفة الأمومة إلى أن تطلب من إبراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلاماً يقر الله به عيونهما فأنجب إبراهيم من هاجر ولداً أسموه إسماعيل. وبعد فترة أنجبت سارة ابنها إسحاق.

وتساوى عطف إبراهيم على ولديه، إسماعيل وإسحاق، ولكن سارة غضبت من أن يساوى زوجها بين ابن جاريتها وابنها، وهى الحرة. وأصرت سارة على أن يخرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بعيداً عنها. فخرج بهما من فلسطين إلى الحجاز، وانتهى إلى الوادى الذى قامت فيه مكة فيما بعد. وكان وادياً فقراً غير ذى زرع، تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية. وفى ذلك يقول الطبرى: "وأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتى مكة وليس يومئذ بمكة بيت". وترك إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر، بعد أن ترك لهما اليسير من الطعام والماء، وعاد إلى فلسطين حيث ترك سارة وإسحاق.

تحدث المؤرخ المسعودى عن المكان الذى نزل فيه إبراهيم وهاجر وإسماعيل، فقال: "ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر، واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذى زرع، وكان موضع البيت ربوة حمراء، أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً".

وفرغ الطعام والماء، وتعالت صيحات الطفل، وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشاً وجوعاً، وغادرت مكانها لتبحث عن الماء، مما يدفع عنهما الهلاك. وأخذت تهرول بين الصفا والمروة، حتى إذا أتمت السعى سبع مرات، عادت إلى إسماعيل، فإذا به يفحص الأرض بقدمه، حيث نبع الماء من الأرض، وظهرت بئر زمزم، وكتب الله لإسماعيل وأمه النجاة.

ويروى الطبرى أن الله عز وجل أنزل جبريل ففجر هذه البئر، وقد بشر جبريل هاجر بعودة إبراهيم فى يوم ما وبنائه الكعبة، قال الطبرى: "وقال لها الملك: لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد، فإنها عين لشرب ضيفان الله، إن أبا هذا الغلام سيجئ فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه".

وصادف أن مرت قبيلة جُرهم بهذا المكان، فشاهدت طيوراً تحلق فى السماء، فأدركوا أن هناك ماء، وعجبوا من ذلك، فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفراً جدباً، وعثرت جُرهم على هاجر وابنها، واستأذنوا منها فى الإقامة إلى جانب هذه البئر، فأذنت لهم. وشب إسماعيل فى قبيلة جُرهم، وتعلم منهم اللغة العربية، فيقول المسعودى: "وأذنت لهم فى النزول، فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم، وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادى مطمئنين، مستبشرين بالماء، مما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام، فرحين، وعيل إسماعيل، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه".

مقدمات بناء الكعبة:

مرت السنون، وماتت هاجر وهى فى التسعين من عمرها، وأصبح إسماعيل شاباً يافعاً، وتزوج إحدى فتيات قبيلة جرهم، وتدعى الجداء بنت سعد. وفى يوم استاق إبراهيم لرؤية ابنه إسماعيل، فاستأذن من زوجته سارة فى الرحيل، فأذنت له، وقصد إبراهيم إلى دار إسماعيل، وكان حينئذ غائباً فى رحلة صيد، وطرق إبراهيم الباب، فخرجت له الجداء، فقال لها إبراهيم: أين صاحبك؟ قالت: ليس هاهنا، ذهب يتصيد. فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة، هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندى، وما عندى أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه. وعاد إسماعيل من رحلته، وعلم بالقصة، فطلق زوجته، وتزوج من فتاة جُرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل.

ودفع الشوق إبراهيم إلى القدوم مرة أخرى إلى مكة ليرى ابنه إسماعيل، وأذنت له سارة بذلك واشترطت عليه أن لا ينزل عن جواده "فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجئ الآن إن شاء الله، فأنزل يرحمك الله. قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم. قال: هل عندك خبز أو برّ أو شعير أو تمر؟ فجاءت باللبن واللحم. فدعا لهما بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز أو برّ أو تمر أو شعير لكانت أكثر أرض الله برّاً أو شعيراً أو تمراً.

ويروى المسعودى رواية عن تبشير إبراهيم ببناء الكعبة، فروى: "وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول، فأبى فقد مت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد، فدعا فيه بالبركة، وجاءته بحجر كان فى البيت، فمال عن ركابه، وجعلته تحت قدمه اليمنى، ثم رجلّت شعره ودهنته، ثم حولت الحجر إلى شماله، فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً ومال برأسه نحوها، فرجلته ودهنته، فأثرت قدماه فى الحجر، فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم، فقال لها إبراهيم: إرفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين. ثم قال لها: إذا جاءك إسماعيل فقولى له: إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك: احتفظ بعتبة بيتك، فنعمت العتبة هى، وسار إبراهيم راجعاً نحو الشام".

تطورت مكة، وزاد عدد سكانها، فقد علمت بطون جُرهم والعماليق بحلول الماء والخصب فى مكة، فأقبلوا على النزول بها، وأصبح الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى زعيم أهل مكة.

بناء الكعبة

قدم إبراهيم مرة أخرى إلى مكة، وكان إســماعيل حينئذ فى الثلاثين من عمره، وفى هذه المرة أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة، وتعاون الأب والابن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى.

وروى المؤرخون كثيراً من الروايات حول بناء الكعبة. ومن أدق هذه الروايات وأوجزها، ما رواه الطبرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: "جاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم. فقال إبراهيم: يا إســماعيل إن ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتاً. فقال له إســماعيل: فأطع ربك فيما أمرك. فقال إبرهيم: قد أمرك أن تعيننى عليه. قال: إذاً أفعل. فقام معه. فجعل إبراهيم يبنيه وإســماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿البقرة/١٢٧﴾، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة، قام على حجر، وهو مقام إبراهيم، فجعل يناوله ويقولان: تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذى أمره الله عز وجل ببنائه أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج فقال له: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿الحج/٢٧﴾ .

الحجر الأسود:

مضى إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة كما أمرهما الله عز وجل، وأوشك البناء أن ينتهى، وبقى حجر واحد "فذهب الغلام يبنى شيئاً، فقال إبراهيم: لا، أبغ حجراً كما آمرك! فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتانى به من لم يتكل على بنائك، أتانى به جبرائيل من السماء.

الكعبة بعد تمام بنائها:

أتم إبراهيم وإســماعيل بناء الكعبة. ووصــف المؤرخ المســعودى البيت الحرام بعد تمامه فقال: "... وطوله ثلاثون ذراعاً، والحجر فيه وهو سبعة أذرع، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً، وسمكه سبعة أذرع. وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً، وسمكه سبعة أذرع. وجعل له باباً، ولم يسقف. ووضع الركبة موضعه، وألصق المقام بالبيت، وذلك قوله عز وجل: و﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿البقرة/١٢٧﴾ وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج".

ووصف صاحب كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" بيت الله الحرام بعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل من بنائه وصفاً مفصلا فقال: إن إبراهيم جعل ارتفاع البيت إلى اليسار تسع أذرع، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعاً، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الغربية أيضاً إحدى وثلاثين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى الجهة الجنوبية، أى من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب أيضاً مما يلى الجهة الشمالية، أى من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعاً، وجعل له بابين ملاصقين للأرض، أولهما فى الجهة الشرقية مما يلى الحجر الأسود، والآخر من الجهة الغربية مما يلى الركن اليمانى، على سمت الباب الشرقى. وحفر فى داخله بئراً تكون خزانة له، ولم يجعل عليه سقفاً، ولا وضع على بابيه أبواباً تفتح وتغلق.

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة. ففى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران/٩٦﴾ .

إبراهيم يؤذن بالحج إلى الكعبة:

بعد الفراغ من بناء الكعبة، أمر الله عز وجل إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج، كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿الحج/٢٧﴾ . وروى الطبرى عن بن عباس أن إبراهيم قال: يارب وما يبلغ صوتى. فقال عز وجل: أذن وعلى البلاغ. فنادى إبراهيم: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فسمعه ما بين السماء والأرض.

وروى الطبرى أيضاً أن عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثى عما بلغه عن دعوة إبراهيم الناس إلى الحج، فقال: "بلغنى أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك. وحضر الحج، استقبل اليمن فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب، فأجب أن لبيك اللهم لبيك، ثم إلى المغرب فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك".

وروى الطبرى أيضاً أن الرسول ﷺ قال: "أتى جبرائيل إبراهيم يوم التروية فراح به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى، ثم غدا به إلى عرفات فأنزله الأراك، أو حيث ينزل الناس، فصلى به الصلاتين جمعاً، الطهر والعصر، ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض حتى أتى به فصلى به الصلاتين جمعاً المغرب والعشاء،

ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس الفجر صلى به، ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين الفجر أفاض به إلى منى، فرمى الجمرة ثم ذبح وحلق، ثم أفاض إلى البيت، ثم أوحى الله عز وجل إلى محمد: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾﴿النحل/١٢٣﴾ .

وبعد بناء الكعبة، عاد إبراهيم إلى بلاد الشام، وترك وراءه ابنه إسماعيل، وقد أصبح رجلاً، وخليفة أبيه فى أمانته وملته الحنيفية. ثم كان تطور مدينة مكة، وقد قامت فى واد رملى شديد الضيق. حتى ليبلغ أقصى اتساع منه نحو سبعمائة خطوة، وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة، تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة قدم.

الكعبة بعد إسماعيل:

كانت زوجة إسماعيل الثانية هى ابنة زعيم قبيلة جُرهم مضاض بن عمرو، وقد رزق منها اثنى عشر ولداً هم: نابت وقيدار، وإدبيل، ومبسم، ومشمع، ودوما، ودوام، ومسا، وحداد، وثيما، ويطور، ونافش ثم مات وعمره ١٣٧ سنة، ودفن فى المسجد الحرام فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود، على مقربة من قبر أمه هاجر.

وبعد وفاة إسماعيل، قام بالإشراف على الكعبة ابنه نابت، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جُرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل. تحدث ابن هشام فى سيرته عما حدث لأولاد إسماعيل وجرهم بعد ازدياد عددهم فقال: "ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالهم من جرهم، ولاة البيت والحكام بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم، وإعظاماً للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال. فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، فوطئوهم".

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض، وكان ينزل مكاناً على مشارف مكة يدعى "قيقعان"، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها. فى حين كان ملك العماليق يدعى السميدع بن هوبر، وكان ينزل فى أسفل مكة، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته، وثار النزاع بين الملكين، ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة، وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم، وظلوا يشرفون على الكعبة ثلثمائة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام.

ثم طغت قبيلة جُرهم وتجبرت، وتهاونت فى المهمة الكبرى الموكولة إليهم، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها، وأساءوا إلى الحجاج، وتعالت أصوات الحجاج بالشكوى والاحتجاج، وكانت العناية الإلهية تحيط ببيت الله الحرام، فعاقب المولى عز وجل جُرهماً على طغيانها وتجبرها.

ونجح أولا إسماعيل فى أن يجمعوا شملهم ويوحدوا صفوفهم ونجحوا فى التغلب على قبيلة جرهم، وأخرجوهم من مكة، فلحقوا بجهينة، فأتاهم السيل فى بعض الليالى فذهب بهم، وكان الموضع الذى يقيمون فيه يسمى "إضم".

ثم صارت ولاية الكعبة فى ولد إياد بن نزار بن معد، ولكن قامت حروب عنيفة طويلة بين مضر وإياد، انتهت بانتصار مضر ورحيل إياد عن مكة إلى بلاد العراق.

ولاية خزاعة على الكعبة:

كانت قبيلة خزاعة تنزل تهامة، حتى ثارت الحرب بين إياد ومضر، ابنى نزار، وشعرت إياد بضعفهما وقرب هزيمتها، فخلعت الحجر الأسود من مكانه ودفنته فى بعض المواضع. ورأت ذلك امرأة من خزاعة، فأخبرت قومها، فأعلموا مضراً أنهم يعلمون المكان الذى أخفت فيه إياد الحجر الأسود، وأنهم يشترطون لإخبارهم بمكانه أن يعترفوا لهم بولاية أمور الكعبة، ونزلت مضر على رأيهم، وأصبح الإشراف على الكعبة منذ ذلك الحين لخزاعة.

يروى المؤرخون أن عمرو بن لحى الخزاعى هو الذى أدخل عبادة الأوثان فى مكة، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة، رحل إلى مدينة البلقاء بالشام ليستشفى من مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأوثان الذى أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها نستنصرها فتنصرنا، ونستسقى بها فنسقى. فقال: ألا تعطونى منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد إليه العرب؟ فأعطوه صنما، يقال له هُبل، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة.

كان عمرو بن لحى ثمرة زواج خزاعة وجرهم، فقد تمت مصاهرة بين القبيلتين، فتزوج أمير من خزاعة بأميرة من جرهم، فولد لهما عمرو بن لحى الذى أصبح أميراً لمكة، واتسع نفوذه إلى حد كبير، ولم يبلغ هذا النفوذ فى العصر الجاهلى سوى قصى بن كلاب وعبد المطلب، خضعت كثير من القبائل العربية لطاعة عمرو.

وكان العرب بمكة وما حولها قد تهاونوا فى عقيدتهم الحنيفية، دين التوحيد، الذى دعا إليه إبراهيم وإسماعيل، وأراد عمرو أن يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة، تحل محل الدين القديم. وقد رأى تساهل قومه فيه، بعد تقادم الزمن ومرور السنوات العديدة. وكان عمرو كثيراً ما رحل إلى الدول المجاورة فى الشام والعراق، واطلع على أحوالها، وشاهد عقائدها الوثنية، ورأى فيها وسيلة لإيجاد سند دنيوى مادى يعتمد عليه فى تدعيم نفوذه السياسى.

ولذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل، وأقام الأوثان عند الكعبة، ونصب كبيرها هُبل فى بطن الكعبة، وتعالت أصوات احتجاج من بعض العرب، وخاصة عرب جُرهم، يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التى ابتدعها زعيمهم، فأنشد رجل من جرهم كان يتمسك بدين الحنيفية:

يا عمرو لا تظلم بمكـ ـة إنها بلد حرام
سائل بعاد أين هم وكذلك تخترم الأنام
وبنى العماليق الذ ين لهم بها كان السوم

ولما أســـرف عمرو بن لحى فى نصـــب الأصـــنـام حول الكعبة، وأجبر العرب على عبادتها، مما هدد دين الحنيفية، أنشد شحنة بن خلف الجرهمى:

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابـــا

وكان للبيت رب واحـد أبـداً ... فقد جعلت فى النـــاس أربابــــا

لتعرفــن بأن الله فــى مــهــل ... سيصطفى دونكم للبيت حجاجـا

ولكن عمرو بن لحى نجح فى إخماد أصــوات الاحتجاج، بما كان يتمتع به من ســلطة ســياســية وعســكرية واقتصادية واسعة واستمرت قبيلة خزاعة تلى شئون الكعبة وتمارس الوثنية حوالى خمسة قرون.

ولاية قريش الكعبة:

ظلت خزاعة تتولى شــئون الكعبة، حتى برزت قبيلة قريش واســتطاعت أن تجمع شــملها وتوحد صــفوفها. وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة، من القرش وهو التجمع.

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشــاً، الذين منهم قصــى بن كلاب، الجد الرابع للرسـول ﷺ، هم من ولد كنانة، الذى يرجع نسبة إلى عدنان، وينتهى إلى إسـماعيل عليه السـلام، وإلى ذلك يشـير الحديث النبوى الكريم: "اختار الله من إسماعيل كنانة، واختار قريشاً من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار".

كان قصــى رجلاً حازماً طموحاً، تزوج من حيى ابنة حليل بن حبشــية زعيم خزاعة، وكان يتولى أمر الكعبة ومكة، وبدأ قصـــى يعمل على أن يكون الرجل الأول فى مكة، فيروى الطبرى: "فرأى قصـــى أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبنى بكر، وأن قريشـــاً فرعة إســـماعيل بن إبراهيم وصـــريح ولده، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومه يدعوه إلى نصرته والقيام معه".

واســـتجاب رزاح لدعوة أخيه وقدم مع قومه إلى مكة. ودار قتال عنيف بين الفريقين، ثم تداعوا إلى الصـــلح، وإلى تحكيم رجل من العرب، فقضى هذا الرجل بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة "وتملك قصى على قومه وأهل مكة فملكوه، فكان قصـــى أول ولد كعب ابن لؤى أصـــبح ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله، وقطع أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها".

وهكذا بدأت مكة تأخذ شكلها وطابعها. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصى أمرها. ويعللون ذلك بأن خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم، بل يذهبون إلى الحل. فلما تم الأمر لقصى فى مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا دورهم فى مكة، وابتدأ هو فبنى دار الندوة وفيها "كانت قريش تقضى أمورها" وكانت قريش أكثر قدرة من خزاعة على الإشراف على الكعبة وحكم مكة، واضطرت خزاعة إلى أن تقنع بالمرتبة الثانوية فى مكة.

لم تعرف القبائل العربية فى بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش، وإنما كان فى كل قبيلة نفر من "السادة" يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبى، ولم تكن واجبات السيد أو حقوقه محددة. أما فى مكة فقد أخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها، ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت إلى قريش على يد زعيمهما قصى بن كلاب.

اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال، وأخذوا على عاتقهم حمايته، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل. وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها، كما ارتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية. وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة. وزاد مجد قريش أنها فى مكة، وأن الكعبة فى مكة.

أثر الكعبة فى تطور مكة وحضارتها:

كتب الله لمكة بعد بناء الكعبة المجد والخلود، فقد أصبحت مكة موطن الكعبة ومقصد الحجاج. وبدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة فى عهد قصى بن كلاب، فقد نجح فى تنظيم مكة، والسمو بقبيلة قريش.

وكانت مكة مدينة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة، لها مبدأ ونهايتان، مبدؤها المصلاة، ومنتهاها من ناحية جدة "الشبيكة"، ومن ناحية اليمن "بازان"، وشكلها كالسلحفاة الرابضة، وبها جبلان اسمهما الأحبشان، وهما جبل أبى قبيس وهو المشرف على الصفا والجبل الأحمر أو الأعرف، وهو المشرف على قعقعان. وكان المسجد الحرام يقع فى وسط مكة بين هذين الجبلين، كما تقع الكعبة وسط المسجد الحرام. وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من جليل مقام، فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالاً، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم. وفيما وراء منازل قريش كانت تجئ منازل القبائل التى تليها فى الأهمية، ثم تلى هذه منازل من دونهم. أما القرشيون داخل مكة فهم بنو كعب بن لؤى، وعلى مقربة من مكة يعيش بنو عامر بن لؤى.

ولم تكن مكة تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية فى خيراتها أو ثرائها، فقد كانت تقع فى أجدب بقاع الجزيرة العربية، ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة بين ظهرانيها.

وأقبلت القبائل على سكنى مدينة مكة، فهى مدينة عريقة فى قدسيتها، إذ هى موطن الكعبة، وهى سوق زاخرة بأنواع التجارة المختلفة التى تفد عليها من أرجاء العالم، فكانت هذه القبائل تنزل مكة، وتبنى بيوتها من الحجارة والآجر، وبرغم فقر مكة فى الماء والإنتاج الزراعى، كانت مكانتها الدينية تعوض هذا النقص.

أصبحت مكة مركزاً للحياة الدينية فى الجزيرة العربية بفضل وجود الكعبة بها، كما أصبحت مركزاً للنشاط الاقتصادى وملتقى التجارة العالمية، وأصبحت مكة تعج بالحجاج والتجار من مختلف الأجناس والألوان والأديان، وتدفقت على مكة الثروات وألوان من الثقافة والنظم الاجتماعية.

نهجت قريش نهجاً ديمقراطياً، وكانت دار الندوة المقامة على مقربة من الكعبة تشبه البرلمانات المعاصرة، تتشاور قريش فيها فى مهام أمورها. ولم تشهد مكة حروباً قبلية مثل الحروب التى شهدتها أرجاء الجزيرة العربية فى تاريخها الجاهلى. فقد عملت قريش على تحقيق السلام فى مكة، وحفظت التوازن بين القبائل المختلفة، ولم تقحم نفسها فى الصراع القبلى. كما اهتمت بسوق عكاظ التى كانت تنعقد فى موسم الحج، وجعلتها قريش مسرحاً للأدب والشعر، تتسابق فيها القبائل إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء، فيتناشدون ويتحاجون ويفتخرون، ومن كان له أسير سعى إلى فدائه. وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجل يولونه الحكومة، أى الفصل فى ما يقع من خلاف. ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ، وفقوا فى عرفة، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويعودون إلى موطنهم فى سلام.

الأوثان عند الكعبة:

كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة، ولولاها لما استطاعوا المقام فى ذلك الوادى الجدب. ولما كانت أوثان الكعبة هى التى تجذب القبائل العربية إلى مكة ، ولذا اهتم القرشيون بشئونها، ويسروا قدوم الحجاج إليها، وأنشأوا فى مكة أماكن للسقاية، ووفروا الطعام، وجعلوا المنطقة المجاورة للكعبة حرماً لا يجوز فيه القتال، وتولى وجوه قريش سقاية ورفادة الحجاج، ونصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة، فكان لكل قبيلة أوثانها، تقدم فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وزاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلثمائة صنم.

ونجح سدنة الكعبة فى الاستفادة من هذه الأصنام، وجعلوها تدر عليهم أرباحاً طائلة، واقتبسوا فى ذلك بعض النظم الوثنية التى كانت سائدة حينئذ فى مصر واليونان والهند، فكان كل من يأتى ليستقسم بالأزلام أو ليستشير الأوثان يدفع رسوماً محددة، كما كان الوافدون يشترون حاجتهم من الطعام والماء والملابس إلى جانب نفقات إقامتهم،مما أدى إلى رواج تجارى فى مكة. ووفر أهل مكة للحجاج والتجار الحماية والأمن والسلام[1].

---

[1] الكعبة على مر العصور د. على حسنى الخربوطلى

الرسول ﷺ وإعادة بناء الكعبة:

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد، فرأوا تعليتها، وكان بابها لاصقاً بالأرض منذ عهد إبراهيم. فقال أبو حذيفة بن المغيرة: يا قوم، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم؛ فإن جاء ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالاً لمن يراه.

جمعت بطون قريش أحجاراً من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة، وبدأت البناء، حتى بلغ البناء موضع الركن، أى الحجر الأسود، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ إلى قامة الرجل، وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى بن كعب على الموت، وأعدوا جفنة مملوءة دما، وأدخلوا أيديهم فى هذا الدم، ولذا سموا "لعقة الدم". واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع.

وقف أبو أمية بن المغيرة، وكان أسن قريش، فقال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا.

وكان أول داخل هو محمد ﷺ، وكان قد اشترك معهم من قبل فى نقل الأحجار "وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه، وصدق لهجته، واجتنابه القاذورات والادناس، فحكّموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا إلى قضائه".

قال محمد ﷺ: هلم إلىّ ثوباً. حتى إذا أتى له بثوب، أخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لنأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً. فحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم قام محمد ﷺ بوضعه بيده فى موضعه.

أكملت قريش البناء حتى أصبح ارتفاع الكعبة ثمانى عشرة ذراعاَ، ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا يدخلها إلا من سمحوا له بذلك، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجاً يصعد بها إلى سطحه. ووضع هُبل فى داخل الكعبة، كما وضعت فى داخلها الذخائر التى تعرضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة.

وهكذا نجح محمد ﷺ، فى حسم الخلاف والنزاع، وجنب القرشيين القتال. فقال قائل من قريش: واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً، وأقلهم مالا، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً، أما واللات والعزى ليفوقهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم واستمع أبو طالب، عم الرسول ﷺ، إلى هذه العبارات فأنشد:

إن لنا أوله وآخره   فى الحكم العدل الذى لا ننكره
وقد جهدنا جهدنا ليغمره   وقد عهدنا أوله وآخره
فإن يكن حقاً ففينا أكثره

الكعبة بعد فتح مكة:

انتشـــر الإســـلام فى معظم أرجاء الجزيرة العربية. وجالت خواطر كثيرة فى نفس محمد ﷺ وهو فى المدينة. جعلته يفكر فى القيام بمشـروع كبير. فقد تذكر وطنه الأصـلى. وتذكر أسـرته وأقاربه، والسـنوات السـعيدة التى قضـاها فى مكة التى مازالت فى أيدى أعدائه المشـركين، وتذكر أن الكعبة التى يحج إليها أولاد إسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشـركين، فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده، ومقصداً للمسلمين.

أعد الرسول ﷺ حملة عسكرية لفتح مكة، وتحرير الكعبة من الأوثان ثم خرج على رأس عشرة آلاف مسلم، وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر دروب بين الجبال غير مطروقة، ونهى المسـلمون عن إصـدار صـوت أو دق طبول حتى لا يعرف المشـــركون شــيئاً عن تحركاتهم. وخلال الرحلة، قدم على الرســـول ﷺ عمه العباس ومعه أسرته، معلناً إسلامه.

أسرع أبو سفيان إلى مكة ليخبر أهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين، وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة، فصـاح فيهم: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى ســفيان فهو آمن. ولما كان أبو ســفيان ألد أعداء الرســـول ﷺ، فقد كان لكلماته أثرها فى نفوس أهل مكة، فلم يفكروا فى المقاومة، وباتوا ينتظرون قدوم محمد ﷺ إلى مكة.

تقدم الرسولﷺ إلى أبواب مكة، ممتطياً ظهر ناقته وعن يمينه سار أبو بكر، وسار خلفه أسامة بن زيد. دخل محمد أبواب مكة عند شروق الشمس، لا كدخول المنتصر الفائز، بل دخول حاج ورع فى ملابس الإحرام، وهو يرتل الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ﴿الفتح/١﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ ﴿الفتح/٢﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ﴿الفتح/٣﴾

اتجه الرسول ﷺ نحو الكعبة، حيث تذكر أحداث الماضى، وكيف كانت الكعبة مكاناً مقدساً عند الأجداد، وبيت الله الحرام، وطاف الرســـول حول هذا المكان المقدس ســـبع مرات، وفى كل مرة يلمس الحجر الأســـود. وأراد الرسول أن يدخل الكعبة، ولكن عثمان بن طلحة كان قد أغلق أبوابها. وأراد على بن أبى طالب أن ينتزع المفاتيح من عثمان، ولكن الرسول أمره بإعادتها إلى عثمان، وكان يتولى حجابة الكعبة، وتأثر عثمان من عطف الرسول، فأعلن اعتناقه الإسلام واستمر يتولى الحجابة.

تفرغ الرسول ﷺ لتطهير الكعبة مما حولها من أوثان، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما، فقام المسلمون بتحطيمها. وكان هبل أكبر هذه الأوثان، وكان المشـــركون قد جلبوه من البلقاء فى ســـوريا يؤمنون أنه قادر على إنزال المطر، الذى كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة. كما كان هناك أوثان تمثل إبراهيم وإسماعيل، وفى أيديهما الأزلام، وقال الرسول عن تمثال إبراهيم: "قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام". وكانت هناك لوحات تصور الملائكة على صور نساء جميلات، فحطم الرسول هذه اللوحات.

وعثر الرسـول على صـورة لحمامة منحوتة على الخشـب، فحطمها بيديه وألقى بها على الأرض، باعتبارها من مظاهر الوثنية.

وحطم صــحابة الرســول باقى التماثيل والأصــنام، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

﴿الإسراء/٨١﴾

ولم يكتف الرسول ﷺ بتطهير الكعبة ومكة من الأصنام، بل أرسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة فى المدن والقرى المجاورة وينشروا الإسلام.

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين عل الكعبة من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية، فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضــت الدعوة بادئ ذى بدء، أن المســلمين تلحظهم عناية إلهية لا قِبل لغيرهم بها، فســارعوا إلى الإســلام، ودخلوا فيه أفواجاً، وعرفت ســنة تســع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسـكان المدن، أخذت تفد فى هذه السـنة وفوداً على الرسـولﷺ تعلن اعتناقها الإســلام فى حضــرته، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول أن يمنحها لوفود القبائل العربية.

بناء ابن زهير للكعبة

وأما بناء ابن الزهير للكعبة فإنه ثابت مشـهور وسـبب ذلك وهن فى الكعبة من حجارة المنجنيق التى أصـابتها حين حوصر ابن الزبير بمكة فى أوائل سنة ٦٤هـــ لمعاندته يزيد بن معاوية ومن الحريق الذى أصابها من نار أوقدها نفر من أصـحاب ابن الزبير فى خيمة له، فطارت الرياح بلهب تلك النار إلى الكعبة فأحرقت كسـوتها وما فيها من خشـب السـاج، فوهت جدرها وانقض بنيانها من عل وكانت حجارتها تتناثر إذا ما وقع عليها الحمام، فلما فك الحصـار عن ابن الزبير وارتحل عن مكة الحصين بن نمير بعد أن نعى له يزيد بن معاوية – رأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيها، فوافقه على ذلك نفر قليل وكره ذلك كثيرون منهم ابن عباس رضى الله عنهما، ولما أجمع على هدمها خرج كثير من أهل مكة إلى منى خشية أن يصيبهم عذاب، وأمر ابن الزبير رضـى الله عنهما جماعة من الحبشة فهدموها واختار هؤلاء رجاء أن يكون فيهم الحبشى الذى أخبر النبى أنه يهدمها – روى الشيخان عن أبى هريرة رضـــى الله عنه أن النبى ﷺ "يخرب الكعبة ذو السـويقتين من الحبشـة" وفى رواية البخارى عن ابن عباس عن النبى ﷺ "كأنى بـه أسـودا فحج[1] يقلعها حجرا حجرا" فهدمت الكعبة كلها حتى بلغت الأرض وكان يوم السبت منتصف جمادى الآخرة سنة ٦٤هــ. وبناها على قواعد إبراهيم وأدخل فيها ما أخرجته قريش منها فى الحجر اعتمادا على الحديث الذى أخبرته به خالته عائشـة، وزاد فى طولها على بناء قريش نظير ما زادته قريش وهى سـبعة وعشـرون مدماكا، وجعل لها بابين لا صـقين بالأرض أحدهما بابها الموجود اليوم، والآخر مقابل له مسدود، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحد جعل لها مدرجا فى زاويتها العراقية من الداخل يصعد عليها إلى ظهرها، وجعل لها ميزابا على سـطحها يصـب فى الحِجر، وجعل فيها روازن توضـع فيها المصـابيح، ولما فرغ من بنائها خلقها بالطيب ظاهراً وباطناً وكان يجمرها كل يوم برطل من العود وفى يوم الجمعة برطلين، وقد بقيت حجارة فرشها فى المطاف.

بناء الحجاج للكعبة

وأما بناء الحجاج للكعبة فثابت مشـــهور، وذلك أن الحجاج بعد محاصـــرته ابن الزبير وقتله له كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابا آخر واســتأذنه فى رد ذلك إلى ما كان عليه فى الجاهلية، فكتب إليه عبد الملك أن يسد بابها الغربى ويهدم ما زاده ابن الزبير من الحجر ويكبسها به. على ما كانت عليه، ففعل ذلك الحجاج وبناؤه فى الكعبة الجدر الشـــمالى والباب الغربى المســـدود وما تحت عتبة الباب الشـرقى وهو أربعة أذرع وشـبر على ما ذكر الأزرقى، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير، وكان ذلك سنة ٧٤هـ. ثم إن عبد الملك بن مروان ندم على ما وقع منه فى أمر الكعبة،

---

[1] الفحج فى المشى تباعد العقبين وتدانى صدور القدمين

وقال: وددت والله أنى كنت تركت ابن الزبير وما تحمل حين أخبره الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أنه سمع من عائشة رضى الله عنها حديثا عن النبى ﷺ اعتمده ابن الزبير فيما فعله بالكعبة، وحديث عائشة رواه أبو داود الطيالسى، قال: حدثنا سليم بن حبان قال حدثنا سعيد بن المثنى عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، قال: أخبرتنى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة وألزقتها بالأرض وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا ولزدت ستة أذرع من الحِجر فى البيت فإن قريشا استقصرت ذلك لما بنت البيت.

ولم يحصل فى الكعبة تغيير بعد بناء ابن الزبير والحجاج إلى سنة ١٠٣٩هـ. اللهم إلا فى ميزابها وبابها وبعض أساطينها وما دعت الضرورة إلى عمارته فى جدرها وسقفها وجدرها الذى يصعد منه إلى سطحها وعتبتها ورخامها. وكان سليمان بن عبد الملك يحب أن يرد الكعبة إلى بناء ابن الزبير حين أخبره بذلك خليفته الإمام العادل عمر بن عبد العزيز بن مروان لما سأله عن ذلك، ولكنه منعه من ذلك حبه أن لا يغير عملا عمل بمشورة أبيه، ويروى أن الخليفة هارون الرشيد – وقيل: أبوه المهدى، وقيل: جده المنصور – أراد أن يغير ما صنعه الحجاج ويرد الكعبة إلى بناء بن الزبير فنهاه عن ذلك الإمام مالك بن أنس وقال له: نشدتك الله أن لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس.

ومما جدّ فى الكعبة بعد بناء ابن الزبير والحجاج أن الوليد بن عبد الملك أرسل من الشام الرخام الأحمر والأخضر والأبيض ففرشت به وأُزّرت جدرها من الداخل. وقد انفتح الجدار الشمالى الذى أقامه الحجاج من بقية البناء وكان الفتح مقدار نصف أصبع فرمم ذلك بالجص الأبيض، وبعد سنة ٢٠٠هـ. رفعت الفسيفساء التى كان معمولا بها سطح الكعبة لأنها ما كانت تمنع مياه المطر أن تتسرب إلى الداخل، ووضع مكانها المرمر المطبوخ وشيد بالجص. وفى زمن المتوكل العباسى سنة ٢٤١هـ. قلعت العتبة السفلى لباب الكعبة وكانت قطعتين من خشب الساج دثرتا من طول الزمان وأبدل بها قطعة من خشب الساج ألبست صفائح الفضة، وكذلك جدد المتوكل رخام الكعبة وأزرها بالفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب، وفى سنة ٥٤٢هـ. عمر سقفها والمدرج الذى فى بطنها، وكذلك أصلح رخامها حوالى سنة ٥٥٠هـ. وكانت هذه العمارة من قبل جمال الدين المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل، وفى سنة ٥٥٩هـ. تضعضع الركن اليمانى من زلزال حدث. وأصلح وعمرها المستنصر العباسى سنة ٦٢٩هـ. وجدد رخامها الملك المظفر صاحب اليمن فى سنة ٦٨٠هـ. وفى رمضان سنة ٨١٤هـ. أصلح بعض سقفها وروازنها وعتبتها، وكان ذلك عقب سيل عظيم كان من أجله يتدفق من باب الكعبة إلى المطاف كافواه القرب، وقد عملت اصلاحات جزئية فى الروازن والسقف والرخام والأخشاب التى يركب فيها حلق الحديد الذى تربط به الكسوة فى سنتى ٨٣٥ و ٨٢٦هـ. وكان ذلك بأمر الملك الأشرف برسباى صاحب الديار المصرية والشامية والحرمين، ورممت الكعبة فى سنة ٩٥٩هـ. زمن السلطان سليمان، وفى زمن السلطان أحمد (١٠١٢ – ١٠٢٢) حدث بعض التصدع فى جدارى الكعبة الشرقى والغربى وكذلك فى جدر الحِجر، فأراد هدم البيت فمنعه من ذلك علماء الروم وأشاروا عليه بعمل نطاق يلم التشعب،

فعمل نطاقين من نحاس أصفر غلف بالذهب وكتب فى بعضه بالرسم "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى بعض آخر "لا إله إلا الله محمد حبيب الله" إلى غير ذلك من الكلمات الجميلة والآيات الشريفة مثل قوله: (حسبنا الله ونعم الوكيل) وقد ركب النطاق السفلى على الكعبة فى ليلة السبت ١٢ محرم سنة ١٠٢٢هـ. ووضعت له أعمدة ثبت أسفلها بالرصاص فى الشاذوران، وفى ليلة الأحد شرعوا فى وضع النطاق العلوى حتى أتموه، وفى سنة ١٠٣٩هـ. نزلت أمطار كثيرة عمت مكة وشوارعها وعلت المياه عن قفل باب الكعبة بذراعين حتى إذا ما مضى يومان انهدمت دفعة واحدة ما عدا الجهة اليمانية، فجددها السلطان مراد خان الرابع، وقد أرسل مندوبين من الأستانة ومهندسين من مصر أقاموا بناءها وراعوا تجديدها سنة ١٠٤٠هـ. وقد بذل فى سبيل ذلك المال الكثير. وفى سنة ١٢٩٥هـ، فرش سطح الكعبة بألواح المرمر.

ومن الميازيب التى عملت للكعبة ميزاب عمله الشيخ أبو القاسم رامشت صاحب الرباط المشهور بمكة وصل به خادمه بعد موته سنة ٥٣٧هـ. وميزاب أنفذه الخليفة المقتفى العباسى سنة ٥٤١هـ. جعل عوض الميزاب السابق. وميزاب عمله الناصر العباسى من خشب مبطن بالرصاص فى الموضع الذى يجرى فيه الماء وظاهره مما يبدو للناس مطلى بفضة، وقد حلى هذا الميزاب فى سنة ٧٨١هـ. ثم عمل بعد ذلك ميزاب من النحاس ثم جعله السلطان سليمان القانونى من الفضة سنة ٩٥٩هـ. وفى سنة ٩٦٢هـ ورد من مصر ميزاب من ذهب وضع موضع الميزاب الفضة، وأخذ الأول إلى الخزانة العالية للتبرك به وصولحت بنو شيبة سدنة الكعبة عما زاد الميزاب من الفضة بمائتى أشرفى، وفى سنة ١٠٢١هـ غيره السلطان أحمد بآخر من الفضة منقوش بالذهب والمينا اللازوردية، وفى سنة ١٢٧٣هـ. أرسله السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب .

وأول من حلى الميزاب بالذهب الوليد بن عبد الملك، وفى سنة ٤٥٥هـ. أخذ بنو الطيب الميزاب وحملوه إلى اليمن فابتاعه صاحب اليمن الذى امتلك مكة أيضاً فى السنة المذكورة ورد الميزاب إلى مكانه.

ومن الأبواب التى صنعت للكعبة باب عمله الجواد وزير صاحب الموصل سنة ٥٥٠هـ. وركب سنة ٥٥١هـ. وكان مكتوبا فيه اسم الخليفة المقتفى العباسى، وبه حلية تستوقف الأبصار، ومنها باب عمله الملك المظفر صاحب اليمن لما حج سنة ٦٥٩هـ. وكان عليه صفائح فضة زنتها ٦٠ رطلا صارت لبنى شيبة، ومنها باب من السنط الأحمر عمله الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ركب على الكعبة بعد قلع باب المظفر وكان عليه من الفضة ٣٥٣٠٠ درهم، وباب رابع عمله الملك الناصر حسن سنة ٧٦١هـ. وهو من خشب الساج وزيدت حليته سنة ٧٧٦هـ. فكان مقدارها لا يزيد على ٣٠٠٠٠ درهم، وعلى هذا الباب اسم الملك الناصر محمد بن قلاوون واسم حفيده الأشرف شعبان واسم الملك المؤيد لأن بعض خواصه زاد فى حليته سنة ٨١٦هـ ٢٠٠ درهم وطلاه بالذهب.

وفى سنة ٧٨١هـ حلى زين الدين العثمانى باب الكعبة وميزابها بمعرفة مملوكة سودون باشا حينما أرسله لعمارة المسجد الحرام. وفى سنة ٩٦١هـ أمر السلطان سليمان بتصفيح الباب بالفضة. وفى سنة ٩٦٤هـ أمر بعمل باب الكعبة فأتى بالباب الأول وركبت عليه ألواح من الخشب الآس الأسود مصفحة بالفضة.

معاليق الكعبة وهداياها

ومن الآثار العتيقة فى البيت العتيق قرنا الكبش.. كبش الفداء الذى فدى الله به إسماعيل من الذبح، وكان تعريضه للذبح بأمر من الله تعالى لنبيه إبراهيم عليهما السلام، قبل بنايته للكعبة، وإسماعيل يومئذ غلام، وقد أثبت أكابر الرجال الثقات بالإسناد المسلسلة أن القرنين المشار إليهما كانا مثبتين فى جدار الكعبة بداخلها.. وأن النبى ﷺ ، لما رآهما أمر عثمان بن طلحة الجمحى بسترهما بخمار، لكيلا يشغلا المصلى فى الكعبة.. ولكنه لم يأمر بإخراجهما من الكعبة واتلافهما، كما فعل مع الأصنام والصور.. بل استبقاهما فى مكانهما من الكعبة، وظلا به إلى عهد الخليفة عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما.

وقد تحدث عبدالله بن طلحة عنهما، فأكد أنهما قرنا كبش الفداء، وأنه رآهما رأى العين، وقد روى الأزرقى حديث النبى ﷺ لعثمان بن طلحة. ونص هذا الحديث الشريف، الذى خاطب به رسول الله، عثمان بن طلحة هو: (إنى رأيت قرنى الكبش فى البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل مصلياً). قال عثمان: وهو الكبش الذى فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. كما تحدث عمرو بن قيس بقوله: (وكانا قرنا الكبش فى الكعبة، فلما هدمها ابن الزبير وكشفهما وجدوهما فى جدار الكعبة مطليين بمشق[١].. - قال فتناولهما فلما مسهما همدا من الأيدى[٢].

وقد ثبت أثرياً وتاريخياً أنهما قرنا الكبش الذى فُدى به إسماعيل، وقد احتفظ العرب بهما نحو ألفى عام ونصف الألف كأثر قديم مهم من آثار حادث جلل وقع لجدهم الأعلى أبى الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل - من الله عز وجل..

المعلقات من تعاليق الكعبة أيضاً

هذا ومن تعاليق الكعبة قبل الإسلام على ما روته لنا بعض المراجع التاريخية.. المعلقات التى نظمها شعراء جاهلين معروفون من أهل الجزيرة العربية مهد العروبة والإسلامة. وهى سبع معلقات أو عشر، وقد سماها العرب (معلقات) لأنهن علقن بالكعبة فى الجاهلية القريبة من عهد الإسلام تقديراً لروعة لغتهن وجمال أسلوبهن العربى الممتاز.

وكانت هذه القصائد تلقى فى ثلاث أسواق عربية هى: سوق عكاز، وسوقا مجنة وذي المجاز، وهذه الأسواق الثلاث تقع فى أماكن متقاربة قريبة من مكة المكرمة، وتحوز القصيدة الملقاة فى سوق من هذه الأسواق الثلاث استحسان الجمهور العربى المستمع لها فى السوق الملقاة فيها فتفوز بتقدير خاص وعام، ويتمثل هذا التقدير المزدوج فى تعليقها بالكعبة بعد أن تكون كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب..

---

(١) المشق: المغُرة الحمراء

(٢) أخبار مكة للأزرقى ١٤٧/١

وموضوعات هذه المعلقات غالباً هى: الحب، والحرب، وربما الحكم والصيد، ومغامرات الشاعر فى رحلاته، إلى شىء من وصف الشاعر لمناظر طبيعة للبلاد العربية التى ارتسمت فى مخيلته بعد أن أعجبته أو أزعجته، ثمرة تكراره للمرور بها والنزول فى مرابعها والاستمتاع بهوائها الطلق العليل وشمسها وبدرها المشرقين ونجومها الزاهرة وظبائها الجميلة العين، من الأنسيات والوحشيات فى ضوء وفى جمال الليالى المقمرة ذات الهواء العليل، أو عكس ذلك.

وما أهدى إلى الكعبة من الحلى - أهدى ساسان بن بابك من ملوك الفرس للكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وكثيراً من الذهب ودفن ذلك فى زمزم، ويقال: إن كلاب بن مرة أول من جعل فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة لها. ولما فتح فى عهد عمر بن الخطاب مدائن كسرى كان مما بعث إليه هلالان فعلقهما فى الكعبة، وبعث عبدالملك بن مروان بالشمستين وقدحين من قوارير. وبعث ابنه الوليد بقدحين. وبعث الوليد بن يزيد بالسرير (الكرسى) وبهلالين. وبعث أبو العباس السفاح بالصفحة الخضراء. وأرسل أخوه المنصور القارورة الفرعونية. وبعث المأمون بياقوتة ثمينة. وأهدى جعفر المتوكل شمسة عملها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد وسلسلة تعلق فى وجه الكعبة كل سنة. وأسلم ملك من ملوك التبت وكان له صنم من ذهب فى صورة إنسان يعبده وكان على رأس الصنم تاج من ذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد وكان على كرسى مربع مرتفع عن الأرض على قوائم والكرسى من فضة، وعلى الكرسى فرشة الديباج وعلى أطراف الفرش إزار من ذهب وفضة مرخاة، والإزار على قدر الكرسى فى وجه السرير، فلما أسلم ذلك الملك أهدي الكرسى والصنم إلى الكعبة. وأهدى إليها المعتصم العباسى قفلاً فيه ألف دينار. وأسلم بعض ملوك السند فأهدى إليها طوقاً من الذهب مكللاً بالزمرد والألماس وياقوتة خضراء زنتها أربعة وعشرون مثقالاً وقد علقت فى الكعبة سنة ٢٥٩ هـ. وأهدى جعفر بن المعتمد قصبة من فضة داخلها كتاب فيه بيعته وبيعة أبى أحمد الموفق، فعلقت فى الكعبة فى صفر سنة ٢٦٢ هـ. وبعث المطيع العباسى إليها قناديل كلها فضة خلا واحداً من الذهب زنته ٦٠٠ مثقال وذلك فى سنة ٣٥٩ هـ. وأهدى صاحب عمان بعد سنة ٤٢٠ هـ محاريب مبنية زنة المحراب أكثر من قنطار، وقناديل فى غاية الأحكام، وقد سمرت المحاريب فى الكعبة مما يلى بابها. وأهدى إليها الملك المنصور صاحب اليمن سنة ٣٦٢ هـ قناديل من ذهب وفضة. وبعث إليها الظاهر بيبرس قفلاً ومفتاحاً. وبعث على شاه وزير السلطان أبى سعيد ملك التتر إلى الكعبة سنة ٧١٨ هـ. بحلقتين من الذهب مرصعتين باللؤلؤ البلخش، كل حلقة زنتها ألف مثقال، وفى كل حلقة ٦ لؤلؤات فاخرات، وبينها ٦ قطع بلخش فاخر وقد علقتا زمناً يسيراً ثم رفعتا وأخذهما أمير مكة إذ ذاك رميثه بن أبى نمى. وأهدى السلطان شيخ أويس صاحب بغداد إلى الكعبة ٤ قناديل إثنان ذهباً وإثنان فضة.

وإذ قد عرضنا صورة تاريخية لتسابق الملوك والأمراء فى تحلية الكعبة وميزابها وأبوابها وتعاليقها بحلى الذهب والفضة نرى من الواجب علينا أن يقول أن إنفاق أموال المسلمين العامة فى هذه السبل يأباه الدين لأنه من الإسراف الممقوت،

وخير لنا أن ننفق هذه الأموال فى صالح المسلمين العامة وإن احترامنا لبيت الله الحرام لا يحول دون احترام الدين وتعليماته وإرشاداته، وليس من الدين فى شيء أن نعطل جزءاً من أموال المسلمين عن استثماره وإنفاقه فيما يعود بنفع حقيقى على المسلمين ولعل البعض يعترض على قولنا بما فعله عمر رضى الله عنه من إرسال الهلالين اللذين أرسلا إليه بعد فتح مدائن كسرى، وانا مع عدم قطعنا بصحة النسبة إليه لا نرى فيه حُجة لمعارض لاحتمال أن يكون عمر أراد به إلهاب الحمية فى نفوس المسلمين واستنهاضهم إلى الجهاد حيث يرون فى الهلالين ذل عروش الأكاسرة وتذليل ملكهم لعز الإسلام والظفر بما ادخروا واكتنزوا، فعسى أن يوجه الملوك هممهم وأموالهم إلى الصالح النافع ويأخذوا بأنفسهم عما لا يفيد ولا يجدى.

سُدنة الكعبة ومفتاحها

سدانة الكعبة خدمتها والقيام بشأنها وفتح بابها وإغلاقه، وكانت أولاً فى حى طسم قبيلة من عاد فلما استخفوا بالكعبة وحرمتها أهلكهم الله، فوليت ذلك جرهم فسلكوا مسلك أسلافهم فأوردهم الله مواردهم ثم وليت البيت خزاعة فساروا سيرة سابقيهم فنزع الله ذلك من أيديهم إلى قصى، وذلك أن أبا غبشان آخر من ولى البيت من خزاعة اجتمع مع قصى فى شرب بالطائف فأسكره قصى واشترى مفاتيح الكعبة منه بزق خمر وأشهد عليه ودفعها لابنه عبد الدار وطير به إلى مكة فأفاق أبو غبشان آندم من الكسعى[١] فضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة وفى ذلك يقول بعض الشعراء:

وبيعة كعبة الرحمن جمعاً   بزق بئس مفتخر الفخور

وقال آخر

أبو غبشان أظلم من قصىّ   وأظلم من بنى بكر خزاعة

فلا تلحوا قصياً فى شراها   ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وقال آخر:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر فبئست صفقة البادى

وأخذ المفتاح بعد عبد الدار ولده عثمان ولم تزل السدانة فى ذريته حتى انتقلت إلي عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبد الدارين قصىّ، وقد مات عثمان ولم يعقب فصارت إلى ابن عمه شيبة بن عثمان، ولاتزال فى يد ولده للآن. وقد رد ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة بعد أن أخذه منه عمر، وقال: خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم وفى ذلك نزل قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا {النساء/٥٨}

---

[١] الكسعى الذى يضرب به المثل فى الندم وهو عامد بن الحارث الكسعى.

وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال: «هاكم المفتاح يا بنى شيبة وكلوا بالمعروف» قال العلماء هذه ولاية من رسول الله ﷺ لا يحل لأحد أن ينزعها منهم. قال المحب الطبرى: هذا إن حافظوا على حرمة البيت فإن استخفوا بها فلا خطر فى أن يقام عليهم مشرف يمنعم من الظلم.

وقد جرت العادة من زمن مديد أن يصنع مع الكسوة كيس لمفتاح الكعبة يحفظ فيه عند أكبر بنى شيبة.

أشهر أسماء السُدنة بعد الألف الهجرية

اشتهرت أسماء عديدة لأعلام من السادة السُدنة منهم:

- الشيخ عبدالواحد بن محمد جمال الدين بن القاسم بن أبى السعود وقد تولى السدانة سنة ١٠٨٠ هـ.

- الشيخ عبدالقادر بن على بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن عبدالمعطى بن عبدالواحد، تولى السدانة سنة ١١٠٤ هـ.

- الشيخ محمد بن زين العابدين وقد أخذه شريف مكة الأمير غالب بن مساعد وهو طفل ورباه بداره كأولاده وأكرمه إلي أن كبر وتولى أمر السُدانة حوالى ٤٣ سنة وكان عالماً فاضلاً وقد توفى سنة ١٢٥٣ هـ.

- بعد وفاة الشيخ محمد بن زين العابدين تولى رئاسة السدنة أكبر أولاده الشيخ عبدالقادر.. وذلك عام ١٢٥٣ هـ ومكثت بيده المشيخة ومفتاح الكعبة سبع سنين وتوفى عام ١٢٦٠ هـ.

- تولى بعده مشيخة السدانة أخوه الشيخ سليمان بن محمد، فى عام ١٢٦٠ هـ، إلا أنه لم يمكث رئيساً للسُدانة والسُدنة إلا عاماً واحداً إذ توفى سنة ١٢٦١ هـ.

- تولى بعده المشيخة الشيخ جعفر بن محمد وهو أخو الشيخ سليمان، وذلك فى عام ١٢٦١ هـ ومن عجائب الأخبار أنه لم يمكث بالرئاسة على السُدانة والسُدنة إلا عاماً واحداً كأخيه، إذ توفى فى عامه اللاحق سنة ١٢٦٢هـ.

- ثم تولى أمور السُدانة بعده، أخوه الشيخ «أحمد بن محمد» عام ١٢٧٤ هـ. وكانت مدة رئاسة الشيخ أحمد اثنتى عشرة سنة.

- ثم تولى بعده الشيخ عبدالله بن محمد الشيبى فى نفس عام ١٢٦٢ هـ ومكثت السُدانة بيده مدة اثنتين وعشرين سنة، حتى توفاه الله عام ١٢٩٦هـ.

- ومن الجدير بالذكر أنه آخر من تولى سدانة الكعبة المعظمة من أولاد الشيخ محمد بن زين العابدين الشيبى.

- ونود هنا أن نثبت بيان الطبقة الثانية من السُدنة بعد الألف الهجرية.. والطبقة الثانية من السدنة بعد الألف الهجرية هم أبناء الأبناء - أو هم أحفاد الشيخ محمد بن زين العابدين الشيبى.

- وأول السُدنة من هذه الطبقة هو الشيخ عمر بن جعفر بن محمد الشيبى وقد تولى الرئاسة بعد وفاة عمه الشيخ عبدالله بن محمد سنة ١٢٩٦ هـ.

وقد ظل الشيخ عمر رئيساً للسُدنة ثمانى سنوات، حتى توفاه الله عام ١٣٠٤ هـ.

- وبعد وفاة الشيخ عمر تولى مشيخة السُدانة ومهامها ابن عمه الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله الشيبى بن محمد بن زين العابدين الشيبى، وذلك فى نفس العام ١٣٠٤هـ.

وظل يتولى شئونها ومهامها حوالى سبع سنوات حتى عُزل عن رئاسة السُدنة عام ١٣١١هـ.

وأُخذ منه المفتاح وكان ذلك في عهد شريف مكة عون الرفيق الذى حدث بينه وبين والى الحجاز آنذاك خلاف كبير انضـــم فيه الشـــيخ عبدالرحمن إلي حزب والى الحجاز، وانجلى الخلاف بعد رفعه إلي مقام الســـلطان عبداللحميد الذى أصـدر أمره بعزل والى الحجاز عمان نورى باشـا ونفى كل من وقف إلى جانبه من الحجاز، إلا أنه لطف بالشيخ عبدالرحمن بن عبدالله الشيبى وأمر بمغادرته مكة.

- وعندما عزل عن السُدانة الشيخ عبدالرحمن تولاها ابن عمه الشيخ محمد صـالح بن أحمد بن محمد الشيبى وذلك وذلك فى عام ١٣١١ هـ.

وقد مكث هذا الرجل ٢٤ عاماً رئيســـاً للسُـــدنة، وقد توفاه الله عن ٦٤ عاماً بمكة المكرمة يوم عيد النحر فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ.

- ثم تولى رئاسة السُدنة الشيخ عبدالقادر بن على بن محمد الشيبى عام ١٣٣٥ هــ وكانت له منزلة عالية عند جلاله المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود.

وقد ظل يوالى مهامه ويقوم بأعباء وظيفته حوالى ١٦ عاماً إلي أن توفى بمكة المكرمة فى ١٠ رمضـــان ١٣٥١ هـ عن ثمانين عاماً.

وبوفاة الشـــيخ عبدالقادر الشـــيبى اعتبر نهاية الطبقة الثاني من السُـــدنة أحفاد الشـــيخ محمد بن زين العابدين الشيبى.

الطبقة الثالثة: هم أبناء الأحفاد من آل الشيبى:

- وأول من تولى رئاســـة الســـدنة من الطبقة الثالثة الشـــيخ محمد بن محمد صـــالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين الشيبى وقد تولى رئاسة السُدنة ومهام السُدانة فى ١١ رمضان سنة ١٣٥١ هـ.

- ومن الجدير بالذكر أن السادن الثانى بعد الشيخ محمد هو فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالقادر.

- والذى تولى رئاســة الســدانة ومهامها بعد الشـيخ محمد بن محمد صـــالح هو الشـــيخ محمد أمين الولد الأكبر للسادن الثانى الشيخ عبدالله بن عبدالقادر.

- وبعد وفاة الشـيخ أمين تولى من بعده أمر السـدانة الأخ الثانى للشـيخ محمد أمين، الشـيخ طه عبدالله الشـيبى وهو من مواليد سنة ١٣٣٣ هـ رحمه الله.

وكان كبير السدانة وشيخهم ومرجعهم وكان بيده مفاتيح الكعبة.. رحمه الله.

وقد ذكر الشيخ طه عبدالله الشيبى - رحمه الله - فى حديث له أن عدد أفراد أسرتهم (١٢٨ فرداً ذكوراً وإناثاً) وقد توفاه الله بتاريخ ١٤٠٧/١/١٢هـــ وتولى السدانة من بعده عاصم عبدالله الشيبى. وقد تولى سدانة الكعبة بعد وفاة الشيخ طه الشيبى ابن عمه الشيخ عاصم عبدالله الشيبى.

وهكذا تمضــى إرادة الله عز وجل، وتثبت الأيام صــدق نبوءة رســول الله ﷺ ، ويزداد آل الشــيبى شــرفاً فوق شرف بخدمة كعبة الله المعظمة.

كسوة الكعبة المشرفة عبر العصور

فى عهد إسماعيل عليه السلام وفى عصور الجاهلية:

لعل كسوة الكعبة هى من أهم مظاهر الاهتمام والتشريف والتبجيل للبيت الحرام وإن تاريخ كسوة الكعبة هو تاريخ الكعبة نفسها.. بعض العلماء يقول إن إسماعيل عليه السلام قد كسى الكعبة وذكر أيضاً أن (عدنان بن أد) الجد الأعلى للرسولﷺ هو أول من كساها ولكن الثابت أن (تُبع الحميرى) ملك اليمن هو أول من كساها بالخصف – وهى ثياب غلاظ – ثم كساها المعافير ثم كساها الملاء والوصائل.. وبعد تُبع كساها الكثيرون فى الجاهلية وكان ذلك واجباً من الواجبات الدينية وكان مباحاً لكل من يريد أن يكسى الكعبة أن يفعل متى شاء ومن أى نوع شاء.. وكانت الكسوة تصنع من الخصف والوصائل – ثياب مخططة يمانية – والكرار والديباج والخز والنمارق العراقية والحبر اليمانى والأنماط والقباطى – ثياب مصرية – وكلها أنواع من النسيج كانت معروفة فى الجاهلية.. وكانت الكسوة توضع على الكعبة فوق بعض فإذا ثقلت أو بليت أزيلت عنها وقسمت أو دفنت.. ومن ضمن ما يحكى عن الكسوة فى الجاهلية أن "أبا ربيعة بن عبدالله بن عمرو المخزومى" أصاب ثراءاً واسعاً فقال لقريش أنا أكسو الكعبة وحدى سنة وجميع قريش تكسوها سنة.. فوافقت قريش على ذلك وظل يفعل حتى مات وسمته قريش "العدل" لأنه عدل بفعله قريش كلها.

وقيل أن أول من كسا الكعبة أسعد أبو كرب ملك حمير وذلك قبل الهجرة بقرنين وقد كساها الخصف[١] والمعافر[٢] والملاء[٣] والوصايل[٤] والعصب[٥] والمسوح[٦] والأنطاع[٧] والبرود[٨]، وجعل للكعبة باباً ومفتاحاً وفى ذلك يقول مفتخراً:

ورد الملك تبع[٩] وبنوه ... ورثوهم جدودهم والجدودا

إذ جبينا جيادنا من ظفار[١٠] ... ثم سرنا بها مسيراً بعيدا

فاستبحنا بالخيل ملك قباذ[١١] ... وابن اقلود[١٢] جاءنا مصفودا

فكسونا البيت الذى حرم ... الله ملاء معصباً وبرودا

---

[١] الخصف محركة: جمع خصفة وهي الثوب الغليظ جداً.

[٢] المعافر فى الأصل اسم بلد سميت به الثياب المعافرية التى تصنع فيه.

[٣] الملاء: جمع ملاءة وهى ثوب لين رقيق نسج واحد وقطعة واحدة وتسمى الربطة.

[٤] الوصايل:جمع وصيلة وهى ثوب أحمر مخطط يمانى.

[٥] العصب: برود يمانية يعصب غزلها أى يجمع ويشد ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فيأتى موشى.

[٦] المسوح: جمع مسح وهو ثوب من الشعر غليظ ويقال له: البلاس.

[٧] الأنطاع: جمع نطع وهو بساط من الأديم أى الجلد.

[٨] البرود: جمع برد وهو ثوب مخطط وكساء.

[٩] تبع: لقب ملك ملوك حمير.

[١٠] ظفار: كانت مدينة من مدن اليمن قريبة من صنعاء وأطلالها باقية ولها إقليم يسمى الآن باسمها.

[١١] أبو كسرى.

[١٢] لعله أمير من أمراء الشام أو العراق.

وأقمنا به من الشهر عشــراً	وجعلنـــا لبابـــه إقليـــدا[١٣]
ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعاً	وسجدنا عند المقام سجودا
وخرجنا منه إلى حيث كنـا	ورفعنا لواءنا معقـــــودا

وأول عربية كســـت الكعبة فى الجاهلية نبيلة بنت حباب أم العباس بن عبد المطلب كســـتها الحرير والديباج، وسبب ذلك أنها أضلت ابنها خوارا أخا العباس وجعلت تنشد:

أضللتـــه أبيــض لوذعيـــا[١]	لم يك لحلوبا[٢] ولا دعيا
أضللته أبيض غيــر خـــــاف	للفتية الغـر بنى منـــاف
ثم لعمـــرو منتهى الأضيـــاف	سن لفهر سنــة الإيــلاف

فى القر[٣] يوم القر والإصياف

ونذرت إن وجدته لتكسون الكعبة، فأتاها به رجل من جذام فوفت بما نذرت.

تلك كساها فى الجاهلية، وأما كسوتها فى الإسلام فكساها النبى ﷺ، وأبو بكر الحبر اليمانية، وكساها عمر، وعثمان القباطى[٤] المصرية، وكساها عثمان أيضاً البرود اليمانية وهو أول من ظاهر لها بين كسوتين، وكان عمر ﷺ ينزع كسوتها كل سنة ويستبدل بها جديدة، ويقسم الأولى بين الحاج، وكساها عبد الله بن عمر ما كان يجلل به بدنه من القباطى والحبرات والأنماط، وكســـاها كذلك معاوية وكانت تكســـى الديباج يوم عاشـــوراء، والقباطى فى اليوم التاسع والعشرين من رمضان، وكساها الديباج يزيد بن معاوية وابن الزبير وعبد الملك ابن مروان.

وفى سنة ١٦٠هـ، حج المهدى العباسى فذكر له السُدنة أن كساوى الكعبة كثرت عليها والبناء ضعيف يخشى عليها من ثقلها، فأمر بتجريدها وأن لا يسدل عليها إلا كسوة واحدة واستمرذلك إلى يومنا هذا، وكساها المأمون ثلاث كســـا الديباج الأحمر يوم التروية والقباطى يوم هلال رجب والديباج الأبيض الذى أحدثه المأمون يوم ٢٧ من رمضان.

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود، حتى إذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة أخرى حكام اليمن، ثم انفرد حكام مصر بكسوة الكعبة.

---

[١٣] المفتاح.

[١] اللوذعى: الخفيف الذكى الظريف.

[٢] اللحلوب: لم أقف على معناه.

[٣] القر: البرد.

[٤] القباطى: جمع قبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض وكأنه منسوب إلى القبط وهى بلدة بمصر ينسب إليها أقباطها.

الكسوة المصرية للكعبة:

أمر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) بعمل كسوة للكعبة، لينافس خلفاء بغداد العباسيين.وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً، وكان فى حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً، فى كل هلال أترجة ذهبية، وفى كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق. وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج، والآية ٩٥ من سورة آل عمران، والآية ٣ من سورة براءة، بحروف الزمرد الأخضر، وزُينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة. وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق الماسك[١].

تحدث العمرى[٢] عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال: "وهى الآن تكسى فى العام مرة واحدة فى وقت الموسم، وتحمل إليها الكعبة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية، صحبة الركب فيتولى ذلك أمراء الركب. ويحضرون بأنفسهم فتكسى، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها. ويأخذون فى كل قطعة منها أوفر الأعواض. وتحمل إلى سائر البلاد للبركة.. ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، صعدت أنا وأمراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها. فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض، ومن جوانبه جُدر قصار فيها حلق لمرابط الستور، تجر فيها الكسوة بحبال، تربط فى تلك الحلق".

ووصف الرحالة ابن بطوطة[٣] كسوة الكعبة فقال: "وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه. فلما كان اليوم الثالث بعد النحر أخذ الشيبيون فى إسبالها على الكعبة الشريفة. وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿المائدة/٩٧﴾ . وفى سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدى الناس.والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج إليه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة".

وطول القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كانت مصر ترسل الكسوة للكعبة سنوياً، وتتألف من ثمانى ستائر من الحرير الأسود، وقد كتب عليه بالنسيج فى كل مكان منه (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وطول الستارة نحو ١٥ متراً ومتوسط عرضها خمسة أمتار وعدة سنتيمترات. وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد، ثم تربطان إحداها بالأخرى بعرى وأزرار، فإذا انتهى تشبيكها كلها صارت كالقميص المربع الأسود.

---

[١] ابن ميسر: تاريخ مصر.

[٢] مسالك الأبصار جـ ١

[٣] رحلة ابن بطوطة جـ ١.

ثم يوضـع على محيط الكعبة فوق هذه السـتائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسـمى رنكاً مركب من أربع قطع مصـــنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل آيات قرآنية. ومكتوب على هذا الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَـلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿البقرة/١٢٥﴾

ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الأسـود ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران/٩٦﴾ ، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿الحج/٢٦﴾ .

ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿الحج/٢٩﴾

ويتبع هذه الكسـوة سـتارة باب الكعبة من خارجها ويسـمونها البرقع، وسـتارة باب منبر الحرم الشـريف، وهى من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبى والفضى.

وحينما كانت تصل الكسوة من مصر إلى مكة تسلم للشيبى القائم بسُدانة الكعبة بإشهاد شرعى يحضره الكبراء والعلماء فتبقى فى منزله إلى صـــباح يوم عيد النحر، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد إنزال الكسوة القديمة، ويكون المسجد خلواً من الناس لأن معظمهم يكون بمنى، ولا يبقى فى مكة منهم إلا نفر قليل.

أما الكسـوة القديمة، فيرسـل المقصـب منها إلى شـريف مكة، أما غير المقصـب فيأخذه الشـيبى فيبيعه للحجاج للتبرك".

كسوة الكعبة فى العهد السعودى

وفى سـياق عناية الحكومة السـعودية بالحرمين الشـريفين وما فيهما، وجه جلالة الملك عبد العزيز آل سـعود، مؤسـس المملكة العربية السـعودية يرحمه الله، عنايته لكسـوة الكعبة، ثم أمر بإنشـاء مصـنع لإنتاج كسـوة الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة، عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م)، جميع العاملين والفنيين فيه من السعوديين.

وفى العام ١٣٩٢هـــ (١٩٧٢م) تقرر إنشـاء مصـنع جديدة لكسـوة الكعبة المشـرفة، ووضـع خادم الحرمين الشـريفين المغفور له الملك فهد بن عبدالعزيز آل سـعود، حجر أسـاس المشـروع (وكان إذ ذاك نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية) ثم افتتحه عام ١٣٩٥هـــــ (١٩٧٥م)، (وكان ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء).

وقد زود المصنع الجديد بآلات النسيج والصباغة، ولكن تقرر الإبقاء على قسم النسيج اليدوى نظراً لأن إنتاجه يحمل إبداعاً إنسانياً ذا قيمة فنية عالية.

وتحت الحزام، على الأركان، نسجت سورة الإخلاص داخل مربع مزين بزخارف إسلامية، إضافة إلى آيات قرآنية كريمة، كل منها ضمن إطار مستقل، وتكتب هذه الآيات بخط الثُلث أحد أجمل الخطوط العربية.

أما ستارة باب الكعبة المشرفة، التى تسمى "البرقع" فهى مصنوعة من نفس قماش الحرير الأسود الذى صنعت منه الكسوة، وتتميز بتصميمها الجذاب الحاوى لآيات قرآنية عديدة، تحيط بها الزخارف، وتحت الآيات كتبت، بنفس الخط والتصميم، عبارة "صنعت هذه الستارة فى مكة المكرمة وأهداها إلى الكعبة المشرفة" ثم عبارة "خادم الحرمين الشريفين تقبل الله منه".

كما أن تصميم الكسوة، وزينتها من الآيات والكلمات، هى من مآثر العهد السعودى، ولم يسبق أن صنعت كسوة، قبل ذلك، بهذا الشكل والتصميم.

وصف كسوة الكعبة المشرفة

تنسج الكسوة من الحرير الطبيعى الخالص المصبوغ باللون الأسود وقد نقش علية بطريقة الجاكارد عبارات "لا إله إلا الله محمد رسول الله – الله جل جلاله.. سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم" يا حنان.. يا منان.. ويبلغ ارتفاع الثوب (١٤) متراً ويوجد فى الثلث الأعلى من هذا الارتفاع حزام الكسوة بعرض ٩٥ سم كتب عليه آيات قرآنية مختلفة بالخط الثلث المركب محاطة بإطار من الزخارف الإسلامية ويطرز الحزام بتطريز بارز مغطى بسلك فضى مطلى بالذهب.. ويحيط الحزام بالكسوة كلها ويبلغ طوله ٤٧ متراً ويتألف من ١٦ قطعة.. كما يوجد تحت الحزام على الأركان سورة الإخلاص مكتوبة داخل دائرة محاطة بشكل مربع من الزخارف الإسلامية.. وعلى الارتفاع نفسه وتحت الحزام أيضاً توجد ٦ آيات من القرآن مكتوب كل منها داخل إطار منفصل وفى الفواصل بينها يوجد شكل قنديل كتب عليه "يا حى يا قيوم" أو "يا رحمن يا رحيم" أو "الحمد لله رب العالمين".

وكل ما تحت الحزام مكتوب بالخط الثلث المركب ومطرز تطريزاً بارزاً ومغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب وقد أحدث وضع هذه القطع فى العهد السعودى. أما ستارة باب الكعبة ويطلق عليها البرقع فمصنوعة من نفس قماش الحرير الأسود وارتفاعها ستة أمتار ونصف وعرضها ثلاثة أمتار ونصف ومكتوباً عليها آيات قرآنية وزخارف إسلامية مطرزة تطريزاً بارزاً مغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب وسيرد ذكر ذلك تفصيلاًفيما بعد.

وتبطن الكسوة كلها بقماش خام متين بما فى ذلك ستارة الباب وتتكون الكسوة من خمس قطع تغطى كل واحدة منها وجهاً من أوجه الكعبة والقطعة الخامسة هى الستارة التى توضع على الباب ويتم تجميع هذه القطع الأربع بتوصيلها معاً على الكعبة نفسها بعد خلع الثوب القديم.

ستارة باب الكعبة المشرفة

وضعت الستارة المنقوشة لأول مرة على باب الكعبة المشرفة عام ٨١٠ هـ / ١٤٠٧م واستمر وضعها منذ ذلك التارخ حتى الآن عدى سنوات ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨هـ.

وتتكون الستارة من خمس قطع تجمع رأسياً لتصبح مساحتها ٦,٥ ٣,٥ متراً.

القطعة الأولى – تحتوى على:

أ) فى الوسط الآية التى تبدأ بقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ .

(ب) أعلى القطعة فى الوسط الآية القرآنية التالية:

قد نرى تقلب وجهك فى السماء (من اليمين) ثم الآية القرآنية الكريمة:

فلنولينك قبلة ترضاها (من اليسار).

(ج) الجانب الأعلى من اليمين: الله ربى.

(د) وسط القطعة من أعلى: الله حسبى.

(هـ) الجانب الأعلى من اليسار: الله ربى.

(و) الجانب اليمين أسفل القطعة كتبت البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

(ز) الجانب اليسار أسفل القطعة الآية: غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

(ح) أسفل القطعة مكررة أربع مرات الآية:

١ – الله نور السموات والأرض.

القطعة الثانية – تحتوى على الآيات التالية:

(أ) فى وسط القطعة: كتبت الآية القرآنية التالية:

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين.

(ب) أعلى القطعة من الجهة اليمنى كتبت الآية القرآنية:

الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له.

(ج) أعلى القطعة من الجهة اليسرى كتبت الآية:

ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما .

(د) من أعلى القطعة من الجانب الأيمن: الله ربى.

(هـ) من أعلى القطعة فى الوسط: الله حسبى.

(و) من أعلى القطعة فى الجانب الأيسر: الله ربى.

(ز) الجانب الأيمن من القطعة بداية فاتحة الكتاب:

الحمد لله رب العالمين.

(ح) الجانب الأيسر من القطعة الآية:

أنعمت عليهم.

القطعة الثالثة – تحتوى على الآيات التالية:

(أ) فى وسط القطعة بطولها الآية:

١ – قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من (وفى الشطر الثانى).

٢ – رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم.

(ب) من أعلى القطعة الجهة اليمنى الآية:

خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض.

(ج) من أعلى القطعة الجهة اليسرى الآية:

ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى.

(د) من أعلى القطعة فى الجانب الأيمن: الله ربى

(هـ) من أعلى القطعة فى الجانب الأيمن: الله ربى

(و) من أعلى القطعة فى الجانب الأيسر: الله ربى

(ز) فى الوسط من جهة اليمين دائرة: "سورة الإخلاص"

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

(ح) (فى الوسط من جهة اليسار دائرية):

محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً.

(ط) (فى الجانب الأيمن): الفاتحة: الرحمن الرحيم.

(ى) (فى الجانب الأيسر): الفاتحة: صراط الذين.

القطعة الرابعة: تحتوى على الآيات التالية:

أ) من جهة اليمين إلى اليسار العبارة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله

الصادق الوعد الأمين.

(ب) (بسم الله الرحمن الرحيم):

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

"صدق الله العظيم".

(ج) تكملة سورة الفاتحة – من اليمين وأسفل – وفى اليسار:

مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم.

(د) الركنين الأسفل يمين: الله ربى – الله حسبى.

الأسفل يسار: الله حسبى – الله ربى.

القطعة الخامسة – قطعة الإهداء:

وهى القطعة التى توضح مكان وتاريخ صنع الستارة واسم خادم الحرمين الشريفين والعبارة المكتوبة عليها هى:

صنعت هذه الستارة فى مكة المكرمة وأهداها إلى الكعبة المشرفة خادم الحرمين الشريفين "تقبل الله منه".

معالم فى الكعبة المعظمة

(حجر إسماعيل - الحجر الأسود - مقام إبراهيم - ماء زمزم)

معالم فى الكعبة المعظمة

حجر إسماعيل

الحطيم والحِجر: الحطيم يطلق الآن على الجدار المطيف بالحجر وبذلك قال ابن عباس، وقيل: أن الحطيم ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحجر إسماعيل أى البقعة المحصورة بين الكعبة والحِجر غربا والمقام وزمزم شرقا، وهذا ما حكاه الأزرقى عن ابن جريح، وفى كتب الحنفية أن الحطيم المكان الذى فيه الميزاب وذلك أليق بالاشتقاق لأن ذلك المكان حُطم من الكعبة وفصل منها والأكثرون على القول الثانى.

والحجر ما أطاف به الحطيم – الجدار – وقد ذكر الأزرقى: أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك يقتحمه العنز وكان حظيرة لغنم إسماعيل وأن قريشا أدخلت فى الحِجر أذرعا من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها، وأن ابن الزبير أدخل ذلك فى الكعبة حين عمرها، وأن الحجاج أخرجه منها واستمر ذلك ليومنا، وعلى ذلك فبعض الحِجر من الكعبة وبعضه ليس منها، ويدل ذلك ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهُدمت الكعبة فالزقتها بالأرض ولجعلت لها بابا شرقياً وباب غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحِجر فإن قريشا استقصرتها حيث بنت الكعبة، وفى رواية فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع، وفى مسلم عن عطاء أن رسول الله ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع، وذكر عطاء أن ابن الزبير زاد فى البيت خمسة أذرع من الحِجر، وأنه بدا له أساس نظر إليه الناس فبنى عليه، وأما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت: سألت النبى عن الحجر أمن البيت؟ قال: نعم! قلت: فلِما لهم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة إلخ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت لأن حديث عائشة هذا مطلق وأحاديثها السابقة مقيدة، والمطلق يحمل على المقيد، وقد اختلف الفقهاء هل يصح الطواف من الحجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبى ﷺ قال كثيرون بالأول وقال آخرون بالثانى.

وصف الحطيم والحِجر

الحُطَم: وهو ما حطم من الكعبة وكسر وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة ارتفاعه ١,٣٠ متر، وعرض جداره من الأعلى ١,٥٢ متر ومن أسفل ١,٤٤ متر، وهذا البناء مغلق بالرخام وأحد طرفيه محاذ للركن الشرقى والآخر محاذ للركن الغربى وسعه الفتحة التى بين طرفه الشرقى وآخر الشاذروان ٢,٣٠ متر، والمسافة التى بين طرفى الفتحة الدائرة ثمانية أمتار، ووراء الحطيم بمسافة ١٢ مترا المطاف. والأرض التى بين جدار الكعبة الشمالى وبين الحطيم هى المعروفة بالحِجر، ويدخل إليها من الفتحتين السالفتين والمسافة من منتصف جدار الكعبة الشمالى ووسط تجويف الحطيم من الداخل ٨,٤٤ متر،

وفى أعلى الجدار الشمالى فى منتصفه "الميزاب" الذى وضع لتصريف ماء المطر الذى ينزل على سطح الكعبة، وهو من الذهب أرسله السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٠هـ ونزيد على ذلك أن الحجر رخامه خضراء تحت الميزاب يقال إنها موضع قبر إسماعيل عليه السلام وما بين الحجر الأسود وباب الكعبة يسمى الملتزم، لكون الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه وكان صلى الله عليه وسلم يدعو فيه.

ونذكر لك طرفا من عمارة الحِجر فنقول: لما حج المنصور العباسى سنة ١٤٠هـ. دعا زياد بن عبيد الله الحارثى أمير مكة وقال له: إنى رأيت الحِجر بادية حجارته فلا أصبحن حتى يستر جداره بالرخام فدعا زياد بالعمال فرخموه ليلا على ضوء المصابيح، ثم جدد المهدى رخامه سنة ١٦١هـ. ولم يزل به حتى رث فقلع وألبس رخاما جميلا فى عهد المتوكل العباسى سنة ٢٤١هـ. وعمر الحِجر المعتضد العباسى سنة ٢٨٣هـ. والوزير جمال الدين المعروف بالجواد فى العقد الخامس بعد ٥٠٠هـ. وعُمر قبله أيضاً وفى زمن الناصر العباسى سنة ٥٧٦هـ. وعمره المستنصر العباسى والملك المظفر صاحب اليمن، والملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٥٠هـ. والأشرف شعبان سنة ٧٨١هـ. وذلك بأمر الأميرين بركة وبرقوق مدبرى دولته، وعمره أيضاً الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ - المكتوب على الحِجر من الجهة الغربية تاريخ ٧٨٠ – وثبت كثير من رخام الحِجر بالجبس فى سنة ٨٢٢هـ. وأصُلح قسم كبير

الحجر الأسود

تاريخ الحجر الأسود:

روى الأزرقى[١] رحمه الله عن ابن إسحاق فى بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام للكعبة المشرفة قال:

«فلما ارتفع البنيان قربٌ له إسماعيل المقام، فكان يقوم عليه ويبنى، ويحوله إسماعيل فى نواحى البيت، حتى انتهى إلى موضع الركن الأسود، قال إبراهيم لإسماعيل: أبغنى حجراً أضعه ها هنا يكون للناس علماً يبتدؤن منه الطواف، فذهب إسماعيل يطلب له حجراً، ورجع وقد جاءه جبريل عليه السلام بالحجر الأسود، وكان الله عز وجل استودع الركن جبل أبي قبيس[٢] حين غرَّق الله الأرض زمن نوح، وقال: إذا رأيت خليلى يبنى بيتى فأخرجه له.

قال: فجاءه إسماعيل فقال له: يا أبت من أين لك هذا؟

قال: جاءنى به من لم يكلنى إلى حَجَرك، جاء به جبريل.

فلما وضع جبريل الحجر فى مكانه، وبنى عليه إبراهيم، وهو حينئذ يتلألأ تلألؤاً شديداً من شدة بياضه، فأضاء نوره شرقاً وغرباً، ويمناً وشمالاً.

قال: فكان نوره يضىء إلى منتهى أنصاب[٣] الحرم من كل ناحية من نواحى الحرم.

ثم انهدم البيت فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته قبيلة من جُرهم، ثم انهدم فبنته قريش، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تنازعوا فيه، فقالوا: أول رجل يدخل علينا من هذا الباب فهو يضعه، فجاء رسول الله ﷺ فأمر بثوبٍ فبُسط، ثم وضعه فيه، ثم قال: ليأخذ من كل قبيلة رجل من ناحة الثوب، ثم رفعوه، ثم أخذه رسول الله فوضعه.

وكان هذا فى يوم مبارك هو يوم الاثنين، فقد روى الإمام أحمد فى المسند وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «ولد النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وتوفى يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقد م المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين».

وقد اختلف فى أى سنة كان هذا البناء فقيل: قبل بعثة النبى ﷺ بخمس عشرة سنة، وكان عمره ﷺ خمساً وعشرين سنة، وقيل: كان البناء وعمره ﷺ خمس وثلاثون سنة، وهذا هو الأشهر كما قال الحافظ بن حجر.

---

(١) أخبار مكة ٦٥/١.

(٢) وكان الحجر الأسود قد نزل من الجنة كما سيأتى .

(٣) أى حدود الحرم.

الحوادث التاريخية

التى أصابت الحجر الأسود

لقد جرى على الحجر الأســود عدة حوادث خلال الأزمنة المتقدمة، أثرت فيه بتصــدع وتكســر ونحو هذا، وحفظه الله فى كل ذلك، حتى كان من آيات الحجر وخواصــه: حفظ الله له من الضــياع منذ أن هبط إلى آدم عليه السلام إلى ما شاء الله، مع أنه وقع له أمور تقتضى ذهابه كالطوفان وغيره، وهذه بعض الحوادث التى أصابت الحجر مرتبة على سنى حدوثها:

١ – أصاب البيت الحرام حريقان، الأول: فى عهد قريش قبل الإسلام، فاحترق الحجر الأسود، واشتد سواده.

والثانى: فى الإسلام، فى عصر عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما، حين حاصره الحصين بن نمير الكندى، فاحترقت الكعبة المشرفة، واحترق الحجر الأسود، فتفلق ثلاث فلق، حتى شدّ شُعبه ابن الزبير بالفضة، فكان ابن الزبير أول من ربط الركن الأسود.

٢ – وفى عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، كانت الفضــة التى على الحجر الأســود قد رقت وتزعزت عن محلها، حتى خافوا على الركن أن ينقض، فلما اعتمر هارون الرشيدعمرته سنة ١٨٨هـــ أمر بإصلاحه، وأمر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود، فثقبت بالماس من فوقها وتحتها، ثم أفرغ فيها الفضة.

٣ – ذكر خبر القرامطة فى أخذهم للحجر الأسود:

ثم وقعت سنة ٣١٧ هــ حادثة القرامطة فى المسجد الحرام، وهى حادثة مشهورة، والقرامطة تُنسب إلى رجل من سواد الكوفة يقال له: قرمط، دعا إلى الزندقة والكفر،وهم من الباطنية، وقتله المكتفى بالله العباسى سنة ٢٩٣ هـ.

وكان من القرامطة عدو الله ملك البحرين أبوالطاهر القرمطى سليمان ابن أبى سعيد الذى تولى العدوان على بيت الله الحرام، ففى ســنة ٣١٧ هـــــ لم يشــعر الناس يوم الاثنين يوم التروية إلا وقد وافاهم عدو الله أبو طاهر القرمطى فى تسعمائة من أصحابه، فدخلوا المسجد الحرام وأسرف هو وأصحابه فى قتل الحجاج فى الحرم، وردم بهم زمزم، كما قتل غيرهم فى شوارع مكة وما حولها زهاء ثلاثين ألفاً، وفعل أفعالاً منكرة.

ثم جاء إلى الحجر الأسود، فضربه فكسره، ثم قلعه، وانصرف إلى بلده هجر (البحرين) وحمل معه الحجر، يريد أن يجعل الحج عنده، لكنه خاب كما خاب قبله أبرهة الأشرم.

وبقى موضــــع الحجر الأســـود من الكعبة المعظمة خالياً، يضـــع الناس فيه أيديهم للتبرك، إلى حين رُدّ إلى موضعه من الكعبة المشرفة، وذلك يوم الثلاثاء يوم النحر من سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وذلك بعد أن هلك أبو طاهر القرمطى سنة ٣٣٢ هـــ، فرده سنبر بن الحسن القرمطى، حيث وافى به مكة، فأظهره بفناء الكعبة، ومعه أمير مكة، وقال سنبر لما رده: أخذناه بقدرة الله، ورددناه بمشيئة الله.

ونظر الناس إلى الحجر، فتبينوه وقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى.

٤ – حادثة بفعل رجل نصرانى من أهل الروم سنة ٣٦٣ هـ:

ذكر ابن فهد المكى فى كتابه: "إتحاف الورى بأخبار أم القرى" فى حوادث سنة ٣٦٣ هـ قال:

"بينما الناس فى وقت القيلولة وشـدة الحر، وما يطوف إلا رجل أو رجلان، فإذا رجل عليه طمران - ثوبان قديمان - مشتمل على رأسه ببرد ـ كساء ـ يسير رويداً، حتى إذا دنا من الركن الأسود، ولا يُعلم ما يريد، فأخذ معولاً وضرب الركن ضربة شديدة حتى خفته الخفتة التى فيه، ثم رفع يده ثانياً يريد ضربه، فابتدره رجل من السكاسك من أهل اليمن، حين رآه وهو يطوف، فطعنه طعنة عظيمة بالخنجر حتى أسقطه، فأقبل الناس من نواحى المسجد فنظروه، فإذا هو رجل رومى جاء من أرض الروم، وقد جُعل له مال كثير على ذهاب الركن، ومعه معول عظيم قد حُدد، وذكر بالذكور - أى صير فولاذاً صلباً – وقُتل الذى أراد ذهاب الركن، وكفى الله شره.

قال: فأُخرج من المسجد الحرام، وجمع حطب كثير فأحرق فى النار".

٥ – حادثة على الحجر الأسود سنة ٤١٣هـ:

قال ابن فهد المكى رحمه الله فى حوادث سنة ٤١٣هـ:

"وفيها على ما قاله الذهبى وابن الجوزى، وفى التى بعدها على ما قاله ابن الأثير، فى يوم الجمعة يوم النفر الأول، ولم يكن رجع الناس بعد من منى، عمد بعض الملحدة الذين استغواهم الحاكم العبيدى فى مصر، وأفسد ديانتهم، وهو تام القامة جسيماً طويلاً، وبإحدى يديه سيف مسلول، وبالأخرى دبوس،بعدما فرغ الإمام من الصلاة، فقصد الحجر الأسود كأنه يستلمه، فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متوالية بالدبوس، فتنخش وجه الحجر فى وسطه، وتقشر من تلك الضربات، وتساقطت منه ثلاث شظايا، واحدة فوق الأخرى، فكأنه ثقب ثلاثة ثقوب، ما تدخل الأنملة فى كل ثقب، وتساقطت منه شظايا مثل الأظفار، وصارت فيه شقوق يميناً وشمالاً، وخرج مكسره أسمر يضرب إلى صُفرة.

وقال:إلى متى يعبد الحجر الأسود؟ ولا محمد ولا على يمنعنى عما أفعله، فإنى أريد اليوم أن أهدم هذا البيت وأرفعه.

فاتقاه أكثر الحاضرين، وخافوه وتراجعوا عنه، وكاد أن يفلت، وكان على باب المسجد عشرة من الفرسان على أن ينصروه، فاحتسب رجل من أهل اليمن أو من مكة أو من غيرها، وثار به فوجأه بخنجر، واحتوشه الناس فقتلوه، ثم تكاثروا عليه فقطعوه وأحرقوه بالنار.

وقُتل جماعة ممن بمصاحبته ومعاونته على ذلك المنكر، وأحرقوهم بالنار، وكان الظاهر منهم أكثر من عشرين، غير ما اختفى منهم.

وأقام الحجر الأسود على ذلك يومين، ثم إن بعض بنى شيبة جمعوا ما وجدوا مما سقط منه، وعجنوه بالمسك واللّك - صبغ أحمر - وحشيت الشقوق".

٦ – حادثة أخرى على الحجر الأسود سنة ٩٩٠ هـ:

ذكر الإمام ابن عَلاّن فى كتابه: "العلم المفرد فى فضل الحجر الأسود":

إنه فى عشر التسعين وتسعمائة جاء رجل عراقى أعجمى، وكان منجذباً، فضرب الحجر الأسود بدبوس فى يده، وكان عند البيت الأمير ناصر جاوش حاضراً، فوجأ ذلك العجمى بالخنجر فقتله.

٧ – حادثة على الحجر الأسود سنة ١٣٥١ هـ:

قال الشيخ حسين باسلامة المتوفى سنة ١٣٥٦ هـ رحمه الله تعالى:

"ومما هو جدير بالذكر ما وقع فى عصرنا الحاضر فى آخر شهر محرم سنة ١٣٥١ هـ، وذلك أنه جاء رجل فارسى من بلاد الأفغان، فاقتلع قطعة من الحجر الأسود ، وسرق قطعة من ستارة الكعبة، وقطعة من فضة من مدرج الكعبة الذى هو بين بئر زمزم وباب بنى شيبة، فشعر به حرس المسجد فاعتقلوه، ثم أعدم عقوبة له، كما أعدم من تجرأ قبله على الحجر الأسود بقلع أو تكسير أو سرقة.

ثم لما كان يوم ٢٨ من ربيع الثانى من سنة ١٣٥١ هـ حضر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله من مصيفه بالطائف قبل توجهه إلى الرياض، وحضر بعض الأعيان، وعمل الأخصائيون مُركباً كيميائياً مضافاً إليه المسك والعنبر، لتثبيت تلك القطعة، وأعادوها إلى محلها".

صفته ولونه وقياسه

الحجر الأسود حجر نزل من الجنة، كما سيأتى فى الأحاديث عن النبى ﷺ ، وهو مودع – بأمر الله لنبيه إبراهيم الخليل – فى ركن الكعبة المشرفة الذى يبتدأ منه الطواف، وهو الركن الجنوبى الشرقى من الكعبة المشرفة، وقد سمى هذا الحجر فى الحديث بـ (الركن).

أما لونه فكان أبيض من الثلج ومن اللبن، لكن سودته خطايا المشركين، وهو بقدر ذراع كما ورد فى الأثر "عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: كان الحجر الأسود أبيض من اللبن، وكان طوله كعظم الذراع"،وهو مغروس فى بناء الكعبة، ولا يظهر منه إلا رأسه الذى اسود من خطايا المشركين، أما ما غرس فى بناء الكعبة المشرفة فلونه أبيض.

وحين هدمت الكعبة المشرفة سنة ١٠٣٩ هـ بسبب سيل عظيم، وقاموا بعمارتها كان ممن حضرها الإمام ابن عَلاّن المكى، وقد سجل مراحل عمارتها ووصف ذلك بالتفضيل، ومما قاله رحمه الله عن الحجر الأسود وقد شاهده بالمعاينة:

"ولون ما يستتر من الحجر الأسود بالعمارة فى قدر الكعبة أبيض بياض حَجَر المقام، وذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل، وذلك شبر ونصف، وهو طول ذراع غالب الناس، وعرضه ثلث ذراع، ونقص منه قيراط فى بعضه، وسُمكه أربعة قراريط، وعليه سيور من فضة.

وقال المؤرخ محمد طاهر الكردى المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ رحمه الله تعالى:

"والذى يظهر من الحجر الأسود فى زماننا ـ منتصف القرن الرابع عشر الهجرى ـ ونستلمه ونقبله ثمانى قطع صغار مختلفة الحجم، أكبرها بقدر التمرة الواحدة، كانت قد تساقطت منه حين الاعتداءات عليه من بعض الجهال والمعتدين فى الأزمان السابقة.

وقد كان عدد القطع الظاهرة منه خمس عشر قطعة، وذلك منذ خمسين سنة، أى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة، ثم نقصت هذه القطع بسبب الإصلاحات التى تحدث فى إطار الحجر الأسود، فما صغر ورقّ عُجن بالشمع والمسك والعنبر، ووضُع أيضاً على الحجر الكريم نفسه"[١].

فضائل الحجر الأسود

١ ـ الحجر الأسود يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده:

روى الأزرقى وابن أبى عمر بإسناد صحيح [١] "عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن هذا الركن يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه".

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "يأتى الركن يوم القيامة أعظم من أبى قبيس، له لسان وشفتان يتكلم عمن استلمه بالنية، وهو يمين الله يصافح بها خلقه".

٢ ـ الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة:

عن عبدالله بن عمروبن العاص رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا أن الله طمس على نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب".

والركن هوالحجر الأسود، والمقام هو مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وفى رواية البيهقى:

"ولولا ما مسهما من خطايا بنى آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذى عاهة ولا سقيم إلا شُفى".

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: "إن الركن والمقام من الجنة".

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

"ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنة، ولولا ما مسهما من أهل الشرك: ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله".

---

[١] التاريخ القويم ٣/٢٩٤.

[١] أخبار مكة للأزرقى ١/٣٢٤.

٣ – نزول الحجر الأسود من الجنة، وله نور عظيم، ثم عوده إليها:

- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

"نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بنى آدم"[٢].

- وفى لفظ للإمام أحمد فى المسند:

"نزل الحجر الأسود من الجنة، فكان أشد بياضاً من الثلج، حتى سودته خطايا أهل الشرك".

وفى لفظ: "الأشد بياضاً من الفضة".

- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال:

"نزل جبريل عليه السلام بهذا الحجر – الأسود – من الجنة، فتمتعوا به، فإنكم لاتزالون بخير مادام بين أظهركم، فإنه يوشك أن يأتى يوم فيرجع به من حيث جاء به".

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

"الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، وإليهما يصيران، ولولا ما مس هذا الركن من الأنجاس، لأبرأ الأكمه والأبرص".

ما ورد فى النصوص السابقة من أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه نزل منها، فهى على ظاهرها، حيث إن الأصل فى الإطلاق الحقيقة [٢]، لاسيما أن تتمة النص تؤيد هذا، وهو أن الحجر يعود ويصير إلى الجنة من حيث جاء، "فهو من الجنة فى الأصل، فلما جُعل فى الأرض اقتضت الحكمة – الإلهية – أن يراعى فيه حكم نشأة الأرض، فطمس نوره".

٤ـ زيادة شرف الحجرالأسود بتقبيل النبى ﷺ له:

إن الحجر الأسود من الشرف العظيم، والمجد القديم، ما خصه الله تعالى به دون سائر الأحجار، وقد تقدم شىء من ذلك فى الأحاديث النبوية السابقة الذكر، وهو أيضاً فى محل التشريف والتعظيم فى ركن بيت الله العظيم، الذى بُنى عليه قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام. إلى غير ذلك من الفضائل كما سيأتى.

ومما زاده شرفاً وفخراً فوق ذلك كله تقبيل رسول الله ﷺ له، وذلك حين طاف بالبيت العتيق مستلماً له.

"وإن فى تقبيل المسلمين واستلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة، وهى أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله ﷺ، وفم الأنبياء الذين قبله عليهم الصلاة والسلام، وأن تلمس أيديهم ما لمسته أيديهم الشريفة من هذا الحجر المكرم، وأى مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة لا يبادر بتقبيله واستلامه!!".

---

[٢] سنن الترمذى، الحج، باب فضل الحجر الأسود ٢٢٦/٣ وقال: حديث حسن صحيح.

[٢] ينظر وفاء الوفا للسمهودى ٤٣٣/١، العلم المفرد (مخطوط) لابن علان.

٥ ــ مسح الحجر الأسود مكفر للخطايا:

عن عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال: "إن ابن عمر كان يزاحم على الركنين ــ الأسود واليمانى ــ زحاماً ما رأيت أحداً من أصحاب النبى ﷺ يفعله، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنك تزاحم على الركنين زحاماً ما رأيت أحداً من أصحاب النبى ﷺ يزاحم عليه؟.

فقال: إن أفعل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن مسحهما كفارة للخطايا".

٦ ــ إتيان الحجر الأسود يوم القيامة مثل جبل أحد، وشهادته لمن استلمه بحق:

- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لهذا الحجر لساناً ةشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق".

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين، يُبعث يوم القيامة مثل أُحُد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا".

- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "ليبعثن الركن والمقام وهما فى العظم مثل أبى قبيس، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء، فرفع الله تعالى النور عنهما،وغير حسنهما فوضعهما حيث هما".

٧ ــ من مواطن إجابة الدعاء عند الحجر الأسود:

- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: "على الركن اليمانى ملكان يؤمّنان على دعاء من مر بهما، وإن على الحجر الأسود ما لا يحصى".

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

"إن الركن يمين الله عز وجل فى الأرض، يصافح بها خلقه، والذى نفس ابن عباس بيده، ما من امرئ مسلم يسأل الله عز وجل شيئاً عنده إلا أعطاه إياه".

٨ ــ عند الحجر الأسود تُسكب العبرات:

- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: "استقبل النبى ﷺ الحجر، ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلاً، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكى فقال: يا عمر ها هنا تُسكب العبرات".

حكمة استلام الحجر الأسود

من عرف معنى العبادة يقطع بأن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى وحده باتباع ما شرعه فيهما. بل كان من تكريم الله تعالى لبيته أن صرف مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين والكتابيين الذين كانوا يعظمونه قبل الإسلام عن عبادته، وقد وضعوا فيه الأصنام وعبدوها فيه ولم يعبدوه، ذلك أن عبادة الشىء عبارة عن دعائه وكل قول أو عمل مبنى على اعتقاد أن له سلطة غيبية يترتب عليها الرجاء بنفعه لمن يعبده أو دفع الضرر عنه، والخوف من ضره لمن لا يعبده أو لمن يقصر فى تعظيمه، سواء أكانت هذه السلطة ذاتية لذلك الشىء المعبود فيستقل بالنفع والضر أم كانت غير ذاتية له بأن يعتقد أنه واسطة بين من لجأ إليه وبين المعبود الذى له السلطة الذاتية. ولا يوجد أحد من المسلمين يعتقد أن الحجر الأسود ينفع أو يضر بسلطة ذاتية له، ولا بسلطة تقرب من يعبده ويلجأ إليه إلى الله تعالى، ولا كانت العرب فى الجاهلية تعتقد ذلك وتقوله فى الحجر كما تقول فى أصنامها: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّه زُلْفَى﴾ ﴿الزمر/٣﴾ ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ ﴿يونس/١٨﴾ وإنما عقيدة المسلمين فى الحجر هى ما صرح به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند تقبيله، قال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك – رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن. وأن هذا القول روى أيضاً عن أبى بكر رضى الله عنه وروى مرفوعاً إلى النبى ﷺ، وأن أثر عمر كان العمدة فى هذا الباب للاتفاق على صحة سنده. قال الطبرى: إنما قال عمر ذلك (أى مع أنه معلوم من الدين بالضرورة) لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادةالأصنام فخشى أن يظن الجهال أن استلام الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية، فأراد أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته.

بقى أن يقال: إذا كان هذا الحجر لا ينفع ولا يضر ـــ كما قال عمر رضى الله عنه تعليماً للناس وأقره جميع الصحابة عليه – وكان استلامه وتقبيله لمحض الطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ كما يتبع فى سائر العبادات، فما حكمة جعل ما ذكر من العبادة؟ وهل يصح ما قيل: من أن النبى ﷺ تركه فى الكعبة مع أنه من آثار الشرك تأليفاً للمشركين واستمالة لهم إلى التوحيد؟ والجواب أن الحجر ليس من آثار الشرك ولا من وضع المشركين، وإنما هو من وضع إمام الموحدين إبراهيم ﷺ، جعله فى بيت الله ليكون مبدأ للطواف بالكعبة يُعرف بمجرد النظر إليها فيكون الطواف بنظام لا يضطرب فيه الطائفون،

وبهذا صـــار من شـــعائر الله يُكرم ويُقبل ويُحترم لذلك كما تحترم الكعبة لجعلها بيتاً لله تعالى وإن كانت مبنية بالحجارة فالعبرة بروح العبادة النية والقصـــد، وبصـــورتها الامتثال لأمر الشـــارع واتباع ما ورد بلا زيادة ولا نقصـان، ولهذا لا تقبّل جميع أركان الكعبة عند جمهور السلف، وإن قال به وبتقبيل المصحف وغيره من الشعائر الشـريفة بعض من يرى القياس فى الأمور التعبدية. وتعظيم الشـعائر والآثار الدينية والدنيوية بغير قصـد العبادة معروف فى جميع الأمم لا يستنكره الموحدون.

هذا وأن من مقاصد الحج النافعة تذكر نشأة الإسلام دين التوحيد والفطرة فى أقدم معابده وإحياء شعائر إبراهيم التى طمســتها وشــوهتها الجاهلية بوثنيتها فطهرها الله ببعثة ولده محمد ﷺ الذى اســتجاب الله به دعوته ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿البقرة/١٢٩﴾ عليهما الصلاة والسلام.

روى الإمام أحمد وأصـــحاب الســـنن والحاكم عن يزيد بن شـــيبان قال: أتانا ابن مربع (كمنبر واســـمه يزيد) الأنصــــارى ونحن بعرفة – فى مكان يباعده عمرو عن الإمام – فقال: أما إنى رســـول الله ﷺ إليكم، يقول لكم: "قفوا على مشـــاعركم فإنكم على إرث من أبيكم إبراهيم" هذا ســـياق أبى داود وقد ســـكت عليه. وقال الترمذى: حديث ابن مربع الأنصارى حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن عيينة عن عمرو بن دينار.

وجملة القول إن مناســك الحج من شــريعة إبراهيم وقد أبطل الإســلام كل ما ابتدعته الجاهلية فيها من وثنيتها وقبيح عملها كطوافهم بـالبيت عراة، وأن الكعبة من بناء إبراهيم وإســـماعيل عليهما الســـلام كما هو ثابت عند العرب بـالإجماع المتواتر بينهم، وكانوا يعظمونها هم والأمم المجاورة لهم بل والبعيدة عنهم كالهنود، ومن الثابت أيضـاً أنهم جددوا بناءها وأبقوا الركنين اليمانيين على قواعد إبراهيم، وإنما اقتصـروا من جهة الركنين الشـاميين، ولذلك ورد استلام الركنين اليمانيين دون غيرهما، ويقال لأحدهما: الركن الأسود لأن فيه الحجر الأسود وللآخر: اليمانى فإذا ثنوهما قالوا: اليمانيين تغليباً كما يقولون فى تثنية الركن الشـــامى والركن العراقى: الشـــاميين، ولما كانت الكعبة قد جدّد بناؤها قبل الإســـلام وبعده ولم يبق فيها حجر يعلم باليقين أنه من وضـــع إبراهيم إلا الحجر الأسود لامتيازه بلونه وبكونه مبدأ المطاف – كان هو الأثر الخاص المِذكر بنشأة الإسلام الأولى فى ضمن الكعبة المذكرة بذلك بوضـعها وموضـعها وسـائر خصـائصـها، زادها الله حفظاً وشرفاً. وقد علم بهذا أن الحجر له مزية تاريخية دينية وإن كان الأصـل فى وضـعه بلون مخالف للون البناء اهتداء الناس بسـهولة إلى جعله مبدأ للطواف. ولنا مع علمنا بهذا أن نقول إن لله تعالى أن يخصـــص ما شـــاء من الأجســـام والأمكنة والأزمنة بما شـــاء لروابط العبادة والشعائر.

ما قيل من الأشعار فى مدح الحجر الأسود

قال أبو طالب عم النبى ﷺ فى قصيدته المشهورة فى مدح النبى ﷺ، وقد تعرض لذكر البيت الحرام والحجر والمقام، ومما قاله[1]:

وبالبيت حق البيت من بطن مكـة وبالله أن الله ليـس بغـافـل

وبالحجـر المسـود إذ يمسحـونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقال الأديب ابن نباته – محمد بن محمد، ت ٧٦٨ هـ - فى قصيدة مدح فى أولها الكعبة المشرفة، ثم استخلص لمدح النبى ﷺ، وأوردها فى رحلته المسماة بـ : "المجاز فى حقيقة الحجاز" فقال عن الحجر الأسود:

ألـم تـر خـالهـا المُسـود أضحى يفوق على الصباح المستطير

تُقبله الطـوائـف طـائفـات فيا شـرف المبـاسم والثغور

تكـون دُرة بيضـاء لكـن تسود من ذنوب أولى القصور

أُقبلُـه لعـل فمـى يـلاقـى مكاناً فـاز بالهـادى البشـير

محمد الـذى سـاد البـرايـا وأخجل طلعة القمر المُنير[2]

وفى شفاء الغرام للفاسى رحمه الله قال: "أنشدنى العلامة بدر الدين أحمد بن محمد بن الصـاحب المصـرى لنفسه إجازة قوله:

للحجـر الأسـود كـم لاثـم وسـاجد مـرغ فيه الجَبـاه

تـزدحمُ الأفـواهُ فـى وِردِه كأنـه ينبـوع مـاء الحيـاه

وقوله فيما أنبأنا به:

أقول وقد زوحمت عن لثم أسود

من البيت محجوب فما السر يُحجب

فإنك منى بالمحـل الـذى بـه

محل سـواد العـين أو أنت أقرب

وللإمام الحافظ السيوطى – عبدالرحمن بن أبى بكر، ت ٩١١ هـ - فى ساجعة الحرمين:

قف واستلم رُكنا لأشرف منزل واخضع وذل تفز بكل مؤمل

وإذا خـلا الحجر المعظـم قدره فاليُمن فـى تلك اليمين فقبـل

وقال شاعر الإنسانية المؤمنة الأستاذ عمر بهاء الدين الأميرى رحمه الله، المتوفى أواخر شوال سنة ١٤١٢:

الحجـر الأسـود قبلتـه بشفتـى قلبـى وكُلـى ولـه

لا لاعتقـادى أنـه نـافـع بل لهيـامـى بالـذى قبلـه

محمد أطهـر أنفـاسـه كـانت علـى صفحتـه مُرسله

قبّلـه والنـور مـن ثغـره يُشـرق آيـات هدى مُنزله

قَبلـتُ مـا قبلـه ثغـره... الناطق بالوحى ابتغاء الصلة

---

[1] سيرة ابن هشام.

[2] العلم المفرد فى فضل الحجر الأسود لابن علان. (مخطوط).

مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

التعريف بمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

المقام فى اللغة[1]: بفتح الميم موضع القدمين، من قام يقوم، يكون مصدراً واسماً للموضع.

ومقام إبراهيم هو الحجر الذى قام عليه نبى الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين ارتفع بناؤه للبيت، وشق عليه تناول الحجارة، فكان يقوم عليه ويبنى، وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة.

وهو أيضاً الحجر الذى قام عليه للنداء والأذان بالحج فى الناس.

وفى هذا الحجر المكرم أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث جعل الله تعالى تحت قدميه من ذلك الحجر فى رطوبة الطين، حتى غاصت فيه قدماه.

وهو الحجر الذى تعرفه الناس إلى اليوم عند الكعبة المشرفة، الذى يصلون خلفه ركعتى الطواف.

وهذا القول في التعريف بمقام إبراهيم هو القول المصحح عند جمهور العلماء والمفسرين المحققين.

وهناك أقوال أخرى فى المراد من (مقام إبراهيم) مروية عن بعض المفسرين المتقدمين نذكرها لاستيفاء القول:

فقيل: مقام إبراهيم: هو الحج كله.

وقيل: هو عرفة ومزدلفة والجِمار.

وقيل: هو الحرم كله.

ومما يدل على صحة القول الأول الذى عليه الجمهور:

١ - أن الله تعالى أمرنا بفعل الصلاة خلف المقام فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ {آية/١٢٥ البقرة} ، وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا سائر المواضع التى ذكرت فى الأقوال الأخرى.

٢ - «روى أنس عن عمر رضى الله عنهما قال: قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ».

وصلى النبى ﷺ خلف المقام، كما فى حديث جابر رضى الله عنه عند مسلم فى صحيحه فى صفة حجة النبى ﷺ.

---

[1] ينظر القاموس المحيط (قوم).

قال: «فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ، فجعل المقام بينه وبين البيت...» الحديث.

«فدل على أن مراد الله تعالى بذكر المقام هو الحجر».

٣ - «إن هذا الاسم فى العُرف مختص بهذا الحجر الكريم، ولأن الحجر صار تحت قدميه فى رطوبة الطين حين غاصت فيه رجلاه، وفى ذلك معجزة له، فكان اختصاصه به أقوى من اختصاص غيره، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى».

سبب تسمية هذا الحجر الكريم بمقام إبراهيم

سُمى هذا الحجر الكريم بمقام إبراهيم، لقيام إبراهيم الخليل عليه حين ارتفع بناؤه للبيت، فكان يرتفع عليه ويبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة.

روى البخارى رحمه الله فى صحيحه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة إبراهيم عليه السلام وبنائه للبيت قال: قال رسول الله ﷺ: «فعند ذلك رفعا - إبراهيم وإسماعيل - القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجر، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ {البقرة/١٢٧}.

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله - جاء بهذا الحجر - يعنى المقام، وفى رواية إبراهيم بن نافع: حتى إذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام».

وفى رواية للأزرقى فى أخبار مكة: «فقام - إبراهيم وإسماعيل - يحفران عن القواعد، ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ويحمل له إسماعيل الحجارة على رقبته، ويبنى الشيخ إبراهيم، فلما ارتفع البنيان، وشق على الشيخ تناوله، قرب له إسماعيل هذا الحجر، فكان يقوم عليه ويبنى، ويحوله فى نواحى البيت، حتى انتهى إلى وجه البيت.

يقول ابن عباس رضى الله عنهما: فذلك مقام إبراهيم عليه السلام، وقيامه عليه».

قيام إبراهيم الخليل على المقام للأذان بالحج:

إن هذا الحجر المكرم (مقام إبراهيم) الذى قام عليه إبراهيم الخليل لبناء البيت، هو نفسه الذى قام عليه حين أُمر بالأذان بالحج، ولا مانع من تكرر صعوده على المقام مرة للبناء، وأخرى للنداء.

ففى فتح البارى للحافظ بن حجر رحمه الله قال:

«زاد فى حديث عثمان: فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة، جاء جبريل فأراه المناسك كلها، ثم قام إبراهيم على المقام فقال: يا أيها الناس: أجيبو ربكم، فوقف إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف.

وروى الفاكهى بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قام إبراهيم على الحجر فقال: يا أيها الناس: كُتب عليكم الحج، فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق فى علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك»

تطاول المقام وعلوه بإبراهيم الخليل فى السماء:

١ - تطاول المقام عند قيامه عليه لبناء البيت:

اشتهر عند مؤرخى مكة المتأخرين أن المقام تطاول وعلا فى السماء حين ارتفع إبراهيم الخليل ببناء الكعبة المشرفة، فكان الحجر (مقام إبراهيم) يرتفع بارتفاع الجدار عند البناء، ويقصر به إلى أن يتناول الحجارة من إسماعيل عليه السلام، ثم يطول المقام ويعلو به إلى أن يضعها فى علوها، وهكذا حتى انتهى من بناء البيت.

٢ - تطاول المقام عند قيامه عليه بالأذان بالحج:

جاء فى بعض الآثار عن الصحابى عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال: إن حجر المقام لما صعد عليه إبراهيم الخليل للأذان بالحج، تطاول المقام حتى كان كأطول جبل من الجبال، فنادى: يا أيها الناس أجيبو ربكم...».

وهناك روايات أخرى: أن إبراهيم الخليل حين أراد الأذان بالحج صعد على جبل أبى قبيس - المقابل للحجر الأسود - وقيل: على الصفا، ولا تعارض بين هذه الروايات حيث يمكن الجمع بينهما بتكرر النداء فى هذه المقامات كلها.

أثر قدمى إبراهيم الخليل فى حجر المقام:

إن من آيات الله البينة الباقية على مر الأزمان فى حرم الله الآمن، أثر قدمى نبيه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى ذلك الحجر الكريم (مقام إبراهيم)، وقد جعل الله ذلك معجزة له حين قام عليه، وهو حجر صلد، فَلاَنَ تحت قدميه حتى أصبح كالطين، وغاصت قدماه فيه، ثم لما رفع قدميه عنه خلق الله فيه الصلابة الحجرية مرة خرى، وبقى أثرهما ظاهراً فيه من ذلك العصر - من حوالى خمسة آلاف سنة - إلى يومنا هذا، إلى ما شاء الله تعالى.

وقد تغير أثر قدميه فى ذلك الحجر عن هيئته وصفته الأصلية، حتى أصبح موضعهما حفرتان، وذلك بمسح الناس له بأيديهم خلال هذه القرون الطويلة، قبل وضع المقام فى مقصورة تحجب مسّه عن الناس، حيث كان المقام مكشوفاً فى الجاهلية وعدة قرون من عهد الإسلام.

وقد كان أثر أصابع وأخمص قدميه الشريفتين فى الحجر واضحاً إلى زمن الصحابة رضوان الله عليهم.

«ففى موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم».

وأخرج الأزرقى فى أخبار مكة والطبرى فى تفسيره من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى تفسير قوله تعالى ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ «قال قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه، فمازالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى».

صفة المقام

ذكر الأزرقى [1] رحمه الله صفة المقام وذرعه بعدد الأصابع، وبعضهم ذكر قياسه بالذراع، وهى وحدات قياس كانت فى زمانهم، وليست مشهورة اليوم، ولهذا آثرنا أن نذكر ما سجله الشيخ محمد طاهر الكردى المكى من مقاسات للمقام بالوحدة القياسية المعروفة اليوم وهى المتر، وذلك حين فتح له المقام، وذلك فى سنة ١٣٦٧ هـ، فكتب رحمه الله ما يلى[2]:

«لقد وجدنا حجر مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مثبتاً فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر، بقدر قياس نفس المقام الشريف طولاً وعرضاً، وأما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتيمتراً. وأما مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو حجر لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال، وهو حجر وليس بصوان.

وأما حجم حجر المقام الكريم، فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمتراً، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة وثلاثون سنتيمتراً، وطول ضلعه الرابع: ثمانية وثلاثون سنتيمتراً، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح ١٤٦ سنتيمتراً.

وفى هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مقداراً كبيراً إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين ١٠ سم، وعمق الثانية ٩سم.

ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً، فقد انمحى من طول الزمن، ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل.

وطول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة ٢٧ سم، وعرض كل واحدة منهما ١٤ سم.

أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منهما ٢٢ سم، وعرض كل واحدة منهما ١١ سم، وما بين القدمين فاصل مستدق نحو ١ سم، وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما بسبب المسح أيضاً.

---

[1] أخبار مكة ٣٨/٢.

[2] مقام إبراهيم ص ١١٢ – ١١٤.

وحجر المقام كله ملبس بالفضـــة الخالصـــة، فلا تظهر حقيقة الحجر، لكن معالم وهيئة القدمين واضـحة بينة لم تتغير ولم تتبدل، وتبقى كذلك - والله أعلم إلى يوم القيامة» من كلام الشيخ محمد طاهر الكردى.

وحجر المقام اليوم موضوع فى مقصورة زجاجية شفافة، ترى من خلالها هيئة القدمين بوضوح تام.

موضع المقام

فى عهد النبى ﷺ وفيما قبله وبعده

اختلفت الأقوال واضـــطربت الروايات فى موضـــع المقام فى عهد النبى ﷺ، وفيما قبله وبعده، على أربعة أقوال، وهذه هى:

١ - القول الأول فى موضع المقام:

إن المقام كان فى زمن إبراهيم الخليل إلى جانب باب الكعبة مما يلى الحجر، يمنه الداخل من الباب، وكذلك كان فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضـى الله عنهما، حتى جاء السيل فى زمن عمر رضـى الله عنه فاحتمله إلى أسفل مكة، فرده عمر رضى الله عنه إلى مكانه الأول.

ودليل هذا القول ما ذكره الحافظ بن حجر رحمه الله حيث قال: «روى الأزرقى فى (أخبار مكة) بأســـانيد صـــحيحة، أن المقام كان فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر إلى جانب باب الكعبة، حتى جاء ســـيل فى خلافة عمر، فاحتمله حتى وجد بأسـفل مكة، فأتى به فربط إلى أسـتار الكعبة، حتى قدم عمر، فاسـتثبت فى أمره، حتى تحقق موضعه الأول، فأعاده إليه وبنى حوله، فاستقرَّ ثم إلى الآن».

ومما يُسـتدل به لهذا القول أيضـاً، ما روى عن ابن عباس رضـــى الله عنهما قال: «إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، نزلا فوضـــعا على الصـــفا، فأضـــاء نورهما لأهل الأرض.. وليبعثن الركن والمقام وهما فى العِظَم مثل أبى قبيس يشـهدان لمن وافاهما بالوفاء، فرفع الله تعالى النور عنهم، وغير حسـنهما، فوضـعهما حيث هما».

٢ - القول الثاني فى موضع المقام:

إن المقام فى عهد النبى ﷺ وفيما قبله وبعده إلى زمن عمر رضـــى الله عنه كان لاصـقاً بالبيت، ثم حوله عمر إلى مكانه الحالى.

قال الحافظ بن كثير رحمه الله فى تفسيره [1]: «قد كان هذا المقام ملصـقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر، يُمنه الداخل من الباب، فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضـــعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه.

[1] عند تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة /١٢٥.

وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر».

٣ - القول الثالث فى موضع المقام:

إن المقام كان ملصقاً بالبيت فيما مضى، ولكن الذى حوله إلى موضعه هذا هو رسول الله ﷺ، وهو قول مجاهد.

وقد ضعف هذا الأثر عن مجاهد بن كثير وابن حجر، وصححا عنه غير هذا، وأن الذى حوله هو عمر رضى الله عنه.

٤ - القول الرابع فى موضع المقام:

وهو ما ذكره الإمام مالك رحمه الله فى المدونة حيث قال:

«بلغنى أن عمر بن الخطاب لما ولى وحج ودخل مكة أخر المقام إلى موضعه يمنه الداخل من باب الكعبة، وقد كان ملصقاً بالبيت فى عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر وقبل ذلك، وكانوا قدموه فى الجاهلية مخافة أن يذهب به السيل، فلما ولى عمر أخرج أخيوطة كانت فى خزانة الكعبة قد كانوا قاسوا بها ما بين موضعه وبين البيت، إذ قدموه مخافة السيل، فقاسه عمر، فأخرجه إلى موضعه اليوم، فهذا موضعه الذى كان فيه فى الجاهلية وعلى عهد إبراهيم».

اهتمام النبى ﷺ بالمقام

اهتم رسول الله ﷺ اهتماماً بالغاً واضحاً بالتعريف بآيات الله العظام، ومشاعر بيت الله الحرام، ومن أعظم هذه الآيات البينات التى عرف بها ﷺ، وبيّن فضلها وشرفها: آية مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك بقوله وفعله ﷺ، ومن أوضح ما يدل على هذا الاهتمام منه ﷺ ما يلى:

عن جابر رضى الله عنه فى صفة حجة النبى ﷺ قال:

«حتى إذا أتينا البيت معه - ﷺ - استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت». الحديث.

قال الإمام ابن حجر الهيثمى المكى:

«ولما صلى ﷺ خلف المقام ركعتى الطواف قرأ: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ كما قرأ ما يتعلق بالصفا

والمشــعر الحرام عند وصــوله إليها، وهكذا كان ﷺ يتلو آيات المناســك عند محلها، إعلاماً للأمة بشــرفها، وإحياء لذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما أحيَى ذكره بـــ «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» فى كل صــلاة، لأنه الأب الرحيم، الداعى ببعثة نبينا محمد ﷺ فى هذه الأمة لهدايتهم وتكميلهم، صــلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وعلى إبراهيم وإسماعيل وجميع آبائه وإخوانه الأنبياء والمرسلين.

روى البخارى ومسلم فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قول سيدنا عمر رضـى الله عنه: «وافقت ربى فى ثلاث: فقلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾... » الحديث.

«وقد جاء فى رواية أبى نعيم فى الدلائل من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال:

أخذ النبى ﷺ بيد عمر، فمر به على المقام فقال له: هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: يا نبى الله ألا نتخذه مصــلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾».

فكل هذا الاهتمام القولى والفعلى من النبى ﷺ بالتعريف بالمقام، والمشـــاهد العِظام، يســتدعينا الاهتمام بها اقتداءاً برســول الله ﷺ، فيبين للمســلمين عامة، وللحجاج والعُمار خاصـــة فضــل هذه الآيات البينات وشــرفها، ويعرف بها وبتاريخها، من المقام والحجر الأسود وزمزم والصفا والمروة والمشاعر كلها.

فضائل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

لقد جعل الله تعالى لهذا الحجر الكريم (مقام إبراهيم) فضـائل عديدة، وآيات كثيرة تدل على عظيم شرفه وكبير شأنه، وقد ثبت فضله واشتهر بنص القرآن الكريم، وصريح السنة النبوية المطهرة.

١ ـ تخليد ذكره فى القرآن الكريم:

ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز هذا المقام الكريم فى آيتين عظيمتين عند ذكره جل وعلا بيته المشرف المعظم، فهو قرآن يتلى على مر الدهور، تخليداً لذكره الحسن، وبياناً لشرفه وفضله، وتكرمة لأبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

ذكره الله تعالى فى آية بينة من أعظم حرم الله، كما أمر المؤمنين باتخاذه مصلى لهم.

أ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾{البقرة/١٢٥}.

ففى هذه الآية الكريمة «يذكر الله تعالى شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً، من كونه مثابة للناس، أى جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه، ولا تقضى منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه الصلام فى قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ {إبراهيم/٣٧}.

«وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أى اتخذوا أيها الناس من مقام إبراهيم مصلى تصلون عنده، عبادة منكم، وتكرمة منى لإبراهيم عليه السلام».

وفى هذا الأمر باتخاذه مصلى تنويه بشرفه وشأنه، وتخليد لذكره ما تلا كتاب الله تالٍ، وما طاف بالبيت طائف، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ب ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ {آل عمران ٩٦/٩٧}.

وهكذا أبقى الله تعالى ذكر هذا المقام الكريم، يذكر مع بيت الله وحجه، ومع الصلاة والدعاء خلفه إلى ما شاء الله تعالى.

٢ ـ مقام إبراهيم من أعظم آيات الله البينات فى حرم الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ {آل عمران ٩٦/٩٧}.

يبين الله تعالى لعباده أن فى بيته المحرم المعظم المبارك آيات بينات واضحات الدلالة، «وإن مقام إبراهيم وأمن الداخل إلى الحرم جُعلا مثالاً مما فى حرم الله من الآيات، وخصا بالذكر لعظمهما».

وهذه الآية العظمى (مقام إبراهيم) هى فى نفسها تشتمل على عدة آيات واضحات عجيبة، ومعجزات باهرة، أظهرها الله سبحانه فى ذلك الحجر الكريم، فهى آيات فى آية، ومن هذه الآيات فى مقام إبراهيم ما يلى:

١ ـ أثر القدمين الشريفتين فى الصخرة الصماء آية.

٢ ـ وغوصهما فيها إلى الكعبين آية.

٣ ـ وإلانة بعض هذا النوع دون بعض آية.

٤ - وارتفاع المقام لإبراهيم الخليل فى السماء حين ارتفع بالبناء آية، وكذلك حين علاه للأذان بالحج حتى كان كأطول جبل.

٥ - وإبقاؤه على مر الزمان آية.

٦ - وحفظه ألوف السنين من الأعداء مع كثرتهم وشدة عدائهم آية.

٣ - الأمر الربانى باتخاذ المقام مصلى:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ {البقرة ١٢٥}.

إن هذا الأمر الصريح من الله تعالى باتخاذ المقام مصلى، دليل على فضل وشرف هذا المقام الكريم، وشأنه الكبير عند الله تعالى.

وقبل أن يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وأمته باتخاذه مصلي وقبلة، كان المقام قبلة ومصلى لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

روى الأزرقى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سألت عبدالله بن سلام رضى الله عنه عن الأثر الذى فى المقام... ثم قال عبدالله ابن سلام:

«فلما فرغ - إبراهيم من الدعوة إلى الحج على المقام - أمر بالمقام فوضعه قبلة، فكان يصلى إليه مستقبل الباب، فهو قبلة إلى ما شاء الله، ثم كان إسماعيل بعد يصلى إليه إلى باب الكعبة».

وهذا كله يدل علي فضل المقام، حتى ارتضاه جل وعلا قبلة لهؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، ومصلى لهذه الأمة المحمدية المصطفاة.

٤ - مقام إبراهيم ياقوتة من يواقيت الجنة نزلت منها:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا أن الله طمس على نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنة، ولولا ما مسهما من أهل الشرك، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله».

٥ - عود المقام إلى الجنة، وتمثله يوم القيامة بأعظم من جبل أبى قبيس يشهد لمن وافاه بالوفاء:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، نزلا من السماء لهما نور، فلما وضعا فى الأرض طُفئ نورهما، ولولا ما أطفأ الله من نورهما لأضاءا ما بين السماء والأرض، آنس الله تعالى بهما آدم عليه السلام، فكانا يتلألآن تلألؤاً من شدة بياضهما.

وأخذ آدم الركن فضـــمـه إليـه اســـتئنـاســـاً بـه، ولولا ما طبع الله عزو وجل من أيدى الجاهلية، لأبرأ الأكمه والأبرص.

وليس فى الأرض شـــىء من الجنة إلا الركن والمقام، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنة، يأتى كل واحد منهما يوم القيامة أعظم من أبى قبيس، لهما عينان وشفتان يشهدان لمن وافهما بالوفاء».

٦ ـ من مواطن إجابة الدعاء خلف المقام:

عن الإمام التابعى الحسن البصرى رحمه الله، المتوفى سنة ١١٠ هـ قال فى رسالته:

«يقال: إن الله عزوجل يستجيب الدعاء فى خمسة عشر موضعاً، وذكر منها: خلف المقام».

وقد نص كثير من العلماء والفقهاء على اســـتحباب الداء عقب ركعتى الطواف خلف المقام، لأنه من مواطن إجابة الدعاء.

ماء زمزم وتاريخه

روى الإمام البخارى رحمه الله تعالى فى صحيحه فى قصة نبع زمزم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه - هاجر - عليهم السلام، وهى ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم - الدوحة: الشجرة العظيمة - فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء".

ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {آية / ٣٧ إبراهيم}.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، وفى رواية أخرى للبخارى: «كأنه ينشغ للموت - أى يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذى ينازع - فلم تقرها نفسها «فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها - أى: قميصها - ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً؟ فم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : فذلك سعى الناس بينهما، فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتاً، فقالت: صه - تريد نفسها [1] - ثم تسّمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث - وفى رواية: «فإذا هى بصوت فقالت: أغث إن كان عندك خير» -، فإذا هى بالملك - جبريل - عند موضع زمزم.

«وفى حديث على رضى الله عنه عند الطبرى بإسناد حسن، فناداها جبريل فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ» .

قال: «فبحث - جبرل - بعقبه، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، وفى رواية أخرى للبخارى: «قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحوّضه - أى تجعله مثل الحوض - وتقول بيدها هكذا».

«وفى حديث على رضى الله عنه: فجعلت تحبس الماء، فقال - جبريل - : دعيه فإنها َرواء - أى: كثير مروٍ - »، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف.

---

[1] كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتى.

قال: فشـــربت، وأرضـــعت ولدها، وفى رواية أخرى للبخارى: فجعلت تشـــرب من الماء، ويدر لبنها على صـــبيها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضـــيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنى هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضـــيِّع أهله، وفى رواية «لا تخافى أن ينفذ الماء»، وفى رواية أخرى: «لا تخافى على أهل هذا الوادى ظمأ، فإنها عين يشرب بها ضيفان الله».

فكانت - هاجر - كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - بنى قحطان - أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً - أى يحوم على الماء ويتردد، ولا يمضى عنه - فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرســـلوا جرياً أو جريين - أى رســـولاً -، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إســـماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء [1]، قالوا: نعم.

«قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: فألفي ذلك أم إسماعيل، وهى تحب الإنس فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم...» الحديث.

وهكذا «كانت بطن مكة ليس فيها ماء، وليس لأحد فيها قرار، حتى أنبط - أى أظهر - الله تعالى لإســـماعيل عليه السلام زمزم، فعمرت مكة يومئذ، وسكنها من أجل الماء قبيلة من اليمن يقال لهم جُرهم».

خبر خُرهم وزمزم بعد إسماعيل عليه السلام:

«فكانت جُرهم تشـــرب من ماء زمزم، فمكثت بذلك ما شـــاء الله أن تمكث، فلما اســـتخفت جُرهم بالحرم، وتهاونت بحرمة البيت، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، سراً وعلانية، وارتكبوا مع ذلك أموراً عظاماً، نضب ماء زمزم وانقطع[2]، فلم يزل موضعه يَدرُسُ.

خطبة مضاض بن عمرو فى جُرهم:

فلما رأى ذلك رجل منهم يقال له: مضـــاض بن عمرو بن الحارث بن مِضـــاض بن عمرو قام فيهم خطيباً، فوعظهم وقال:

يا قوم ابقوا على أنفسكم، وراقبوا الله فى حرمه وأمنه، فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمم قبلكم، قوم هود وقوم صالح وشعيب، فلا تفعلوا، وتواصلوا وتواصوا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من الأمن والقوة فيه، وإياكم والإلحاد فيه بالظلم، فإنه بوار عظيم.

---

[1] أى ليس لكم فى الماء شىء إلا ما تشربون منه، وتنتفعون به.
[2] وذلك عقوبة لهم، ثم عادت بئر زمزم كما كانت، لا تنزف ولا تذم، أى: لا ينقطع ماؤها ولا يقل.

وأيْم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلا قطع الله عز وجل دابرهم، واستأصل شأفتهم، وبدل أرضها غيرهم، فاحذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله، قد رأيتم وسمعتم من سكنه قبلكم، من طسم وجديس والعماليق، ممن كانوا أطول منكم أعماراً، وأشد قوة، وأكثر رجالاً وأموالاً وأولاداً، فلما استخفوا بحرم الله، وألحدوا فيه بالظلم أخرجهم الله منها بالأنواع الشتى، فمنهم من أخرج بالذّر، ومنهم من أخرج بالجدب، ومنهم من أخرج بالسيف.

وقد سكنتم مساكنهم، وورثتم الأرض من بعدهم فوقِّروا حرم الله - أى راعوا حرماته - وعظموا بيته الحرام، وتنزهوا عنه وعما فيه، ولا تظلموا من دخله وجاء معظماً لحرماته، وآخر جاء بائعاً لسلعته، أو مرتغباً فى جواركم، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا من حرم الله خروج ذل وصغار، حتى لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم، ولا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حرز وأمن، والطير والوحوش تأمن فيه.

فقال له قائل منهم، يرد عليه يقال له مجذع: من الذى يخرجنا منه؟ ألسنا أعز العرب، وأكثرهم رجالاً وسلاحاً؟

فقال له مضاض بن عمرو: إذا جاء الأمر بطل ما تقولون.

فلم يقصروا عن شىء مما كانوا يصنعون، فلما رأى مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض ما تعمل جُرهم فى الحرم، وما تسرق من مال الكعبة، سراً وعلانية، عمد إلي غزالين كانا فى الكعبة من ذهب، وأسياف قلعية [1]، فدفنها فى موضع بئر زمزم، وكان ماء زمزم قد نضب وذهب لما أحدثت جُرهم فى الحرم ما أحدثت، حتى غبى مكان البئر ودرس، فقام مضاض بن عمرو، وبعض ولده فى ليلة مظلمة، فحفر فى موضع بئر زمزم، وأعمق ثم دفن فيه الأسياف والغزالين».

ثم سلط الله عليهم خُزاعة، فأخرجتهم من الحرم، فلم ينفلت منهم إلا الشريد، وفنيت جُرهم، أفناهم السيف فى حربهم مع خزاعة، ووليت خزاعة الكعبة، والحكم بمكة ما شاء الله أن تليه.

وموضع زمزم فى ذلك لا يعرف، لتقادم الزمان، حتى بوأه الله تعالى لعبد المطلب بن هاشم - جد النبى ﷺ - لِما أراد الله من ذلك، فخصه به من بين قريش».

فلم تزل – زمزم – دارسة، عافياً أثرها، حتى آن مولد المبارك ﷺ، فلما آن ظهوره، أذن الله تعالى لسقيا أبيه أن تظهر، ولِما اندفن من مائها أن تجتهر – أى تظهر – فرفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب، فأمر بحفرها، وأعلمت له بعلامات استبان موضع زمزم، فحفرها.

---

[1] كان ساسان ملك الفرس قد أهداها إلى الكعبة.

حفر عبدالمطلب بن هاشم بئر زمزم

روى الأزرقى[١] من طريق ابن إسحاق عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه يحدث حديث زمزم حين أمر عبدالمطلب بحفرها قال: قال عبدالمطلب: إنى لنائم فى الحِجر، إذ أتانى آت فقال: احفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟، قال: ثم ذهب عنى، فرجعت إلى مضجعى، فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر برة، فقال: قلت:وما برَّة؟ قال: ثم ذهب عنى، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى، فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال لا تنزف أبداً ولا تُذم[٢]، تسقى الحجيج الأعظم، عند قرية النمل، قال:فلما أبان له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غداً بمعوله، ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب، ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر، فلما بدأ لعبدالمطلب الطىّ[٣] كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبدالمطلب، إنها بئر إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها،فقال عبدالمطلب: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا: فأنصفنا، فإنا غيرتاركيك حتى نحاكمك فيها، قال: فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بنى سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبدالمطلب، ومعه نفر من بنى عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، قال: والأرض إذ ذاك مفاوز – المفازة: الفلاة لا ماء فيها، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا، حتى أيقنوا بالهلكة، واستسقوا ممن معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم، وقالوا: إنا فى مفازة نخشى فيها على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القوم، وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فأمرنا بما شئت، قال: فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته، ثم واروه، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً، فَضيْعة رجل أيسر من ضيعة ركب جميعاً، قالوا: سمعنا ما أردت، فقام كل رجل منهم يحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً.

ثم إن عبدالمطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا لعَجْز، لا نبتغى لأنفسنا حيلة، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا، حتى إذا فرغوا، ومن معهم من قريش ينظرون إليهم، وما هم فاعلون، تقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعث به، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبدالمطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشربوا، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل التى معه من قريش، فقال: هلم إلى الماء، فقد سقانا الله عز وجل فاشربوا واستقوا، فشربوا واستقوا.

فقالت القبائل التى نازعته: قد والله قضى الله عز وجل لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك فى زمزم أبداً، الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، هو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يمضوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم.

---

[١] أخبار مكة ٢/٤٤-٤٦.
[٢] أى لا ينقطع ماؤها ولا يغل.
[٣] أى جوانب البئر وحوافها.

وصف بئر زمزم والعيون التى تغذيه

يقع بئر زمزم بالقرب من الكعبة المشــرفة، وأما فتحة البئر الآن فهى تحت ســطح المطاف على عمق ١,٥٦ متراً، وفى أرض المطاف خلف المقام إلى اليســار وأنت تنظر إلى الكعبة المشـرفة، وُضـع هناك حجر مسـتدير مكتوب عليه (بئر زمزم)، يتعامد مع فتحة البئر الموجودة فى القبو أســفل ســطح المطاف، وقد جعل فى آخر المطاف درج يؤدى إلى فتحة البئر[١].

هذا عن مكانه، أما وصف البئر، فهو ينقسم إلى قمسين:

الأول: جزء مبنى عمقه، ١٢,٨٠ متراً عن فتحة البئر.

والثانى: جزء منقور فى صخر الجبل، وطوله ١٧,٢٠ متراً.

وعلى هذا فعمق البئر ٣٠ متراً من فتحة البئر إلى عمقه.

ويبلغ عمق مســتوى الماء عن فتحة البئر حوالى أربعة أمتار، وعمق العيون التى تغذى البئر عن فتحة البئر ١٣ متراً، ومن العيون إلى عمق البئر ١٧ متراً.

أما قطر البئر، فتختلف باختلاف العمق، وهى تتراوح بين ١,٥ متراً و٢,٥ متراً.

أما "العيون التى تغذى بئر زمزم فهى ثلاث عيون، عين حذاء الركن الأســود، وعين حذاء جبل أبى قبيس والصفا، وعين حذاء المروة".

هذا هوالتحديد القديم لعيون زمزم فى القرن الثالث وما قبله، أما التحديد الجديد الذى تم سنة ١٤٠٠ هـ فيصفه المهندس يحيى كوشك بقوله:

"المصدر الرئيسى فتحة تتجه جهة الكعبة المشرفة، فى اتجاه ركن الكعبة الغربى – الحجر الأسود – وطولها ٤٥ سم، وارتفاعها ٣٠ سم، ويتدفق منها القدر الأكبر من المياه، والمصــدر الثانى فتحة كبيرة باتجاه المكبّرية، وبطول ٧٠ سم، ومقسومة من الداخل إلى فتحتين، وارتفاعها ٣٠ سم، وهناك فتحات صـغيرة بين أحجار البناء فى البئر تخرج منها المياه، خمس منها فى المســافة التى بين الفتحتين الأســاسـيتين، وقدرها متر واحد، كما يوجد ٢١ فتحة أخرى، تبدأ من جوار الفتحة الأساسية الأولى، وباتجاه جبل أبى قبيس والصفا والمروة"[١].

وهذه العيون مكانها فى جدران البئر على عمق ١٣ متراً من فتحة البئر.

ويمكن للمرء أن يتســائل هنا أن ماء زمزم نبع ظهر على وجه الأرض إكراماً لنبى الله إسـماعيل وأمه عليهما السلام،فكيف صار هذا الماء الظاهربئراً، له عمق معين؟

والجواب الذى يتصـور – والله أعلم – أن ماء زمزم ظهر أولاً على وجه الأرض لسهولة الوصول إليه، ويُسر الحصـول عليه، فجعلت تغرف منه أم إسـماعيل وتشـرب، ثم مع الزمن بدأ ماء زمزم ينخفض عن مسـتوى وجه الأرض شيئاً فشيئاً، وكلما انخفض لحقه الإنسان بالحفر، حتى وصل إلى المستوى الذى يوجد فيه ماء زمزم على عمق معين من وجه الأرض، والله تعالى أعلم.

---

[١] تم تسقيف هذا المكان مؤخراً ووزعت ماء زمزم إلى كل أنحاء المسجد الحرام.

[١] من كتاب زمزم ليحيى كوشك.

أسماء زمزم

إن مما يدل – غالباً – على عظم شأن المسمى وفضله، كثرة أسمائه وصفاته كما قال الشاعر:

واعلم بأن كثرة الأسامى　　　　دلالة أن المسمى سام

ولما كان ماء زمزم خير ماء على وجه الأرض، وسيد المياه وأشرفها، وأجلها قدراً، وأحبها للمؤمنين وأنفسها، وكان شراباً طيباً مباركاً ذا خصائص وفضائل جمة، خصه الله تعالى بأسماء كثيرة، حتى ذكروا أنها تنيف على ستين اسماً.

وهذه الأسماء الكثيرة ترجع إلى الخصائص والفضائل المتعلقة بماء زمزم، ومنها ما هو راجع لوصف البئر، ونذكر فيما يلى أسماء زمزم مرتبة على حروف الهجاء، مع بيان معنى الاسم، وسبب التسمية:

١ – **بَركة ومباركة:** من البركة وهى النماء والزيادة والسعادة، وكثرة الخير، وهذه المعانى كلها فى زمزم.

٢ – **بَرَّة:** وذلك لكثرة منافعها وسعة مائها، وقيل: "مأخوذة من البِرّ، لأن الله تعالى برّ بها نبيه إسماعيل عليه السلام.

٣ – **بُشرى:** لأنه بشرى هاجر أم إسماعيل، حين كانت تبحث عن ماء تحيا به هى وولدها.

٤ – **تُكتْم ومكتومة:** "وهو اسم بئر زمزم، سميت به لأنها كانت قد اندفعت بعد جرهم، وصارت مكتومة، حتى أظهرها عبد المطلب".

٥ – **حَرَمِيَّة:** نسبة إلى الحرم.

٦ – **حفيرة عبد المطلب:** لأن الذى حفرها بعد غياب مكانها عبد المطلب جد النبى ﷺ .

٧ – **ركضة جبريل عليه السلام، وهَزمة جبريل، وهمزة جبريل، ووطأة جبريل:** وسميت بهذا الاسم لأن جبريل عليه السلام ضرب الأرض بجناحه، فانفجر ماء زمزم.

وتسمى هزمة جبريل، لأنها هزمته فى الأرض أى حفرته، حيث ضربها برجله فنبع الماء.

وتسمى أيضاً همزة جبريل بتقديم الميم على الزاى، لأن جبريل همز بعقبه فى موضع زمزم فنبع الماء.

٨ – **الرّواء:** ومُروية، ورِوَى، ورَوِى، ورِىّ: وكلها بمعنى الماء الكثير المروى، وقيل العذب الذى فيه للواردين رى.

٩ – **زمزم، وزُمام:** "يقال: ملأ سِقاءه حتى زم زموماً أى: فاض وطلع من جوانبه".

و"قيل: سميت زمزم من كثرة الماء، يقال: ماء زمزام وزمزم للكثير، وقيل: هو اسم لها خاص، وقيل: بل من ضم هاجر لمائها حين انفجرت لها، وزمها، وقيل: بل من زمزمة جبريل، وكلامه عليها".

١٠ – **سابق:** من السبق، بمعنى أن ماء زمزم له التقدم والسبق.

١١ – **سالمة:** من السلام، والسلامة هى العافية.

١٢ – **سقيا الله إسماعيل عليه السلام:** وهو اسم واضح الدلالة والسبب، حيث كان ماء زمزم سقيا وغيثاً مغيثاً لإسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام حين اشتد بهما العطش.

١٣ ـ **سقاية الحاج**: حيث إن ماء زمزم يسقى الحجيج الأعظم، وخص ﷺ سقاية الحاج بالعباس وآله رضى الله عنهم.

١٤ ـ **سيدة:** لأنها سيدة جميع المياه، وأفضلها ومقدمها وأشرفها وأكرمها وأرفعها.

١٥ ـ **شباعة العيال:** "سميت شباعة، لأن ماءها يروى ويشبع".

١٦ ـ **شراب الأبرار:** والأبرار كثيراً ما يخص بالأولياء والزهاد والعباد، ولذا تجد غالب أهل الخير والصلاح يحرصون على شربه.

١٧ ـ **شفاء سُقم:** أى فيه شفاء من كل مرض بإذن الله.

١٨ ـ **صافية:** أى نقية من الشوائب والكدورات.

١٩ ـ **طاهرة:** من الطهر والتطهر أى التنزه.

٢٠ ـ **طعام طُعم**: بمعنى شباعة.

٢١ ـ **طعام الأبرار:** وقد ذكر هذا الاسم ياقوت فى معجم البلدان وهو واضح المعنى.

٢٢ ـ **طيبة:** من الطيب، "وقيل لزمزم طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم".

٢٣ ـ **ظاهرة:** أى ظاهرة منفعتها.

٢٤ ـ **ظبيَة:** سميت به تشبيهاً لها بالظبية.

٢٥ ـ **عاصمة:** لأن من تضلع منها عصمته من النفاق، وكانت له براءة منه.

٢٦ ـ **عافية:** وهذا بمعنى شفاء سُقم، فمن شربها يستشفى بها.

٢٧ ـ **عِصمة:** وهى بمعنى طعام طُعم،من عصم يعصم، وعصمه الطعام منعه من الجوع.

٢٨ ـ **عَوْنة:** سميت بذلك لأنها عون للعيال، وهى بمعنى شبّاعة، وطعام طعم.

٢٩ ـ **غِياث:** فهى غياث لهاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام بعد تلك الشدة.

٣٠ ـ **كافية:** حيث تكفى زمزم حاجة من شربها لحاجته.

٣١ ـ **لا تنزف ولا تُذم:** لا تنزف أى "لا يفنى ماؤها على كثرة الاستقاء"، ومعنى (لا تُذم): "أى لا تعاب أو لا تلفى مذمومة، وقيل: (لا تذم) بمعنى أنها لا تؤذى ولا يخاف لمن أفرط فى شربها ما يخاف من سائر المياه، بل هو بركة على كل حال.

٣٢ ـ **مأثرة العباس بن عبدالمطلب** ﷺ**:** حيث آثر النبى ﷺ عمه العباس بها، وخصه ﷺ وآله بالسقاية، كما خص بنى شيبة بحجابة البيت وسدانته أى خدمة الكعبة المشرفة وتولى أمرها، ويكون مفتاح بابها بأيديهم.

٣٣ ـ **مُجلِية البصر:** أى أن النظر فى زمزم يجلو البصر.

٣٤ ـ **مضنونة:** "سميت مضنونة لأنها ضن بها على غير المؤمنين، فلا يتضلع منها المنافق.

٣٥ ـ **مُعْذبة:** من العذوبة، "والعذب هو الماء الطيب".

٣٦ ـ **مُغْذية:** من الغذاء، "وهو ما به نماء الجسم وقوامه".

٣٧ ــ **مُفداة**: "من الفداء، والمراد بالفداء: التعظيم والإكبار، لأن الإنسان لا يفدى إلا من يعظمه".

وسـميت زمزم مفداة، لأن عبد المطلب جد النبى ﷺ حين أمربحفرزمزم،ونازعته قريش فى ذلك، وحاولت منعه، واشـتد عليه الأذى، نذر لله عز وجل عليه: لئن حفرها، وتم له أمرها، وتتام له من الولد عشـرة ذكور، ليذبحن أحدهم لله عز وجل.

٣٨ ــ **مؤنسة:** من الأنس ضد الوحشة، حيث يأنس المؤمن لشربها، ويألفها ويحبها.

٣٩ ــ **ميمونة:** من اليُمن وهو البركة.

٤٠ ــ **نافعة:** سميت بذلك الاسم لكثرة منافعها التى لا تحصر.

وقد نظم بعضهم جملة من أسماء زمزم فقال:

لزمزم أسمـاء أتت فهى بـرة   وسيدة بشرى وعصمة فاعلم
ونافعة مضنونة عونة الورى   ومروية سقيا وظبيـة فافهـم
وهمزة جبريـل وهزمته كذا   مباركـة أيضـاً شفاء لأسقـم
ومـؤنسـة ميمونـة حَرَمِيّـة   وكـافيـة شبَّاعـة بتكـرم
ومغذية عُدت وصافية غـدت   وسالمـة أيضـاً طعـام لأطعـم
شراب لأبـرار وعافيـة بدت   وطاهرة تُكتم فأعظم بزمـزم

وقال آخر:

لزمـزم أسمـاء منـها زمـزم   طعام طعم وشفـا من يسقـم
سُقيـا نبـى الله إسمـاعيـلا   مُرويـة هـزمـة جبرائيـل
مُغذيـة عـافيـة وكافيـة   سالمـة وعصمـة وصافيـة
وبـرة بـركـة مـباركـة   نافعـة سـر يغشى ناسكـة
مؤنسـة حرميـة ميـمونـة   وظبيـة طاهـرة مضنونـة
سيـدة وعونـة قـد دُعيـت   شباعـة العيـال قدما سُميـت

جملة من الأشعار فى مدح زمزم

يعيش حب زمزم فى قلوب المؤمنين الصادقين، وتعمر بشوقهم وتحنانهم إليه، وتلهج ألسنتهم بذكره إذا ذكروا بيت الله وحرمه، حتى تغنوا بـه وترنموا بمدحتـه، فجادت قرائح شـعرائهم بـأبيات رائعة كثيرة فى ذكره وبيان فضـائله، وشـرح أشـواقهم إليه، فكان لماء زمزم نصـيب فى شـعر الأقدمين والمعاصـرين، ولهم فى مدحه أسـوة حسنة برسول الله ﷺ ، حيث مدحه ﷺ إيما مدح، وأيضاً "إن من الشعر لحكمة" وقد يكون للشعر تأثير ووقع فى بعض القلوب ما لا يكون لغيره من الكلام، وإليك عزيزى القارئ جملة من تلك الأشعار:

١- قالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها عمة رسول الله ﷺ :

نحن حفرنا للحجيج زمزما   شفاء سقم وطعـام مطعمـا
ركضة جبريل ولما تعظُما   سقيا نبى الله فى المُحرمـا
ابن خليل ربنا المُكرما

٢- "قال الأعشى وهو يؤنب رجلاً، ويخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم سكان حرم الله، ولهم حظ الشرب من زمزم:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا   ولا لك حظ الشرب من ماء زمزم.

٣- قال الميورقى فى مدح زمزم:

فليت لنا من ماء زمزم شُربة   تكون لنا أمنا لدى موقف الحشـر
فيا حبذا ماء لمـا قد سربتـــه   كما صح فى أخبار صدق بلا نُكر

٤ - ولابن رشيد البغدادى محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٦٢ من قصيدة فيها أعمال المناسك قوله:

وصلى بأركان المقام حجيجُنا   وفى زمزم ماء طهور ورَدْناه
وفيه الشفـا، فيه بلوغ مرادنـــا   لما نحن ننويه إذا ما شربنـاه

٥- وقال الشيخ الشاعر برهان الدين القيراطى إبراهيم بن شرف الدين المتوفى سنة ٧٨١ فى منظومته المشهورة بالهمزية:

واشربا من شراب زمزم كأساً   دب منه السرور فى الأعضاء
فهى حقا طعـام طُعـم لجـوع   وبــهــا للـسـقـيـم أىُّ شـفـــاء

٦- وقال الشاعر محمد بن العليف المتوفى سنة ٨١٥ فى ديوانه وهو يرجو زيارة مكة المكرمة:

ألا لـيـت شعـرى هـل أبـيـتـن ليلــة   وأضحى ويهنانى هناك مقيلُ
وهل أرَدنْ من حوض زمزم شُربة   تُميت سقامى فالفـؤاد عُليـلُ

٧- وقال الحافظ نجم الدين بن فهد لما عمّر السلطان الملك الظاهر بناء بئر زمزم، وذلك عام ٨٤٩:

أيا زمزم الخيرات والرى والشفا   وبـرء الذى أمسـى سقيـمـاً على شفـــــا
ويا خيـر مـــاء قد جـرى متدفقـاً   من البيت والأركان والحِجر والصفـــــا
لفضلك قلب المصطفى بك غسله   وبـورك مـن قلـب صفـى ومصـطفـــى
وفى جُندب[1] لما استقى بك آيــة   بتعـكـين بـطـن مـنـه فـى شــدة العفـــــا
بـنـيـة صـدق مـا شُربـت لحاجـة   وإلا أتــت حتمــاً وجــاء بــهــا الـوفـــــا
ويا واصفاً ما مـاء زمـزم فضلـه   نبى الهـدى فى وصفـه منـك أوصفـــــا
شفـاء لسقم بـل طـعـام لطـاعـم   روينــاه مـرفـوعــاً لـنــا ومـعــرفـــــا

---

[1] جندب بن جنادة اسم الصحابى المشهور أبى ذر الغفارى، الذى تقدمت قصته فى بقائه ثلاثين يوماً على ماء زمزم دون طعام ولا شراب، فسمن حتى بدت عكن بطنه أى: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً. والعفا هو شدة الهلكة، حيث لم يكن عنده طعام ولا شراب، ينظر القاموس (عفا).

شـراب لأبـرار، شفـاء لمدنـف[٢] قـراء لـنـسـاك، غـذاء لـمـن هـتـفـا

ويا خير بير أنت فى الأرض عصمة لمـن جـاء يدعـو أو يحـاول مــرتـفـــا[٣]

٨- قال الشيخ خليفة بن أبى الفرج الزمزمى:

"قال جدنا العلامة البرهان الزمزمى – إبراهيم بن على المتوفى سنة ٨٦٤ – مضمناً الحديث الشريف:

ومــاء زمـزم فيــه للأنــام غِـدا كذا دواء من الأمراض والعلل

فهو الشفاء لأسقامى وإن كثرت وهو الطعام لقول سيد الرســل

٩- وقال الشيخ أحمد بن محمد المصرى – المولود سنة ٨٣٧:

شفيت يا زمزم داء السقيم فأنت أصفى ما تعاطى النديم

وكم رضيــع لك أشواقــه إليك بعد الشيــب مثل الفطيــم

وله أيضاً:

وزمزم فاقت كل ماء بطيبها ولو أن ماء النيل يجرى على المسك

١٠- وفى العقد الثمين للشيخ أحمد بن يوسف القرشى الزبيرى المصرى قوله:

ألا ليت شعرى هل أعود لمكة أطوف ببيت الله والركن والحِجر

وأشرب من ماء الشفاء بزمزم ليطفى لهيباً فى فؤادى كالجمــر

١١- وللإمام الحافظ المفسر ابن علان الصديقى المكى، المتوفى سنة ١٠٥٧ فى وصف طعم ماء زمزم:

وزمزم قالوا فيه بعضُ ملوحة ومنه مياه العين أحلى وأملح

فقلت لهم قلبى يراهــا ملاحــة فلا برحت تحلو لقلبى وتملحُ

١٢- وللقاضى جمال الدين المالكى:

لازم طواف البيت يا هذا وكــن مستكثرا منه ومـن لثم الحجـر

واشرب شرابا صافيا من زمزم تُشفى به مــن كل داء أو كــدر

واركـع إذاً خلف المقــام تحيـــة فعن النبى المصطفى هذا الخبر

١٣- وللشيخ عيسى بن عبد العزيز:

وزمزم طُعم وشـرب لمــن أراد الطعام وفيه الشفـــا

وزمزم تنفى هموم الصدور وزمزم من كل سقم عفـا

ومن جاء زمـزم من جائـع إذا ما تضلّع مـنها اكتفـــى

١٤- وقال أحدهم:

طوبى وفوزاً لمن فى باب سيده يمرّغ الخد لا يأوى إلى أحــد

يطوف بالبيت مشغولاً وملتزماً ويلثم الحجر المكروم بالرصد

لا الجـوع يشغله كــلا ولا ظمـأ فإن زمــزم فيها الــرى للكبــد

---

[٢] الذى لازمه المرض الشديد. ينظر القاموس (دنف).
[٣] أى ملجأ ومأمناً. ينظر القاموس (رفأ).

١٥- وهذه أبيات رائقة فى مدح ماء زمزم للأستاذ الشاعر محمد ضياء الدين الصابونى (شاعر طيبة) حيث يقول:

زمزم

وزمــزم مـاؤهــا عــذب فُــرات ترى فيها الشفــاء وخيــر طـــب

وكـم نهـلـت على ظمـأ قلوب وكم هنئت بهــا من دون ريــب!

فهـل لى رشـفـة منهـا قريـبـاً أداوى مهـجـتــى وأبــلُ قلـبــى

فلا تــحــرم إلــهــى مــن تمنــى ولا تـمـنـــع إلـهـــى أى صـــب

إذا مـا قلـت: ذا مــاء قــراح[1] يقول السائغــون: بلــى وربــى

فحسبى جرعة أطفى أوارى[2] وأنـقـع غُلـتـى[3] وأزيـل كربــى

ما أعذب الماء!

ما أعذب المــاء ما أصفــى مناهلــه فماءُ (زمزم) يشفى كل ذى سقم!

وقـد أتانــا حديـــث فى فضائلـــها وعـن فوائـدهــا مـن سيـد الأُمــم

"طَعام طُعـم" وهـذا لا مــراء بــه "شفاء سُقم" لمن يشكو من الألــم

فاشرب على الريق وادع الله مبتهلا يشفيك، فهو جواد واســع الكــرم

وقال أيضاً:

وزمــزم ماؤها يطفــى غليلــى ويشفى كل ذى سقم عليــل

فإن رُمت الشفا فاحرص عليها فما لك غير زمزم من سبيل

١٦- ونختتم هذه الأشعار فى مدح زمزم بأبيات رائعة للشاعر الكبير محمد بدر الدين:

من قصيدة زمزم

يالـهــا هاجـر فــى إيمانهــا يالهــا عيــن أبــت أن تدمعــا

وحدها والطفل فى أحضانها وصدى من زوجها حين دعــا

أنسُـهــا بالله فــى ظلـمـائـهــا وحـواليهــا خُطــا لن تهجعـــا

يا خطا جبريل يسرى مُعجبا يحمل الأمــن إليهــا مسرعـــا

---

(١) ماء قراح: الماء الزلال.

(٢) الأوار: شدة العطش وحره.

(٣) أى: أقطع شدة عطشى.

وجـنـود الله باتـوا حـولـهـا — يتـداعـون إلـيـهـا خُشـعـا

فامض يا جبريل واحفر زمزما — وارو إسماعيل حتـى يشبعـا

وارو أجيـالاً عطاشـا بـعـده — من حجيج البيت كأسـا مترعـا

إن يكـن مـاء ففيـه نـفـحـة — كم أثـارت شوقهـم والأدمعـا

هـا هنـا وِرْد لأرواح غـدت — من حُميـاهُ تعـاف المضجعـا

تسـعـد الأرواح مـن تشرابـه — وترى الريحان والـروح معـا

آيـة الإيمـان رى كـامـل — منـه حتى لا تلاقـى موضعـا

ويقول أيضاً:

يا زمزم الخير والروح الأمين أتى — يشُقهـّا عند إسماعيـل مرتضعـا

كأس من الحب أهداه الكريـم إلـى — طفل الخليـل فكان الرى والشبعـا

بُـرء السقـام بها بر الطعـام بهـا — رى الشراب بها فى مائها اجتمعا

أغنـت أبـا الـذر عن رى لياليـه — وأسـمـنـتـه بـلا زاد فمـا جزعـا

وكم سقيـم رأى فى مائهـا فرجـاً — لما تنـاول من سلسالهـا جُـرعـا

سُور من الخُلد أبقاه الكريـم علـى — مر الزمان لمـن لبّى ومن خشعـا

ضيـافـة منـه للراجـيـن رحمتـه — ولا يُذادُ الـذى فـى بـرها طمعـا

الحج وأثره فى نهضة مكة المكرمة

الحج وأثره فى نهضة مكة المكرمة

اتصلت نهضة مكة بقيام الكعبة فيها، فإن اهتمام العرب بالبيت الحرام وتعظيمهم له والحج إليه هو السبب الأساسى فى قيام هذه المدينة وتقدمها، كما أن موقع مكة كان عاملاً قوياً فى ارتفاع شأن البيت الحرام نفسه.

الكعبة البيت الحرام:

وُجد فى بلاد العرب بيوت عرفت ببيوت الله أو البيوت الحرام يقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع العربية ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها، وكان أشهرها فى الجزيرة العربية: بيت الأقيصر، وبيت ذى الخلصة، وبيت صنعاء، وبيت رضاء، وبيت نجران، وأذكَرها جميعاً وأبقاها بيت مكة، عدا بعض البيوت الصغار التى تحج إليها القبائل القريبة ولا تقصد من مكان بعيد.

وكان بيت "الأقيصر" فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده.

وبيت "ذى الخلصة" كان يسمى "الكعبة اليمانية" وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة (بين مكة واليمن)، والذين كانوا يسمونه الكعبة اليمانية كانوا يسمون كعبة مكة "الكعبة الشامية"، وقد أمر النبى ﷺ جريراً بن عبد الله البجلى بهدمه بعد فتح مكة، فهدمه بعد أن دافعت عنه خثعم دفاعاً شديداً.

وكان بصنعاء بيت رثام "يحجون إليه وينحرون عنده ويكلمون منه" حتى هدم بعد انتشار اليهودية فى اليمن.

و"رضاء" بيت كان لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وقد هدمه بأمر النبى ﷺ المستوغر بن ربيعة بن سعد.

أما "كعبة نجران" فهى بيعة بنوها على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة لها وسموها كعبة نجران، ويقول ابن الكلبى إنها لم تكن بناء وإنما كانت قبة من أدم من ثلاثمائة جلد، كان إذا جاءها الخائف أمن أو طالب الحاجة قضيت حاجته أو المسترفد رُفد. وكان فيها أساقفة منعمون وهم الذين جاءوا إلى النبى ﷺ ودعاهم للمباهلة.

وقد اجتمع لبيت مكة من بين هذه البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة العربية، لأن مكة كانت ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب، وكانت محطة لازمة لمن يحمل التجارة إلى الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها. وقد رغب القبائل فيها أن مكة لم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو رحلاتها، فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو مملكة المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام، وليس من وراء أصحاب الرياسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو الفرس أو الحبشة وراء الإمارات المتفرقة على الشوطئ أو بين بوادى الصحراء، فهى مثابة عبادة وتجارة، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه، فلم تكن قيصرية ولا كسروية ولا نجاشية وإنما كانت مكة عربية لجميع العرب، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه.

والكعبة قديمة سابقة لأسفار العهد القديم فى التوراة، وقد توارثت العرب أن أول من رفع قواعدها هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتلهم الآية القرآنية ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِين ﴾ {آل عمران/٩٦} هذا المعنى، كما تلهم أنها نالت قدسية عامة منذ إنشائها. والآيات القرآنية ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود ﴾ {الحج/٢٦} ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ {البقرة/١٢٧} تلهم أن هذه المنطقة كانت معروفة وأن الكعبة ربما قامت على أنقاض معبد قديم[1]، وأنه ربما جرت عليه أحداث تاريخية وجغرافية غيرت من طبيعة المكان وأهمل هذا المعبد، حتى هيئ لإبراهيم أن يرفع قواعده من جديد، وقد ذكرت المصادر القديمة مكة كما تحدثت عن البيت الذى تعظمه العرب فى العربية الغربية. ولقد كانت الكعبة منذ القدم كما هى معروفة فى عهد قريش مثابة للناس جميعاً وآمناً، لا يُمنع أحد من التعبد فيها، فقد كانت قريش تسمح لكل الناس على اختلاف نحلهم بالطواف حولها والتعبد فيها على اعتبار أنها بيت الله، فالوثنيون على اختلاف أربابهم، واليهود والنصارى والصابئون كان يمكنهم زيارتها والتعبد فيها حكمهم فى ذلك حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والإحرام، ولقد حاولت الدول الكبرى أن تهدم هذا البيت وتحول أنظار العرب عنه فلم تفلح، وبقيت للكعبة مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها.

والأساس المهم الذى قامت عليه قداسة بيت مكة أن البيت بجملته هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأصنام والأوثان التى اشتمل عليها، وربما اشتمل البيت على الصنم أو الوثن تعظمه قبيلة وتزدريه أخرى، فلا ينتقص ذلك من قدر البيت عنه المعظمين والمزدرين على السواء، وقد تختلف الدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه أو وثنه وتختلف الطقوس والشعائر، ولكن لم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته، فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها من أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم أن يحكموا بالضلال على أتباع صنم معلوم، ولكنهم يعطون البيت حقه من الرعاية والتقدير، وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف عند عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها، كالصلاة والصيام والزكاة والطهارة، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله،

---

[1] الطبرى ١٧٨/١ "إن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم فخرج وخرج معه جبريل يقال كان لا يمر بقرية إلا قال بهذه أمرت يا جبريل فيقول جبريل أمضه حتى قدم به مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم وسمر بها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدره ثم تركهما (ابنه وزوجته) عند البيت".

وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفارى قال له: "يا ابن أخى صليت مرتين قبل مبعث النبى ﷺ فسأله:- "فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهنى الله" وجاء فى البخارى أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس، وكانت لهم بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان، وإنما يرغبهم فيها أنها أعمال ترضى "الإله" وأنهم يعرفون إلها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء، وهى حقيقة لا يعتورها الشك، لأنهم كانوا يسمون "عبد الله" ويلبون فيقولون "لبيك اللهم لبيك" ولا يدعون أحداً من الأصنام "رب البيت" فإذا قالوا "رب البيت" أرادوا به ربا فوق كل الأرباب، وهذه الحقيقة هى التى كتبت لبيت مكة التفوق على البيوت كلها فى الجزيرة العربية، فإنها بيوت أصنام، وكان بيت مكة بيتاً لله الذى يرى فيها العرب الإله الخالق المبدع، وإنما عبادة أصنام تقربهم إلى الله زلفى﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ {الزمر/٣} ،﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ {يونس/١٨}.

وقد عملت قريش على الاستفادة من مكانة البيت الحرام فى نفوس العرب، فاستغلت قيامها على أمر البيت لتقوى مركزها الأدبى لدى القبائل العربية، ولتنشيط تجارتها الداخلية، فأجرت من الترتيبات ما يكفل لها ذلك وابتدعت من النظم والتقاليد ما يحقق لها السيادة الأدبية والنفع المادى.

وأول هذه الترتيبات ما نظمته من السقاية والرفادة، فمنطقة مكة حارة شحيحة المياه، وهى لكى تستقبل عدداً كبيراً من الحجاج لابد أن توفر فيها المياه بحالة منظمة حتى لا يلقى الحاج من قلة الماء ما يضطره إلى الخروج منها أو العزوف عن القدوم إليها، لذلك جعلت قريش من عملية توفير الماء للحجاج فى موسم الحج وظيفة هامة، بل جعلتها أهم الوظائف فى مكة، ووكلتها إلى أعظم البيوت القرشية، وإن هذه المهمة لابد كانت موجودة قبل قريش، ولكنها نالت عناية كبيرة وصارت عملاً رسمياً بعد استيلاء قريش على أمر مكة. فقد جعلها قصى ابن كلاب وظيفة مقررة وتولاها بنفسه، وقام بحفر الآبار فى منطقة مكة، كما عملت بطون قريش على الإكثار من حفر الآبار لتواجه الزيادة المطردة فى عدد الحجيج الوافد على الكعبة وأصبحت السقاية من الوظائف التى تفاخر بها وتراها من أجل الأعمال إلى جانب عمارة البيت الحرام والقيام على سدانته وتنظيفه وإعداده للزائرين، حتى لقد نوه القرآن الكريم بذلك فقال ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ {التوبة/١٩}.

كما جعل قصى استضافة الحاج وظيفة هامة أيضاً وقرر على قريش خرجاً يخرجونه من أموالهم يدفعونه إليه – ثم يدفعونه إلى متولى هذه المهمة بعده – يصنع به طعاماً لفقراء الحجاج استضافة لهم على أنهم ضيوف بيت الله الحرام، وهذا أمر هام فى بيئة فقيرة كبيئة الصحراء، وكثير من الحجاج يقدم من بلاد بعيدة ويكابد سفراً طويلاً يصعب معه حمل الزاد، وقد حافظت قريش على هذه الوظيفة ووكلتها إلى البطون القوية القادرة عليها إذ أن صاحب الرفادة يتحمل جزءاً من ماله الخاص لذلك كان يعهد بالقيام بها إلى الرجال الأغنياء، ومهمة الرفادة جلبت لقريش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية، فالمؤاكلة تعتبر عقد جوار وحلف عند العرب، فوق أن الضيافة وإطعام الطعام كان يعتبر اكبر المحامد فى المجتمع العربى، وبإطعام الحاج من كافة قبائل أنحاء الجزيرة العربية تكون قريش كإنما عقدت جواراً مع هذه القبائل، فوق أنها نالت احتراماً وفضلاً بينها، وهذا مما سهل لها المرور بتجاراتها آمنة بين هذه القبائل التى تعتبر قد ارتبطت معها بهذا الرباط ما دامت قد أكلت من طعامها، وقد استغلت قريش هذه الوظيفة فيما بعد استغلالاً يكفل لها رواج تجارة داخلية هامة فى موسم الحج وهى بيع الطعام للحجاج من غير أهل الحرم ضمن ما ابتدعت من سنن للاستفادة المادية.

والأمر الهام الثانى الذى عملت قريش على إقراره هو توفير الأمن فى منقطة مكة، وتوفير الأمن أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر، وتعتبر الغارة للحصول على المال وسيلة مشروعة – وقتذاك - من وسائل العيش، مثل البيئة العربية، فقد حرصت على إقرار حرمة المنطقة المحيطة بالبيت كأمر لازم لحرمة البيت نفسه وجعله ملاذاً للناس جميعاً وأمناً، وقد توسعت قريش فمدت حدود الحرم حتى جعلتها تشمل منطقة مكة كلها، فأصبحت حرما آمناً لا يجوز فيه سفك الدماء، ولا طلب الثأر فى أى يوم من أيام العام، وجعلت الأمن يشمل كل شئ حتى الوحش والطير والنبات، وقد دانت لها العرب كلها بذلك وأقرتها عليه، لأن الناس كانوا محتاجين إلى مثل هذه المنطقة الحرام يغشونها لتأدية شعائرهم الدينية وبخاصة بعد أن ضمت أصنام القبائل كلها إلى البيت الحرام، ولتبادل المنافع العامة من بيع وشراء وخصوصاً بعد أن أصبحت مكة تقوم على أمر التجارة، وبعد أن أصبحت مستودعاً تجارياً كبيراً لحاصلات شبه الجزيرة وللمجلوبات الخارجية، وليجد من تضيق به الحياة ويتعرض للطلب ملاذاً يجد فيه الأمن. كما سنت الأشهر الحرم فى موسم الحج لتمكين العرب من القدوم على منطقة مكة للحج وللمتاجرة وقد قامت فى منطقة مكة أو حولها أكبر أسواق العرب فى عكاظ ومجنة وذى المجاز.

وكل هذه الأشياء كانت مرتبطة بالحج إلى بيت الله الحرام.

الحج إلى بيت الله الحرام

للحج ارتباط كبير بالحياة الاجتماعية والاقتصادية عند العرب، فقد كان لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعى، وكان له من أجل ذلك أثر كبير فى حياتهم الاجتماعية، فقد كان شاملاً للعرب جميعاً على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية، حيث يفدون إلى منطقة مكة – البيت الحرام – من كل صوب فيلتقون فى موسم الحج وأسواقه فى ظل الأشهر الحرم، ويجتمعون فيتعارفون ويتبادلون المنافع من بيع وشراء ومبادلة،

ويعقدون المجالس للمفاخرات، والمشاورات وحل المشاكل، وكان كل صاحب فكرة وكل صاحب دعوة يريد أن يعلن عنها يجد له فى أسواق الحج مجالاً صالحاً، وحتى المبشرون من المسيحيين وغيرهم كانوا يأتون إلى هذه الأسواق يدعون لدياناتهم. حتى لنستطيع أن تقول أن هذه الأسواق كانت منبراً عاماً تلتقى فيه الأفكار من كل لون، وبذلك أصبحت هذه الأسواق مجالاً للنشاط العربى بكل مظاهره، فأتاحت للعرب وبخاصة قبيل البعثة فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية.

والحج إلى الكعبة فرض إلهى قديم معترف به وممارس منذ زمن بعيد يتداول العرب خبر اتصاله بإبراهيم وإسماعيل اللذين قاما ببناء البيت الحرام، كما يتداولون خبر حرمته منذ بنائه. وأن الله جعله مثابة للناس جميعاً وأمناً. وفى القرآن آيات كثيرة تشير إلى الحج ومناسكه وتقاليده ومنافعه، والكعبة البيت الحرام وحرمتها وأمن منطقتها، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران٩٦/٩٧} وتتضمن هذه الآيات قرينة قوية على أن الحاج إلى البيت على المستطيع هو استمرار لغرض إلهى قديم على الناس معترف به وممارس من بعضهم، فهو أول بيت وضع للناس فيه الهدى والبركة وأنه من بناء إبراهيم بما فيه من علامات هى مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً، ويلفت النظر كلمة "الناس" فإنها دلالة قوية على أن الحج كان عاما غير مخصص بطائفة معينة، وهذا يدل على أن الحج كان مفروضاً قبل الإسلام. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ، ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ {الحج٢٥-٣٣}.

هذه الأيات تتضمن دلالة صريحة:- أولا على أن العرب جميعهم أو القسم الأكبر منهم، سواء منهم الدانون والقاصون كانوا يأتون إلى مكة ويمارسون مع أهلها طقوس الحج قبل البعثة، وثانياً أنهم كانوا يتداولون خبر اتصال الحج ومناسكه بإبراهيم، وقد نزلت هذه الآيات تحمل على المشركين بسبب صدهم عن البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس جميعاً مقيمهم وباديهم منذ بناه إبراهيم، فهم يأتون إليه من كل فج عميق مشاة وركبانا، رجالاً ونساء، ليقوموا بمناسكه ويوفوا ما عليهم من نذور ويطوفوا بالبيت العتيق ويشهدوا منافعهم العظيمة فى موسمه، والآية "وأذن فى الناس بالحج.." تؤيد بقوة ما ذكرته الروايات من أن الذين كانوا يشهدون موسم الحج لم يكونوا قاصرين على أهل منطقة مكة أو القطر الحجازى، بل منهم من كان يأتى من اليمن ونجد ومشارف الشام ومشارف العراق كما كان منهم إلى جانب المشركين الحنفاء أو الصابئون والنصارى واليهود. منهم من يأتى للإتجار ومنهم من كان يأتى بسبب حل مشاكل لا يمكن حلها إلا فى ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه، بالإضافة إلى أن الأكثر كان يأتى لزيارة الكعبة وأداء مناسك الحج التى كانت من الحرمات العربية العامة.

وقد ظل المشركون من العرب يؤمون المسجد الحرام ويقومون بتقاليد الحج إلى ما بعد فتح مكة استمرار لممارستهم السابقة، وحتى حرم الإسلام الحج على المشركين سنة ٩هـ وحوله إلى حج إسلامى خالص ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿التوبة/٢٨﴾ .

أشهر رحلات الحج لبيت الله الحرام

أشهر رحلات الحج لبيت الله الحرام

هذه صورة من رحلة الحج فى مختلف العصور، منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى. كما يرويها المقريزى وابن جبير وابن بطوطة ومحمد لبيب البتانونى والذكتور محمد حسين هيكل.

(١) مع المقريزى فى كتاب
الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك

أفرد تقى الدين أحمد بن على المقريزى هذه الرسالة فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك. وقد نشر هذه الرسالة أول مرة عام ١٩٥٥ الدكتور جمال الدين الشيال: عن مخطوطات بمكتبة الأيكوريال ومكتبة ولى الدين باستنبول والمكتبة الأهلية بباريس بعد أن حققها وعلق حواشيها وقدم لها ووضع فهارسها.

ألف المقريزى هذه الرسالة فى ذى القعدة سنة ٨٤١ أى قبل وفاته بأربع سنين، وقد بدا المقريزى رسالته بفصل فى حجة رسول الله ﷺ الذى قال:

"خذوا عنى مناسككم"

ثم أعقب المقريزى كلامه عن حجة الوداع تحت عنوان "لطيفة" فقال:

النداء بالحج سنة المسلمين. وينادى بديار مصر فى رجب وهو قياس ندائه عليه الصلاة والسلام أول ذى القعدة، لأن مسافة الحج من المدينة عشرة أيام، فقدم النداء بثلاثة أمثالها، ومسافة الحج فى البر من مصر أربعون يوماً، فكانت الجملة من أول رجب إلى انقضاء عشر ذى الحجة خمسة أشهر وعشرة أيام، وكذلك بدمشق. وأول من أدار المحمل الملك الظاهر بيبرس البندقدارى رحمه الله تعالى.

ثم أرخ المقريزى لمن حج من الخلفاء والملوك، فكانوا ثلاثة عشر خليفة: أولهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وآخرهم الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد.. ثانى خلفاء بنى العباس بمصر.

ومن الملوك ثلاثة عشر أولهم الملك الصليحى على بن محمد بن على ملك اليمن. قال المقريزى:

"وحج سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وملك مكة فى سادس ذى الحجة منها، ونشر بها العدل، وأكثر فيها من الإحسان، ومنع المفسدين، وأمن الناس أمناً لم يعهدوه قبله، ورخصت بها الأسعار لكثرة ما جلب إليها بأمره، فأحبه الناس حبا زائدا، وكسا الكعبة الديباج الأبيض – وهو كان شعار الدولة الفاطمية – وأقام بها دعوتهم".

وكان آخر الملوك الثلاثة عشر الذين أرخ لهم المقريزى، الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون. تولى الملك وعمره عشر سنين، فى نصف شعبان سنة ٧٦٤.

أبو بكر وعمر

حج أبو بكر ﷺ بالناس سنة اثنتى عشرة واستخلف على المدينة عثمان ابن عفان ﷺ.

كانت خلافة عمر ﷺ عشر سنين ونصف، حج فى جميعها إلا السنة الأولى فقط، فإنه حج بالناس فيها عتاب بن أسيد. وقيل: بل حج عمر بالناس سنيه كلها.

قال أبو عثمان النهدى: رأيت عمر يرمى الجمرة وعليه أزار مرقوع بقطعة جراب.

وقال على بن أبى طالب: رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه أزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها من آدم[١].

وقال سعيد بن المسيب:

- حج عمر، فلما كان بضجنان[٢] قال: "لا إله إلا الله العظيم، المعطى من شاء ما شاء. كنت أرعى أبل الخطاب بهذا الوادى فى مدرعة صوف وكان فظا يتعبنى إذا عملت وضربنى إذا قصرت، وقد أمسيت وليس بينى وبين الله أحد.

ثم تمثل (قول الشاعر):

لا شئ فيما تـرى تبقى بشاشتــه	يبقى الاله ويودى المال والولـد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنـه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح لـه	والإنس والجــن فيما بينها بــرد
ابن الملوك التى كانـت نوافلهــا	من كل أوب إليهــا راكــب بفـد
حوض هنالك مــورود بلا كـدر	لابد من ورده يومـا كمــا وردوا

خلاف بين عثمان والصحابة على قصر الصلاة

كانت خلافة عثمان ﷺ إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما، وقد حج جميع سنيه إلا السنة الأولى والأخيرة.

"ولما حج فى سنة تسع وعشرين ضرب فسطاطه بمنى، فكان أول فسطاط ضربه عثمان بمنى".

وكان يحدث خلاف بين عثمان والصحابة حول القصر بالصلاة أو تمامها فى منى وعرفة، فقد أتم عثمان الصلاة، وعاب ذلك غير واحد من الصحابة.

"وقال له على ﷺ: ما حدث أمر، ولا قدم عهد. ولقد عهدت النبى ﷺ وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين، وأنت صليت ركعتين صدرا من خلافتك"

فما درى ما يرجع إليه وقال: رأى رايته.

---

[١] الأدم: الجلد

[٢] ضجنان: جبل بناحية مكة فى طريق المدينة

وبلغ الخبر عبد الرحمن بن عوف ﵁وكان معه – فجاءه وقال:

ألم تصل فى هذا المكان مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ركعتين؟

قال: بلى، ولكن أخبرت أن بعض من حج من اليمن وجفاة الناس قالوا: إن الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجوا بصلاتى، وقد اتخذت بمكة أهلا، ولى بالطائف مال"

فقال عبد الرحمن بن عوف:

ما فى هذا عذر.

فقال عثمان: هذا رأى رأيته.

فخرج عبد الرحمن فلقى عبد الله بن مسعود، فقال:

يا أبا محمد: قد غير ما تعلم..

قال: فما أصنع؟

قال: أعمل بما ترى وتعلم.

فقال ابن مسعود: الخلاف شر، وقد صليت بأصحابى أربعا.

فقال عبد الرحمن: قد صليت بأصحابى ركعتين، وأما الآن فسوف أصلى أربعا".

ولم يحج أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﵁ فى خلافته، لاشتغاله بحرب الجمل وصفين.

بين معاوية وامرأة من بنى كنانة

وحج معاوية بن أبى سفيان بالناس عدة سنين. ويجدر بنا أن نذكر هنا موقفا لامرأة من أهل مكة مع معاوية حين قدم للحج فى إحدى السنين. أن هذا الموقف يصور مبلغ الوفاء لذكرى على بن أبى طالب، والجرأة فى مصارحة معاوية – هو الخليفة المنتصر المتمكن – بفضل على بن أبى طالب فى ميزان المقارنة بين الرجلين، ثم أن هذا الموقف يصور كذلك مبلغ ما تنطوى عليه طبيعة معاوية من حلم وجود أرسى بهما دعائم دولته.

فقد سأل معاوية عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الحجون تدعى الدارمية. فجئ إليه بها وكانت سوداء مكتنزة اللحم فقال:

ما حالك يا ابنة حام؟

قالت: لست لحام أدعى، إنما أنا امرأة من كنانة

قال: صدقت. أتدرين لم أرسلت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلا الله..

قال: بعثت إليك لأسألك علام أجبت عليا وأبغضتنى، وواليته وعاديتينى؟

قالت: أو تعفينى يا أمير المؤمنين؟

قال: لا أعفيك.

قالت: أما إذا أبيت، فإنى أحببت عليا على عدله فى الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق.

قال: ولهذا انتفخ بطنك وعظم ثدياك!

قالت: يا هذا.. بهند كانت تضرب الأمثال لا بى!

قال: يا هذه أربعى.. فأنا لم نقل إلا خيرا. ثم قال: كيف رأيت عليا؟

قالت: رأيته لم يفتنه الملك الذى فتنك، ولم تشغله النعمة التى شغلتك.

قال: صدقت. فهل لك من حاجة؟

قالت: وتفعل إذا سألتك؟

قال: نعم.

قالت: تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها.

قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذى بألبانها الصغار، واستحيى بها الكبار، وأصلح بها بين العشائر .

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على؟

قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك[١].

قال: يا سبحان الله أو دونه؟!

ثم قال: أما والله لو كان على ما كان أعطاك منها شيئاً؟!

قالت: والله لا وبرة واحدة من مال المسلمين!

وحج عبد الله بن الزبير بالناس ثمانى حجج. وفى حجته الأخيرة بدأ الحجاج بن يوسف الثقفى بحصاره من أول ليلة من ذى الحجة سنة اثنين وسبعين. ووقف ابن الزبير على عرفة وعليه درع ومغفر. ولم يطوفوا بالبيت فى تلك السنة، فحاصره الحجاج ستة أشهر وسبعة عشر يوما إلى أن قتل.

وحج الوليد بن عبد الملك سنة إحدى وتسعين...

فلما دخل المدينة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه، وأخرج الناس منه، ولم يبق غير سعيد ابن المسبب[٢]، فلم يجسر أحد من الحرس يخرجه. فقيل له: لو قمت؟

فقال: لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى كنت أقوم فيه

فقيل: لو سلمت على أمير المؤمنين..

قال: والله لا أقوم إليه!

قال عمر بن عبد العزيز (وهو يومئذ والى المدينة، وكان يصحب الوليد فى زيارة المسجد النبوى):

- فجعلت أعدل بالوليد فى ناحية المسجد لئلا يراه..

فالتفت الوليد إلى القبلة فقال:

من ذلك الشيخ، أهو سعيد؟

---

[١] أمثلة تضرب على الشئ الذى لا شبيه له

[٢] سعيد بن المسيب: سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من تجارة الزيت ولا يأخذ عطاء من أحد.

قال عمر: نعم، ومن حاله كذا وكذا.. ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك، وهو ضعيف البصر.

فقال الوليد: قد علمت حاله، ونحن نأتيه. فدار فى المسجد ثم أتاه، فقال:

- كيف أنت أيها الشيخ؟

فوالله ما تحرك سعيد بل قال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟

فانصرف الوليد وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس!

بين أبى جعفر المنصور وقاضى المدينة

وحج أبو جعفر المنصور عدة سنين...

ومن بديع ما يحكى عنه، أنه لما حج وأشرف على المدينة النبوية ترجل الناس له لما استقبلوه، إلا محمد بن عمران قاضى المدينة. فقال المنصور (لحاجبه):

يا ربيع، ما له لا يترجل لى؟ يتجالد علىّ ويمتنع مما فعله بنو عبد المطلب وبنو على، فلم ينزل إلى الأرض لما بصر بى؟

فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، لو رأيته على الأرض لرحمته ورثيت له من ثقله وعظمه.

فأمره بالدنو منه، فدنا منه راكبا..

قال ابن عمران: يا أمير المؤمنين، بالباب مستعدون عليك يذكرون أن فى يدك حقا من دار كذا..

قال: فأنصفهم منى!

قال: وكل وكيلا يقوم مقامك، أو احضر معهم مجلس القضاء.

قال: قد وكلت الربيع.

قال: اشهد على وكالتك أياه عيسى بن على والعباس بن محمد، ففعل، ثم أخرج الدار التى ينازعونه فيها، ودعا بالربيع وخصمائه، وأحضر شهادته على الوكالة وأنفذها، ثم سأل القوم عن دعواهم وشهودهم. ثم قضى لهم عليه!

واستعدى الحمالون على المنصور بالمدينة. فكتب إليه محمد بن عمران. فقرأه المنصور وأجاب إلى الحضور..

ثم صار إلى محمد بن عمران، فلما رأى المنصور وكان متكئاً أطلق رداءه على عاتقه... ودعا بالخصوم فحكم لهم عليه، وأمره بأنصافهم.

وانصرف أبو جعفر، وأمر الربيع باحضار محمد بن عمران، فلما دخل عليه قال له:

يا ابن عمران، جزاك الله عن دينك، وعن نبيك، وعن هيبتك، وعن خليفتك أحسن الجزاء. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

المهدى ينفق ٣٠ مليون درهم ونصف مليون دينار

وحج المهدى أبو عبد الله محمد فى سنة ستين ومائة، وحج معه ابنه هارون فى جماعة من أهله. فلما قدم مكة نزع الكسوة عن الكعبة عندما رفع إليه سدنة البيت أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فوجد كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين، وكانت الكسوة لا تنزع من الكعبة فى كل سنة كما هو العمل الآن، بل تلبس كل سنة كسوة فوق تلك الكسوة. فلما تكاثر العهد وكثر ذلك خافت السُدنة على الأركان أن تنهدم لثقل ما صار عليها من الكسوة، وكانت كسوة الكعبة تعمل من الديباج المذهب.

وأنفق المهدى فى هذه الحجة مالا عظيما قدم به معه من العراق، يبلغ ثلاثين ألف ألف درهم، سوى ما وصل إليه من مصر، وهو مبلغ ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتى ألف دينار عينا، فرق ذلك كله، ومعه مائة ألف وخمسون ألف ثوب.

ووسع مسجد رسول الله ﷺ وأمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من القصور التى بناها السفاح، وأمر باتخاذ المصانع[1] فى كل منها وتجديد الأميال وحفر الركايا[2]. وأمر فى سنة ستة وستين ومائة بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن – بغالا وإبلا – ولم يكن هناك بريد قبل ذلك.

سيد المسلمين الذى أبكى هارون الرشيد

كانت خلافة هارون الرشيد ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما. وكان يغزو سنة ويحج أخرى. فحج تسع حجج، ولم يحج بعده خليفة من بغداد.

وعن الفضل الربيع أنه قال:

- حج أمير المؤمنين – يعنى هارون الرشيد – فأتانى، فخرجت مسرعا، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك.

فقال: ويحك، قد حاك فى نفسى شئ، فأنظر لى رجلا أسأله.

قلت: ههنا الفضيل بن عياض

قال: أمض بنا إليه

فأيتناه، فإذا هو قائم يصلى، يتلو آية من القرآن يرددها

فقال: أقرع الباب. فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين..

قال: مالى ولأمير المؤمنين!

فقلت: سبحان الله! أما عليك طاعة!

فنزل ففتح الباب. ودخل أمير المؤمنين...

فقال له: خذ لما جئناك له – رحمك الله -، فقال:

---

[1] المصانع: أحواض يجمع فيها ماء المطر

[2] الركايا: الآبار

- أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حبوة، فقال لهم: أنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علىّ، فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله:

- أن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا. فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حبوة: أن أردت النجاة من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين كما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت ان شئت.

وأنى أقول لك بأنى أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك – رحمك الله – مثل هذا، أو من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه..

فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين!

قال: يا ابن الربيع، تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا؟!

ثم أفاق هارون فقال له: زدنى – رحمك الله..

فقال: يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر:

- "يا ابن أخى، أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد، واياك أن ينصرف بك من عند الله إلى عذاب الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء".

فلما قرأ "عامل عمر بن عبد العزيز"الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز، فقال له "عمر":

- ما أقدمك؟

قال خلعت قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاء شديدا، ثم قال له: زدنى – رحمك الله ..

فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس – عم المصطفى ﷺ قال:

"يا رسول الله، أمرنى على امارة.

فقال له النبى ﷺ: أن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل.

فبكى هارون بكاء شديدا، وقال: زدنى – رحمك الله..

قال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله – عز وجل – عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار، فاياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبى ﷺ قال: "من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة"

فبكى هارون، وقال له: عليك دين!

قال: نعم، دين لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن لم ألهم حجتى.

قال: إنما أعنى دين العباد.

قال: إن ربى – عز وجل – لم يأمرنى بهذا، وإنما أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال: "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين"

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادتك.

فقال: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك...

ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون:

- أبا العباس، إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا، هذا سيد المسلمين!

ملك اليمن يغسل الكعبة بنفسه

وحج الملك المظفر شمس الدين يوسف – وهو من ملوك اليمن – سنة تسع وخمسين وستمائة. وغسل الكعبة بنفسه، وطيبها، وكساها من داخلها وخارجها. وهو أول من كسا الكعبة بعد قتل الخليفة المستعصم ببغداد من الملوك. وذلك أن الحاج انقطع من العراق عن مكة من سنة خمس وخمسين وستمائة إلى سنة ست وستين، فلم يرد من هناك حاج فى هذه المدة، وقام المظفر بمصالح الحرم وأهله، وأكثر من الصدقات، ونثر على الكعبة الذهب والفضة.

السلطان الذى كان يغسل أحرمة الحجاج!

قال المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى خرج يريد الحج سنة سبع وستين وستمائة، ولكنه كان يخفى قصده ويتظاهر بأنه يريد العراق.

قال: ودخل مكة فى خامس ذى الحجة، وأعطى خواصه جملة أموال لتفرق فى الناس سرا، وعم أهل الحرمين بالكسوة التى فرقها، وصار كآحاد الناس لا يحجبه أحد، ولا يحرسه إلا الله تعالى، وبقى منفردا يصلى وحده، ويطوف وحده، ويسعى وحده فلا يعرفه إلا من يعرفه، وغسل الكعبة بيده بماء الورد، وصار بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم، وما منهم ألا من يرمى إليه بإحرامه، فيغسله بيده ويناوله صاحبه.

من أنا حتى أطوف بالكعبة راكبا؟

وحج السلطان الناصر، ناصر الدين أبو المعالى محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، فى سنة ٧١٩هـ

.

فلما قدم مكة أظهر من التواضع والذلة والمسكنة أمراً زائداً، وسجد عند معاينته البيت سجود عبد ذليل.

وتقدم إليه ابن جماعة وحسن له أن يطوف راكبا فإن النبى ﷺ طاف راكبا. فقال:

يا قاضى، ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ﷺ؟ والله لا طفت إلا كما يطوف الناس.

(٢) مع ابن جبير فى كتاب
اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك

أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى الأندلسى، كان كاتم سر أمير غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين، قام برحلة لأداء فريضة الحج عام ٥٧٨هـ، واستغرقت رحلته هذه عامين وثلاثة أشهر، زار فيهما مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، ودوّن عنها مشاهداته المعروفة باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" وباسم "كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك" والتى اشتهرت باسم: رحلة ابن جبير.

كتب ابن جبير رحلته هذه حوالى عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) وتداولته الأيدى مخطوطا حتى بدأ اهتمام المستشرقين به، وأولهم وليم رايت الذى قام على طبعه ونشره عام ١٨٥٢م. وأحدث طبعة عربية محققة لهذه الرحلة، أصدرها الدكتور حسين نصار عام ١٩٥٥.

وقد قام ابن جبير برحلة أخرى للحج عام ٥٨٥هـ، لم يصل إلينا من أخبارها إلا قصيدة يشكو فيها إلى صلاح الدين عسف رجاله بالحجاج فى ميناء الإسكندرية. وبعد أن عاد ابن حبير من هذه الرحلة لم يقم بالمغرب طويلا، بل رحل إلى المشرق مرة ثالثة فأقام فترة بمكة، ثم غادرها إلى بيت المقدس وانتقل بعد ذلك إلى الأسكندرية وأقام يحدث فيها حتى توفى بها فى شهر شعبان عام ٦١٤هـ وقد جاوزت سنة السبعين.

ورحلة ابن جبير لأداء فريضة الحج لها قصة...

قيل إن الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو على شرابه، فمد يده إليه بقدح من نبيذ، فأظهر ابن جبير الانقباض، واعتذر قائلاً: يا سيدى ما شربتها قط!

فقال الأمير: والله لتشربن منها سبعا..

فلما راى العزيمة شرب سبع كئوس. فملأ الأمير الكأس من دنانير سبع مرات، وصب ذلك فى حجره. فحملها إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير.

أسرى الصليبيين فى الأسكندرية

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسان يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣م) وبلغ الأسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة فأقام بها أياما، وأتفق له فى هذه الفترة أن شاهد "مجتمعا من الناس عظيما، بروزا لمعاينة أسرى من الروم، أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق.."

قال ابن جبير: "فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا. وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم[١] ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا بساحل البحر، سمروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتأليفها ودفعوها فى البحر، وركبوها قاطعين بالحجاج، وانتهوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا. وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة، وأخذوا أيضاً فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص إلى عيذاب، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحداً. وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله. وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الإسلام.. ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس. أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم. فأخذهم الله بإجترائهم عليه، وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه. ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم. فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والأسكندرية، دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ[٢] مع انجاد من المغاربة البحريين. فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه، فأخذوا عن آخرهم. وكانت آية من آيات العنايات الجبارية، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان، نيف على شهر ونصف أو حوله، وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها، ووجه منهم إلى مكة والمدينة، وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين امرا عظيما، والحمد لله رب العالمين".

---

[١] بحر القلزم: البحر الأحمر الآن

[٢] لؤلؤ من كبار الدولة الأيوبية، خدم صلاح الدين وتولى الأسطول المصرى، وله انتصارات عظيمة بالسواحل.

ابن جبير يتحدث عن صلاح الدين

ثم غادر ابن جبير الأسكندرية إلى القاهرة، حيث نزل بفندق "أبى الثناء" بزقاق القناديل قرب جامع عمرو، وقضى فى القاهرة فترة يزور معالمها وآثارها. ولم يجتمع ابن جبير بصلاح الدين، ولكنه كتب عنه يقول:

"إنه لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه، وسمعنا أحد فقهاء المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه، أحداها أن الحلم من سجاياه، فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة: أما أنا فلأن أخطئ فى العفو أحب إلىّ من ان أصيب فى العقوبة. وقال أيضاً، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار، وجرى ذكر من سلف من أكارم العرب وأجوادهم: والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له، ولو استغرقت له جميع ما فى خزانتى لما كان عوضا ما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه اياى، وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة، مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معينا. فقال السلطان له:

"ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة، وإنما أنا عبد الشرع، فالحق يقضى لك أو عليك..."

الرحلة من القاهرة إلى قوص

وغادر ابن جبير القاهرة فى سفينة إلى الصعيد قاصدا إلى قوص، صبيحة يوم الأحد السادس من المحرم سنة ٥٧٩هـ. ووصف ما مر به من البلاد والآثار، كما تحدث عن "المعترضة" الذين يعترضون فى الطريق للحجاج والمسافرين برسم تحصيل الزكاة. وما كان ينال للحجاج والمسافرين من أذاهم. قال ابن جبير: وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه، ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه..

ووصل ابن جبير إلى قوص يوم الخميس ٢٤من محرم، بعد رحلة استغرقت ١٨ يوما. وقد وصفها بقوله: وهذه المدينة حفيلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة، لأنه مخطر للجميع، ومحط للرحال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والأسكندريين ومن يتصل بهم. ومنها يفوزون[1] بصحراء عيذاب. وإليها انقلابهم فى صدرهم من الحج. وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية...

قال: وفى يوم الأثنين الثالث عشر منه.. أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه إلى المبرز، وهو موضع بقبلى البلد وعلى مقربة منه، فسيح الساحة محدق بالنخيل، يجتمع فيه رحال الحاج والتجار وتشد فيه، ومنه يستقلون ويرحلون، وفيه يوزن ما يحتاج إلى وزنه على الجمالين. فلما كان أثر صلاة العشاء الآخرة، رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجر فبتنا به..

---

[1] يفوزون – بشدة وكسرة على الواو الأولى: أى يخترقون المفازة وهى الصحراء.

ثم يصف الرحلة فى صحراء عيذاب، والانتقال من منزل إلى آخر حيث مواطن الماء على اختلافه من عذب إلى أجاج. ثم يقول:

"ورمنا فى هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة، فما تمكن لنا.. ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب. وأكثر ما شاهدناه من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذه السبيل أما لأعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المار عليها من أطوار الناس..."

ووصل ابن جبير إلى عيذاب بعد ان قضى فى رحلته بالصحراء عشرين يوما. ووصف عيذاب بقوله:

"وهى مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة. أكثر بيوتها الأخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص. وهى من أحفل مراسى الدنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهى فى صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شئ إلا مجلوب، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير".

وأضاف ابن جبير أن من موارد الرزق لأهل عيذاب، اللؤلؤ الذى يغوصون عليه: فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق".

علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح!

ووصف ابن جبير الجلاب التى تحمل الحجاج من عيذاب بأنها "ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هى مخيطة بأمراس[١] من القنبار وهو قشر جوز النارجيل[٢] يدرسونه إلى أن يتخيط، ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة، سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه. ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب كثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى.. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل[٣] فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها. فسبحان مسخرها على تلك الحال، والمسلم فيها لا إله سواء".

"ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت. وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأقفاص الدجاج المملوءة. يحمل أهلها على ذلك، للحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون:

علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح!

---

[١] أمراس: حبال

[٢] النارجيل: جوز الهند

[٣] المقل: الدوم

البلدة التى سجن فيها سليمان العفاريت!!

وأقام ابن جبير بعيذاب ثلاثة وعشرين يوما، وقد وصف أيامه هذه بأنها "محتسبة عند الله عز وجل، لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة. وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه. فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، وما ء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله: ماء زعاق وجو كله لهب.

فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى البيت العتيق، زاده الله تشريفا وتكريما وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة. ومما لهج الناس بذكره قبائحها، حتى ليزعمون أن سليمان بن داود – على نبينا وعليه السلام- كان اتخذها سجناً للعفارتة! أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام، وهى السبيل التى من مصر على عقبة أيلة إلى المدينة المقدسة، وهى مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يسارا، لكن للأفرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه، والله ينصر دينه ويعز كلمته بمنه".

وأقلعت الجلبة بابن جبير على الحالة التى وصفها من قبل، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٦ من ربيع الأول، وظل بالبحر نحو ثمانية أيام قضاها يصارع الأهوال..

قال: وفى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر.. كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل وشاكرين، على السلامة من هول ما عايناه فى تلك الثمانية الأيام، طول مقامنا فى البحر. وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه. فمنها ما كان يطرأ من البحر، واختلاف رياحه، وكثرة شعابه المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها[١] المرة بعد المرة، عند رفع الشراع أو حطه، أو جذب مرسى من مراسيه، وربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها، فنسمع لها هدا يؤذن باليأس، فكنا نموت مرارا ونحيا مرارا. والحمد لله على ما من به من العصمة، وتكفل به من الوقاية والكفاية..."

وبقى ابن جبير ومن معه من الحجاج بجدة لا يؤذن لهم بالخروج إلى مكة. وكان أمير مكة وقتئذ هو مكثر بن عيسى بن فليته. وكان صلاح مشغولاً بحربه مع الصليبيين بجهة الشام، فحاول أمير مكة أن يعود سيرته وسيرة أسلافه فى فرض المكوس على الحجاج، وهى التى عوضهم منها صلاح الدين ألفى دينار وألفى أردب من القمح، وعدة اقطاعات بصعيد مصر وباليمن..

عروس ليالى العمر...

ودخل ابن جبير مكة فى الساعة الأولى من يوم الخميس ١٣ من ربيع الآخر. قال: "وكان أسراؤنا تلك الليلة والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تصك الآذان، بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية. فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العقر، فهى عروس ليالى العمر،

---

[١] اقتصامها: انكسارها

وبكر بنيات الدهر. إلى أن وصلنا فى الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم، ومبوا الخليل إبراهيم. فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن.."

يحج بعد وفاته ويدفن بجوار الرسول

ويتحدث ابن جبير عن "مكة، شرفها الله تعالى، وآثارها الكريمة، وأخبارها الشريفة" فى نحو عشرين صفحة من كتابه.

واستطرد عند ذكر بعض الآثار الحميدة فى مكة إلى الحديث عن جمال الدين محمد بن على بن منصور الملقب محمد الجواد، وهو وزير صاحب الموصل، وقد قضى خمسة عشر عاماً "لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى، فى بناء رباع بمكة، مسبلة فى طرق الخير والبر، مؤبدة، محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر، إلى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين. وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات، وقاطع عليه العرب بنى شعبة، سكان تلك النواحى المجلوب منها الماء، بوظيفة من المال كبيرة، على ألا يقطعوا الماء عن الحاج. فلما توفى الرجل – رحمه الله – عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه. ومن مفاخرة ومناقبه أيضاً أنه جعل مدينة الرسول ﷺ تحت سورين عتيقين، أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة. ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه أنه جدد أبواب الحرم كلها. وجدد باب الكعبة المقدسة، وغشاه فضة مذهبة.. وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب أبريز.. وأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه، فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك، ويحج به ميتا. فسيق إلى عرفات، ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت. فلما أفاض الناس أفيض به، وقضيت له المناسك كلها، وطيف به طواف الإفاضة. وكان الرجل – رحمه الله – لم يحج فى حياته، ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره، وكاد أشرافها يحملونه على رءوسهم. وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى ﷺ وفتح فيه موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله، لسابق أفعاله الكريمة، ودفن فى تلك الروضة، وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة فى تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجر المحسنين".

وقبل حلول الموسم بعشرة أيام يفد إلى مكة من قبائل السرو اليمنية، آلاف الرجال محملة جمالهم بالحنطة والبقول والسمن والعسل والزبيب واللوز، فيعتمرون ويبيعون هذه الأطعمة والفواكه لأهل مكة "فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه، يتقوتون ويدخرون وترخص الأسعار، وتعم المرافق. فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى. ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة فى شظف من العيش".

وقال ابن جبير: "ومن العجب فى أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل. فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب، ويبايعونه به ويشارونهم. ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب، ويقع الموتان فى مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم تخصب بلادهم وتقع البركة فى أموالهم. فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهب للخروج، اجتمع نساؤهم فأخرجنهم. وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين".

ويصف ابن جبير من أحوال هؤلاء البدو عجبا فيقول:

"والقوم عرب صرحاء، فصحاء، جفاة، أصحاء، لم تغذهم الرفة الحضرية، ولاهذبتهم السير المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها. فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها. وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب، وتتفجر لها الأعين الجوامد.. فترى الناس حولهم باسطى أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، متلقنين لها من ألسنتهم

"على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر. وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون، إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضا، وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه. فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى إلى الضحك!

"وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع، وينقرون بالسجود نقرا، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلا، وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يمينا وشمالا التفاف المروع، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا فى أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به، ووصاه بما شاء.. ثم عاد إلى سجوده. إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة!

"وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين، لا تفارقهم فى أسفارهم. فمتى رحلوا إلى الزيارة، هاب أعراب الطريق الممسكون للحاج مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، وخلوا لهم عن الطريق. ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم.

"وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان الصحيح. وذكر أن النبى ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وقال: "علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء" وكفى بأن دخلوا فى عموم قوله ﷺ: "الإيمان يمان" إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن وأهله. وذكر أن عبد الله بن عمر ﷺ كان يحترم وقت طوافهم، ويتحرى الدخول فى جملتهم، تبركا بأدعيتهم. فشأنهم عجب كله.

وكانت إقامة ابن جبير فى مكة ثمانية أشهر وعشرة أيام. دخلها يوم الخميس ١٣ من ربيع الآخر سنة ٥٧٩ وغادرها يوم الخميس ٢٢ لذى الحجة من هذه السنة، بعد أن أدى فريضة الحج، وزار جميع المشاهد والآثار، وشهد ألوانا من الحياة الدينية والاجتماعية عند أهل مكة والمجاورين بها والوافدين إليها من مختلف طوائف الحجيج. وقد ذكر ابن جبير أنه لم يغب طوال هذه المدة عن رؤية البيت الكريم إلا ثلاثة أيام: يوم عرفة وثانى يوم النحر، ويوم الأربعاء ٢١ من ذى الحجة، وهو اليوم السابق لمغادرته مكة

والتحق ابن جبير بمحلة الأمير العراقى، فى طريقهم إلى المدينة المنورة، فبلغها بعد ثلاثة عشر يوما. وأقام بها خمسة أيام، ووصف ليلة الوداع بقوله:

"وفى عشى ذلك اليوم المبارك، كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة، فياله وداعا عجبا، ذهلت له النفوس ارتياعا، حتى طارت شعاعا، واستشرت به النفوس التياعا، حتى ذابت انصداعا. وما ظنك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين، وخاتم النبيين، ورسوله رب العالمين؟

"إنه لموقف تنفطر له الأفئدة، وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة، فوا أسفاه وا أسفاه كل يبوح لديه بأشواقه، ولا يجد بدا من فراقه، فما يستطيع إلى الصبر سبيلا، ولا تسمع فى هول ذلك إلا رنة وعويلا، وكل بلسان الحال ينشد:

محبتى تقتضى مقامى وحالتى تقتضى الرحيلا!

(٣) مع ابن بطوطة فى كتاب
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

ابن بطوطة هو أشهر الرحالة المسلمين، اسمه محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى، ولد عام ٧٠٣هـ، وخرج من طنجة فى رحلته المشهورة فى رجب سنة ٧٢٥هـ، وكانت سنه وقتئذ اثنتين وعشرين سنة، وكان القصد من رحلته أداء فريضة الحج، ولكن مقاصده تعددت فظل فى رحلته نحو ٢٤ عاما، زار خلالها معظم بلاد العالم الإسلامى، وعاد إلى طنجة سنة ٧٥٠هـ، ثم قام برحلة إلى الأندلس، وأخرى إلى السودان الغربى، وانتهى إلى الإقامة بمدينة فاس حتى توفى بها سنة ٧٧٩هـ.

وقد أدى ابن بطوطة الحج ثلاث مرات، كانت الأولى حين غادر طنجة لأول مرة، وفى ذلك يقول:

"كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون فى جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم، فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الأناث والذكور، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور. وكان والدى بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما نصباً، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا، وسنى يومئذ سنتان وعشرون سنة".

وبعد أن قام ابن بطوطة برحلته التى طوف فيها بالآفاق، وعاد فأقام بمدينة فاس عاصمة بنى مرين أملى أنباء رحلته على محمد بن جزى الكلبى، وهو كاتب بحاشية السلطان أبى عنان المرينى، وانتهى ابن جزى من كتابة الرحلة سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م)، وسمى الكتاب "تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" الذى اشتهر باسم: رحلة ابن بطوطة.

وقد ظل هذا الكتاب مخطوطا، حتى بدأ المستشرق بوركهارت بنشر مختصر له، وتتابعت الجهود لنشر الرحلة كاملة، وتم ذلك على يدى العالمين دفربمرى وسانجونيتى فى طبعة كاملة مع ترجمتها إلى الفرنسية فى باريس سنة ١٨٥٣ و ١٨٥٩م، ومن هذه الطبعة الباريسية طبعت الرحلة فى القاهرة لأول مرة سنة ١٨٧١ – ١٨٧٥، ثم نشرت الرحلة بعد ذلك عدة مرات مجزأة وكاملة فى الخارج وبالقاهرة.

خرج ابن بطوطة من طنجة قاصدا مصر، للسفر منها إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب. ومر فى طريقه إلى مصر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، حتى وصل إلى الأسكندرية فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ، وبذلك يكون قد قضى فى هذه المرحلة نحو عشرة أشهر.

ويصف ابن بطوطة مصر (القاهرة) بأنها أم البلاد، ويعدد محاسنها ومزاياها. ثم يقول:

ويقال أن بمصر من السقائين على الجمال أثنى عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار[١]، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الأسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق.

ثم يصف ابن بطوطة معالم القاهرة وآثارها ومساجدها وقضائها وعلماءها وأعيانها، ويذكر ليلة خروجه إلى الصعيد فى طريقه إلى الحجاز فيقول أنه بات بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين[٢]، وأودع به بعض الآثار النبوية ومصحفا بخط على بن أبى طالب، وكان تاج الدين قد اشترى هذه الآثار بمائة ألف درهم، وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر...

ومضى ابن بطوطة فى النيل، وكان ينزل ببعض البلاد، فيزور على عادته علماءها وصلحاءها، ويصف فى رحلته آثارها وأخبارها، حتى وصل إلى مدينة إدفو ثم عبر النيل إلى "العطوانى" قال: ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم، فى صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبيل، وفى بعض منازلها نزلنا "حميثرا" حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى... ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع، ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا إلى مدينة عيذاب.

ولم يستطيع ابن بطوطة أن يتم رحلته إلى الحج عن طريق عيذاب. فقد كان وصوله إليها فى وقت نشب فيه القتال بين الحدربى سلطان البجاة وبين جنود السلطان الناصر بن قلاوون، وكان الحدربى من قبل يؤدى ثلث جباية المدينة للخزانة السلطانية وقد طارد الحدربى جنود السلطان وخرق المراكب، فأصبح السفر من عيذاب متعذرا، وأضطر ابن بطوطة للعودة إلى قوص، وركب منها النيل إلى القاهرة.. وقصد الحج عن طريق الشام.

وفى مستهل شوال سنة ٧٢٦هـ خرج من دمشق مع الركب الشامى قاصدا إلى الحجاز، ومر فى طريقه بتبوك وهو الموضع الذى غزاه الرسول ﷺ قال ابن بطوطة:

"ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا إلى منزل تبوك، أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم، ويقولون.. هكذا دخلها رسول الله ﷺ...

وبعد تبوك تبدأ مرحلة يجتاز فيها الحجاج برية وصفها ابن بطوطة بأنها برية مخوفة، فى وسطها الوادى الأخيضر كأنه وادى جهنم. أصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب، فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها...

---

[١] المكارى: صاحب الحمار، وكانت الحمير هى الوسيلة الوحيدة للانتقال من مكان إلى مكان.

[٢] دير الطين: هى المعروفة الآن بدار السلام، بين مصر القديمة والمعادى.

خدام المسجد النبوى وسُدنته

ويصل ابن بطوطة مع الركب إلى المدينة المنورة، ويصف المسجد النبوى، ومن طريف ما جاء فى ذلك حديثه عن خدام الحرم وسُدنته إذ قال:

"وخدام هذا المسجد الشريف وسُدنته فتيان من الأحابيش وسواهم، وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو فى هيئة الأمراء الكبار، ولهم المرتبات بدار مصر والشام، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة. ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الأمام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية – قرية بمصر – وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطى المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذى جب نفسه خوفاً من الفتنة"!

ويروى ابن بطوطة قصة هذا الشيخ فيقول:

"يذكر أن أبا عبد الله الغرناطى كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى، وكان الشيخ حسن الظن به، يطمئن إليه بأهله، ويتركه متى سافر بداره. فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله، فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه، فقال: أنى أخاف الله، ولا أخون من ائتمننى على أهله وماله..

"فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة، فجب نفسه وغشى عليه، ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برئ، وصار من خدام المسجد الكرام مؤذنا به ورأس الطائفين. وهو باق بقيد الحياة إلى هذا المعهد".

إلى مكة والبيت الحرام

وغادر ابن بطوطة المدينة المنورة إلى مكة، ووصف منازل الحاج من القرى والأودية، وما يجتازونها من صحارى "يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل" حتى وصل أم القرى ودخل المسجد الحرام وشاهد الكعبة المشرفة "وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل فى برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان".

ويصف ابن بطوطة البلد الحرام والبيت الحرام، ويتحدث كعادته عن العلماء والمجاورين والصلحاء، ويذكر بعض عادات أهل مكة.

وممن تحدث عنه من المجاورين، الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق. كان مجاورا بمكة وبالمدينة. رآه ابن بطوطة فى مكة وهو أكثر الناس طوافا، مع وقدة حجارة المطاف من شدة الحر، وقال:

"وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف، والمطاف مفروش بالحجارة السود ويصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة. ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه.

وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب، وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين.

"ورأيته يوما يطوف فأحببت أن أطوف معه، فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الأسود فلحقنى لهب تلك الحجارة، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته إلا بعد جهد عظيم، ورجعت فلم أطف. ورجعت أجعل نجادى على الأرض وأمشى عليه حتى بلغت الرواق.

وكان فى ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك الأزدى، وكان يطوف كل يوم سبعين شوطا، ولم يكن يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر، وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادة عليه".

الاحتفال بختم القرآن الكريم

ويصف ابن بطوطة حفلة ختم القرآن لأبناء سراة مكة، حيث يحتفلون بذلك بالمسجد الحرام فى ليالى الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان "ويحضر الختم القاضى والفقهاء والكبراء، ويكون الذى يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة، فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات، وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر، وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم..."

ثم غادر ابن بطوطة مكة بعد أن أدى فريضة الحج، فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٦هـ، وكان بصحبة أمير ركب العراق. ولم يواصل رحلته مع الركب إلى بغداد، بل فصل منهم عند النجف، ثم عرج إلى واسط فالبصرة فأبلة، ومنها إلى أطراف فارس، ثم رجع إلى الكوفة ومنها إلى بغداد.

وأقام ابن بطوطة بالعراق شهرين، حتى وافى موعد رحيل الركب العراقى فالتحق به قاصدا الحج للمرة الثانية، وكان ذلك عام ٧٢٨هـ. ولما انقضى الحج أقام مجاورا بمكة فى السنة التالية حتى أدى الحج للمرة الثالثة، واستمر مجاورا بها إلى أن غادرها فى رحلة إلى اليمن.

(٤) مع محمد لبيب البتانونى فى كتاب الرحلة الحجازية

أدى السيد محمد لبيب البتانونى الحج عام ١٣٢٧هـ، أواخر سنة ١٩٠٩م، ووضع كتابه الذى سماه "الرحلة الحجازية" عام ١٩١٠م، فهو يصف رحلة الحج ومنازلها ومشاهدها وصورها منذ نصف قرن من الزمان.

جدة منذ ١٠٠ عاما

وصل البتانونى إلى جدة غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٧، وهو يصف مدينة جدة وأهلها فى ذلك الوقت بقوله:

"ويحيط بجدة سور له خمسة أضلع: فالغربى منها على البحر وطوله ٥٧٦ متراً، والشرقى ٥٠٤ أمتار، والشرقى الجنوبى ٣١٥ متراً، والجنوبى ٨٠٠ متر.

وفى كل ضلع من أضلاع هذا السور باب، والباب الشرقى يسمى باب مكة، وعلى جداره من الخارج رنك منقوش فى الحجر وإلى جانبه اسم السلطان الغورى ملك مصر، وهو الذى بنى هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الأفرنج (الذين كانوا ابتدءوا فى استعمار الشرق) من طلوعهم إلى جدة. وقد أفاد فائدة تذكر فى منع البرتغاليين من الدخول إليها سنة ٩٤٨ وأصلتهم قلعتها هذه الصغيرة ناراً حامية فروا منها إلى مراكبهم تاركين ما كان معهم من الذخائر، كما نالت أيضاً من الوهابيين حين حصارهم لجدة سنة ١٢١٨.

"وشوارع جدة لا نظام فيها، وهى تحتوى على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الجبلى الذى يأتون به من الجبال القريبة، أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر وهو خفيف جداً وفى غاية المتانة إلا أن خطره جسيم وضرره عظيم، لأنه قابل للإلتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الفسفورية التى توجد فيه بكثرة. ومساكنها كمساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهى أشبه بمساكن مصر فى عهد المماليك (وفى سوق السلاح كثير منها).

"وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التى تملأ من ماء المطر أو العيون الموجودة خارج المدينة، وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت ملحة غير صالحة للشرب. وفيها مواسير كان وضعها عثمان باشا نورى سنة ١٣٢٠ وسير الماء فيها من عين الرغامة التى تبعد عن المدينة شرقاً بنحو عشرة كيلو مترات، وهى الآن مهدمة، ويظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها إلا بمعونة الأهالى، وهم لا يساعدون على ذلك لأن لهم مصلحة فى بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة...

أخلاط فى الجنس واللغة والتقاليد

ويصف البتانونى أهل مكة، فيقول أن عدتهم ١٥٠ ألفا، منهم ٥٠ ألفا من أهل البلد والباقون من الوافدين عليها من مختلف الأقطار الإسلامية.

ويقول البتانونى: "ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطا فى خلقهم. فتراهم قد جمعوا إلى طبائعم وداعة الأناضولى، وعظمة التركى، واستكانة الجاوى، وكبرياء الفارسى، ولين المصرى، وصلابة الشركسى، وسكون الصينى، وحدة المغربى، وبساطة الهندى، ومكر اليمنى، وحركة السورى، وكسل الزنجى، ولون الحبشى...

"وقد وصل هذا الخليط إلى أزيائهم.. عمامة هندية، وقفطان مصرى، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الأشراف مفضضا أو مذهبا بشكل جميل جدا، كثيرا ما يكون مرصعاً بالأحجار الكريمة. ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحرير، وعلى رجل سراويله شئ يشبه الركامة وهو حافى القدمين!

"والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل إلى لغتهم، فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة، أو فارسية أو تركية أو غيرها.. وغالباً أهل مكة يتكلمون بالتركية، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية.

"ومن عوائد أشراف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم إلى البادية، وخصوصا إلى قبيلة عدوان التى توجد فى شرق الطائف، وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله ﷺ ، فينشأون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة، حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل، وحفظوا من أشعارهم، وأخذوا من عوائدهم وطبائعهم...

تقبل أو لا تقبل.. حجيت!

وقد شهد البتانونى بعض الحجاج من بدو عتيبة ومطير، وهو يقول أن حجهم ألصق بالبيت منه بعرفة.

"ذلك لأن هؤلاء القوم يفدون على مكة فى الخمس الأول من شهر ذى الحجة، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بأيدى بعضهم البعض، لا يوقفهم فى طوافهم زحام المطاف بغيرهم، بل يأخذون فى طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون:

"الله.. محمد.. لبيك، لبيك، حجيت، تقبل أولا تقبل حجيت، ألا تقبل!"

"وإذا كان معهم نسوة (ولا يكن فى الغالب إلا من المتقدمات فى السن) تراهن فى مؤخرتهم ماسكات بأكتافهم، ولا يظهر منهن سوى أعينهن، وفى أيديهن القفازات، حتى إذا وصل الكل إلى الحجر الأسود تعلق المتقدم بهم بكسوة الكعبة، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد، وتبعه أخوانه وأزاحوا غيرهم من المسلمين بقوة وصبر لا يعتورهما ملل، محتملين فى ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر، حتى اذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعا وقبلوه، أتت نساؤهم لتقبيله

فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها فى الحجر، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج.. وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته:

حجيت يا حاجة!

"فتصيح قائلة حجيت حجيت. ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة: "حجيت، خبر ربك أنى حجيت". ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة "تقبل أولا تقبل حجيت، ألا تقبل، غضباً تقبل!"

يقول البتانونى: هذا كله قبل وقوفهم بعرفة، ومنه نرى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف، إنما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الإسلام.

قافلة الحجاج بين الأهوال

ويصف البتانونى قافلة الحجاج فى حلها وترحالها بين مكة والمدينة وصفا دقيقا مثيرا، فيقول:

"ووقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم. وقد يتفق جمالك مع جمال آخر فيحضر فى هذا الوقت الذى يلهيك فيه بصريخه وصياحه، فى حين ما الآخر ينقض على عفشك ويسرق منه ما تصل إليه يده، حتى إذا هدأ روعك شعرت بما نقص من متاعك. وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا: خرجى. ويقول الآخر: ملابسى.. وغيره يصيح: لحافى، وهكذا.. وبعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم إلى الله، ويشتغلون بتجهيز شئونهم.

"وليست الجلبة قاصرة على هؤلاء، بل نرى الصراخ من أنحاء القافلة بتمامها. فهذا يصيح: يا حاج فلان.. وذلك ينادى: يا حاجة فلانة.. وآخر يقول: اندر[1].. وغيره يوهم بأنه يشاهد الحرامى فيقول: شايفك.. وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم، فيدق هذا بمطرقته، ويتصارخ الآخر مع جاره الذى زحزحه عن مكانه. وهو فى أثناء ذلك يزعق مع الذى من ورائه لأنه يزاحمه على محله. وتسمع فيما بين ذلك أصوات الأعراب، هذا يقول: الحطب، الحطب. وآخر يقول: الماء، الماء، وهكذا.. وما هم إلا سارقون ما تصل إليه أيديهم، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد.

"وبالجملة فتستمر هذه الجلبة صاعدة فى هذا الفضاء إلى عنان السماء نحو ساعة من الزمان، أعنى ريثما ينزل الحجاج حمولهم، وينصبون خيامهم، ويمهدون فراشهم بين رحالهم، ويحيطونهم بشقادفهم التى تلتف بها جمالهم وجمالتهم. وهنالك يبدأ هذا فى جلب الماء بنفسه أو بواسطة جماله، وآخر يستقضى الخشب، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الأغذية الجافة كالعدس والأرز واللحم المجهز، وذلك فى المحطات الصغيرة التى لا تطول الإقامة فيها. أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطرى الذى يذبحه بعض أعرابها. وبعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد أن يعطوا الجمالة عشاءهم.

---

[1] أندر: من كلمات أهل مكة، بمعنى : اخرج.

والرفقاء من الحجاج يتناوبون السهر فى حراسة عفشهم ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الإضطراب والانزعاج كقولهم: شايفك.. ابعد، لا تقرب.. وهكذا. والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب، ومن ابتعد عنها لابد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه.. وإلا فإنه لا يحرم واحدا من الأعراب ينقض عليه ويضرب فى رأسه بعصا يابسة قصيرة تخمد معها أنفاسه! وهنالك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كمره من حزامه أو من ذراعه. فإذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقدا للحياة فيوارونه التراب على حاله، وإما فاقدا للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه، وقليلا ما ينجو من هذه الضربة..

"وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة فى أثناء سيرها، ويتظاهرون بإصلاح حمولها، حتى إذا ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يغاثون، وسلبوهم متاعهم، وكثيرا ما يجهزون عليهم، ويفرون بجمالهم إلى حيث أرادوا..

من عادات أهل المدينة المنورة

ويصف البتانونى أهل المدينة المنورة فيقول: "أن عددهم يبلغ ستين ألفا، منهم كثير من المجاورين الأجانب، وأكثرهم من الهنود والأتراك والشوام والمغاربة والمصرية.

عائلة أسعد وهم أشراف، وعائلة برى وهم مغاربة، وعائلة السمهودى وهم مصريون.

"ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يقدم كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة، مقدارا من الحنطة على سبيل الهدية إلى الحجرة الشريفة، وبعد أن يغسلها وينظفها جيدا يضعها فى كيس جديد من القماش اللطيف الأبيض، حتى إذا وصل إلى الباب الذى فى المقابلة الشريفة، استغاث برسول الله ﷺ ، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة. وهذه الأكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة، ويهدون منها إلى عظماء المسلمين على سبيل البركة.

وتحدث البتانونى عن عودة الحجاج من المدينة المنورة إلى بلادهم، فقال أن عودتهم تكون عن أحد طرق أربعة: طريق نجد لا يسلكه إلا عرب تلك الجهات غالبا. وطريق الوجه وهى قرية على الساحل ومنها يسافر الحجاج إلى السويس برا أو بحرا. وطريق ينبع وهو الطريق الأكثر استعمالا، ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى والسودانى واليمنى والجاوى والهندى وغيرهم. وبين المدينة وينبع على الساحل ٢٣٠ كيلو مترا. ومن ينبع يصل حجاج مصر إلى الطور. أما الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدة إلى الشام. وقد افتتح هذا الخط الحديدى فى ٣ من شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨.

(٥) مع الدكتور محمد حسين هيكل فى كتاب فى منزل الوحى

كان أداء الدكتور محمد حسين هيكل فريضة الحج عام ١٩٣٦م، امتدادا للمرحلة الفكرية والروحية التى عاشها منذ ألف كتابه عن "حياة محمد". وقد اتهم الدكتور هيكل من البعض يومئذ بأنه انقلب بكتابة السيرة "رجعيا" وكان عندهم من قبل فى طليعة "المجددين".. تهمة لم تزعج الدكتور هيكل أو تنكص به عن الطريق الذى اهتدى إليه عن إيمان وإدراك لأحدث ما انتهى إليه العلم من مبادئ وحقائق تتصل بالكون والحياة، لأنه عرف مكانه وعرف مكان الذين يعيبون عليه هذا الاتجاه وهم أنفسهم فى "رجعية" علمية من حيث يعلمون أو لا يعلمون..

وقد انتهى الدكتور هيكل إلى هذا الاتجاه، بعد أن مر بعدة مراحل تحرر فيها من قيود الفكر وميراث التقاليد، بحثا عن الحقائق المجردة، والتماسا للوصول إليها عن طريق الإيمان التجريبى وليس عن طريق الإيمان الساذج الموروث، تلك المراحل التى استحق من أجلها أن يوضع عند أولئك النفر موضع القيادة والريادة فى ميدان التجديد وحرية الفكر، لأنها مراحل كانت تتسم أحيانا بالتشكك والشطط.. وهو ما يطرب له أولئك النفر ويحرصون على أن يشيع بين شباب الأمة، فكيف إذا صدر عن قادة الفكر وأعلامه!

فلما انتهى الدكتور هيكل إلى هذا الاتجاه الجديد، أصاب أولئك النفر ما يشبه خيبة الأمل، وثارت فى نفوسهم حفيظة التعصب وخبيثة المؤامرة الهدامة التى تختفى وراء بعض الشعارات الزائفة باسم العلم وحرية الفكر والتجديد، وهى إنما تهدف طبقا لخطة مرسومة عميقة الجذور بعيدة المدى، إلى إذابة مقومات الأمة، وتوهين الأواصر التى تربطها بدينها وبتاريخها وبخصائصها الاجتماعية.

وقد مر فى تلك المراحل رواد آخرون غير الدكتور هيكل، وكانوا فى هذه المراحل موضع الاشادة والتهليل والتكبير عند أولئك النفر من أدعياء العلم والتجديد وحرية الفكر، مر بها الدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد.. ثم انتهى أولئك الرواد إلى الاتجاه الذى لا اتجاه غيره لمن كان صادق النية فى التماس الحقيقة والحفاظ على أمانة العلم وكرامة الفكر، مهما طال السرى فى ظلام الشكوك، ومهما تنازعت العقل الظنون، ومهما تشعبت بالفكر السبل والمتاهات.

انتهى أولئك الرواد إلى هذا الاتجاه الذى انتهى إليه الدكتور هيكل، وحملوا المشاعل المضيئة فى طريق الريادة الأمينة. وكان طبيعياً أن ينالهم فحيح أولئك النفر بتهمة "الرجعية"، تلك التهمة التى فقدت مدلولها الخبيث، ولم تعد تفزع الأحرار المؤمنين بأنفسهم وبدينهم وبتاريخهم وبأمتهم، وبكرامة الفكر وأمانة العلم وشرف الاتجاه..

حديث كأنه الالهام!

بدا تفكير الدكتور هيكل أذن فى أداء فريضة الحج، منذ وضع كتابه "حياة محمد" ليتصل اتصالا مباشرا بمهد الرسالة ومنزل الوحى. وكانت تتنازعه عوامل شتى تنشط به للمبادرة أو تقعد به فى استثناء، حتى كانت ذات ليلة..

قال الدكتور هيكل: وأننى ذات ليلة لشغل بالأمر أقلبه على وجوهه واستخير الله فيه، إذ سمعت حديثا كأنه الالهام قضى على ترددى قضاء مبرما، فقد عدت إلى دارى بعد انقضاء عملى الصحفى فى منتصف الليل، وجلست إلى جانب أداة "الراديو" وجعلت أدير شارته على محطات مختلفة حتى كانت عند "بودابست" عاصمة المجر. وبودابست تعزف فى مثل هذه الساعة من الليل ألحانا موسيقية تطرب لها النفس. فما كان أشد عجبى حين سمعت الإذاعة فيها غير موسيقية، وحين سمعتها محاضرة باللغة الإنجليزية. وكانت أول عبارة تنفست عنها الإذاعة قول المحاضر:

"وسط هذه الجموع الحاشدة حول الكعبة.. جعلت أسمع: الله أكبر، الله أكبر. فلما انتهيت من الطواف ذهبت أسعى بين ربوتى الصفا والمروة..

وانطلق المحاضر يتكلم عن الحج وشعائره ومناسكه، وما كان له فى نفسه من أثر عميق. ولم يخامرنى ريب من أول وهلة فى أن المحاضر هو صاحبى الأستاذ المجرى "جول جرمانوس" الذى أسلم وتسمى باسم عبد الكريم، والذى جاء إلى مصر منذ عام فزارنى غير مرة، ثم ذهب من مصر إلى الحجاز فقضى بها أشهر الحج، وعاد فلقينى وقص علىّ شيئاً مما مر به أثناء رحلته.

فلما أتم إذاعته من بودابست أقفلت أداة "الراديو" وقد علانى الوجوم، وقلت فى نفسى: أو يكون هذا الأستاذ الأوربى الحديث العهد بالإسلام أصدق عزما منى فى زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة؟! وشعرت بما فى ترددى من تجديف يجب أن يتنزه عنه إيمانى بالله وثقتى بنفسى. إذ ذاك نضوت عنى كل ما علق من قبل بإرادتى، ولم أرتب لحظة فى أن الله قد عزم لى بهذا الحديث من "بودا بست" بعد أن استخرته مخلصا واستعنته صادقا."

فى الباخرة كوثر

وأقلعت الباخرة كوثر من ميناء السويس يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٦ "وانتقل المسافرون إلى ناحية الشاطئ يحيون مودعيهم التحية الأخيرة قبل السفر.

"فلما نودى للصلاة ذهبت مع القوم إلى حيث يؤمهم فقيه منهم.. وعجبت حين رأيتهم يتخطون بهو الدرجة الأولى، فليس وراء هذا البهو فى كوثر إلا "البار"! ولم يدر بخلدى يوما ما أن يكون بارا من البارات مسجدا. لكن عجبى لم يمنعنى من مشاركة القوم حين رأيتهم اتخذوا من بار كوثر مصلى. وما لهم ألا يتخذوه وقد طهر أثناء رحلة الحج من أمهات الكبائر وأمهات الصغائر وفرش بالحصير الطاهر! وكان هذا المصلى أبلغ آية على أن العمل الصالح يخلع قدسيته على كل مكان يحل فيه".

تجديد بيعة العقبة...

وللدكتور هيكل رأى فى حكمة رمى الجمرات أيام التشريق بعد الوقوف بعرفة فهو يقول:

"وتداولنا الحديث فى الأمر، وانتهينا إلى رأى لعله أكثر اتفاقا مع ما جاء فى القرآن من حكمة الحج، فأول اجتماع للمسلمين فى الحج بعرفات. وهم يومئذ يجتمعون محرمين ملبين مستغفرين ربهم، مستمعين إلى خطاب أمير المؤمنين أو من ينوب عنه. وفى ذلك كله ما يشغلهم عن التعارف والتشاور وشهود المنفعة المشتركة التى تربطهم بعضهم ببعض. لذلك وجب عليهم حتى أفاضوا من عرفات ونزلوا منى، أن يجتمعوا وأن يتعارفوا وأن يشهدوا منافع لهم. واجتماع ألوفهم المؤلفة ساعات معدودة لا يحقق هذا الغرض. لذلك فرضت أيام النحر الثلاثة ليحسنوا التعارف والتشاور وشهود المنافع. ولإتمام ذلك بما يتفق وروح الإسلام وجلال موقف الحج سنت له مناسك يؤدونها إلى الله لتظل نفوسهم نقية وأرواحهم طاهرة. وأى منسك خير من أن يشهدوا العقبة التى شهدها الرسول ﷺ وأن يلقوا بسواعدهم جمرات يعلنون بإلقائها أنهم على عهده فى بيعة العقبة، ينفع بعضهم بعضا ويذود بعضهم عن عقيدة بعض، ويكفل الكل بذلك حرية العقيدة الإسلامية وحرية الدعوة إليها، ويشهدون على أنفسهم إذ يلقونها أنهم على استعداد لالقاء مثلها فى وجه عدوهم، إذا حاول فتنتهم عن دينهم، أو حاول اخضاعهم وقهرهم".

صور اجتماعية وسياسية

ويتحدث الدكتور هيكل عن بعض مظاهر الحياة فى مكة. وأبرز ما يطالع الحاج فيها هو كثر المتسولين والذين يعيشون على الصدقات، ويربط بين ذلك وبين بعض العوامل السياسية فيقول:

"ولو أن الألوف التى تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة فى مكة. ولو أن ما يخرجه المسلمون من مالهم صدقات للمتسولين جمع وأنفق فى أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء، لكان أعود عليهم وعلى مكة بالفائدة، ثم لتغيرت هذه العقلية المريضة، عقلية التواكل والكسل المزرى العجيب، ولتغير تبعا لذلك تفكير الناس تغيرا يدفع مكة إلى ناحية الحياة الحديثة. ولست أجهل ما فى ذلك التغير من عسر وأهل مكة لا تجمع بينهم رابطة الجنس. ولهذه الرابطة أثرها القوى فى تكوين الحياة القومية. ولقد كنت أتحدث يوما إلى مكى صميم فى حرب الأشراف والنجديين، وكنا نفرض الأسباب التى أدت إلى دخول "الأخوان" مكة من الطائف موفورين. ومما اتفقنا عليه من هذه الأسباب تكوين أهل مكة من خليط من أجناس المسلمين المختلفة المنتشرة فى أنحاء الأرض جميعاً. فماذا يعنى المغربى أو الجاوى أو الأفغانى أو الهندى أن يكون حاكمه عربيا قرشيا أو بدويا نجديا، مادام هذا وذاك مسلما، ومادام كل منهما يدع له من أسباب الرزق بلا سمى ولا عمل ما اعتاده منذ قرون خلت! أما وذلك شأنه فليس يعنيه أن يشترك فى نزاع على حكم مكة أو حكم الحجاز، وليس يصيبه من تغيير الحاكم خير ولا أذى. ولو أن أهل مكة كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغير وجه تفكيرهم فى الدفاع عن مدينتهم، ولرأوا هذا الدفاع واجبا على كل فرد من أبناء الوطن أن يعمل لخير الوطن، وألا يعيش عالة عليه ما دام قادرا على العمل...

"ولقد أدركت الحكومات العثمانية هذا السر فى الماضى فلم تعمل لتغيير عقلية التواكل فى مكة وفى الحجاز كله، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها، باجراء الأرزاق على هؤلاء الأغراب الذين نزحوا إلى مكة واستوطنوها، وتشجيع ذوى التواكل على حبس الأوقاف لاجرائها عليهم. بذلك توطد روح التواكل والقعود بالبلد الحرام، وانتشر منه إلى ما حوله من بلاد الحجاز".

أمام الحجرة النبوية

وقصد الدكتور هيكل إلى المدينة المنورة، وزار المسجد النبوى ووقف أمام الحجرة الشريفة، مأخوذ الذهن عن التفكير متوجها بكل انتباهه إلى كل ما يجب أن يقوم به من شعائر الزيارة...

ثم قال: "وعجبت حين غادرت موقفى من الحجرة وأتممت صلاتى بالروضة. لقد امتلأت روحى اكبارا وتقديسا واجلالا، ولقد شعرت بما لم أشعر قط من قبل به، لكنى لم أبك ولم تفض عبراتى، وكنت قد سألت قبيل سفرى من مصر إلى الحجاز بعض من سبقونى إلى الحج والزيارة عن موقفهم أمام قبر الرسول ﷺ ، فحدثنى بعضهم عن اهتزاز أنفسهم وانهمار الدمع من أعينهم، ولم يأبوا أن يذكروا أنهم كانوا أشد تأثرا حين وقوفهم أمام الحجرة، منهم حين وقوفهم أمام الكعبة وحين طوافهم بها. وهؤلاء الذين حدثونى هم من خير من أعرف ثقافة، وأكثرهم بعدا عن الغلو فى الدين أو التزمت فيه. ما لى إذن لم تنهمل عبراتى كما انهملت عبراتهم، ولم يزد تأثرى أمام قبر الرسول عن تأثرى أما بيت الله، وما أحسبنى دون أحد منهم إيماناً بالله وتصديقاً لرسوله ﷺ وحبا اياه! أتراهم أرهف منى حسا وأدق شعورا، أم أنا نختلف رأيا وتفكيرا؟

"ولم أطل تقليب النظر فى هذه الأمور بادئ الرأى، وكفانى أن ذكرت أنى توجهت إلى الله بالحج مخلصا، فلى فى مغفرته ذنوبى أعظم الرجاء، وأننى جئت ألتمس بزيارة نبيه الكريم الذكر والأسوة مزيداً فى الرجاء أن يهدينى الله سبيله الذى دعا إليه محمد عبده ورسوله ﷺ. هذا إلى أننى خلقت عصى الدمع لا تسعفنى العبرات ما تسعف غيرى، فإن أوشكت ضننت بها ضنا بكرامتى وأبائى. وما أدرى لعلى كذلك خشيت أن يكون فى البكاء مظهر عبادة، وقد قال عليه السلام: "اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد" وإنما تفيض دموع المؤمن من خشية الله".

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام ﷺ — تأليف/ عبد القدوس الأنصارى

٣- مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول — تأليف/ أحمد إبراهيم الشريف

٤- تاريخ مكة — تأليف أحمد السباعى

٥- الكعبة على مر العصور — تأليف/ د. على حسنى الخربوطلى

٦- أخبار مكة — تأليف/ أبى الوليد محمد الأزرقى

٧- رحلة البتانونى — تأليف/ البتانونى

٨- مقام إبراهيم — تأليف/ محمد طاهر الكردى المكى

٩- سيرة النبى ﷺ — تأليف/ محمد بن اسحق

١٠- معجم معالم الحجاز — تأليف/ عاتق بن غيث البلادى

١١- فضل ماء زمزم — تأليف/ سائد بكداش

١٢- فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم — تأليف/ سائد بكداش

١٣- فى منزل الوحى — تأليف/ د. محمد حسين هيكل

١٤- تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام — تأليف/ محمد بن أحمد سالم المالكى المكى

١٥- الكعبة المشرفة دراسة أثرية — تأليف/ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول

١٦- مكة المكرمة — تأليف/ محمد بن على الطبرى

١٧- مكة قبل الإسلام — تأليف/ أحمد أبو الفضل عوض الله

١٨- المسجد الحرام فى قلب الملك عبد العزيز — تأليف/ الشريف عبد الله منسى العبدلى

١٩- تاريخ الطبرى — تأليف/ ابن جرير الطبرى

٢٠- العقد الفريد — تأليف/ ابن عبد ربه

٢١- موسوعة الفكر الإنسانى — تأليف/ أحمد الشنوانى

٢٢- مجلة المنهل — تأليف/ عبد القدوس الأنصارى

ملحق الصور





م










بمكة المكرمة

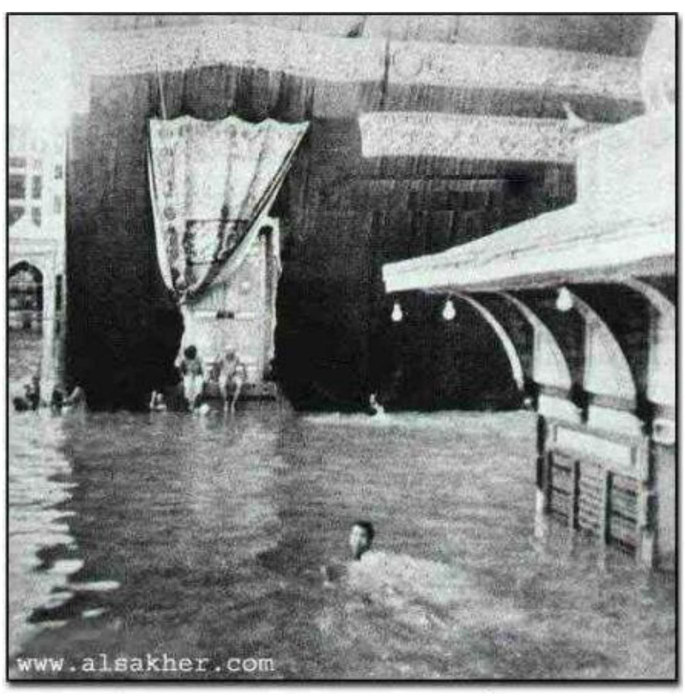


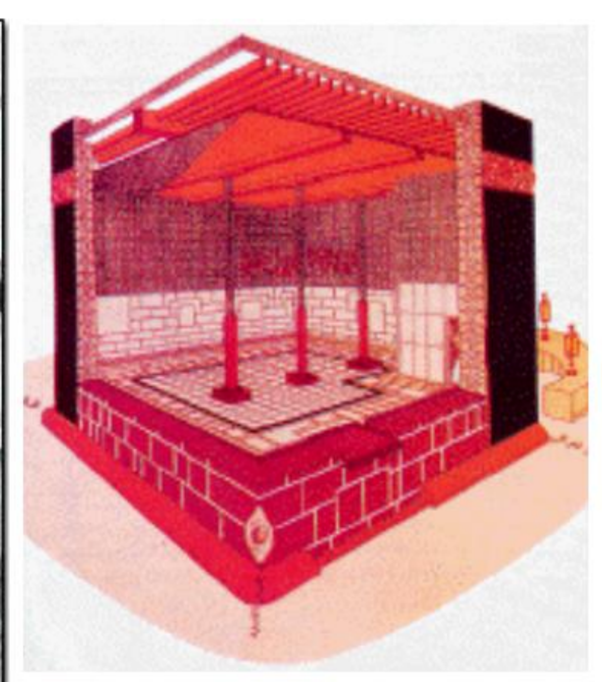






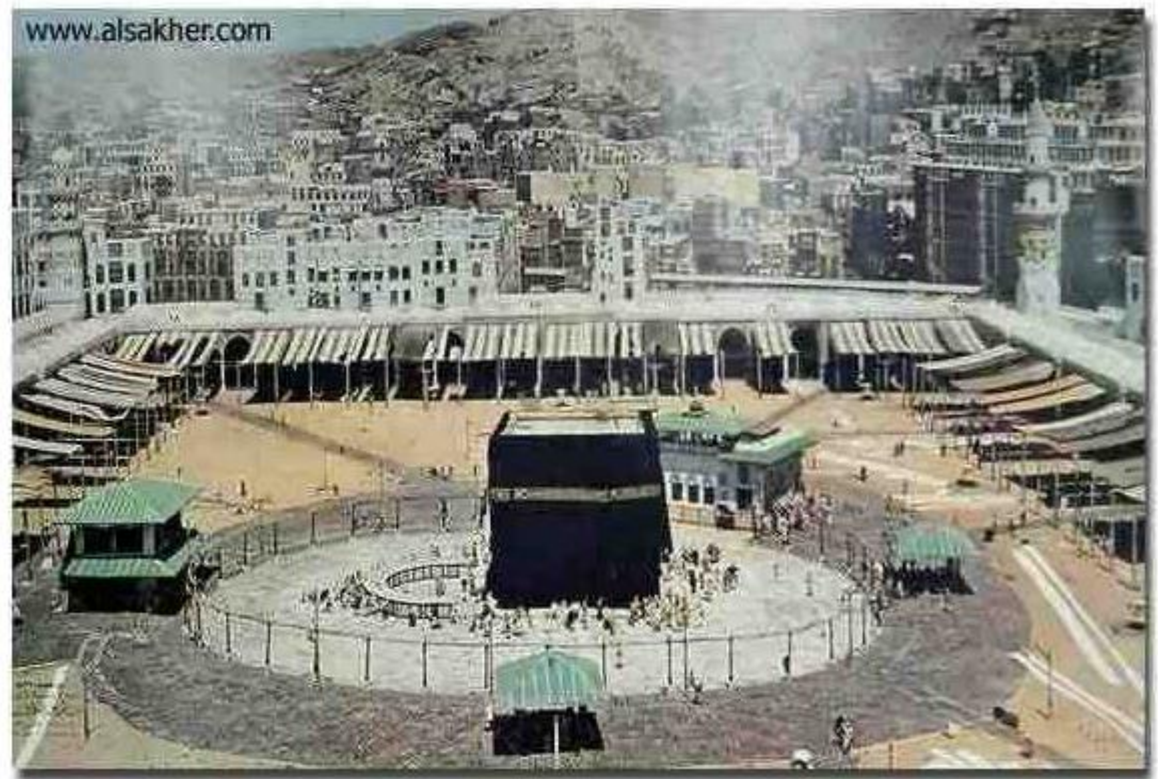



www.alsakher.com





صورة أخذت للكعبة المشرفة عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) أي قبل ١٢٠ سنة



صورة للكعبة المشرفة وقد أخذت سنة ١٣٧١هـــ أي قبل ٥٠ سنة تقريبا

